

أخو الصيبر

(مسيرة الجذل والعذاب)



فلاح الجواهري

الطور
للنشر والتوزيع

رواية

أخو الطير

(مسيرة الجذل والعذاب)

رواية

صفحة الناشر

أخو الطير

فلاح الجواهري

Falah Aljawahiri

As A Bird.. The Path Of Ecstasy And Agony

لوحة الغلاف: فلاح الجواهري

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى - سنة ٢٠٢٢

ISBN:

لا يسمح بإعادة طبع الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافية والنشر على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر عن رأي الدار



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد: شارع المتنبي
مداخل جديد حسن باشا
هاتف: ٠٧٧١١٠٢٧٩٠ -

٠٧٧٠٠٤٩٢٥٦٧



LUXEMBOURG- 2- c Crauthemerstrooss-
L- 3334- HELLANGE

+354671531017

فلاح الجواهري

أفوه الطير..

مسيرة الجذل والعذاب

Falah Aljawahiri

As A Bird.. The Path Of Ectazy And Agony

إلى أبي، الذي أثنى حياتي بوجوده، وبوجوده بعد رحيله

مرة أخرى.. إلى زوجتي إلهام

خواطر في مقهى سلافيا

لا تَلُمَّ أَمْسَكَ فِيمَا صَنَعَا

أَمْسٍ قَدْ فَاتَ وَلَنْ يُسْتَرْجَعَا

أَمْسٍ قَدْ مَاتَ وَلَنْ يُرْجَعُهُ

حَمَلَكَ الْهَمَّ لَهُ.. وَالْهَلْعَا

جلس الأستاذ المهدي في مكانه الأثير في المقهى المطل على النهر الواسع الذي تلامعت صفحات مجراه الوسطية بمرايا متكسرة، في حين كانت ظلال أشجار الغابة المنحدرة إلى ضفافه تُلقِي صوراً زرقاء بنفسجية عاتمة على الجرف، تخفت ثم تتلاشى بعد مسافة غير كبيرة من عرض النهر الصامت عند الظهيرة.. إنعكاسات المرايا المتلامعة وحزم الضوء المخترقة للنافذة العريضة، جعلت الأستاذ الكهل الأنيق ينهض، وبصره لا يحيد عن منظر النهر، منعكساته وصور ضفافه المتبدلة.. خلع سترته الرمادية العاتمة، تلك التي عاف أمثالها المتأنقون الأوربيون من جيله من زمن بعيد..

..علقها على ظهر كرسيه .. أرخى عقدة رباط عنقه.. وضع كفيه على جانبي خصره واستدار صوب الجهة الأخرى من المجرى النهري، متنبهاً ببصره الأبنية القوطية المترابكة بأبراجها الذهبية والمتسابقة في تعاليها على بعضها فوق التلة المرتقية الى السحب البيضاء، المتناثرة في سماء ال(الهجاني) الزرقاء الشافة.. أطلق آهة ارتياح مسموعة، جعلت بعض رؤوس الجالسين في المقهى الواسع قربه ترتفع، وتظهر البسمات على وجوها.

استمر وقوفه على هذا الوضع فترة قصيرة، جلس بعدها مسترخياً على مقعده خلف المائدة الصغيرة وبصره لا يزال عالقاً بالنهر المتلامع.

.. تناول قذح الجعة، إرتشف منه جرعة على مهل دون أن يحيد ببصره عن مواقع تطلّعه على مهل وأناة، وكأنه يخشى أن تفسد أية حركة أو صوت قدسية المشهد الذي يتابعه.

.. ما أن مدّ كفه ليرفع طاقيئة المخططة عن رأسه ليضعها جانباً على حافة النافذة قربه، حتى أخذ مشهد النهر المتلامع، بتلال أبنيته القوطية وسنديانات ضفافه ودوحات البلوط والصنوبريات الإبرية الكثيفة الشامخة، يتحول إلى مشهد آخر مغاير.. مشهد مرّ عبر خواطره..

كان ذيل عباءة الشيخ-الشاب الجزّ، يثير غباراً خفيفاً في الدرب الترابي الملتوي الواصل بين مقام النبي يونس في ظاهر الكوفة، بهيبة قبته الخضراء وبناءه الحجري وسط البيوت الطينية، والمطلّ على الفرات، وبين بستان(أم الذهب)، وجهة الشاب المعمم، السارح في مشيته في ظلال النخيل الفارع على جانبي الدرب في صمت ظهيرة قائضة..

.. لم يُعر الشيخ المهدي اهتماماً لا لطول الطريق الذي يقطعه ولا لحرّ تلك الساعة من الصيف، ولا حتى إلى تعب الرحلة الطويلة، نصف ساعة في لاهب (الگاري) الذي تجرّه أحصنة عطشى هزيلة بين النجف والكوفة، ولا تلك المسافة الطويلة التي قطعها في الدرب الترابي الملتوي، ولا حتى إلى ثقل ملابسه التي تفرضها هيبة الشيخ بين الناس..

..جبة طويلة سوداء ثخينة، تحتها صدر نصف بالٍ عاتم، فوق قميص حائل اللون، تعلق هذه الألبسة الثقيلة، عمّة صغيرة بيضاء فوق هامة رأسه.

.. أزاحها قليلاً عن جبهته حين اختلى بنفسه عن الآخرين في درب بساتين النخيل الترابي..

.. كان له هدف، جعل كل ذلك شيئاً لا مضايقة فيه، أمام ذلك الموقع الذي خطط لبلوغه لأيام طويلة خلّت..

.. بقعته الظليلة الحبيبة في أم الذهب.

..خلوته مع نفسه ومع الطبيعة حوله.

.. من بين جذوع النخيل تراءى أخيراً البيت الطيني لبستان أبي عامر..

_ يا خلف!.. يا خلف!.. صاح الشيخ -الشاب بأعلى صوته عند باب البيت في فضاء البستان، حين وجد الباب مشرعاً ولا نامة صوت في عتمة البيت الخالي.

_ هَسَّه نازلِك!.. جايِك بسرعه شيخ المهدي!.. أجاب كهل، معلّق بأحزمة وراء ظهره من قمة نخلة غير بعيدة..

.. (خلف) هو فلاح البستان وحارس بيت أبي عامر للنزهة والضيافة.

_ هَلا.. مِيَّة هَله بشيخ المهدي..جان حَشِيْتُ وكعدت بالديوانية ليش واكف بَرَه بهاالقيض..البيت بيتك..تفضل! تفضل هَله بيك!!

لا خويّ خلف .. كعدّتي مُو هنا .. أنت تعرف مكاني وين .. بسْ فذ
(تُنكّه) ميّ بارد وفذْ حُبّانه !.. صُدكْ لا اروحْ أنسه !.. هايّ علبه حلاوة
الهندي اللّي تحبه .. من باب الطُوسي بَصحنُ الإمام !

.. وصل الشيخ إلى هدفه!

..وقف على ضفة الفرات.

..على بضعة جذوع انخلات (نَشَوَاتُ)، امتدت بينها عريشة عنب غضة، ظللت والسعف الذي تعلقت به وبجذوعه، مساحة غير قليلة من الأرض الطينية-الرملية من الجرف.

.. مدّ خلف حصيرة صغيرة تحت البقعة الظليلة ووضع إلى جانبها دورق ماء، قدحاً، وعاءً من اللبن الرائب، وصحناً مليئاً بالتمر.

استند الشيخ الشاب على جذع نخلة باسقة مشدوهاً ومأخوذاً بالشط الغريني العريض، المسور بغابات النخيل في ضفتيه، متأملاً صفحة الفرات التي تتلامع فوقها مرايا شمس الظهيرة المتكسرة وانعكاسات ظلال السعف المتموجة على حافته، راسمةً صوراً متغيرة العتمة واللون والشكل..

.. أدار رأسه على مهل على الجانبين، ماسحاً ببصره طويلاً اللوحة البانورامية واضعاً راحتيه على طرفي خصره على مهل وأناة، وكأنه يخشى أن يتلف المشهد المقدس أمامه بحركة او نائمة صوت..

ظلّ على هذا الوضع المتعبد فترة غير قصيرة قبل ان يطلق آهة ارتياح وتساؤل عميقة، إنزلق بعدها بكل جسمه، بعباءته وقفطانه، على حاشية الجرف النهري، مسنداً ظهره إلى جذع النخلة التي كان يقف متكئاً عليها..

..رفع عمامته بكفيه ووضعها على الطرف الآخر من الجذع..

.. مسح جبينه وهامة رأسه من عرق الظهيرة ووغرة العمة..أخرج من جيب قفطانه قبل أن يخلعه عنه، (رُبعية) العرق ..طوى قفطانه

ووضعه إلى جانب العِمّة.... دَلِقَ بعضاً من العرق وفوقه ماءً من
الدورق..

.. نظر إلى المزيج الضبابي داخل القدر وانبسبت أسارير وجهه عن
ابتسامة مشرقة..

.. مدّ قدميه صوب ماء الجرف القريب..

.. أغمض عينيه وأطلق آهة ارتياح..

.. لحظات وأعاد مسح المنظر الساحر الهاديء امامه.. ندّت عن شفثيه
همسات..

.. تزايد همسه ليصبح صوتاً رقيقاً، فحداءً غنائياً:

يا فراتي.. يافراتي!!

يا فراتي وهل يضاھيك شطُّ

في جمال الضُحا وبرد العشيِّ

يستمر بالترنّم بأبيات صديقه الشاعر (حمد)، مستعيداً وعاكساً صورة
صاحبه على مرآة الماء المتلامع امامه.

إِي وَعَيْشٍ مَضَى عَلَيْكَ بِهِيَّ

وَشُعَاعٍ مِنْ شَطِّكَ الذَّهَبِيِّ
وَالْتَفَافِ النَّخِيلِ حَوْلَكَ حَتَّى

لَوْ تَقْصَيْتَ لَمْ تَجِدْ غَيْرَ فِيَّ

وَسَنَا الشَّمْسِ حِينَ مَجَّبَتْ أَعَاباً

أَرْسَلْتَهُ مِنْ نُورِهَا الْكِسْرِيِّ

فَتَخَالَ الضِّيَاءَ - وَالْمَاءَ مَوْجُ

فِي رَوَاحٍ مِنْ جَانِبٍ وَمَجِيَّ

يَا فُرَاتِي وَهَلْ يُضَاهِيكَ شَطُّ

فِي جَمَالِ الضُّحَى وَبَرْدِ الْعَشِيِّ

عالم المطامع

أحاولُ خرقاً في الحياةِ فما أجرا
وأسفُ أن أمضي ولم أبق لي ذكرى
ويؤلمني فُرطُ افتكاري بأنني
سأذهبُ لا نفعاً جلبتُ ولا ضرراً

_ هذا هوة! قررتُ وحسنتُ أمرُك على السفرِ لبغداد؟!..لازمُ تتبغ
صاحبكُ حمدٌ مثلُ ظلِّه.. عجيبُ أمرُكم! واحدُ ظلٌ للثاني..مرّةٌ إنْتَ
ظلِّه.. مرّةٌ هوَ ظلُّكُ

الظلُّ اللّبي يتبدّلُ ويّه دُورة الشمس..شينو إنتو؟! حَبّه ومقسومَه
نُصّين؟!..شكايّةٌ تُوم؟!..صحيحُ (أمُ عزيز) صديقتي الروحُ بالروحُ،
بس أني وحكّ الله والأنبياء والأولياء ما بُكُتُ مِنْهُ شِكايّةٌ تُومُ حمدٌ.. ما
أخذتُكُ مِنْهُ بعد ولادتها.

_ كلامكُ مؤ غريبٌ عليّه يا أمي..حتى أني ساعاتُ أَكولُ أني حمدٌ لو
المهدي؟!..حمدٌ هوَ المهدي؟!..لو المهدي هوَ حمدٌ؟!..حَتّه هُوَ نَفْسُ
السؤالُ يَكولُه لِنَفْسِه.. صارحني بيّه كم مره.

_ خَلّي عَلّه صَدركُ كَلاده وإكتبُ عليّه (المهدي) ويُعلِّكُ صاحبكُ مثله
ويُكتبُ عليّه (حمدٌ)..

_ ما حَلَيْتِيَةَ يا امي!!.. واذا دَخَلْتُهُ الحَمَامَ وَبَدَل الحَمَامِجِي وَحَدَه بِمَكَانُ
الثانِيَةَ بَيْنَ هُدُومْنَه، راحَ تَضِيغَ عَلَيْهِ العُمُرُ كُلَّهُ.. نُتْبِيَهُ مِنْهُ
المهدي ومنو حمد.

ساعدت أم المهدي إبنها في توضيب بعض ملابسه واحتياجاته الأخرى
في صندوق أمتعة خشبي..لم تنسَ أن تضع فوقها مصحفاً من مصاحف
المرحوم والده.

حين خرج المهدي من تحت المصحف المرفوع بيد والدته، تَمَتَّتْ
المرأة الكهلة المكلفة بالأردية والعباءة السود، بعضاً من الأدعية وهي
تغصّ بعبرتها.

كان المهدي قد حصل على وظيفة معلم في مدرسة ريفية في الرستمية
في ضواحي بغداد غير بعيد عن صاحبه (شقه التوأم - ظله) حمد،
الذي كان يعمل في إحدى الصحف البغدادية.

عاش المهدي وحمد في المدينة العجيبة حيث تمشي النساء فيها سافرات
دون زوج أو محرّم..حيث يُشرب العرق وغيره من نبيذ الاعناب
وخلاصة أشكال ثمار الله من جنانه، علانية في أماكن خلوة جميلة، أو
بين أنغام العازفين ورقص الغواني شبه العاريات.. حيث تسير
المركبات الحديدية العجيبة على أربع عجلات، دون حمير الله وبغاله
وخيله.. لم يستطيعا مرة كتّم ضحكتهما في مجلس ديني والشيخ يلقي
موعظته من على المنبر أثناء زيارة قصيرة لمدينتهم: " أيّ أولادُ
حرام!.. أيّ أولادَ زنا!.. أيّ أولاد كافرين! يتركون حمير الله ويركبون
الطُرْمَيْلَ وَالشَّمَنْدَقْرَ..."

عاشا بكل ما وسعت الدنيا من مباحج ومقالب وصدام ومطامح..تبادلا
المواقع المهدي المعلم خاض عالم الصحافة، حمد ترك الصحافة
للتعليم.. غامرا في مواقع متناقضة، جربا ميدان السياسة المزدهر عند
جيل الشباب الجديد الطامح لكل أحلام أفكار التنوير في الغرب،
والشرق البعيد المنقلب الثائر.. خَلَطَا الجد بالهزل، والطموح بالعبث..

عالم السياسة.. مستنقع له محترفيه وحُواته، مغامريه وصَرَعاة أيضا..
لهم لبوسهم الخاص، وعددهم وتمويلهم لعبوره أو الخوض فيه..
إحتراف خلو من المشاعر العميقة، امام حسابات الوصول المدروسة
خطوة خطوة، ووراءها مبدأ المباديء عند الجميع بلا استثناء " الغاية
تبرر الوسيلة " .. لا مكان فيه لصدق العواطف وبراعة السريرة.. لم
ينجحا في التجربة! لا مكان فيه للمهدي والحمد!..

.. لا مكان لهما مع كل لمعة ذكائهما الفريدة.

..من هنا جاءت أولى غَصَّات الألم المرير.

ساحة (الميدان) الضاحجة بعربات الباعة، و(الربلات) بأحصنتها السقيمة المنكسة الرؤوس بيأس يثير الشفقة ..بضعة دكاكين عطارة.. لغط وضوضاء وصراخ الباعة، ورشاش بول أحصنة الربلات الواقفة، وزحمة أنماط الخلق في الساحة، من جنود وعُربان بعقالاتهم الثخينة، ونساء بعباءات سود زاحفة، تجر جر ورائها أطفالا بتياب مهلهلة وعيون دامعة وصراخ احتجاج..كلاب سائبة تتقاذف فوق بعضها متلاعببة، على حين يفترش البعض الآخر الأرض قرب عربة بائع الكبة، بقدره الضخم الذي يتصاعد منه بخار كثيف وروائح لزجة كلما ازاح غطاءه، ليضع كرة الكبة ويفعسها بأصابعه في الصحن المعدني الذي يقدمه للزبون بعد أن يرطبها بسوائل القدر الزيتية.

..تنهض الكلاب وترفع رؤوسها ناظرة باستعطاف إلى الزبون لعلّه يسقط بعض البقايا..يصرخ بائع الكبة بين حين وآخر:

كبة يا الله.. كبة لحم غنم بنص روبيه!!..كبة يا الله!!

يبتسم أبو محمد وهو مسترخٍ فوق كرسيه.

.. يسأل بائع الكبة وهو يوسع ابتسامته

_ ما تكولّي ابو عباس، كبة بُرُغْل وكشمش وبُصل وحشوة بكومة لحم غنم وطبخ..يعني كومة لحم غنم!.. فَهَمْنِي كُلُّ هَذَا بِنَصِّ رُوبِيهِ؟! شلون يصير أبو عباس؟!

_ إسكت صاحبي.. خالها صنطه!..مو آني دا أزيّد معاميلك!.. هُمّ ياكلون كُبتِي مِنّا، وأنتِ نِكتبِ شواهد كُبورهُم بعد جَم يوم!

دكان أبو محمد دكان مُميز، تجد على جانبيّ بابه الأثري المُشرع قطع مزخرفة بيضاء تسترعي انتباه المارة، بعباراتها المحفورة بالدهان البراق الأسود أو بماء الذهب، على قطع مرمرية بيضاء

مختلفة الأطوال والأشكال: (هو الحيّ الباقي) و(..إنّا إليه لراجعون) او (قفْ عند هذا القبر! واقرأ الفاتحة)، فتأخذك الرهبة..لابدّ ان تقف وتستعيذ بالله وتقرأ الفاتحة أو تعبر المشهد وقد صعدت إلى زورك كآبة دفيئة..

.. إنه نقّاش شواهد القبور المرمرية الأشهر في بغداد .

كان زقاق الجريدة التي يكتب فيها الحمد هو أحد فروع الساحة، والذي تؤدي إحدى نهاياته، إلى بيوتات قميئة، تقف على أبوابها المفتوحة نسوة سقيمات متبرجات، يرفع البعض منهن أذيال أردية النوم الشفافة لعرض نماذج من بضاعتهن، على حين تقف الأخرى بملل وعدم اكتراث.. زقاق الجريدة يلتقي بزوايا أشهر بقعة للزائرين في بغداد.. مَبْغَاها العام (الكَلْبِيَّة).

يعبر الحمد بخطاه الواسعة كل فجر الساحة ويتبادل التحية مع أبي محمد النقّاش ومع أبي عباس بائع الكَبَّة ومن ثم عطار مدخل الزقاق.

.. يتجاوز القمامات المكدّسة بين زواياه، ولا يصل إلى أنفه عطن روائح البول المعنّقة على جدران البيوت شبه المتداعية، فهو منشغل عنها في عالم أفكاره، عن مقال أمس الذي أثار زوبعة بين قراءه، وحفيظة آخرين في مراتب الحكم.. مقالته الإفتتاحية والقصيدة التي ينوي أن يكملها في زاويته من الجريدة ليلحق على نشرها قبل المساء، موعد نزول الصحيفة إلى أيدي باعها الصارخين في الشوارع بين العربات والثرْمِيلات.. " ..قصيدة المهدي الجديدة!! .. القصيدة.. جريدة!! جريدة.. قصيدة المهدي.."".. "".. اقرء قصيدة المهدي الناريّة.. "

لا تزال الأضوية المعلّقة مولعة فوق مصاطب خانات حروف الرصاص العديدة المسوّدة.. بعض العاملين وراءها، ببدلاتهم الخاصة الزرقاء، وأصابعهم المسخّمة تلقط الحروف على عجل آلي، بعيون منشغلة يبحث سريع بين خانات الصفائح الرصاصية المترابطة..

.. يُلقِي تحية الصباح وهو يتوجه مسرعاً ليرتقي درجات سلم البيت الشرقي القديم نصف المتداعي..

يصل إلى غرفته المشرفة بشبابيكها الطولية على ساحة العاملين من جهة وعلى غبش الزقاق من الجهة الأخرى.

في الغرفة طاولتان خشبيتان، التي في الزاوية قرب نافذة الزقاق، بكرسي واحد خلفها، ومذراع فوقها..

.. الأخرى قرب الباب وعلى الجانب المشرف على ساحة العاملين، بكرسيين وأوراق عديدة مبعثرة.

.. يعلّق الحمد سترته على ظهر أحد الكرسيين ويجلس بعد أن يشمّر ردفه قميصه عن ذراعيه.. يبحث بين الأوراق..

يدور المهدي بين موظفي وزارة المعارف في (قشلة) بغداد.

.. حين لا يجد ضالته بين موظفيها الكبار لانشغالاتهم خارج الدائرة أو لاجتماع طارئ طلبه الوزير، يخرج من الأروقة العصمليّة العتيقة مدمداً بغضب إلى ساحتها الوسيعة.

.. ما أن يفتح أمامه الفضاء الرحب ومياه دجلة الزرقاء البنفسجية المتلامعة في شمس الخريف الكسول، وبانوراما أبنية الضفة المقابلة، واحجار مساناتها المتناثرة تحتها على الضفاف ومياه جرفه، والنوارس السابحة في الفضاء فوق (أبلام) العبور والصيد، التي تمخر مياهه من الجانبين، والجسر المهتز تحت أقدام العابرين وعرباتهم .. ينسى المهدي كل غضبه بل وينسى الموضوع الذي أتى به وأثار نقمته.. يتنفس الصعداء ويهرع على عجل، وكأنه يخاف ان يختفي المشهد الذي امامه.. يلقي بسترته جانبا على حافة موقع جلوسه من (المسناة) الحجرية الأثرية.. يجلس مُدلياً ساقيه من الحافة.. يرفع عن رأسه سدارته السوداء ويمسكها سارحاً في بهاء الوجود الذي يضيع فيه..

جلس المهدي وحمد في (كهوة عزاوي) في واحدة من لقاءاتهما التي
لا تنقطع

.. أطلع المهدي حمداً رغبته في لقاء أخيه عزيز، الذي هاجر مع زوجته
الإيرانية الى (شيراز) والذي وعدّه بجولة في (شعب بُوان) وفي
مفاتن طبيعة اخرى من بلاد فارس.

مَغَانِي الشَّعْبِ طَبِيباً فِي المَغَانِي

بمنزلة الربيع من الزمان

يقول بشعب بُوانِ حِصَانِي

أعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعَانِ!؟

.. ترنّم المهدي بهذين البيتين، فهزّ الحمد رأسه وقال:

_ وكأني سأكون معك في ربوع جنان إيران.. لا بدّ أن شيطان الشعر
سيحاصرك دون فكاك هناك على الرغم من قولك انك قد تركت الشعر
لي وحدي... أما عني فسأتجوّل في تلال الحصى الملوّن على الجانب
الشرقي وزمّة شاطيء دجلة الغربي، سأزور بقايا قصرَي العاشق
والمعشوق وسيعلو صوتي في أذانٍ من فوق ملوياً سامراء..

_ وأنا ساكون معك يا حمد (سأكون تحت جُبَّتِكَ) وأنا أتجوّل في
شعاب جبال شمranات وشيراز.. إن كانت جُبة الحلاج تَسْعُ الله، فلا بد
أن تسعني جُبَّتِكَ حيثما تسير وأينما تحلّ يا حمد.

.. لا تبخل عليّ يا المهدي بأخبار لياليك مع (بديعة).. وبالتفصيل الممل
عن سهرها العابث معك حتى الصباح.. ذلك العبث الذي يُضني لا
مكتنز جسدها الحريري البض، بل وعينيها.. فتنزّل أنت منهما متتبعا
جنان الجسد وقصصه الملاح إلى انامل قدميها :

عَينِي فِدَى قَدَمِيكَ سَيِّدَتِي

..عَيْنَاكِ قَدْ أَضْنَاهُمَا السَهْرُ

_ سائيرك بتفاصيل الليالي يا حمد ونحن في خمارتنا المفضّلة، خمارة (مهران)، على أن تروي أنت كل تفاصيل (عبورك الشط) إلى بساتين ضفاف الكاظمية حيث تقيم غادتك الحساء المتيمّة بكتاباتك وشعرك أيضا لحد الجنون.. أنت تعرف من أعني..ومن أحلى وجهها وجسدا وروحا من شاعرتنا الصبية، التي لا تنقطع هداياها الفضية المميزة بنقوش ابياتك الشعرية، على ايدي فناني درب الصاغة اليهود في (المزبّعه).

..كأننا يا صاحبي في سباق، من الذي يعرف أكثر عن الآخر!..لا شيء يمكنك إخفاءه عني يا شقيّ اللصيق حمد..

..هيا بنا إلى (مهران)..هناك نكمل حديث الفسق المقدس.

سامراء

سادَ السكونُ على العوالمِ كلّها
وتَجَلَّبَبَ الوادي رداءَ خُموله
حتى إذا حَكَمَ المغيبُ بدا له
شَفَقٌ يُحيطُ البدرَ حينَ مُثوله

قطع حمد المسافة بين محطة القطار والطريق الترابي الواصل إلى الضفة الغربية لسامراء بين قافلة من الزوار القادمين من أمكنة مختلفة للتبرك بمرقد الإمام وتقديم نذورهم وعطاياهم، وبالمقابل طلب شفاعته، لشفاء مريضهم أو إطلاق سراح ولدهم من سجنه، أو فكِّ عُقدة عاقر، أو حتى التوسط بشفاعة (الغائب عجل الله ظهوره)، عند زوج طَلَّقَ أو حبيب هَجَرَ..

لم يكن حمد يروم شيئاً عند الإمام الهادي، ولا المهدي المنتظر-عجل الله قيامه..، فقد شبع حتى التخمة في طفولته وصباه ومطلع شبابه، من زيارة الأئمة المعصومين، وقراءة لوحات (الدخول) المعلقة على يمين بوابات أضرحتهم لنفسه، أو لمن يقوم بتزويرهم خلفه من معدان الجنوب، حين كان شيخاً بعمةً بيضاء مهيبة على صغرها، وجبةً سوداء طويلة تسع جيوبها الطويلة كثيراً من المحلل، و(المحرم أيضاً خارج الصحن الشريف).

كانت سامراء، تلك البقعة المرتبطة بذكريات الطفولة وصور زواياها
وملاعبها المثيرة..

.. أم الحمد المرأة الملتقعة بشيلتها وعصابة رأسها الحريرية السوداء،
التي تطرحهما دائما لتلقي جديلتيها السوداوين الطويلتين وراء
ظهرها.. تطفئ فانوس غرفتهم الصغيرة في بيت أم صابر عند
جھجرة الفجر.. تلف سجادتها الأصفهانية وتضع مصحفها بجلاده
الأسود المذهب في حافظته تغادر الغرفة بهما، مكبرة بصوت مسموع:
" يا الله يا الله "، قبل ان تخرج الى باحة البيت.

.. أم صابر ترشّ باحة الدار المعدّ لمستأجري غرفه من الزائرين..
تصبّح عليها بالخير قبل ان تخرج من البوابة الواسعة المُسرعة.

.. حمد- الصبي ابن العاشرة - يحمل الحصيرة الصغيرة وزوادة الأكل
والسماور وهو يمشي إلى جوارها في الزقاق القريب من التلة المشرفة
على شواطيء دجلة.. دجلة الحصى الملون والرملة الندية.

كانت خيوط عاتمة الزرقة لا تزال تشجّ صفحة السماء التي أوشكت
ان تشف.. أفراد قلائل تسمع أصوات طرقات مداسهم وسعالهم يرنّ
في الزقاق، بعد أن خرجوا على باب الله لارزاقهم، أو من أبواب
مسجده الصغير وحن الإمام الكبير.

يلقي الحصيرة على بقعة مفروشة بالحصى الناعم النديّ
المتراص.. يُخرج السماور الصغير والقوري الخاص به من الزوادة
وكيس الفحم وحفنة ورق الجرائد المجعّدة وعلبة الكبريت.

..ينبطح على الحصى الندي، يحشر الفحم وورق الجرائد في قاعدة
الساور، يولعه بعود الثقاب..ينفخ فيه حتى تعلق ناره في جوف
الساور.. ينهض ويمسح عينيه الدامعتين من الدخان..يركض مسرعا
إلى الجرف.

..الحصى تحت صفحة الماء أكثر بريفا ولمعانا وبهجة من مثيلاته عند
الطرف الجاف القريب من الشاطيء..

_ دِيرْ بِالْكَ مِنْ الْمَيِّ!

يسمع تنبيهه والدته من ورائه.

إن هي الا دقائق ويتناهى الى سمعه صوت أم عزيز:

_ ولك يا المهدي! لا تُركضْ سريع! تُروخْ توَكِّعْ وتتجَلَّعْ ركبَاتكْ
بالحصو مثل البارحه..ليشْ حَمْد طايِرْ مِتْكَ..

يركض حمد فرحاً لملاقات صديق روحه المهدي.

إقتربا يدا بيد من الماء الذي تغسل صفحاته الرقراقة المتلامعة مهرجان
ألوان الحصى وقطعاً من الأصداف المهشمة، التي تكاد تغطي فراش
الرمال الذهبي تحته..تأملاه طويلاً..حدقا في صورتيهما المنعكسة..
وضعا قدميهما حتى الكاحلين في مرآته، فتشمتم المرأة وتماوجت
صورتيهما المشوّهة المضحكة داخله.. ضحكا بجذل لذلك، لحظات
وارتدّا إلى الخلف فجأة ساهمين..

" كان حيدر عم حامد ذو الجسم الرياضي بالعضل المقتول، بطل زورخانات النجف الشهيرة يسبح في الفرات الموسيع.. يفوج بذراعيه.. ينظر إليهما وهما يقفان على رملة شواطئ بساتين (أم الذهب).

.. يرفع أحد ذراعيه من منتصف النهر، ملوّحاً لهما بمرح فيجيبان على تحيته يرفعان ذراعيهما إلى الأعلى ويهزانها فوق رأسيهما.

توقف العم حيدر عن السباحة فجأة وبدت على وجهه من بعيد علائم ألم شديد.. حاول أن يمدّ إحدى ذراعيه ليعاود العوم، فسقطت مخذولة إلى صفحة الماء على حين لم تَبُنْ ذراعهُ الأخرى الغاطسة في عمق تيار الماء السريع.

.. غطس رأسه برهة قبل أن يعاود الظهور على صفحة الماء وهو يبتعد عن مرأهما.

.. سمعا صرخة مغرغرة غير عالية قبل أن يختفي عن ناظريهما.

وقفا جامدين بغباء! وبعيون مبلّقة وفم نصف مفتوح فترة غير قليلة، قبل أن يركضا صارخين صوب أهليهما الجالسين قرب بيت الضيافة الطيني تحت ظلال النخيل وهما يولولان مرعوبين:

".. عمنا حيدر غرّك!.. عمنا حيدر غرّك!"

.. لم يُعثر على جثته المنتفخة الطافية إلا بعد أيام ثلاث من البحث.. حتى في الليالي كان الرجال بفوانيسهم فوق الأبلام، تجوس بأعينها فوق صفحات الماء باحثة عن أثر له... ..

.. " لقد سَحَبَهُ (الرَّفْشَن) الى الاسفل!! "

.. هذا ما سمعاه من النسوة اللواتي إرتدنَ مجالس العزاء

حين تتوقف (الملة نبيهة) عن تعدادها وضرب دفترها الأسود حفاظاً على نغم ترديدات الملحنة.. والمنتبهة ب (إحّا.. إحّا..) وحين تبدأ النساء بالحديث الهامس فيما بينهن عن مشاكل البيت وغلاء الاسعار وطلاق هذه وزواج تلك والشائعات التي تدور حول ذلك، يعقبها دائماً " أستغفر الله.. أستغفر الله.. الله لا يجعلها نائمة!!"، ..بسمعا ب(الرفش) بينهن لأول مرة، ولم تكن كلمة وحش (الرفش) آخر مرة يسمعاها، إذ تكرر التهديد بالرفش كلما اقتربا من النهر في نزهاتهما لبساتين الكوفة وشواطئها..".

_ لا تنزلون بالماي!! يروح ياخذكم الرفش!!

مرت تلك الخاطرة بذهنيهما معاً، عند ملون الحصى والرمل وانعكاسات الماء الساحرة..

.. الماء الموشوش بين الرملة والحصى..؟! بين بهرجة الألوان التي تدعوها للخوض!؟.. وبين صورة العم حيدر يسحبه الرفش إلى الأعماق!؟

إنسجبا!

.. النهر رائع ورهيب!..

عادة ليتراكظا في المساحة الوسيعة من فضة الحصى والرمل، بعيدا عن الجرف.

_ وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرملٍ

ببيداء لم يعرف لها ساكنٌ رسماً

..ميم! قال المهدي.

_ مَكْرٍ مَفْرٍ، مُقْبَلٍ مُدْبِرٍ مَعاً

كجُلمودِ صخرٍ حطَّه السَّيْلُ من عل

..لام! قال الحمد.

بدأت مطاردهما الشعرية وهما يتقاذزان راكضين بصخب ومرح فترة غير قصيرة حتى سمعا نداء أم عزيز تكررهُ أم حمد يدعواهما للإفطار.

_ لن تغلبنى في حفظ الشعر فقد فزت بليرة مجيدية من الشاعر الحلي في زيارة لوالدي بعد أن حفظت معلقة كاملة للنابغة الذبياني في يوم واحد.. قال المهدي.

_ أنت بيوم واحد، أما أنا ففرت بها بدقيقتين، إستلمتها من خالي الشيخ عبد الرسول بعد أن وعدني، فيما لو حفظت بيتاً من الشعر يحمل كل حرف منه إشارة لمناسك العمرة والحج، وبعد أن يكرره هو ثلاث مرات:

أَطْرَزْتَ لِلْعُمْرَةِ اجْعَلْ نَحْطُ... أَوْ أَرْنَحْطُ رَزَّ طَرْمَزْ لِحَجْ

ولم يكمل إعادته للمرة الثالثة، إذ قرأت عليه البيت بكل حركاته بعد المرة الثانية..

اجابه حمد متباهياً ضاحكا.

_ تعالو.. يله تعالو.. يله تعالو تريكو.. كافي لعب واستراحو شوي.

_ شَوْفْ وليدِي مَهداوي.. تُروخ (لسوق العمارة).. أسهلْ لكْ تَطْلُعْ من داخلْ صَحْن الإمام من بابْ العُمارة، ودكان (محمد الحلو) من بابْ الإمام قريب، تكلِّه ابوي يَسَلِّمُ عَلَيْكَ، وَيَكُولُ فَدْ عَشِيرْ (رُوبِيَّاتْ) على الحساب، ولَفْتِينْ من المَزْبَنْ..

.. تسلِّمه أم عزيز كيس قماش صغير.

يسارع المهدي لزلق قدميه في نعليه ويركض صوب (الدولان) المعتم..

_ لا تضيِّع الروبيَّاتْ!!.. خَلِّي الروبيَّاتْ بالجيس ولا تُهدِّه من إيدك!!.. يلحق به صوتها قرب الباب.

كم يحب امثال هذه المهمات الصغيرة التي غالبا ما تنتهي بمكافئة.. حفنة حامض حلو (أبنبات)، قطعة حلقوم، سمسمية..

.. اما في مهمات كبيرة مثل مهمة اليوم، وإذا تيسر الحال، فقد تكون المكافئة أعظمها جميعا، علبة صغيرة من (حلاوة الهندي).

ركضَ في أول الزقاق..

.. تمهَّلَ عند منتصفه..

..مشي ببطء مقتربا من الكوة المحرَّمة بقصبان حديدية تحت بيت ناصر الحميدي.. فجوة مطلة على عتمة موحشة، بان من خلالها طيف قبر غُطِّي بملاءة حريرية خضراء..

.. يقف هنا عند كل مرور.. يمد رأسه في الكوة مستطلعا الحجيرة العاتمة، رغم الوجيب الذي يهزُّ صدره ويضجُّ في اذنيه..

.. يغادر المكان ويطلق زفرة ارتياح..

.. يبتسم وهو يرى (المَشْتِي) بعدها بقليل، عارٍ لحد الحزام في دكانه،
يداور بدورق كبير، دلق اللبن من زير إلى زير.

.. يقف عن مدخل (باب الطُوسي) من الصحن الشريف.... يقرأ الفاتحة
ثم يدخل بتؤدة عبر الرواق الأزرق..

.. يبهره ضوء الشمس المقتحم مخرج الرواق..

.. يقف أمام الضريح الكبير بقبته المتلامعة الذهبية برهة.. ينحني
بخشوع.. ينعطف الى اليمين.

.. منظر بلاطات الصحن الواسع الذي تحوّل بياضها إلى الرصاصي
المزرق المغبّش في زواياه، المزركش بغيمات من الحمام السارح
والراقد والعاث فوق صفحته..

يغترف المنظر من أعماق الصبي الحالم موجة سرور وعبث ويغمره
بها

..يمدّ ذراعيه بين غيمات الحمام على وسعيهما..

.. يميل يمينا ويسارا ويئز كطائرة (أم السناطير) ويركض فنتصاعد
موجات الغيوم البيضاء والرمادية والزرقاء المخضرة خافقة باجنحتها
من حوله.

.. يتمهل في عبور الرواق الأخضر الطويل بين جدار الصحن الشمالي
وهيكل الضريح ويتنصت حين يتناهى إلى سمعه تجويد لآيات تُتلى
من القرآن الكريم..

.. عند (باب العمارة) من الصحن، يقف مرة اخرى ويستدير مواجهها
القبة الذهبية..

.. ينحني بخشوع ويردد مرة أخرى:

__ السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله!.. السلام عليكم ورحمة الله!

تهبُّ في مدخل السوق روائح خليط لطيف لا يمكنه تمييزها..

.. تلال صغيرة من جراد خردلي - بني مطبوع موضوع بشكل هرمي في (قصاصات) وسلال من سعف النخيل..

.. بضعة أكوام من كمئات فوق قطعة خيش..

.. حصيرة كبيرة بأكوام مختلفة الأحجام من (الزوري)، السمك الذي تحبه كثيراً معبودة روحه (دندش)..

.. سلال صغيرة بأجبان بيضاء مختلفة الأحجام والطرارة.. فروات خراف مدبوغة وكبابات غزل سوداء وخردلية وبيضاء، يتربّع خلفها كأصنام الكعبة العتيقة، رجال صامتون بسحنات برونزية وشعور كثة مغبرة، تنهدل منها جدائل ليست طويلة ولا قصيرة..

.. شاهدتهم مرات عديدة في (المناعة) وهم ينصبون خيامهم فوق رمال الهضبة المطلة على (البحر)..

".. كم عبثو هو وحمد وشلة من رفقة صبيان (الخويش).. ركضوا وراء ما عزمهم وخرافهم المنتشرة بين الخيم.

.. تجاسر حمد فامتطى بعيرا باركاً، وحين تملل الجبل تحته وعلا رغاء احتجاجاً، قفز مرعوباً.. لاحقه البدوي مهددا بعصاه الطويلة.. مدّ حمد له لسانه وهرب صوبنا، ضاحاً بضحكه ودمدمة كلمات مرحة غير مفهومة.. "

بعد خليط لبضائع المعروضة في فناء الفضة التي تسبق السوق المسقف، مشي تحت ظلال سقيفة السوق العالية، حيث تتميز الروائح العطرة بشكل ملحوظ والتي يثير بعضها العطاس أو السعال الجاف، والمنبعثة من المكعبات الخشبية المتدرّجة في الدكاكين على الجانبين، بتلاها الملونة من المساحيق، الصفراء والبنية والخرذلية والسوداء..
.. انها دكاكين التوابل.

.. هنالك في الداخل، أكياس كبيرة مفتوحة على سعتها بالوان مماثلة من المساحيق والحبيبات، تعلوها رفوف من دوارق زجاجية بسدادات فلين كبيرة، تعرض ألواناً مبهرجة أخرى..
كان المهدي يتوقف متأملاً برهة تطول وتقتصر أمام كل هذه العوالم باحثاً ببصره وحائراً في غرائبها..

يراها كل يوم تقريباً، بل وأكثر من مرة في اليوم الواحد، لكنها لا تفقد شيئاً من جمالها أو غرابتها لديه.. يكتشفها دائماً لأول مرة.
لا يطول تأمله أمام دكاكين العطارة الأخرى..

.. وقفة منبهرة أخرى عند الألوان الاسطوانية وصفائح القماش النخينة والمساحات المفروشة منها.. عرض أقمشة دكاكين البزازين..
يصل بين سرحاته أخيراً إلى دكان محمد الحلو.. (تبتّاجي) سوق العمارة الوحيد.

..إنطني سيدنا لفّة مزبّن أبو المية!.. جيس أبو نص ربع من التتنّ المعسل!.. تتنّ لفّ هندي نص ربيع!.. دقترين ورق لفّ أصفهان! .. شخاطتين!.. وراعيني بالحساب يخليّ لكّ عباس ويطولّ عمرك سيّدنا.. بعد أن تحرك أبو عباس بين جانبي الرفوف بقامته المديدة

وصايتة الرمادية الطويلة وكشيدته الزرقاء المحزّمة حاشيتها بالحريير
الأخضر ليلاي طلبات الزبون.. أخرج دفترأ صغيراً كتب عليه أرقاماً..

بعد أن تأمل ماكتب للحظة قصيرة:

_ الحساب أبو عقيل روبيتين وخمس بيزات.. لخالطز جيتك ودُعاك،
رُوبيتين وحده وبس..

بعد أن غادر الزبون المنصة، وأعاد أبو عباس بعض الحاجيات إلى
مواقعها، عاد إلى مكانه من واجهة الدكان.. التفت إلى وجود الصبي:

_ ها مهداوي!؟.. هله بيك، لازم أم عزيز هي الدازتك.. أبوك قبل
ساعة بالكثير جان يمّي..

_ أمي تسلّم عليك وتكول أبوي يكول، فد لفنتين مزبن وعشر روبيات
على الحساب..

إبتسم أبو عباس، بدا وجهه الأبيض الذي تورّد بشراً، سمحاً.. محبوباً..
ألهذا يسمونه (الحلو).. محمد الحلو؟! " فكر المهدي وهو يتملّى وجه
وقامة أبا عباس "

_ هاذي سجاير المزبن مهداوي، وهاذي.. توقف قليلاً قبل أن يسأل،..
إنطنك أم عزيز جيس للفلوس مثل كل مرة، لو أنطيك جيس من
عندي..

_ لا عندي الجيس!!

وضع (الحلو) عشر الروبيات في الكيس..

_ سَلِّمْ لِي عَلَى الْوَالِدَةِ، وَكَوْلِ إِلَهَ: أَنِي أُدْرِي هَذَا هُوَ الْمَوْعِدُ لِزِيَارَتِهَا
لِلْمُنْتَظَرِ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.. جَارَتْنَا أُمُّ الْحَمْدِ رَاحَ تَجِي وَيَاهَا هِيَ
وَحَمْدٌ.. بَسْ تَنْتَظِرُ يَوْمِينَ وَتَسَافِرُونَ كَلِّكُمْ سِوِيَهُ..

ثم واصل بشكّل جاد وهو يحني قامته صوب المهدي:

_ إسمعني يا المهدي زين!.. مو تروحون تسبحون إنت وحمد بالشط!!
.. تره المي سريع كُشْنْ هُنَاكَ!!.. توعدني وعد رجال.. وعد المهدي!..
تمام؟!!

_ تمام عمي أبو عباس تمام! إي وحك أمير المؤمنين!.. سارع المهدي
بلهفة الى الرد غير مصدق اذنيه.. حمد سيكون معه!!

نظر إلى وجه السيد بكشيدته الزرقاء المحزّمة بالشريط الحريري
فوجدته (حلوحقا).

بعد أن أصغى الحمد وهو مستلقٍ في فراشه إلى تكبيرات وأدعية ما بعد أذان الفجر نهض ولفّ فراشه وأعطيته ووضعها في زاوية من الغرفة، أسمع نحننحته وصوته: (يا الله!.. يا الله!) قبل أن يخرج إلى ساحة (نزل) أم صابر، ليغسل وجهه ويؤدي مهمات الصباح.

كان الحوش خالياً من أم صابر أو افراد من مستأجري غرفه القلّة.

حين أتم لبس بدلته (بنطال وسترة الافندية) ولملم ما يحتاجه لآخذها معه (حصيرة صغيرة، وسادة صغيرة، وسماور وقوري والدته الصغيرين القديمين، وعدة الإيقاد).

..تناول من على الرف ديوان البحرري وأطفا فتيل الفانوس الذاوي.

خرج بعد أن أسمع نحننحته و(يا الله!.. يا الله!) مرة أخرى، للحریم اللواتي قد يتواجدن عرضاً في باحة الدار.

__ صَبَّحْكَ اللهُ بِالْخَيْرِ أُم صَابِر!

__ وصباحك بخير وسلامة شيخ الحمد!.. أجابت أم صابر وهي منشغلة برشّ باحة النزل، وعقبت:

__ أكيد رايحين لشاطي النهر مثل عادتكم بكلّ جيّة.. بسّ شيخنا يبين أخذتو استراحة من عمامة أيام زمان؟!.. أزاحت طرفاً من عباءتها عن وجهها.. أمالت رأسها جانباً وهي تنظر إليه، وبعد ضحكة هامسة:

__ والله نينأتنه لبس الأفندية يلوكلك أكثر..

__ ضرورات الشغل ودوائر بغداد ومشاويرها أم صابر.. نشوفج بخير على جايّ المسّا.

عَرَجَ الحمد على بسطيات الفجر عند باب الإمام، اشترى رغيفين من الخبز، باقة من الكراث، جبنة بيضاء، رؤوس قنء صغيرة وبعضاً من الطماطم.. توجه إلى نفس الزقاق الملتوي الضيق الذي تشرف نهايته من على ضفتي دجلة.

بدأت جهجرت الفجر وضيائه الخجل تبان في صفحة السماء، التي بدأت تشفّ حواشيها.

.. تنصّت لطرقعات مداس خلفه وسعلات خفيفة أعقبها همس موشوش " الحمد لله "

ألقى الحصيرة على بقعة مفروشة بالحصى الناعم الندي المتراص.
..أخرج السماور الصغير والقوري الخاص به من الزوادة وكيس الفحم
وحفنة ورق الجرائد المجعدة وعلبة الكبريت.

..أنبطح على الحصى الندي وحشر الفحم وورق الجرائد في قاعدة
السماور، وأولعه بعود الثقاب..نفخ فيه حتى علت ناره في جوف
السماور.

.. نهض ومسح عينيه الدامعتين من الدخان والتفت صوب تلة
الحصى مُسقطاً صوراً قديمة على شاشته الداكنة..

" مهداوي صبي العاشرة بقامته النحيفة ودشداشته الههافة يركض
صوبه فاتحاً ذراعيه.."

"صوت أمه يرتفع من خلفه:

_ لا تركض سريع! ثروحْ تُوكغْ وتتجلعْ ركبَاتكْ بالحصوْ مثلْ
البارحه..ليش حمد طايِرْ مِنْكْ مُوْ هُوَ طُول الوكْتْ وياكْ."

..إبتسم وأستدار صوب جرف النهر..

طوى حاشيتي بنطاله المكوي بعناية لمنتصف ساقيه وانحدر على
عجل..

.. وضع قدميه بحذر في صفحة الماء البارد فاهتز الحصى الملون
والرمل الذهبي وتشوهت إنعكسات صورة وجهه في المرأة المهشمة
الرجراجة.

..وقف بتحدٍ، بزهوٍ، وبوجه مبتسم جدل..

" ها قد انتصرت أخيرا على وحش (الرَفْشَن!)!!...".

كان مستلقيا جنباً على كتابه حين أحس بالمساء، إذ بدت حروف الكلمات تعتم شيئاً فشيئاً أمام بصره. وضع بَحْرِيَّه جانبا وأطلق آهة ارتياح ورضى وهو ينهض من فوق حصيرته ليقف متأملاً برهة قبل ان تغمره موجة انبهار لإكتشاف طفولي.

.. إنه امام عالم يراه اول مرة!!

.. الشمس التي لايزال قوسها العلوي فضيًّا مُشعاً، تسربتْ خيوط تحتها، بشذرات لامعة ذهبية.

.. ضبابات حمراء أخذت تتداخل على مهلها في لمعة الصفرة الذهبية، الموشكة في التستر وراء خط الافق القرمزي المحمّر، الموشح بزرقه بحرية عميقة.

لم يستطع أن يحرك قدميه صوب جرف مياه النهر الذي أصبحت صفحة مياهه مرآة مشققة ساطعة الألوان، لا يلحق بصره على متابعة تبدل عمق سطوع انعكاساتها، وتغيّر مكونات طيف ألوانها السريع الأخذ بالأعماق.

.. من حاشية الإفق الأخرى لقرص الشمس، ووراء الخط المميّز الحاد الفاصل بين الكونين، بدأ يرتفع راقصا بخشوع، قرص آخر فضي الزرقة، اقل تمايزاً.

.. قرص البدر الذي بدا شافئاً شاحباً.

القرص الشاحب، الذي أخذ وضوحه يتمايز، مأل قليلاً إلى اليمين وكأنه ينوي أن يعود ليغطس ويتراجع وراء عتمة خط الافق..

..في اللحظة التي تلتها، ارتفع جانب القرص المعاكس، صوب
مهرجان ألوان السماء المغبّشة.

..مرة أخرى يميل القرص بخصره من اليسار قليلا ليرتفع (وركه)
الأيمن فيبرز نصف الجسد الراقص بوضوح نوراني أكبر.

..يستمر الجسد الكروي المكتنز المتذبذب صعودا، فتبان دورته الفضية
البيضاء المزرقّة أكثر بروزاً..

.. تنكسف الشمس بحمرة خجل وجنتيها القرمزية.. تتوارى شيئا فشيئا
خلف ستارة الإفق، التي هبطت عتمتها ببطء على المسرح البانورامي
الوسيع المترامي.

يخطو الحمد بحذر وبطء على أطراف أصابعه صوب ملتقى صفحة
الماء الموشوشة بهمس مع الرملية، وكأنه يخشى أن تفسد أي حركة
عنيفة أو قاسية لقدميه، قدسية المشهد في مسرح الكون.. الكون المنعمر
ببحر نوره القمري وظلاله.. الكون الذي هبط بأجوائه واطيافه الحاملة
السحرية المبهمة..

وقف عند حافة الجرف.

.. فَرَشَ كَفَّيْهِ عَلَى خَاصِرَتَيْهِ.

.. مَرَّ عِبرَ كِيَانِهِ ذَهَبُ الْأَصِيلِ، وَعَبَّشُ الْمَسَاءِ، وَبِحَرِّ اللَّيْلِ
الْمَتَكَثِفِ..

..سَبَّحَ فِي ضَوْءِ الْبَدْرِ الَّذِي ارْتَفَعَ وَاخَذَ مَكَانَهُ، وَقَدْ طَوَّقَتْهُ هَالَةٌ مَجْدِهِ
الْفُضِيَّةِ الْمَزْرُقَةِ الضَّبَابِيَّةِ، تَلُكُ الَّتِي أَفْسَحَتْ لَهُ مَكَانًا وَسِيْعًا، وَسَطَ
بَسَاطِ اللَّيْلِ الْعَاتِمِ، الْمَزْدَانِ بِقَلَانِدٍ وَنِثَارِ الْجِمَانِ وَالْمَاسِ وَحِجْرِ
الْإِسْكَندَرِ الشَّافِ الْمَزْرُقِ- الْمَخْضَرِّ الْمَتَلَامِعِ..

دندن بهمسٍ يكاد يكون غير مسموع، خشية خدش غلالة السكون
الفضي..

.. علا الصوت بحذر رويداً رويداً ليتحول الى حدٍ منغمٍ..

سادَ السكونُ..

.. سادَ السكونُ !!

.....

سادَ السكونُ على العوالم كلها..

وتجلببَ الوادي رداءً خُمولِهِ

.. رداءً خُمُوؤُولِهِ..

منظراً.. الشعْرُ.. الشعْعَعْرُ.. لا يقوى على تحليلِهِ..

ساد السكونُ على العوالم كلها
وتجلبب الوادي رداءً خُموله
وتنبّهت بين الصخور حمامةً
تُصغي لصوتِ مطارحٍ لهديله
ولقد رأيتُ فوقَ دجلةَ منظرًا
الشعرُ لا يقوى على تحليله
شفقًا على الماءِ استفاضَ شعاعه
ذهباً على شطآنه وحقوله
حتى إذا حكّم المغيبُ بدا له
سُفْقٌ يُحيطُ البدرَ حينَ مُثوله
فتخالفت الشفقانُ هذا فائزُ
صُعداً، وهذا ذائبٌ بنزوله
ثم استوى فضيُّ نورٍ عابثٍ
بالمائجين مياهِه ورموله
فإذا الشواطيءُ والمَساحِبُ والرُّبى
والشَطُّ والوادي وكلُّ فُضوله
قمراءُ راقصةُ الأشعةِ جُللتُ
بِخَفِيِّ سرِّ رائعٍ مَجْهوله

السعي إلى سعب برائن

هَبَّ النسيمُ فهبَّتْ الأشواقُ

وهفا اليكُم قلبيَّ المشتاقُ

ما شوقُ أهلِ الشوقِ في عُرفِ الهوى

نُكْرُ فقد خُلقوا لكي يَشْتاقوا

بعد أن نزل المهدي شبه مضعع من القطار في رحلته التي استغرقت سبع ساعات كان يختض ويتأرجح فيها فوق مقعده الخشبي كقربة من اللبن لاستخلاص زبدته، توجه من المحطة شبه المقفرة باحثاً عن مقهى قريب ليشرّب استكانا من الشاي ويغسل وجه الذي تجلّد.

وجد ضالته غير بعيد عن المحطة.

كانت الظلمة قد بدأت زحفها على الزقاق، ببيوته القميئة التي تتلصص من بعض نوافذها الصغيرة ذبالات نورٍ مرتجف.

كان للمقهى فانوسان معلقان على مدخله.

بضعة تخوت يجلس عليها عدد قليل من الزبائن، بعمهم الكردية الملفوفة بعناية كبيرة، وآخرين بطرحات رأس مرقّشة حمراء.

..هنالك لغط خفيف أضاع وحشة سكون الزقاق المعتم.

بعد أن دخل الى مرحاض المقهى الخشبية في عراء مقفر شبه مظلم خلف المقهى، وانهى المهمات التي لم يستطع أن ينفذها في القطار

لساعات طويلة، وغسل وجهه من ابريق ماء موضوع هناك، عاد متمتعاً بإحساس أكبر من الراحة والحرية.

كان محظوظاً، ذلك أن المقهى الصغير بجوار المحطة، أدرك صاحبه حاجة المسافرين القادمين منها، إلى شيء من الطعام، إضافة إلى الشاي المقدم للزبائن المحليين.. بعد ان استمتع المهدي بلقمة خبز وبيض وخضروات وثلاث استكانات من الشاي (السنجين)، تنفس الصعداء، وتربّع على التخت الخشبي المفروش بقطعة سجاد عجمي عتيق، أخرج علبة سجائر (غازي) وأولع منها لفاقة رافعاً رأسه نافثاً دخانها إلى الأعلى.

.. سرح برهة قبل أن ينادي على (الكاكه) عامل المقهى:

_ يرحم والديك تعرف مكان قريب ممكن أبأت بيه ها الليلة؟.

_ ليش بروح بعيد كاكه؟! .. عدنه فراش وبطانيه ومخدة، وأكو تخت سيدنا ينأم عليه.. والصبح أكو ريوگ: بيض وجبن وجاي!.. ما كو أقرب وأحسن من هذا المكان.

_ باش كاكه.. خوش! زين كؤل لي تعرف مين وشلون وشوكت تطلع قافلة المسافرين لكرمنشاه.

_ يطلع كاكه يوميه الصبح من يم كهوة أغا عبدل.. أنه يدليك باجر انشاء الله.

كانت هنالك عدة بغال تتلمل وترفس بقوائمها، محمّلة بأشكال كثيرة من العِدْد:

.. قَرَب مليئة مُتوزّمة..أكياس تنهدل على جانبي ظهور المطايا، وأعواد خيام ولفائف فلجاتها.

..بغال أخرى ببرادع سميكة مزخرفة تقف برؤوس متعالية، تتجمع خلف تلك التي تنوء بأعمالها.

مسافرو القافلة كانوا خمسة لا نساء بينهم!

.. ارتاح قائد المسيرة لذلك.

كانت تعليمات دليل القافلة واضحة:

..عشرة روبيات أجرة البغل وعلفه والخيام وبسط النوم وقرب الماء وإكرامية الدليل الذي يقود الحملة.

..يتكفل كل مسافر بطعامه الخاص الذي يتزوّد به قبل مسير القافلة، وله ان يصطحب أحمالا لا تزيد عن سعة خرّجي البغل على جانبيه.

..الطريق يستغرق – بمشيئة الله وعونه – ثلاثة ايام.

.. مُنظّم السفر غير مسؤول عن اقدار الطريق (من مرض أو سقوط أو لسعة أفعى أو عقرب في الخيام، أو بغلٍ يَحرن أو يبتحر هو وصاحبه من فوق جبل).

تحركت القافلة عند أول الصباح

..كانت تلك أول مرة يمطي المهدي فيها بغلاً، حتى في رحلاته الى الكوفة، كانت (حمير الله) هي ما اعتاد عليه.

أخذته رهبة غلو مكانه من المطية الجديدة واهتزازاتها في خطواتها الاولى، غير انه سرعان ما ألفت ذلك، بل وجد فيه مغامرة شيقة جديدة، خصوصا حين تسلق به البغل أول جبل عالٍ أجرد، وحين كان يقترب من حافة الدرب الترابي الحجري مشرفا على الهاوية السحيقة، وكأنه يتعمد إرهاب راكبه، بالإشراف على ذلك الوادي المنحدر تحته..

" شوف النذل.. شوف!! يحاول إفزاعي.. ولا يهّمك يا لعين!.. لن تفلح في ذلك "

.. يكاد ينقطع نفسه من المفاجأة المهيبة الرائعة!!

.. من فوق مُسطح قمة الجبل الحجرية الصغيرة التي وصلوا إليها، انفتح أفق رحبٌ مائجٌ اخضر مزرق مصفر، لأعشاب الربيع النامية فوق سفوح الجبال المنحدرة إلى حوض الوادي الواسع.

.. الريح التي بدأ صفيها على برودته عذبا تتلاعب بمرح بسويات العشب المائج، فتبدل من أشكال سطوح السفوح المترامية وألوانها في سيمفونية لونية - صورية صوتية راقصة.

بدى الوادي من الأعلى، بساطاً مزخرفاً بمساحاتٍ من الأرجوان، وبقعٍ بيضاء وردية عديدة خفيفة مهتزة، تسبح بينها قطع نسيج غامق الخضرة، وأحواض مائجة من زرقة بحرية متفاوتة العتمة والبريق.

أمسك المهدي زمام البغل وانحنى فوقه، وكأنه يريد أن يصل إلى الأمواج متبدلة الألوان، لا ببصره وحده بل وبكيانه وروحه..

أخذ يدندن سارحاً:

هبّ الربيع!

.. هبّ الربيع!.. فهبتّ الاشواق!

تحققت أمنية المهدي في أن يتوقف الدليل تحت ظلال الدوح الضخم المعمر على جانبي الجدول، الذي تتسارع مياهه فوق أحجارٍ وحصيٍّ ملّون، ولأعشاب لامعة ترفة الخضرة، تتراقص بينها عند القاع بمرح عابث.

فُرشت البسط والحصران عند حافة الجدول..أخرج الدليل (كتلي) كبير الحجم. لمّ المسافرون الأحطاب اليابسة اللازمة لغلي ماء الجدول.

في الوقت الذي انشغل فيه المسافرون بإخراج أطعمتهم من زُواداتهم، ألقى المهدي سترته فوق احدى البسط، وخرج كالمأخوذ هائماً متنقلاً كفراشة حائرة مرحة، بين حقول شقائق النعمان والخزامى والأوراد البرّية الصفراء، المنثورة بين شجيرات السعتر وسويقات الرمان والزعرور والعفص البرّي.

أراد البعض، ومنهم المهدي، قضاء المساء والمبيت في هذا الوادي، غير أن الدليل اقنعهم باستغلال الوقت وعبور جبل (اوشاق) الى الوادي الذي بعده، وهو لا يقل جمالاً عن مكانهم الحالي، هناك ستتنصب خيامهم اواخر المساء للمبيت

سار كل شيء على مايرام وأكثر مما يرام، إلا من وعكة المّت، لا باحد المسافرين، بل بالدليل الطيب، الذي أبدل في القرية التالية التي مرت عبرها القافلة.

كان عبد العزيز في انتظاره في المساء حين وصل ركب القافلة إلى محطته المنشودة من كرمشاه.

دام احتضانها طويلاً.. لم يتمالك أبو رضا فاجهش بالبكاء .

.. عشر سنين منذ أن هاجر من البلد ملتحقاً بزوجته، لم ير فيها المهدي، بل حتى صلة الرسائل الوحيدة به كانت صعبة وشحيحة.

أخذ منه زوادته وصندوق ثيابه الخشبي الصغير وسار به في الطريق المحاذي للنهر الصغير الذي يخترق المدينة .

_ سيكون بقاءنا ليومين في بيت أهل زوجتي لتستريح من رحلة الجبال والبالغ ولتتعرف على نسباني الطيبين..أبوها شاعر مثلك.. عفوا وهل هناك مثل لك يا مهدي في الشعر.

_ لا تبالغ أنت أول من علّمني درب الشعر الوعر- الجميل يا عبد العزيز.. كنت شاعري القدوة الذي أطمح أن أكونه.

_ سأخذك في جولة بينها مواقع استراحات قصيرة جميلة.

..سترى همدان وريفها وهضابها..ثم طهران الصاخبة، سناها ونمرّ عبرها الى هضاب ضواحيها وجبالها ووديانها الخلابة في (شمرانات)، هناك استأجرتُ لنا كوخاً صغيراً نأوي إليه بضعة أيام.. ثم ننحدر إلى مبتغاك وحلمك، اولاً إلى تبريز، حيث مكان عملي وسكني انا وعائلتي الصغيرة، ومن ثم إلى هدفك الأسمى.. إلى (شعب بُوان) القريب.

الترحاب والضيافة التي حضي بها عند أهل زوجة عزيز في كرمنشاه،
فاقت كل توقعاته، أحب الزوجين العجوزين وكان عبد العزيز ترجماناً
حصيماً بعد السنين العشر التي قضاها في بلد حافظ والخيام والفردوسي
الذين أغرم باشعارهم.

كان عليهما المغادرة رغم دفء كل ذلك بعد يومين.

.. لهفة عارمة تستعجله، إنه على موعد مع المتنبي!..

مع شعبه.. شعب ربيع الزمان!

..شعب بؤان.

لم تكن كثير من المواقع من رحلة طهران بالقطار، ثم بالمركبات
والبغال، أقل متعة وإثارة من سابقتها التي قطعها على البغل للوصول
من خانقين الى كرمنشاه

.. كان من شدة انبهاره وإثارته، تفوته عبارات من حديث رفيق سفره
الشيخ بين حين وآخر، فيستعيد قوله معتذراً.

الكوخ الصغير عند احد مرتفعات (شمرانات) والذي وصلا إليه على ظهور البغال، يقع على حافة منحدر صخري يشرف من أعاليه على غدير في قعر الوادي الضيق، تحفّ جانبيه صنوبريات، كانت تبدو من شرفة الكوخ كشجيرات صغيرة عُرسَت عشوائياً لتوها.

..تلمع على البعد تلمع، قبة فيروزية فوق بناء حجري، تشبه مقام أحد الأولياء في اطراف الكوفة.

سلاسل الجبال من الشرفة تبدو متتابعة تتبارى قممها في الإرتفاع في مهرجان الشمس الغاربة.

دخل المهدي باحثاً عن كرسي وطاولة بين غرف الكوخ، فتأودت وصرت أخشابه تحت قدميه.. خيل اليه، أن الكوخ المعلق في ذروة الجبل، مال قليلا حين أصبح عند جانبه الاقصى.

.. " هل سيهوى الكوخ أو ينزلق إلى عمق الوادي تحتنا.. سيكون ذلك حقا طيرانا مثيرا، أطفو بعده والكوخ في سياحة في غدير الوادي..
..مرت تلك الخاطرة فاشرق وجهه بابتسامة واسعة.

سار بتؤدة وحذر ليرفع الطاولة الصغيرة عن مكانها قرب النافذة.

تباطأت الشمس الغاربة في نزولها الحذر خلف سلاسل الجبال، التي ضاعت معالم سفوحها، وتلامعت قممها في وهج حمرة الشمس المذهبة المتوردة..

هبت أنسام عذبة باردة وهو يجلس مسترخيا على الشرفة متابعاً المشهد الواسع المتغيّر من حوله..

دندن بما يشبه الهمس:

هَبَّ النسيمُ..

أصبح الهمس حدواً منغماً:

هَبَّ النسيمُ.. فهبت الاشواق!

انطلقا منحدرين من شمranات، عابرين طهران الصاخبة.. لم يطبلا فيها مكوثا.

حين وصل المهدي إلى اقصى أمانيه من جولة بلا د فارس عند احد سفوح بوان، فوجيء بالمكان الذي هياه عبد العزيز لهما ولعائلته، لم يستطع أن يستوعب هزة الفرح والامتنان التي غمرت أعماقه.. بستان صغير على السفح المنثور بالأجمات الخضراء المزهرة،.. مساحات من غابات الأرز والصنوبر والسنديان والبلوط.. جدول ينحدر من أعالي السفح تتقاذف فوق سطحه موجات صغيرة عابثة رقرقة، مُلَوَّنة بالحصى والأحجار تحتها، تحقه من جانبيه أشجار (الألو بالو) - الكرز، التي امتلأت أغصانها بزهور بيضاء متوردة الخدود والجنبات. نُصبت سقيفة من أغصان البلوط والجوز فوق سيقان جيكت من العرعر والسنديان والحوار لتشكل (كبرة)، قسم صحنها الواسع بستائر من حصران الصفصاف الطري، لتشكل حجيرتان، واحدة كبيرة تسع عبد العزيز وزوجته ثريا وطفلاهما بوران ورضا، والأخرى أصغر بقليل للمهدي.

كُشك صغير خارج الكبرة كمرافق صحية، مفتوح أعلاه لنور السماء العابر من بين أغصان الدوح الكبير المعرّش إلى جانبه.

ما أن رأى المهدي المكان حتى جمد في مكانه فترة ليست بالقصيرة..

اغرورقت عيناه بالدمع، على حين أشرق وجهه بابتسامة عريضة.

.. احتضن عزيزاً الذي يقف صامتا مدركا فورة مشاعر اخيه، وضمه إليه بشدة لدقائق دون أن ينطق بكلمة واحدة. لا قول ينقل دواخل أعماقه.

كانت أنسام السحر باردة ندية مضمخة بخليط من شذى أزهار الكرز وورود السفح الموشح بالضباب، وبحبيبات السعتر وعطر الصفصاف الطري اليناع على ضفاف الجداول.

وقف المهدي بصمت كالخاشع عند مدخل الكبرة، امام منظر السفح القريب الملتف بأحزمة الضباب المتماوج السارح، ومرأى سلاسل الجبال البنفسجية المغبشة بالزرقة العميقة، التي تتعاقب وراء بعضها البعض حتى تذوب وتضيع اخيرا في غلالات السماء في الافق البعيد.

احس بقشعريرة برد منعشة فارتدى سترته التي كانت مرمية على ساعده.. أحس بنشوة وانبعاث نشاط متحفز حين أخذ نفسا عميقا وأطلق آهة ارتياح مسموعة شقت الصمت الموشوش بخريز الجدول القريب قبل أن يتحرك بهمة، ويبدأ بارتقاء السفح مُتلمّسا صخوره القريبة مُستدلاً دربه في العتمة.

لم توهن إنكفائه على تربة الدرب وأحجاره من همته في الإرتقاء، حتى ولا عثراته ووخز شوك بعض النباتات الجبلية، ولا احساسه بالتعب بعد حين وهو يحاول مسرعا أن يصل إلى غايته.. ما كان عليه إلا أن يقف برهة ليستعيد انفاسه المتسارعة ويخفف قليلا من اندفاعه سيره.

أخذت العتمة تخف قليلا، وبدأت أشكال الصخور ونباتات الجبل الشوكية والموردة بينها تتوضح لعينيه..

كان عليه أن يبذل جهدا أكبر.. أن يسرع أكثر في ارتقاءه العجل.

.. ضاعف همته في تشعبط الصخور الكبيرة والاستناد عليها، كي لا ينكفيء ويتعثّر أثناء صعوده..

تكتشفت صفحة السماء فوقه عن زرقة أقل عمقا..

تضاعف حماسه وتبسّم حين نظر للأعلى، فوجد أنه أصبح قريباً من هدفه.

.. قمة الجبل أصبحت قريبة!.. إرتقاء خطوات قليلة لا غير!

_ يا لله ولك!.. يا لله شويّة تعب لا غير.. ما بقالك وكِتْ
يا لله!.. هيه!.. هيه!

تسلّق آخر صخرة قبل أن ينبطح بوجه متعرّق على أتربة فسحة القمة
الرطبة الباردة وأعشابها القصيرة المبللة بالندى.
بعد لحظات إسترد فيها انفاسه المتلاحقة.

امتزج ندى العشب ونسيم الأعلي البارد الرطب بعرقه، فغسل وجهه
ورقبته وأعلى صدره.
أحسّ برعشة برد..

نهض واقفاً وأخرج منديلاً كبيراً من جيبه مسح به وجهه ورقبته وأعلى
صدره.. أحكم ياقة سترته حول عنقه..
رفع رأسه منتشياً..

" ها قد ارتقيت بإصرارك القمة.. سبقت الشمس في ارتقاءها من تحتك"
رفع رأسه مستكشفاً..

كان كوناً آخر غير الكون الذي عرفه وعاشه.
..صاح بأعلى صوته مخاطباً عالمه المنظور الجديد:

_ إيّه دُنيا!!.. دُنيا!!

انفتح أمامه وادٍ رحب، تمايز من خلال أحزمة الضباب وأوشحته الزرقاء-البنفسجية الشافة.. هامات خضراء عاتمة تخترق رؤوسها المستدقة بحر الأوشحة.. تغوص هامة في موج منه، لتعود فتطل في بقعة أخرى غير بعيدة.

..في مساحات من البحر الضبابي المتموج، هنالك بقع لونية تطفو سابحة، تظهر وتختفي في مواقع مختلفة بين حين وآخر..

..قطع من خطوط متعرجة مختلفة السعة والأطوال، يربط المتتبع تقطعها من الاعالي، فيعيد رسمها جداولاً تخترق المشهد..

من وراء سلاسل الجبال المتوازية المتتالية يشفّ خط الافق، في الوقت الذي لا تزال الزرقة العاتمة تحتل سمّت القبة السماوية..

يستدير المهدي لينظر إلى الوادي الآخر الذي تركه خلفه..بدا أكثر عتمة من الوادي الذي كان أمامه قبل استدارته.

.. " أنا اقف بين عالمين! "

..لا يكاد يستطيع ان يميز من قمته، مجرى الجدول العابر في واديه، الذي يعرف موضعه والذي خوّض فيه أمس..أشجار الكرز تتراءى أشباحاً صغيرة متقطّعة.

..موقع الكبرة التي كانت مكان رقادته مع عبد العزيز، تغمره أمواج ضباب ازرق كثيف..سلاسل الجبال تضيع تتلامع بوضوح قممها بتباشير الفجر، بينما بانّت منحدراتها والسفوح دونها، وكأنها قطعة عاتمة لجبل واحد.

يستدير ثانية من جديد ليواجه المشرق..

توضّح خط نور ذهبي فضّي، تمتد تحته شرائط مشرسة بنفسجية حمراء.

لمعان ما فوق خط الأفق، تنتأ منه أبراج الجبال بحمرتها الوردية متسابقة في تعاليها.

لا يحتل الخط المتلامع الفضّي المذهب إلا مساحة صغيرة من جوف السماء الكروي متفاوت الزرقة.

ضاع بصر المهدي وهو يتابع متنقلا ومقارناً ببصره مشهدي الواديين أمامه وخلفه.

تبدّل المعالم فيهما أصبح ملحوظاً لا بالدقائق، بل بالثواني، حين أخذت الشمس فيها تهرب من سجنها وظلمتها من وراء الجبال على عجل، لتنتلق حرّة في فسحة الكون السماوي الفيروزي فوقها..

" سرعة شروق الشمس.. هو توقُّ الى الفضاء الى النور الى الحرية!"

"..تبدلات هبوط الشمس البطيئة في غروبها،.. خوف من الهبوط من عالم السماء الفسيح إلى سجن ما وراء أسوار الأفق والغرق في مجاهل الظلمة.. خوف من معتقل الليل. "

إرتفع قرص الشمس الباهر أخيراً وبسرعة، واصبح من المتعذر متابعة شكل الكرة المتوهّجة وحواشيها.. ولكن..

..عالم الوادي الأزرق الموشّح بأحزمة الضباب، وأشباح السعالى التي تخترقه والخطوط المتعرجة المقطّعة، وبقع الألوان الكابية، قد تحول إلى عالم جديد!..

.. غابات أشجار متعالية.

..جداول تتلوى في مسارها بين حقول ملوّنة.

..سفوحٌ تتماوج فوقها نباتات غضة، تعبت بأشكالها وألوانها الريح التي بدأ صفيها المنعم البارد العطر، يُسمع أعلى وأوضح.

..على السفح وراءه، تعرّف على مقرّه، كبرة الأغصان المحاكة، والتي بدت كلعبة صغيرة، تُبتت فوق سطح مزوّق ملّون، وكغيرها من الكبريات القليلة، تنتثر عشوائياً في بساتين الوادي.

..تعرف على مسار الجدول الصغير، وعلى أشجار الكرز المورّدة على جانبيه والتي يتلامع بياضها المشوب بحمرة خفيفة.

استقام المهدي في وقفته من القمة.

وقف أوسطاً بن مرأى الواديين من جانبيه.

عابته نسمة باردة عابرة فأطلق زفرة ارتياح ورفع رأسه صوب سمت القبة الزرقاء..

دندن المهدي..

..تنغم بحداء هامس:

هبّ النسيم!!..

هبّ النسيم فهبت الاشواق.

سادَ السكونُ على العوالمِ كُلِّها

وتَجَلَبَبَ الوادي رداءً خموله

حين عاد المهدي من هيامه بين ربوع الوادي وسرحانه تحت ضوء البدر الذي غمر القمم، وانساب على السفوح وأوراق الأشجار المرتعشة وزهور الكرز، ولمعت صفصافات ندية، وانعكست صورته فوق سطح الجدول، وتكسرت وهي تنتقل معه في تتبعه مساره المتحدّر، الموشّوش بانغام تتبدل وآلات الحصى التي يسيل بينها.

.. عاد ليجد عبد العزيز وقد هيء مائدة صغيرة وراءها كرسيان حيكا من أغصان أشجار العرعر البري، وفوقها دورقان وكأسان وبضعة صحون من المكسرات والمخلل وزيتون طازج.

جلس مسترخيا على أحد الكرسيين، بعد أن علّق سترته على طرف غصن برز من بين جدار الكبرة المحاكة من سيقان الصفصاف وأغصان الأشجار، سارحاً ببصره في الوادي وظلال أشجاره ولمعان وريقاتها.. في الجدول المنساب.. في سلاسل الجبال، التي بدت تحت ضوء البدر كأموج متراكبة تتسابق في انحداراتها وتسامقها..

_ سلامات!.. كيف كان هيامك الليلي في سفوح الشعب؟.. سأله عبد العزيز وهو يجلس إلى جواره وراء المائدة.

لم يجبه المهدي، بل مدّ ذراعه اليمنى، دن أن ينقطع لا عن افكاره ولا عن عالم المشهد السحري الذي يتابعه، وخطّ بكفه قوساً شمل الوادي، مشيراً لأخيه إلى معجزة الكون أمامهما.

_ لقد وجدت لك نوعاً مفتخراً من العرق المقطر من أعناب شيراز الشهيرة، وغدا تذوق نبيذ (خالار) الشهير لو أردت.. ثم واصل عزيز:

_ أعرِف أنك تريد كؤوس فارس العسجدية الموشاة بالرسوم، كي تصب رقرق العرق ثم تطرب لتضيبه، وبالحباب الذي يعلوه، حين يمتزج بماء الجدول البارد ولتتغنى..

_ " تُدارُ علينا الراخُ في عسجديةٍ !!!.. اي نعم مولانا عبد العزيز!!، أكمل المهدي مترنما ضاحكا، وهو يدلق من القارورة عرقاً في كأس أمامه:

_ " فللخمر ما زُرْتُ عليه جُيوبُها " .. أي نعم شيخنا! ثم سكب ماءً من القارورة الأخرى:

_ " وللماء ما دارتُ عليه القلائسُ "!!!..

ضحك الأخوان بانتشاء.

_ خبرني يا أبا بوران، نحن في بوان، هنا حيث حدت الحصان رفيقه الشاعر....كثيرون من ناجوا وحاوروا طيورهم ودواجنهم ومطاياهم، من نبينا سليمان إلى عمالقة الشعر الجاهلي، إلى فيلسوف الرحمة أبي العلاء إلى المتنبي.. لم يكن ذلك قولهم، خطابهم، وشعرهم، مجازاً باعتقادي، بل حقيقةً، أنهم وبقدراتهم الفكرية العظيمة، وتواصلهم مع عوالم لا نتواصل نحن البسطاء معها، تمكنوا من لغة عصية علينا.. تمكنوا من لغة الحيوان والنبات، بل لن أبالغ في القول لغة الكون الفسيح المتباعد.

..كان بإمكانهم مخاطبة كل كونهم، كل كائنات عالمهم وفهم لغاتها وإشاراتها.

_ أنفهمك يا المهدي، لا لإنك شاعر مرهف الأحاسيس، بل لمعرفتي بما تناقلوه عن المتنبي، من أنه كان يخاطب الأزهار والورود التي يمر بجانبها، ينحني فوقها.. يحييها.. يتحدث معها مبتسماً..

_ هذا ما أردتُ الوصول إليه في خواطري معك، قال المهدي، ثم
سرح قليلا في خيالات العتمة والنور أمامه قبل أن يواصل:

_ نحن غير بعيدين عن شِعْبِ المتنبى.. شِعْبِ بوان!

هنا.. حيث نقل ابو محسد العظيم إلينا مقالة حصانه الاحتجاجية
الفلسفية..

لم يكن ذلك شيطان الشعر وخياله وحده.. أنا لا أستبعد ابداً أنه، وهو
العاشق للخليل وبيداءها، عاشقُ صبرها على نزواتنا نحن بني البشر،
مدِين لها في الاستنجاد بها في أفراننا وتحدياتنا وتسابقنا ومغامراتنا
العبثية، في السفح والذروة والوادي من الجبل، في الجدول والنهر، في
اجتيازاتنا ببداء العطش القراء، في اقتيادها-منصاعةً- إلى جراح أليمة
وموت بشع، في حروب لا نفع ولا مكسب لها فيها.

.. وأخيراً أن يُعرف من تاريخنا المُخزي، أننا حرزنا عنق حصاننا
المتكبر الجميل، لنطعم به متطفلا وفدَ على حين غرة، لا لهدف غير
أن يقال " لقد كان الذابح اللعين كريما مضيافا !"

دقّ المهدي على الطاولة مُعقبا على حديثه بتأثر بالغ.. ثم واصل:

_ نعم لقد فهم أبو الطيّب، همهمة حصانه في شعب بوان، وتلكأه في
أن يغادر مكانه من (ربيع الزمان) الذي نحن شهوده الآن.

.. حدّته حصانه " أعن هذه الجنان يا صاحبي، أيها الشاعر الذكي
الحساس، تريد أن تقودني وترميني وترمي نفسك الى حماقة (تبارز
وطعان لعينين).. طعان يجرك إلى حافة هاوية النحس والهلاك.. هاوية
قرارها الموت والعدم، تلك الظلمة الرهيبة التي لا عود منها، خسارة
كل الأكوان العجيبة المذهلة التي أنت وأنا فيها الآن!!

_ خَفَّفُ قليلاً!.. على مهلك يا نديمي!!..

أتساءل دائماً يا المهدي.. أهي كأس واحدة؟!، أم كأسان؟!..

..الكأس الأول والفاصل الذي يليه: فرفشة ونكات وذكريات غزل
ومجون وشعر ومرح وسعادة!

.. الكأس الثاني! وهنا يبدأ حديث النقاش الجاد، والذكريات الأليمة،
وعتاب النفس.. ومشاكل الآخرين حين تنتهي هموم ومشاكل شاربيه
أنفسهم.

ذكرتني يا صاحبي بصديقنا مصطفى، ما أن يبدأ كأسه الثانية حتى
تتحول الجلسة إلى عاشوراء.

..يبدأ ابن خالتنا مصطفى، بالتأسي والبكاء.. البكاء على أي شيء
يخصه، بل أي شيء حتى لو كان بعيداً عنه كل البعد، إن لم يجد شيئاً
قريباً منه يبكيه.. يبحث عن أي مصيبة كانت، حتى لو وصل أسماعه
أن احترق في جزيرة (واق واق).

..كثيراً ما كنا نضطر إلى سحبه ومغادرة الحانة، قبل أن يشبعنا زبائنها
ضرباً ويلقونا خارجاً لإتانا نغصنا عليهم جلستهم وأطرونا سكرتهم..

أعرف الحل معك!..أنت لست مصطفى! كأس ثالث سيعيد مزاجك
المرح إليك.

دلق عبد العزيز عرقاً في كأس المهدي وقال:

_..ها هي.. " ما زرت عليه جيوبها "

ضحك المهدي بصوت عالٍ وأمسك بالدورق الآخر وصبّ منه:

_ " ما دارتْ عليه القلائسُ! "

_ والآن، أَلنْ نُطَلعنا على ما جادت به قريحتك من شياطين مسيرتك
الى عالم (يوان)؟! "

_ " الشعرُ لا يقوى على تحليله! "

أجاب المهدي مُشيراً إلى بانوراما النور والظلال في الوادي، وإلى
أسطول السفائن الجبلية العائمة في بحار الضوء القمري ..

مدّ ساقيه إلى جانب المائدة ودفع بكرسي الأغصان، لينسرح ويسند
ظهره على جدار (الكبرة).

أمسك قذح العرق بكفه اليسرى وبدأ بحدوٍ منغمّ خافت.

ضاع في عالمٍ عبرَ فيه ضوء البدر وظلاله الشافة، والوريقات التي
أهتزت مرتجفةً بأنسام باردة عذبة، وتخطى همس الجدول القريب
وأمواج الجبال أمامه:

هَبَّ النسيم فهبَّت الأشواقُ

وهفا إليكم قلبه المشتاقُ

ما شوقُ أهلِ الشوقِ في عُرْفِ الهوى

نُكِرُ، فقد خُلِقوا لكي يشناقوا

أما الرفاق فلم يسؤني هجرهم

إذ ليسَ في شرعِ الغرامِ رفاقُ

لو أبرمَ الميثاقَ ما كَمَلَ الهوى

شرطُ الهوى أن يُنقضَ الميثاقُ

لي في العراقِ عصابةٌ لولاهمُ

ما كان محبوباً إليَّ عراقُ

لا دجلةٌ لولاهمُ، وهي التي

عذبتُ، تروقُ ولا الفراتُ يُذاقُ

نشر الحمد قصيدة المهدي في الجريدة التي يُحررها.
سمع بالفضيحة المثارة في أروقة وزارة المعارف عن خَله المهدي
وعن القرار المجحف!

أعاد نشر القصيدة مع تعليق حادٍ ساخر موجّه إلى وزارة المعارف.

لم يقتصر الإحتجاج عن التجنّي على المهدي، بمقالة الجريدة إذ انتقل
ليصبح قضية كرامة وتحد للوزير الجديد، الذي جابه صَلف إصرار
مدير المعارف الحصري، المدعوم من قبل المستشار البريطاني
ومسز بيل قبله، على تنفيذ قرار فصل المهدي من وظيفة التعليم.

مصطفى علي، الأديب والشخصية الواعدة في مجال التربية والتعليم،
الذي يتابع نبوغ المهدي الشعري أخبر المهدي في جلسة خاصة بين
الأدباء، أنه شرح للحصري جمالية القصيدة وعروبية الشعر والشاعر،
فشكره المهدي وقال مبيتسما:

_ انا أفخر بكوني شاعراً عراقياً عربياً، ولكنني في الوقت نفسه فإن
فخري أكبر أن أكون إضافة الى ذلك، هندياً، وتُوروكياً، وكورودياً
وعَجمياً فُروسياً، وحتى اسكيموياً..أفخر بانتمائي حضارياً
و(وَحْضورياً على وزن عُروبياً) لعوالم أخرى .. إلى العالم كله!..لن
يزيدني ذلك إلا فخراً على فخر..ضحك الجميع طرباً عُروبياً صدوقياً
صداقياً.

إهتزت مكانة الوزير الذي أعاد الشاعر المهدي إلى وظيفته، بعد أن ألغى قرار الحصري الأقوى منه (المحتضن فوقياً-إنتادابياً)، والذي أعلن (زَعله) فاعتكف في بيته مدة ليست بالقصيرة.

تحسين قدري، الذي كان موظفاً في تشريفات صاحب الجلالة الملك فيصل الأول نقل إلى صاحبه المهدي، استياء جلالته من قضية تتستر وراءها أهداف طائفية، كان الملك يحاول جاهداً، خلال سنين ملوكيته الخمسة التي مضت في العراق، أن يخفف من وبائها..

طلب جلالته مقابلة ساطع.

لم تدم مقابلة جلالته للحصري أكثر من خمس دقائق، وجّه فيها توبيخه - رغم علم التصاق المعني بالمستشار البريطاني - على إثارة النعرات الطائفية.

..صَرَقه دون أن يفسح له مجالاً لتبرير سلوكه .

.. أما المهدي، فقد وجد أن الاستقالة هي أحفظ طريق لكرامته في هذا الجو المسموم.

..قام بتقديمها إلى وزير المعارف مباشرة متخطياً المراجع الوظيفية.

(مهران).. مسرحية من مشهدين

وافترقنا نريدُ مهرانَ نَبغي

ورطةً في لذاذةٍ وارتكاسةً

تارةً صاحبي يُصْفقُ كأسِي

وأنا تارةً أصفقُ كاسه

كانت خمارة (مهران) في قبو إنارته شحيحة، للحد الذي لا تميّز فيه أركانه الأربع.. تكاد لا ترى بوضوح سُحنات الجالسين المنتشرين على مؤائد متقاربة، رصفت فوقها قوارير وقنانٍ وأقداح وصحون صغيرة، تحتوي على مقبّلات ومُكسّرات، بينها منافض نحاسية، للسجائر التي يخبثن بدخانها فضاء القبو المغبّش، فتجعل الرؤية أكثر ضبابيةً وغبابة، يسهل فيها الهروب بأخيلة السكارى الى عوالمهم السعيدة المسحورة، يزيد من عوالمها تلك، ضجيج أصوات أحاديثهم وحشرجات أغانيهم وقرع كؤوسهم، التي تضيع بينها أنغام عازف القانون، القابع وراء آله وكأس عرقه، في زاوية قصية من الحانة.

سارع مهران، وهو كهل أرمني قصير القامة، أقرب الى السمنة، بوجه لا تخفى إنارة المكان الضبابية، بياضه واحمرار أنفه المعقوف، ولا الأبتسامة المرحبة في العينين والشفنتين..

يعتمر مهران طاقة مزرکشة سوداء، ويضع فوق كرة كرشه البارز، منزرا أبيضاً.

_ مراخبُ أستاذ مَخدي وياخلا بيك أستاذ ناصرغي.. تآلو ورائنا، خا
دلّيكم على اخسن مكان..

وكانت فعلا زاوية متطرفة عن الحشد الضاح.

_ تُعرف خواجه مهران المطلوب المعتاد.. خاطبه المهدي بمؤدة.

_ بسْ أنه راخ يَكُولُكْ على شئٍ خصوصي وصلني اليوم.. عرك
لبناني..اسمه (زخلاوي) مخمّر ومكطّر بمدينة زحلة .. وريخته
وتعمه يا سلام!.. مكطّر من الإنب.. مُشْ من تمر زهدي.. وطعم
خَبَبْتُ الخلوه بينو ولا اخلا منو.. أجيب رُبعيّه وراخ تطلب رُبعية
مثلو من جديد..

_ توكل على الله وعلى المسيح وعلى موسى اذا تريد خواجه مهران،
بس لا تنسه المزّات الخصوصية.. جيب زحله، وشتوره، وكل لبنان
لو تخب.. ومثل ما تخب وتغيذ خبيينا الخلو خواجه مخران.

بعد أن قدم المهدي استقالته، وفي أمسية راق فيه مزاجه، جلس في
الركن الذي هيأه صاحب الحانة له ولصديقه المُقرّب (عبد الرزاق
الناصر)

.. بدءا في قرع كأسيهما من عرق زحلة الجديد..

المهدي في أحسن أوضاعه ومرحه رغم مهازل ومتاعب الأيام الفاتنة.

.. لعله أحس بانزياح عبء مؤمرات دهاليز وأروقة وزارة المعارف
بعد تقديم استقالته.

جاء الحمد بعد فترة ليست طويلة.. عانق عبد الرزاق الناصري
بحرارة، قبل أن يسحب كرسيه لينظم لصاحبيه:

_ كم كأس سبقتماني به لاعوّض ذلك!.. وينك يا ناصري؟!.. مختفٍ
عن الأنظار؟!.. أضائع أنت في أزقة سكارى البصره؟.. أم هو حصار
أم سعود، عروسك التي لا زالت جديدة؟.. متى تأتي ب(سعود)
الموعود؟.. أسميناه قبل ولادته، ليكون سعدا عليك، ويمسح عنك
تقطيب وجهك الحزين الدائم!..

_ ما أن صفقنا كأسينا وأوحشنا غيابك، إذا بك تظهر لنا من مصباح
(علاء الدين) السحري. قال الناصري ثم واصل:

_ قدِمْتُ، بعد أن وصلت البصرة، روائح طائفية تنته من وزارة
المعارف، من دعيّ عروبتها الحالي، وداعية تتريك أمة العرب
والعجم قبل ذلك ببضع سنين.

قدِمْتُ لأخفف عن خُلنا المهدي، فاذا بي أراه يخفف عني وعن همومي
ويجرّني كعادته الى احدى زواياه المقدسة الخاصة.. إلى مهران.

_ هذا الحديث للكأس الثاني يا أبا سعود.. حين يبدأ النكد.. صحتك!..
صحة الجميع بما فيهم عروسك الحلوة، بل وسعودك الذي ستأتي به
قريبا.

تحدثوا في الكأس الثاني، الذي ينقلب فيه الحديث المرح العابث إلى
الجد.. إلى النقاش الحامي والحوار الطويل، وإلى السياسة والاجتماع
والعلم، بل وحتى نقاش نصوص الفقه والدين، مع العرق الزحلاوي
ومزّاته.

وشرح الناصري بإسلوبه، موقف المهدي ورائد العروبة:

_ " دار لغط كبير في أرجاء وزارة المعارف، التي كانت تحت إشراف مباشر من المستشار البريطاني، الذي سعى جهده وجهد الجهات المؤعزة الأعلى، إلى شق مسارات العراق سياسيا وثقافيا، المضعضة أصلا، وذلك بإشاعة وتأجيج الصراع الطائفي لزيادة انقسامات البلد، لا على الجانب الديني والسياسي بل في مجال الثقافة الهشة الوجود بوجه خاص، التي كان التعليم اساسها،.. أي وزارة المعارف."

" أوكلَ المستشار البريطاني والمسز بيل (الخاتون) المؤمنة بضرورة التقسيم الطائفي، أو كلا هذه المهمة اللا شريفة، إلى شخص طبل له الاعلام قبل حشره في مجال وزارة المعارف، واضعين له ألقابا عديدة.. (رائد القومية العربية)..(رائد النهضة العربية الحديثة)..(فنار الإندفاعة العروبية) ..هذا الرائد العربي القادم من إسطنبول، والذي كان داعيةً لا يشق له غبار قبل بضع سنين لا غير، لبقاء الهيمنة للدولة العلية وتترك شعوبها (وفي المقدمة منها الدول العربية الراضحة تحت النير العثماني لقرون) في ندوات عديدة عثمانية، وصحف ومجلات أبرزها (تورك أوجاني) بوجه خاص.."

" من المعلوم في مستنقع الإحتراف السياسي، تحرص أية سلطة تأتي على أنقاض سلطة قبلها، إلى مبدأ اساسي،.. الحفاظ على خدم السلطة الأبديين.. الموظفون الإداريون، عناصرُ مخابراتيه متمرسة، المرتشون العقلانيون في التستر، واولئك الطامحين من مواقعهم الدنيا لل صعود باي ثمن، وبالطبع على المجاميع التي تحمل العصا والخيزرانة والبندقية. "

"يعتبر هؤلاء لبنةً أساسية لدى كل الأنظمة المهيمنة، الطاغية منها بوجه خاص.

الحصري وتأريخه الإداري، وولائه للسلطة العثمانية (ورائد تترك كل أممها، بل والعالم كله)، الذي انقلب في أقل من ليلة وضحاها، إلى الصف المرشح للفوز، من إسطنبول، إلى حملة سايكس بيكو الغازية.. إلى دمشق وعباءة الأمير فيصل (الملك الاكيد)، تلك العباءة البدوية، التي لا ترفض لجوء أي قادم يستجير بغطائها وظلها. "

"..من دمشق ومع الحملة الانكليزية الى بغداد."

" لم يكن (رائدنا) يتقن العربية بشكلها الصحيح، بدأ بتعلمها في سن الاربعين، فكان لزاما عليه، أن يتابعه مرافق له كظله في أروقة (القُشلة)، حيث وزارة المعارف، بين وزارات اخرى هناك، يترجم له ويترجم عنه، كثيراً من العبارات التي تستعصي عليه أو على سامعيه.."

" رائد العروبة هذا، والذي سنتعرف على أمثاله في المستقبل، لم يكن إلا (ساطع الحصري)، ذلك الذي سجل له التأريخ العراقي الحديث، أنه أول من أدخل في قسائم التوظيف، وفي كل المنشآت العراقية التعليمية وكل معاهدها ومدارسها، الإستجواب التالي بحقلين:

- (هل انت شيوعي)؟

- (هل انت سني)؟

ولن تُقبل قسيمتك، ليحسن الاختيار، ما لم تحدد اي الطائفتين تنتمي أنت إليها، أي لن تكون موظفاً او استاذاً او طالباً ما لم تُجبر على توقيع (إعتراف البراءة) لانتماءك الطائفي.. (تعليمات مدرسة (الخاتون) بيل بضرورة الطائفية في البلد المتحكم برقاب أهله)."

نهض الناصري عبد الرزاق.. تبدل حديثه التحليلي إلى ضحك صاحب:

_ والآن إليكم من مسرح (مهران).. شيء سينكركم بمسرح
(الريحاني)

صوّر الناصري المشهد، بشكل مسرحي درامي وهو يقرع كأسه
الثالثة:

تقمص في نصه شخصيات ثلاثة: الحصري والناصرى والمعلق.

..حركاتاً وصوتاً.. وأداءً بانثوميمياً أحياناً:

دقّ على خشبة المسرح (الطاولة التي يجلسون حولها) ثلاث دقات!!

الحصري يعلن على جمهرة من الحضور:

_ "كل أمم!.. شرق غرب!.. هند، روم، فرس، عرب! لازم يصير -
أفندم ترك - لازم لزوم تتريك دولة عثمانى عليه، لزوم مولانا
نينا!!، يحفظ كيانة ولاية عليه اسلام!!.. تمام ناصري أفندم استاذ؟!
(يوجه حديثه لعبد الرزاق).. لزوم إنتي مثل جنابنا، يعمل ندوات
عن تتريك أم!!.. لازم يكتب مثل حضرنا في مجلة (ترك اوجاني):
..تترك عرب عجم لزوم ضرورات!!

..كل بلاد كل شعوب تتريك لزوم افندم!!،

مو روح إنتي يكتب شعز عربي في جريدة، حتى جنابنا، ما يفهم
كتابة حضرناكم.. مثل افندم المهدي!!

.. تمام ناصري افندم استاذ؟

الناصرى:

_ لا مو تمام جناب أفندم بك حصري!

حصري:

_ ليش مو تمام أفندم ناصري؟

الناصرى:

_ حصري أفندم!! .. دولة عليّة عثمان.. خلاص!!..
حصار!!..كابوت!!

.. جيوش عرب بقيادة انكليز اخذ كل دول عرب!

.. راح جيش إنكليز يوصل عند ولاية سورية..

.. فيصل ولد شريف حسين، راح افندم يصير ملك سورية!

.. جيوش إنكليز راح يدخل دولة عثمان ترك عليّة!

.. شهر.. أسبوع.. ترك بوش!!..كابوت!!.. ما كو أفندم
حصري!

الحصري يبان على وجهه الجزع:

_ أكيد كلام أفندم ناصري باشا؟؟

الناصرى:

_ أكيد افندم!.

الحصري:

_ خلاص!!.. لازم يصير كله عرب!! .. يروح حضرثنا يحضّر
لوازم صناديق، بقجات، أغراض!!..لازم كل عالم يصير ويّة حملة
انكليز فيصل شريف!

.. كل أمم! عجم! هند! روم!.. كله امم لازم يصير عرب!!
.. هنود عجم يونان، بلقان كله، يصير عرب.. عفارم ناصري باشا!..
عفارم إنت عند حضرتكم جريدة عربي.
.. حصرثنا يعمل مجلة اسمها (عرب أوجاني).. ساطع حصري بها
يُكتب بختم كبير (رائد عرب)!
يغادر الحصري بك القاعة (المائدة) على عجل.

المشهد الثاني

يدخل ساطع افندم.. جناب مدير معارف محترم اوغلو
(يحرص دائما ان يكون ملقته اللغوي قد جمع بعضا من صحابه
ليسيروا وراء
افندم مدير باشا محترم..)
الحصري:

_ يشوف هذا إفندي المهدي، يمدح جدوداته في بلاد عجم فرس
مجوس:

(هي فارس.. هواها رياح صبا) يرطن بالابيات:
يعني صبيات يُطَلِّع هوا؟!.. يُطَلِّع ريح!.. حيا سُر!.. ادب سِر!..
..(ما كان عراق محبواً):

شوف!.. شوف! وقاحة جناب مُعلِّم في مدارسنا!!

.. افندم جَلبي عاصمُ استاذ! لازمُ أَحَدُ مثل هذا، ابنَ مَجوس، او كُ
يبقى في ديرِئنا! في وظيفةَ معارفَ محترم!

..شوف لزومُ عملُ افندمُ استاذُ عاصمُ جَلبي، يطلعُ هذا من مَكاننا!
يعني قراريفصلُ من وظيفةَ معلمُ في معارفَ دائرئنا.

يتقمص الناصري الوجه الغاضب لرائد العروبة وهو يوجه أوامره
بحدة إلى عاصم الجلي رئيس دائرة الشؤون العامة والموظفين في
وزارة المعارف.

(يقوم الملحن اللغوي لرائد العروبة بترجمة كلماته الى الأستاذ الجلي)
عاصم الجلي:

_ لكن استاذ ساطع، لقد قرأت القصيدة وكذلك مصطفى علي ثروة،
مستشار الوزارة ولم نجد فيها مسأً بالعراق بل حنيناً له ولناسه إي إلى
(عصابة صحب الشاعر).

الحصري:

_ اي نعم هذا أنا يعرف من شاف قصيدة مطبوع جريدة... عند
المهدي افندي هذا عصابة خظير!!..حضرئنا، يسمع عصابة شيكاغو
امريكي! مثل آل كابوني.. هنا حمد عندنا!..مكاننا! رئيس
عصابة!؟..عصابة فرس مجوس!

ينفرد عاصم الجلي بنفسه إلى حاشية المسرح الأقرب للجمهور (حمد
والمهدي والسكرارى البعيدين).. بعيداً عن ساطع وأتباعه يرفع رأسه
إلى السماء ويصيح بصوت يائس:

_ لا فائدة يا ربي!.. " لقد أسمعت اذ ناديت حياً.. ولكن..".

ضحك الصحب الثلاثة على الاتقان المسرحي للناصري.

رفعوا كؤوسهم:

_ نخب رائد افندم بك عروبة ساطع معارف محترم مدير؟؟

استمر الرفاق الثلاثة في تصفيق كؤوسهم، كان مهران فيها يتردد عليهم بقنان صغيرة وبعضا من الموالح والمأكولات الخفيفة.. إنهم صفة زبائن حانته.

_ أين انت يا حمد؟! .. كأنك غبت عنا وانت تخطّ فوق شرف مهران الابيض.. تسرح وتعود برهة معنا.. أيرودك شيطانك هنا أيضا.. شياطين الحانة هنا غير شياطين الشعر المتعالية.. شياطين مهران، شياطين سكرانة عابثة!..

_ هيا إذا واسمعا بعض ما عندك قال عبد الرزاق منحيا بوجهه صوب الحمد وهو يبتسم..

_ وأفترقنا!..!

_ ابدأ لن نفرق!.. هاي شنو حمد افندم استاذ!

وافترقنا نريد (مهران) تبغي

ورطة في لاذة وارتكاسة

_ اي صاحبي إرتكاسة! وورطة! ما بعدها حتى ولا ارتكاسة المهدي افندم!

عَقَّبَ عبد الرزاق ضاحكا بصخب على بيت حمد الشعري..

واصل حمد القاءه بمرح:

وافترقنا نريدُ (مهرانَ) نَبغي

ورطَةً في لَذَاذَةٍ وارتكاسَةً

تارةً صاحبي يُصْفِقُ كأسِي..(مَلْنَا لِبَعْضِهِمَا كَأْسِيهِمَا ضاحكين)

وانا تارةً أَصْفِقُ كاسَهُ

فاحتسينا كأساً وأخرى فدبَّتْ

سورةٌ لم تَدْعُ بنا إحساسَهُ

لا (الحسينُ الخليع) يبلغُ شأوينَا

ولا (مسلمٌ) ولا (ذو النُّؤاسَةِ)

قال لي صاحبي الظريفُ وفي الكفِّ (قرع حمد كأسِ الناصري محيياً)

ارتعاشٌ، وفي اللسانِ إنجِباسُهُ:

أين غادرتِ عمَةً واحتفاظاً؟!!

قلتُ: إنني طَرَحْتُهَا فِي الكُنَّاسَةِ

رفع حمد كأسه وقال:

سأكملها في جلساتٍ أخرى

براءة.. عبث.. مجون.. وتمرد في بلاط الملوك

_ استاذنا الكريم رستم حبذا لو تُطلع جلالته على حضوري، للتشرف بمقابلته!

_ حالاً سماحة شيخنا الجليل.

_ نقر رستم حيدر رئيس الديوان الملكي على الباب برقة.. دخل على جلالته مبلغاً جلالته عن حضور سماحة الشيخ محمد الصدر والمهدي الحمد.

(الشيخ ضخم الجثة بعتمته البيضاء الكبيرة واللحية المشدبة التي دبّت بين سواداتها شيبات فضية لامعة معدودة، رجل سياسة تحت هيئة دينية.)

كان المهدي في غير هيئته التي كان عليها في حانة (مهران).. بصاية سوداء وحذاء أسود وعمّة صغيرة بيضاء.

دخل وراء سماحة الشيخ الجليل الذي مشى بخطوات واسعة واثقة صوب منضدة جلالته..

حار بالخطوة التي تلي وصوله الى السدّة الملكية.. هل يأخذ بيد جلالته ويقبلها؟؟.. هل ينحني أمامه؟؟.. كم سيطول انحناءه؟؟.. هل يصافحه بعد الإنحناء؟؟.. هل يمسك بكتفيه ويرفع رأسه ويقبل أرنبة انفه.. لا لا.. تقبيل الأنف لكبار القوم لا لشاب صغير!!.. هل يقبل كتفيه على عادة عشائر البدو والجنوب؟؟.."

_ تفضلاً.. تفضل سماحة الشيخ!.. تفضل إبني الحمد.. إسمك المهدي الحمد مو تمام وليدي..

استفاق من عالم خيالاته على وقوف الملك فيصل وراء منضدته بوجه مرحب وابتسامة متحفظة.

..رجل نحيف فاره القامة، بوجه طويل غير حليق، مشت فيه وفي شعره وقداله القصير الأسود خطوط شيب غازية كثيفة.

كان هنالك كرسيان معدّان غير بعيد عن المنضدة التي صُفت فوقها بضع ملفات ودفتري صغير، منفضة سجائر، قلم ومحبرة، وتلفون اسود ضخم..

.. ظلت عينا المهدي تزوغان بين الحين والحين إلى عمرة الرأس التي بدأت تشيع بين كهول افندية بغداد.. (السدارة).. الفيصلية الرمادية اللون الموضوععة على طرفٍ من المنضدة..

_ يا هلا وميت الهلا بالشيخ!.. والله وغيبتك عني طالت جثيز!.. وشحال السادة الناييني وابو الحسن وشيوخ النجف الإجاويد.. عساهم بخير.. لوما المشاغل التي تعرفونه شيخنا، جان زرت النجف الأشرف نُوبة ثني..

_ كلهم يهدون السلام لجلالتكم ويدعولك بطولة العمر.. وهذا شيخ الشباب ينفأك سلامات عمّه الشيخ جواد..

_ الشيخ جواد.. ابو الهزات والثورات.. وشحال عمك وليدي، ينطية الله العافية والسلامة.. وإنّ إبني المهدي وصّاني بيك سماحة الشيخ.. ومجانك عندي هني بالبلاط..

_ أشكر جلالتم.. مولانا الملك، ويزيد جاهكم ومجدكم وفضلكم
علينا.. اشكركم سيدي..

لم يعرف المهدي كيف يُنهي عبارات شكره وامتنانه لولا أن سماحة
الصدر تولى ذلك..

_ تذكرون جلالتم قبل أربع سنين، بزيارتكم للنجف.. شاب معمم
يُلقي قصيدة ترحيبية:

أعدَّ لك النَّهْجُ الواضِحُ.. فسِرْ لا هَفا طَيرَكَ السانِحُ

وحياكَ رَبُّكَ من ناصِحٍ.. إذا عَزَّنا المُشْفِقُ الناصِحُ

_ والله وما انساله كوله بأثوي سجين قبرص:

هي الحياة بإحلاء وإمراء

تَمْضي شَعاعاً كزَنِدِ القادِحِ الواري

سجِيَّةُ الدهرِ والبَلوى سَجِيئَةُ

تَقَلَّبُ بَينَ إقبالٍ وإدبارِ

لم يَدِرْ من أحسنوا صَنعاً لغيرهم

بأن عُقباهُمُ عَقبي (سِنمَارِ)

يا ناهضاً بأبابة الضيم منتفضاً

عَنْ أن يَمَدَّ يداً للذلِّ والعارِ

إن لم يقيموا لك الذِكرى مُخلدَةً

فحسُنْ فَعَلَكَ فينا خَيْرُ تَذكارِ

قرأ الملك فيصل الأبيات بصوت بدوي رخيم وباللقاء مؤثراً..

خاطب المهدي بوجه باسم ودود:

_ وباللّهُ ماني ناسي وكفّة الزلْمَةُ الأصيل ويّه أبوي..

أشار براسه للصدر أن يقترب بكرسيه من مكان جلوسه..

..بدأ حديث شبه هامس بين الاثنين وهما يقربان رأسيهما من بعض.

ظل المهدي فوق كرسيه ينظر إلى الاثنين بخواء فترة غير قليلة، غير حاسب أن هنالك اموراً هامة تدور، قد يكون ورائها أغراضا اجتماعية أو سياسية تخصّ البلاد ويجب أن ألا تخرج إلى العلن..

أخذ يُلاعب أصابعه ببعضها.. يمسح اطراف صايته المتهدّلة على جانبيّ الكرسي.. يعدّل من عمامته الصغيرة التي تخيل أنها مالت جانبا..

إلتفت الشيخ الجليل صوبه.. أحنى رأسه قليلا ونظر اليه عبر شاربيه ولحيته الكثة.. فهم منها المهدي بعض عتاب..

.. نهض كمن وُخز بشكل مفاجيء، مُدركاً وجوده (الثقيل) في غير وقته.. أعاد من جديد تعديل عمّته.. إنحنى بوجه محمّر وبنظرة خجلي، انحنى لجلالته وغادر على رؤوس أصابعه.

قراءة الساعة جلس المهدي في جانب من صالة انتظار الديوان الملكي.

.. خرج الشيخ الصدر مودعاً رئيس الديوان.

حين نهض المهدي للحاق به، أشار الشيخ اليه برأسه، أن يظل جالسا في مكانه.

.. مرّت قرابة ربع الساعة وهو جالس بصمت، دون أن يعرف الحركة التالية، كان رستم حيدر مُتَشغلاً بأوراق عديدة أمامه، واستجابات لرنّات الهاتفين على منضدته..

.. أحس بشوق شديد لأنفاس سيجارة يولعها!

.. هل يسمح المكان والموقف بتدخين سيجارة؟!

.. تشاغل بالنظر عبر نافذة على يساره الى شواطي دجلة ونخيلها.

_ رستم!!..

فزّ على صوت جلالته، يقف عند باب غرفته المُشرع، موجهاً

خطابه لرئيس الديوان، الذي نهض وسارع الى الإقتراب من الملك..

_ رستم!!.. خَلّي المُراسلُ عدنان، يروح ويّه المهدي لخياط

البلاط يفصلون له بدلات رسمية.. تُعرف هذول!! (فراك

وسموكنج) وغيرها من لازمات القيافة الرسمية..

لم يدم إرتداء المهدي لبدلة الفراك وصدارها الابيض المزركش و

القميص الأبيض ذي الياقة المنشأة الصلبة وب(بأبيونتها) الذي

أحس بإختناق لوضعه حول عنقه.. لم يَدْمْ إلا يوماً وحدا قضاه

بشكل عصيب في دوان التشريفات الملكي.

.. عاد في اليوم التالي ليفاجيء الجميع بما فيهم جلالته، بقفطانه

الأسود الطويل وعمّته الصغيرة البيضاء.

ضحك الرفاق الثلاث.. والمهدي يروى لقطات من وقائع مرّت عليه
في قفصه الملكي.. ضاع ضحكهم المجلجل في صخب الحانة وضباب
دخانها وامتزج بموالات سكاراها ونشيح بعضهم ورنات عازف
القانون المخمور في زاويته القصية..

نادوا بأعلى صوتهم على (مَخران) ليجلب قنينة مستكي (زخلاوي)
جديدة..

واصل المهدي روايته بعد أن خلع عنه سترته وعلّقها على ظهر
كرسيه:

_ امّا قصة المندوب السامي فقصة لا تجاريتها أخرى.. لقد أنزلت فيها
هيبه الأسد العجوز!!..

"غادر رستم حيدر في مهمة ملكية، وكانت فترة إستراحة لتحسين
قدري.

..لم يكن هنالك غيري في الديوان الملكي، حين قدم شخص منفوخ
كالديك الهراتي، طويل القامة بملابس عسكرية تحمل نجومًا وسيوفا
ذهبية متقاطعة على كتفيها، ومساظر قصيرة، من قطع صدقيّة ملونة
متلامعة على صدره، تُمسك كفه اليسرى بسدارته العسكرية، ويُمسك
باليمينى طرف عصاً تحت أبطه، يحمل طرفها غطاءً ذهبياً.

_ أعلمُ المك بقدمي!!

خاطبني من علٍ بعربية لكنتها انجليزية، وانا وراء منضدة التشريفات،
دون أن يلتفت إليّ او ينظر صوبي.

_ تقصد صاحب الجلالة الملك المعظم فيصل!

_ نعم صاحب الجلالة.. قالها بضيق ظاهر.

_ وما إسمك الذي ساعلنه لجلالته؟..

_ السر هنري دوبس!

_ طيب.. ساعلمه!.. لكنك لا يمكنك الدخول عليه وانت تحمل عصاً
تحت أبطك!

_ يبدو أنك تجهل اشياء كثيرة!.. قالها بضيق شديد وقد بان عليه
إنزعاج ظاهر.

_ ضعها على الطاولة رجاء.. لا يمكنك الدخول على الملوك حاملاً
(عصايةً)!

وضع الجنرال دوبس عصاه على المنضدة وهو يقف مشدود القامة
دون أن ينظر صوبي.

نصف ساعة مع الملك وخرج.. نظر الى المنضدة فلم يرها (كنت قد
وضعتها - متعمداً - في أحد أدراج المنضدة).

_ أين هي أيها الشاب؟!

_ اين ماذا؟ تظاهرت النسيان.

_ عصا الماريشالية؟

_ (العصاية)!!

أخرجتها وسلمتها إليه.. خرج وقد رفع رأسه اعلى ما يستطيع وبخطى
واسعة غاضبة.

عاد الأستاذ تحسين قدري نائب رئيس التشريفات في الديوان الملكي
بعد لحظات

_ لقد شاهدتُ سيارة المندوب السامي تغادر البلاط اثناء دخولي.. لقد
قابل جلالته اليس كذلك..

_ تقصد الرجل العسكري الانكليزي (لم اخبره بمعرفتي بالقادم من
خلال صورته في الصحف)

رويتُ لتحسين قدري قصة العصا.. ومنعي لدخوله معها.. رفع رأسه
وهو يفكر بروية في القصة.. قال وهو يقَلب بعض الاوراق فوق
منضدته التي كنت اجلس وراءها اثناء غيابه:

_ حسنا فعلت! "

ضحك عبد الرزاق الناصري ومال على الحمد بجانبه:

_ هذه بالضبط نسخة من مشاكل نصفك الثاني يا الحمد.. والكل
يعرفها.. فقط سؤال واحد يشغلني.. الشعر والبلاط الملكي كيف تدبّرت
امرهما سوية.

_ ما هذا يا المهدي؟!.. يوم واحد لا تطيق بدلات البلاط الرسمية وتصرّ
على أن تأتي بصايتك السوداء وعمامتك البيضاء.. قلنا شاب من أسرة
دينية يحترم تقاليدها ولبوسها، لكن يا إبني المهدي.. أنت واقف امامي
الآن، بعمامتك التي تعتز بلبسها حتى في المراسيم الرسمية وترفض
غيرها.. والله لا افهمك وانت تجيب صاحبك السكران على سؤاله في
خمارة:

" أين غادرت عمّة واحتفاظاً قلتُ إني طرحتها في الكُناسة "

أفرد الملك فيصل كفيه على وسعيهما متسائلا؟؟

_ مولاي خيالات شاعر لاغير!.. ابن الرومي لم يقرب الخمر في حياته وله اجمل قصائد الخمريات.. كذلك الشاعر الحلي الذي أعرف زهده شخصياً:

" فاسقني كأساً وخذ كأساً إليك .. فلذيق العيش أن نشتركا "

_ لكن القصيدة أُمامي.. انها ليست للرومي او الحلي.. القصيدة ذاتها سكرانة كصاحبها.. إبتسم الملك بحيرة وهو يرفع أمام وجهي الجريدة معاتباً..

تارةً صاحبي يُصْفَقُ كأسِي .. وانا تارةً اصفقُ كاسه

لا الحسينُ الخليغُ يبلغُ شأوينَا .. ولا مُسلمٌ ولا ذو النواسه

قال لي صاحبي الظريفُ وفي الكفِ .. ارتعاشٌ وفي اللسانِ إنحباسه

اين غادرتِ عمهً واحتفاظاً .. قلتُ إني طرحتها في الكُناسه

.. ثم قصائدك السياسية والانتقادية.. أنسيثُ أنك في عهدة البلاط الملكي، ما يصدر عنك كانه تصريح عنا وعن سياستنا.. نحن يا إبني المهدي لا نزال تحت الانتداب.. وما يمس مصالحهم.. يُفترض!!.. وكرر يُفترض!! وانت لست جاهلاً لتعرف ما الذي اعنيه بالإفتراس، أن يمسّ مصالحنا ايضاً.. هي مرحلة نحاول بكل مساعينا أن نقصّر عبئها وفترتها.. لا تستعجلُ الأمور فقد تكون النتائج غير ما تريد..

انا مُغرم بالشعر.. انا بدوي أحبه بالفطرة ولكن:

سكْتُ حتَّى شكّنتي غُرَّ أشعاري
واليومُ أنطقُ حُرّاً غيرَ مهذارِ
سلطتُ عقلي على مَيْلي وعاطفتي
صبراً كما سلطوا ماءً على نارِ
لو في يدي لحبستُ الغيثَ عن وطنِ
مُستسلمٍ وقطعتُ السلسلَ الجاري
العذُرُ يا وطناً أغليتُ قيمتهُ
عن أن يُرى سلعةً للبائعِ الشاري
صرفُ الدراهم باعوا واشتروا وطني
فكل عشرةِ أميالٍ بدينارِ
يا للرجالِ لأوطانٍ موزّعةٍ
بكفٍ كلِّ مُهانِ النفسِ دعارِ

_ ثم خذ نفسَ مقولتك في قصيدة (أمان الله)، التي سيَعْتَبُ عليّ
المسيرونُ لأُمورٍ نحاولُ أن نأخذها منهم بأيدينا.. أنت تعرف من هم
وراء إزاحةِ أمانِ الله في قصيدتك المؤثرة:

وداعاً ما أردتْ لكِ الوداعا

ولكنْ كان لي أملٌ فُضاعا

ومن من لا يريد ما أراد أمان الله من إصلاح وتقدم لبلاده.. فأطاحوا
به وتعرف من أعني!!

وها أنت تقول ما أقوله الآن أنا كذلك:

أحمَلَك الملامَةَ في أمورٍ

بطاءٍ قد مَشَيْتَ بها سِراعا

وقد كانتِ أناهُ منكَ أولى

وإن كنتَ المجرَّبَ والشجاعا

وها انت تستعجل يا المهدي على الاخرين الأمور..

ثم واصل بعتب أشد:

.. قصيدتك الجميلة (علموها):

علموها فقد كفاكم شئارا

وكفاها أن تحسب العلمَ عارا

لكن أن تثير علينا ضجة كبرى، من رجال لهم نفوذهم الديني الواسع
بين اوساط من الجهل أوسع، نحاول ان نزيحها بحكمة ورويّة، أمر
آخر يا المهدي:

سَتَّبِقِي طَوِيلًا هَذِهِ الْإِزْمَاتُ

إِذَا لَمْ تَقْصُرْ عَمَرَهَا الصَّدَمَاتُ

إِذَا لَمْ يَنْلِهَا مُصْلِحُونَ بَوَاسِلُ

جَرِيئُونَ فِيمَا يَدَّعُونَ كُفَاةً

مَشَتْ كُلُّ جَارَاتِ الْعِرَاقِ طَمُوحَةً

سِرَاعًا وَقَامَتْ دُونَهُ الْعُقَبَاتُ

وَمَنْ عَجِبَ أَنْ الَّذِينَ تَكْفَلُوا

بِإِنْفَادِ أَهْلِيهِ هُمْ الْعَثْرَاتُ

تَحَكَّمَ بِاسْمِ الدِّينِ كُلُّ مُذَمِّمٍ

وَمُرْتَكِبٍ حَقَّتْ بِهِ الشُّبُهَاتُ

وَمَا الدِّينُ إِلَّا آلَةٌ يُشْهَرُونَهَا

إِلَى غَرَضٍ يَقْضُونَهُ وَأَدَاءُ

وِخْلِفَهُمُ الْأَسْبَابُ تُتْرَى وَمِنْهُمْ

أُصُوصٌ وَمِنْهُمْ لَاطَةٌ وَزُنَاةٌ

_ دَعَاكَ مِنَ التَّعْرِيبِ الْمَبْطُنِ بِي فِي قَصِيدَتِي (سَكَتٌ) وَ(سَتَّبِقِي طَوِيلًا)

وَلَكِنْ..

_ مَعْذَرَةٌ وَلَكِنْ حَاشَاكَ يَا مَوْلَايَ..

_ دَعَنِي أَكْمَلُ!!!.. " لَصُوصٌ"، و" لَاطَةٌ، و"زِنَاةٌ"..لقد قلبت الدنيا
علينا ببرقيات الإحتجاج.. اوشكوا أن يحيلوني الى المحاكم على
وجودك تحت رعايتي.

قالها بغضب وانفعال شديدين..

نكس المهدي رأسه بوجه محمّر نادم

_ سأكفيك مولاي شرّ متاعب لجلالتكم بوجودي..

_ إسمع يا ابني المهدي.. مكانك هنا، لقد اردته جسرا لك للعبور الى
عوالم اوسع تليق بمطامحك.. تحسست فيك مطامح البدوي الذي يتوقى
الى آفاق رحبة واسعة ولي عزم، لا نيّة! أن أفتح ابوابا امامك.. لكن
إسمع أولاً، عليك بإرضاء اخي الاكبر علي!!.. إنه الناسك المتعبد،
قبل أن يكون الملك، ورضاه عندي عنك شيء سيفرحني..

_ قصيدتك الأخيرة..

_ لعن الله الشعر يا مولاي، لقد أكل لساني دون إرادة مني ولكن ما
جريمة قصيدتي يا سيدي وأي قصيدة؟

_ إنها (جربيني).. لن تقول انها خمريات ابن الرومي والحلي..

جربيني من قبلُ أن تزدريني

وإذا ما ذممتني فاهجريني

ويقيناً ستندمينَ على أنكِ

من قبل كنتِ لم تعرفيني

لا تقيسي على ملامح وجهي

وتقاطيعه جميع شؤني

أنا لي في الحياة طَبَعٌ رقيقٌ

يتنافى ولون وجهي الحزين
إذني لي أنزل خفيفاً على صدركِ
عذباً كقطرةٍ من معين

إسمحي لي بقبلةٍ تملكيني
ودعي لي الخيارَ في التعيين
وأذا ما سُئلتى عني فقولي

ليس بدعاً إغاثةُ المسكين
لستُ أماً لكن بامثالِ هذا

شاءتُ الأمهاتُ أن تبثليني
أنا ضدَّ الجمهورِ في العيشِ

والتفكيرِ طُرا وضدهُ في الدين

لقد عاتبني أخي علي أن اسمح بقولك الاخير: " ضد الجمهور " هذا
شأنك!.. ولكن " ضد الدين!!.. ضدالدين!؟ " .. إذهب وأعتذر منه
مرضاةً له ولي!

.. ذهبْتُ واعتذرت من جلالته بجموح خيال الشاعر وعبوره الى
المحاذير.

_ لكن اسمع يا ناصري!.. اخي عبد الرزاق ذو الوجه العيوس والنكتة الساخرة ومسرح مهران الساخر العابث والراقص.. لم تكن كل ايامي رخيّة حلوة، كانت هنالك لحظات مريرة وحزينة احياناً..

كيف لي أن انسى علائم الموت على وجه الرجل الرصين، محط محبة الملك ومحبة واحترام كل من في ديوانه..

دخل وحيّانا جميعا في المكتب، لقد انتهت.. بل ولاحظ كل من كان هناك شحوب عبد المحسن السعدون وذهول عينيه وتقطبية وجهه.. لم تطلّ مقابلته لجلالته، وحين خرج كان توديعه لنا على غير ما عهدناه أيضاً، مهذباً ودوداً وحادراً.. أمسك بيدي كل منا بكفيه الناقلين، اطول مما تتطبه مصافحة اعتيادية، مقرّباً رأسه المحني صوب كل واحد منا على التوالي ومكرراً:

_ مع السلامة!!.. مع السلامة!!..

حين فارق صالة الديوان بخطوات سريعة، اصابتنا لحظات وجوم، وبدت في عينيّ علائم حيرة، شاركني بها تحسين قدري، في حين ظل رستم حيدر ينقر بقلمه بسهوم فوق أوراق كانت تحت يديه..

صبيحة اليوم التالي رنّ جرس الهاتف على مكتب رستم..

سمعناه يصرخ وهو يقفز مُسقطاً سماعة الهاتف من يده:

_ مصيبة!!.. مصيبة!!.. إنحتر السعدون!!.. مصيبة!!..

سارع رستم الى باب غرفة الملك.. نسيّ أن ينقر عليها مستاذناً.. إقتمح الغرفة.

ثوانٍ لا غير، وخرج جلالته مسرعاً يتبعه عن قرب مدير ديوانه.. إستقلا سيارة البلاط وغادرا.

صمتَ الرفاق الثلاثة.. خُيِّلَ اليهم أن حانة مهراَن الصاخبة قد شاركتهم
صمتهم المهيب..

قطع الصمت صوت الناصري:

_ لقد صوّرتَ يا مهدي حال بغداد الحزينة إثرها في بيت واحد:
" نِصفان بغدادُ فنِصفٌ مَحشَرٌ.. ساحاته اُكْتَظَّت ونِصفٌ بِلِقَع "

فيمَ الوجوم؟! وجومكم لا ينفُ

نَفَدَ القضاءَ وحمَّ ما لا يُدفعُ

الشعبُ مُحْتَشِدٌ هنا يَنَسَمَعُ

ماذا يقولُ الشاعرُ المُتَفَجِّعُ

إحذرُ لسانِي أن تقولَ مَقالَةً

ليستَ تَلِيقُ بِهِ فَإِنَّكَ تُقَطِّعُ

واصل المهدي حديثه بعد إلقاء الناصري للأبيات:

_ وشيء محزن آخر، حين جاء الرصافي ليقابل الملك معذرا..
وعتاب جلالته.. عتاب الانسان السَمِح الأرفع من الغضب:

_ أنا يا معروف؟! .. أنا من..!؟:

" .. يعددُ أياماً ويقبضُ راتبا "

وَيَصْفَح!.. بَلْ وَأَكْثَرُ مِنَ الصَّفْحِ!!.. يُجْرِي لَهُ رَاتِبًا شَهْرِيًّا لِمُسَاعَدَتِهِ
فِي أَيَّامِ عَوْزِهِ تِلْكَ.

_ هَذَا كُلُّهُ يَا مَهْدِي وَتَسْتَقِيلُ مِنْ " الرِّعَايَةِ " وَمِنْ " جِسْرِ الْعُبُورِ "
الَّذِي أَعَدَّهُ لَكَ.. ثُمَّ لَمْ يَنْتَهُ الْمَوْضُوعُ عِنْدَ هَذَا:

وَقَصِيدَتِكَ الْجَمِيلَةَ وَالْمَشَاكِسَةَ لِلْمَلِكِ، فِي التَّرْحِيبِ بِقُدُومِ الْأَمِيرِ فَيَصِلُ
أَلْ سَعُودِ:

" عَلَى حِينِ اصْطَفَى جِيرَانَ نَجْدٍ .. بِجَمْرٍ لَطِيٍّ وَسُمِّْ الْأَفْعَوَانِ "
عَلَّقَ عَبْدُ الرَّزَاقِ النَّاصِرِيُّ مَمَازِحًا سَاخِرًا.. رَفَعَ كَأْسَهُ وَأَحْنَى رَأْسَهُ
لِلْمَهْدِيِّ ضَاحِكًا.

الناصرى (مهران) ومسرحية جديدة

_ والآن يا جمهور مسرح (مهران) الكرام اليكم هذا الفصل المسرحي..

_ اليكم موليير مهران!.. الناصري الكبير!!... عقب الحمد

_ شكسبير (مخران) و(الزخلاوي) الجديد اضاف المهدي!

دقّ الناصري ثلاث دقائق على طاولة (المسرح):

قاعة واسعة.. نوافذ واسعة تطلّ على حديقة بأشجار عارية الأغصان.. هنالك موقد في الجدار المواجه للنوافذ تلتهبُ فيه اخشاب كبيرة.

يدخل شيخ مهيب بلحية بيضاء وعمّة كبيرة سوداء، يتبعه شاب بقفطان اسود طويل وعمّة بيضاء صغيرة.. ينهض من على عرش مذهب وراء طاولة كبيرة بدوي مهيب بعقال مقصّب وكوفية رمادية مرقّطة:

_ هلا وحيهلا بالشيخ الكبير.. وهلا بأبن الشيخ.. ثم عقب ممازحا.. (الشيخون)!

_ هلا بجلالة المهلي.. ملكنا وتاج بلدنا.. (الشيخون) الذي يصحبنى، مثل ابني وما قصرت بالقول جلالتم.. وهو ابن شيوخ.. ابن علم ودين اباً عن جد.. لا يعرف في دنياه غير علم الفقه والدين والشعر سيدنا.. أقدم لكم مولانا المهدي، الذي طلبت له مكانا قبل ايام تحت رعايتكم.. في ديوانكم..

_ أي نعم.. ومكانه حاضر بتشريفات الديوان من هذه الساعة..

_ اشكر جلالتم على رعاية أبناءنا.

حضر مُعين جلالته من غرفة مجاورة بدلة القهوة وفناجينها..

بعد أن تناول الزائران قدحين وخرج المُعين، أشار جلالته بانحناءة خفيفة الى الشيخ الجليل بالاقتراب..

بدءا حديثا هامسا فترة غير قصيرة، في الوقت الذي كان (الشيخون) يتشغل بأصابعه او بققطانه او عمامته، حتى بدتْ إلتفاتة مُعاتبية من الشيخ فتسلل خارجاً بحذر.

المشهد الثاني..

ضوء النهار قد تبدل الى إنارة ليلية.. نفس القاعة الملكية.

يدخل رئيس الديوان الملكي ببدلته الرسمية الـ (سموكنج)

_ نفذنا كل توصيات جلالتم بشأن المهدي موظف التشريفات الجديد..
هياًنا له البدلات الرسمية المناسبة التي أمرتنا بتحضيرها له من غرفة البدلات، ووفق مقاساته تماما.. كان وسيما حقاً ببدلة سموكنج التي ناسبته تماما.. ولكن سيدي!

_ ماذا يا رستم؟

_ لقد فاجأنا بعد الظهر.. بعد ساعات فقط على ارتدائه زيّ التشريفات، بعودته الى ققطانه الاسود وعمّته الصغيرة البيضاء.. سيدي إن هذا يخرق التقليد المتبع في ديوان جلالتم!

تشاغل جلالته لحظات في اوراق فوق منضدته:

_ إسمع يا رستم!.. إنه سليل عائلة دينية عريقة.. مئات السنين من تقاليد صارمة في المنطق والشرع، وفي قيافة ملابسها المهيب، الذي يتناسب مع تبخر المتدين المتعبّد.. إنهم نساك عريقون في هذا المضمار!.. لي رجاء يا رستم.. حبذا لو تنقله الى (العوا) و(قدري) وحتى الى مراسل الديوان.. لو طلب منكم الشيخ المهدي أن تصلّوا وراءه جماعة، في مواعيد الصلاة اثناء الدوام، فلا تتوانوا عن ذلك.

نفس الموقع وقد فُتحت فيه درفات النوافذ وبَدت الاشجار مخضوضرة
مُزهرة من خلالها.

_ ما هذا يا إبني المهدي.. لقد اجتمعت لدي عدة صحف، قبل أن
أصدق عيني.. والحقيقة لستُ مصدّقاً الى الآن أنه أنت من تقول:

إلعي فالهوى لعب .. وابعثي هزة الطرب

نسبُ بيننا الهوى .. إحفظي حرمة النسب

نسبكَ أنت شيخ مهدي!، يا ابن الأجاويد،.. يا ابن الشيوخ!.. يا ابن
ثوار العشرين.. نسبكَ وهوى مغنيةٍ وراقصة؟!..

.. هذا وأنت في بلاط الهاشميين!!

"وأختفي عضوك الذي مازَهُ .. الله على كل ما لديك وزانه "

" ككتابٍ كَشَفْتِ عن صفحتيه.. ثمَّ عَطَيْتِ عُنُوهُ عنوانه "

عجيب والله أمرك!.. هل هذا معقول؟!.. ثمَّ.. اسمع!.. ولا داعي لأن
تسمع فانت تقولها وتُعلنها صارخة صريحة :

"واحتسينا كآسا وأخرى فدبت.. سورة لم تدغ بنا إحساسه "

" لا الحسين الخليغ يبلغ شأوينا.. ولا مسلم ولا (ذو النواسه) "

" قال لي صاحبي وفي الكف ارتعاش وفي اللسان إنحباسه "

" اين غادرت عمّة واحتفاظا.. قلتُ إني طرحتها في الكُناسه "

أهذه هي العمّة التي تعتمر بها الآن أممي، والتي ابدلت الزي الرسمي بها.. هذه التي كان المصلون يرونها فيحتشدون خلفها وخلفك مكبرين وداعين.. ترمي عمامتك وعمامة اجدادك في الكناسه يا المهدي؟! ..

ضحك الحمد والمهدي وراء كأسيهما وصرخ الاخير بصوت عالٍ:

الست أنت صاحبي يا الناصري.. انت صاحبي؟! "وفي الكف ارتعاش وفي اللسان انحباسه " لا غيرك؟.. وها أنت الآن خطيب جامع الأزهر الشريف.

واصل الناصري تمثيله مقلدا اصوات شخوص المسرحية وحركاتها.

نفس الصالة وقد أشرعت كافة النوافذ ودارت بضعة مراوح عمودية وشقفية..

.. الجميع بالبسة خفيفة مبتسرة.

يدخل نائب رئيس الديوان الملكي حاملا قصاصات صحف عديدة.. يطلع عليها الملك مقلبا العديد منها بانزعاج ظاهر.. يرفع سماعة الهاتف ويستدعي المهدي من صالة ديوان التشريفات.

_ مولاي صاحب الجلالة!!

_ عبث الملاهي وخرم الحانات والادب المكشوف في
الغواني والراقصات. واعتذارتك بخيالات الشاعر وأوهامه، والذي
تظاهرتُ أنا بتصديقه، لامحك الفرصة بعد الاخرى.. وسامحناك!
..لكن مهاجمة رجال الين بشكل عنيف ومباشر..

"..ومنهم لصوصٌ وفيهم لاطةٌ وزناة "

فَرَدَ الملك كَفَّيه ناظراً بانزعاج ظاهر الى وجه المهدي:

_ (منهم) سيدي (منهم)!!... خَصَصْتُ ولم أعمم!!

ثم تأتيني بعد ذلك:

" أنا ضد الجمهور في العيش.. والتفكير طراً، وضدّ في الدين "

_ في طريقة تفسير معظمهم الخاطيء للدين سيدي..

_ كفى يا المهدي تبريرات.. أدعك تتصور انك اقنعتني بها.. كي
أعطي نفسي واعطيك فرصة للعفو.. مرةً " خيالات شعرية خمرية"!..
اخرى " خيالات نساء وهميات "!!.. ثم " خيالات ملاهٍ وغواني وحانات
يعرف اسماءها الجميع .

.. ثم ها أنت تدخل في صميم السياسة، بوجهات نظرك وعواطفك
الخاصة، وانت تمثل البلاط الملكي.. تمثلني.. تقطن في اوضاعها
السيئة بل والاكثر فيمن يقود مسيرتها.. وحتى في السياسات العامة
التي لا تتماشى وسياسة بلد تحت الانتداب.. ما الذي تريده يا ابني
المهدي.. لقد اتعبتني.. انا بدوي والشعر خيمتي.. والحرية فضائي،
افهمك! لكن لكل شئ حدود!

_ ساكفيك سيدي متاعبي.. استميح عفوك في قبول تحولي لا استقالتني الى الصحافة..

_ مكانك هنا وستظل.. وبعثة فرنسا التي عرضناها عليك ولا تزال تنتظر الرد؟

_ مولاي إقبل رجاءي!.. الصحافة والشعر عالمي.

غرفة بمكتب واسع.. على المكتب قطعة خشبية صقيلة خط عليها (عاصم الجلي.. المسؤول الاداري) وراء المكتب رجل في مطلع الخمسينات.. صورة كبيرة للملك فيصل الاول بزيه البدوي معلقة على الجدار خلفه كنبه ورفوف تحمل ملفات رسمية.. كرسيان الى جانب المكتب.

يدخل المهدي ببذلة مدنية..

_ صباح الخير استاذ عاصم!

_ صباح الخير استاذ المهدي.. انشاء الله رحلتك من البصره أمس كانت مريحة

_ الحمد لله.. طويلة.. للضرورة أحكام!

_ تعرف سبب دعوة الشؤون الإدارية لك..

_ وصلني التبليغ.. وخبرني مدير الثانوية عن الموضوع وإشكالية تفسير القصيدة.

_ أنتَ تتذكر جيدا موقفي المدافع عنك في قضية قصيدة (بريد الغربة).. المُدافع - وعن حق- امام ساطع بك.. وتعرف علاقتنا معك

حين عدت بعد وجودك مع مولانا صاحب الجلالة في تشريفاته.. عدت هنا الى نفس الدائرة التي يديرها نفس غريمك.. بل وبموقع أحسن من السابق، ولا يخفى عليك السبب.. إنه اهتمام صاحب الجلالة وكبار مسؤولي البلد بالمهدي الشاعر الواعد.. كنت في ديوان وزارة المعارف غير مُلزم حتى بدوام مقيد .. وحين طلبت نقلك الى ملاك التعليم الثانوي في البصرة نُفِّذَ الطلب

_ اعرف هذا استاذ جلبي وشاكر لك مواقفك.. لكن ما علاقة القصيدة بكل ذلك؟

_ جئنا الى لب الموضوع.. لا أتصور أنه يغيب عن ألمعيتك موقف صاحب الجلالة وأبيه من العاهل السعودي الملك عبد العزيز.. لقد استولوا على حكم العائلة الهاشمية في الحجاز.. ووالد جلالته سجين قبرص الآن.. بل لقد حييته واكبرت موقفه في قصيدتك (سجين قبرص).. الآن خبرني لا كشخص يحقق معك اداريا ولكن كشخص تثق بمواقفه تجاهك.. هل أنت من أرسل الى جريدة المملكة الرسمية (أم القرى) بقصيدة الترحيب بالامير فيصل بن عبد العزيز؟

_ نعم أنا.

_ وانت صاحب القصيدة؟.. ودعني اقرأ بعضاً منها.. وانت تعرف ولعي بشعرك:

على سعة وفي طنْفِ الأمانِ

وفي حَبَاتِ أَفْدَةٍ حَوَانِي

وقا الله الحجاز وما يليه

بفضلِ أبيكَ من غَصَصِ الهوانِ

على حين ابتلى جيرانُ نجدٍ
بجمر لظىٍ وسُمِّ الافعوان
فليتَّ الساهرين على دمارٍ
فداءً الساهرين على الكيان
من القوم الذين إذا استجيشوا
ذكا لانوفهم أَرَجُ الجنانِ
ترقِّعْ يا سرورُ عن القوافي
فانكِ للَعَنِيَّ عن البيانِ
وهبني كنتُ ذا حَصْرِ عِيِي
وهبني كنتُ منحبسَ اللسانِ
فما قدرُ العواطفِ والنوايا
إذا احتاجتُ لنقْلةِ ثُرْجُمانِ

_ نعم أنا استاذ جليي.. ما ذا تريد أن اقول بضيف العرب، ضيف
المملكة، القادم الينا بعد حين.. أن اشتهم ضيف جلالته.. ضيف العراق
الزائر؟!!

_ والله بيني وبينك إنها قصيدة جميلة ولكن من تعني:
" وقى الله الحجازَ وما يليه .. بفضلِ أبيك من غصصِ الهوان "

" على حين اصطلى جيرانُ نجدٍ.. بجمر لظىٍ وسُمِّ الافعوان "

_ لا أقصد أحداً بالتحديد.

_ لا تقصد جلالته؟

_ بالطبع لا..

_ ومن غيرنا جيران نجد يا المهدي؟

_ محمّيات عديدة ترزح تحت الاحتلال..

_ جيران نجد استاذ المهدي!!... العراق والاردن لا غير!..

_ أنا مُدرس لغة عربية استاذ جلبي..للأسف معلوماتي الجغرافية ضعيفة!

ضحك الجميع بصخب بما فيهم ممثل الشخصيات المسرحية،
الناصرى..

قرعوا كؤوسهم..

صاح الحمد:

_ نخب علم الجغرافيا واستاذها المهدي!

ارتقى عبد الرزاق الناصري سلمَ الجريدة..

كان الحمد المهدي مُنشغلا باوراق كثيرة فوق منضدته، ما أن انتبه الى دخول صديقه الغالي حتى قفز من مكانه.. غلث وجهه ابتسامه مشرقة وسارع لاحتضانه قبل وصوله الى المنضدة.
جلسا متقاربين على كنبه عتيقة خُست اجزاء منها..

نادى على مُعين المطبعة..

_ هل تغديت؟.. سأرسل جاسم لياتينا بأحسن كباب في البلد مع ملحقاته التي تحبها..

_ شكراً.. لقد تناولت غَدائي مع أصحابِ دعوني الى مطعم الشمس الجديد..هنالك بعض الأمور علي إنجازها قبل قطار الساعة السادسة..

_ إذا قرّر قرارك ولا سبيل لاقناعك بالبقاء لليلة اخرى نقضيها في حانة مهران المسرحية.. كنت سنتحفنا بشيء جديد.. قد يكون ضحيتك القادمة صاحبنا الحمد.

_ لا لا! لن أتحرّش بالحمد فهو مغامر خطر! قد اكون أنا ضحيتي، لو تعرضت له مثلما كنت معك أمس.. ما أسعدني معكما ولكن طالت غيبتني عن أم سعود والصغير المتعلق بي بشكل جنوني.. أرى في سعود ملامح لعينة.. ملامح فتيّة سيبتلي بها.

نهض الناصري.. رافقه المهدي الحمد.. أوقفه عبد الرزاق ومنعه من مرافقته لأكثر من مخرج السلم..

التفت عبد الرزاق فجأة وواجه المهدي.. نظر اليه برهة بعينين سارحتين ثم احتضنه بشدة..

سمع المهدي شهقات باكية، فزاد احتضانه للناصرى الذى لم يرد فكاكا عنه..

عاد فأمسك بكتفى المهدي وتطلّع فى وجهه بعينين دامعتين قبل أن يقبل خديّه

_ أخشى ألا اراك يا حبيبي!.. وسأل دمع صامت على خديه..

_ ما هذا يا رزاق؟!.. ستعود قريباً.. وسنصخب مع مسرحيتك الجديدة فى (مخران مع الزخلاوي).. وإن تأخرت علينا سنحمل أنا والحمد، حانة مهراّن ومهراّن نفسه، بل وكل سكاراها وزحلاويها، ونأتي بها اليك فى البصره!!

استدار الناصري وهبط درجات السلم على عجل.

فى اليوم التالى نشرتُ صحف المساء جميعها الخبر التالى:

" إنتقل الى جوار ربه الكريم الاديّب والصحفي البصري المعروف الاستاذ عبد الرزاق الناصري فجر اليوم، بعد أن عثر عليه مراقب عربات النوم فى مقصورته وقد صعّدت روحه الطاهرة الى بارئها، وإنا ندعوا الله جميعاً أن يُدخله فسيح جناته وأن يُلهم أهليه ومُحبيه الصبر والسلوان.. وانا لله وانا اليه راجعون."

الساعة وليالٍ مِلاحٍ

إني وردتُ الحوضَ ممتلئاً

شهداً يفوحُ أريجُه العَطِرُ

عيني فدى قَدَميكِ سيدتي

عينكِ قد أضناهما السَهْرُ

ينزل الحمد متلمسا الجدار المجاور في الظلمة، المفضي الى الشاطيء
من شريعة القوارب وراء جامع الإمام الأعظم.

.. كان على البلام أن يكون في انتظاره في هذه الساعة المتأخرة من
الليل، بعد أن غادرها رفاقه الآخرون.

لاح له فانوس وحيد متأرجح وهو يصل آخر السلم الجحري
المتنمّ..مشى فوق رملة الشاطيء الندية صوبه:

_ أهذا أنتَ مصطفى؟.. مساك الله بالخير!

سأل الحمد بصوت واطيء للتأكد من ضالته.

_ اي نعم عمّي..آني بانتظارك على موعدنا.

حين اقترب من (البلم) المتأرجح، سارع مصطفى، ليقف فوق مقدمته
ليساعد الحمد في صعوده.

وضع الحمد حُزمة كانت بيده الى جانبه وهو يجلس الى الطرف الخلفي
العريض من القارب.

.. كانت نداوة الفراش وبرودته تحته تبعث فيه سروراً وارتياحاً إزداداً
مع نسائم دجلة الليلية العذبة التي داعبته.

دفع مصطفى البلم عن الشاطيء برأس مجذافه، فاهتزّ القارب قليلاً
وهو يتراجع الى عمق الماء..

على أنغام صوت المجذافين وهي تتوالى في ضرب وشق صفحة
الماء، ولمس النسيمات الرطبة العذبة التي ازدادت مع سرعة العبور،
ومنظر اضوية بيوتات الشاطيء حول جامع أبي حنيفة التي اخذت
بالخفوت والتباعد، بدأت غابات نخيل الشاطيء المقابل تتوضح
مقتربة، بألغاز هامات عتمتها الهفافة المتماوجة.

.. سرح الحمد قليلاً ثم بدأ حدوه بصوت خافت..

.. سلامٌ على هَضْبَاتِ العراق.. وشَطِيه.. والجُرْف والمنحنى..

.. على النخْلِ.. ذي السَعَفَاتِ الطوال..

.. على سَيِّدِ الشَجَرِ الْمُقْتَنَى.. سلامٌ.. سلامٌ على..

.. عَمِّي دَيْرٌ بِالْكَ!.. شَوِيَّةٌ طِينٌ على شاطيء هذا الصوب..

حدّره مُصْطَاف وهو يأخذ بيده ليساعده في نزوله من القارب.

وضع الحمد بيده ورقة نقدية ..

.. نفسُ اليوم ونفسُ الوقت من الاسبوع القادم مصطفى!

.. أمرك عَمِّي.

لم يسأل مصطفى لا الليلة ولا الليالي السابقة عن وجهة الحمد، وهو
يراه يجوس مجتازاً ظلمة غابة النخيل في جانب الكاظمية من النهر.

البيت الذي فتح الحمد باب حديقته الامامية، يكاد يكون متفردا في عزلته، المُشرفة من هضبة على شريط غابة النخيل، التي تقف بينه وبين النهر الداكن،.. لا تبان من مكانه إلا بضعة انعكاسات ضوء من على الجانب المقابل، وفانوس مصطفى البلام المهتز وهو يمزج الظلمة.

طابقان تتراءى بعض الأضواء عبر نوافذهما .

.. كانت (مليحة) في انتظاره عند باب الدار الموارب..

.. تعَلَّقَتْ بعنقه بذراعيها العاريتين.. قَبَلْتَهُ بشوق مرحة.

_ كُنْتُ فوق من غرفتي أراقب الفانوس الوحيد المتذبذب فوق صفحة النهر وهو يقترب من الشاطيء.. لا أحد غيرك يمزج عباب الليل صوبي!

.. كنت وكأني أسمع اصوات مجاديف القارب الذي يحملك في الماء وأتحيل عدد ضرباتها، وكانني اعرف كم ضربة منها تتطلب وصولك الى شاطئي يا حبيبي..

ثم واصلت بغنج:

_ تأخرت عليّ الليلة؟!.. سأتاخرُ انا بدوري عليك عقابا!.. أنت تعرف ما أعني!

قادته الى مائدة تشرف نافذتها القريبة على النهر العريض.. فوقها شموع وقدحان..

وضع حمد قنينة النبيذ وإضمامة ورد من الحزمة التي بيده.

واصلت عتابها ودلالها بين كأس وآخر، وهما يجلسان بأخف ما عليهما
محتضنين

_ سأعاقبك! سأتأخر عليك!.. سأحرمك!!

_ عذِّبك تأخري يا حبيبتي؟!.. تأخركِ او حرمانك!!.. سيجرقني
حياً!.. لا اعرفك بهذه القسوة، ايتها الشاعرة الرقيقة.

_ هذا انذار لك!

.. مرة: مصطفى البلام لم يكن موجودا!

.. اخرى: الرقابة الصحفية ومشاكلها!

.. العاشرة: الشرطة والتحقيقات الجنائية!

.. هذا كله وأنا في كل مرة تواعدني فيها، أدعي شيئاً لتأخر عن
الذهاب مع الاهل الى الكراة .. الى مراسيم (السبات) في (الكنيس)،
التي يحرسون على مواظبة حضورها، وهناك المبيت عند اقاربنا .

.. ليسوا اغبياء تماما، لا بد أن ينكشف السر يوماً.. سأنتحر لو منعوني
عنا!

ينتبه الحمد الى كتيب صغير، (ليالٍ ملاح..مليحة إسحاق).. يفتحه..
صورة فاتنة لمليحة، بشعرها السرح الاسود الطويل ينهمر على جانب
الوجه ذي العينين السوداوين الوسيعتين مغطياً الكتف.. ابتسامة حلوة
على شفاه ممثلة.. تحتها أبيات شعر وإهداء..

_ اذاً هذا ديوانك الجديد.. لم تخبريني عنه يا قطتي الماكرة.

_ أردتها مفاجأة لك!

تنتزع مليحة الديوان من يده بعبث، تلقى بشعرها المنسرح الطويل
خلف كتفها، فينكشف أعلى صدرها عن ربوة الثديين اللذنين..
يحتضنها الحمد ويميل برأسه غامراً وجهه بينهما.. يتنشق عطر
الرايبتين اللذنتين.. تميل عنه مليحة قليلاً.. تقرأ الابيات تحت الصورة
بغنج ورقة:

قاربُ يمزحُ الظلمة،

جَنَاحاً!

.. مُضمخاً بالنجوم.

يَحْمَلُ الحُبَّ نابضاً،

خفقاتٍ من قلبيِّ المَكْلومِ

أَيُّ عِطْرِ في كلِّ ليلٍ شَدَاهُ

يبعثُ الروحَ في الكَيانِ الرَمِيمِ

الى الذي لا تجد عينيَّ النور إلا في وهج اشعاره،

الى الذي أعبدته روحاً وكياناً.. الى الحمد المهدي،

أهدي ديواني هذا.

تضع كفيها وراء شعرها وتبعثره، ترفع رأسها.. تنظر في وجهه
المنتشي ولعاً وتقبله..

يحتضنها الحمد ويغمر وجهها وعنقها وصدرها بالقبل..

_ أنا الذي روعي فدى عينيك سيدتي.. فدى روحك، فدى كيائك، فدى
قدميك!

_ أحقاً تحبني يا حمد؟.. ماذا لو منعني أهلي عنك؟!.. لو قتلوني
بحرمانني منك؟!..

_ ساحارب الكون في سبيلك يا مليحة.. وأن خسرت معركتي معه فقد
خسرتك وخسرتُ الكون ايضاً.. خسرتُ الوجود كله.. أنا الذي سأقتل!..

_ ستكتب الصحافة حينها يا حبيبي (روميو وجوليت.. قصة الشعر
الجديدة!) .. (الشاعرة مليحة إسحيق تنتحر عشقاً، فينتحر الحمد،
الشاعر الحبيب، ياساً).

_ هيا يا مليحتي! دعينا أولاً نعيد العشق الشكسبيرري من بداياته.. من
ليلة شرفته وسريره، ثم ليكن بعدها ما تشائين من التسامي والموت
ولهاً..

سحبها برقة وقادها محتضنا الى الغرفة المجاورة التي يعرف
تفاصيلها.

هزيمة متبادلة

_ لعنة الله عليك يا صاحبي حمد.. أدخلتني عالم الصحافة والسياسة، هذا المعترك متعدد الجبهات.

.. في أي معركة! هنالك عدو تهدف محاربتة تصيبه او يصيبك.

.. في هذا العالم الذي ادخلتني فيه تحارب انت ضد جبهة، فتجد نفسك وقد فتحت عليك جبهات عديدة لا تعرف فيها عدوك من صديقك.

.. هي حرب بين الصحف نفسها يضيع فيها العدو الذي يفترض أن يكون مشتركاً.

_ وانا ألعنك لعنتين يا مهدي.. عالم الشعر الذي أوقعتني في شباكه لا اعرف درباً للخلاص منه.. لقد أكل الشعر لساني.

.. اللعنة الأمر، هو تروق الشاعر ذاته الى تلك اللعنة.

.. لعنة مسالك السياسة الخطرة.

.. لعنة الغوص في بحر العواطف الهائج العميق، بين الذات، ومحن الناس، ولوعة المحب، وشبق المحروم، عواطف أخطر من مهالك السياسة ومطباتها.

_ لم تقاس يا صاحبي ما قاسيته من شطحات ومواقف غير مدروسة العواقب وانا أدخل عالمك.. عالم الصحافة التي كنت تنيه فيه لوحدهك قبل جرّي اليه.. وما ألعن يا حمد مما حل بي.. لا من السجن مع اللصوص والقتلة في مكان واحد، ولعل ذلك كان أهون المصائب وقعاً عليّ.

..لكن أن أخسر وأنا في السجن اثنين من لحمي ودمي!!.. إثنان اعز علي من روعي.. رامونا سيدة الصبايا الحسان وحسان الاشقر الرضيع.

.. رامونا بجداولها الشقراء والعينين الزرقاوين.

.. رامونا التي انسى كل أردان العالم الذي اوقعتني أنت فيه، حين اعود منها مهنكا مهموماً فتركض لتحتضني.

.. أرفعها فتقبل وجنتي ضاحكة..

_ بويّة، بويّة إجانة.. احلى بويه بدنّيانة!.

تنشد وهي تتعلق برقبتي وتهزّ جداولها راقصة بين ذراعي..

ماتت!!

.. قتلها (الخنّاق) ذلك المرض اللعين!

.. قتلها وكانت آخر كلماتها قبل أن تروح في سبات الموت..

_ أريد أبويّه!!..أريد..!

وماذا كان من (أبوها)؟!.. أبوها كان يلعب لعبة الصحافة.. لعبتك يا حمد التي رمتني بعيدا عنها في السجن..

لم يكنف القدر بطعنته السامة تلك، فمصائبه وطعناته لا تأتي فرادى.

لم تمر إلا أيام لتصعد مناهل راکضة الى السطح حاملة بفزع ومناشدة قطعة رامونا الصغيرة الضحوكة الاخرى.. طفل السنّتين.

.. ترفعه الى العليّ القدير، لعله يسمع بكائها وتوسلها:

_ يا إلهي مو عدالة ياربي.. مو إنصافً تاخذُ هذا الرضيع بعد رامونا.. دخيلك!.. دخيل نبيكُ ودخيلُ حبيبةُ الحسين الشهيد!.. دخيلُ كُلِّ الائمة!.. إسمع ياربي حشرجةُ الطفلِ الحلو هذا، ابو الشعرِ الاشكرِ الملفف!.. إنطيه نَفْسُ يرحم والديك (نسيت مناهل أن العلي القدير، " لم يلد ولم يولد ").. الله يخليك!!.. أخذني آني بدالهُ.. وَيلي! يا اهل الرحم!!.. لِحْكولة!!.. لِحْكولي!!..

لم يسمع العلي القدير نداء الأم الملوّعة ولاحشرجة الطفل المختنق.. ولم يكن " أهل الرحم " الى جوارها.. وانا الأولى باهل الرحم هؤلاء بذلك.. كنت بعيدا أَلعب لعبة الصحافة وعواقبها.. سجين القضاة الذين شاكستهم.

على اية حال! ورطتك التي جررتك اليها مع الشعر، ليست بأقل شرا مما ورطتني به مع الصحافة.. كلانا ملعونان في جريمة متبادلة.

طَيْفُ مَنَاهِلِ السَّاهِرِ

مُدِّي إِلَيَّ يَدًا تُمَدِّدُ إِلَيْكَ يَدُ

لَا بَدَّ فِي الْعَيْشِ أَوْ فِي الْمَوْتِ نَتَّحِدُ

عَطَى جَنَاحِكَ أَطْفَالِي فَكُنْتَ لَهُمْ

ثَغْرًا إِذَا اسْتَيْقَظُوا عَيْنًا إِذَا رَقَدُوا

لا يزال المهدي الكهل، في نفس موضعه من نافذة المقهى المطل على
النهر العريض وسفوح الغابات المتحدرة من هضاب (الهاجاني)، غير
أن الجو إدلهم بغيوم كثيفة عبرت أعالي آفاق البانوراما الواسع امامه..

.. مع سحابات الأعالي، عبرت بوارق ذكريات الشباب المرحلة..
ضاعت في برهة غير محسوبة الزمن، لتتحول الى أغوار ملغزة
كثيية..

.. عادت اليه طرقات النافذة المظلمة التي سمعها.. الصورة التي
رأها.. لم يكن ذلك وهماً، بل ملء السمع والبصر.. بين لهفة اللقاء،
وحقيقة الغياب المر.. بين إحضان اللقاء ومرارة الوداع اللذين اجتمعا
في ظلمة الغرفة الباردة.

.. انقطعت سلسلة الزمنيين البعيد والقريب، حين انحنى عليه حمد من
طرف المائدة المقابلة..

_ انت في عالم آخر غير عالمنا يا المهدي، كعادتك إلا معي فانا
حضورك في كونيك.. او حتى في عشرة أكوانك.. مرحبا بك معي اينما
كنت وفي اي عالم سرحت!

_ لقد كانت معي يا حمد، في ظلمة الليل! .. أزالته وحشته حيناً، وحين لم تُطل بقاءها، ويقينا انها مرغمة على ذلك، ترك ذلك عندي غصة مرارة حزن والم.

_ أهي صبيتك العجربة اللعوب ثانية؟

سأل حمد بلهجة فيها بعض مرح، محاولاً تخفيف الألم الظاهر على وجه صاحبه.

_ لست بعيداً عن الأمر يا حمد فانت تعرف الشخص والزمن والحدث.

.. وحتى بذلك الظهور المتعاقب كلما ألمت بي محنة تعصف بكيانى.. مَنْ غيرها!.. مَنْ غير مناهل يا حمد، يسارع لتخفيف اوجاعي ومِحني .. من غيرها يتابعني لئُفرج عن كربى خلال خمسين سنة، تنقلت فيها من بلد لبلد ومن قارة لآخرى.. تعبر ومن تحت ثراها، كل الأفاق البعيدة الغربية لتكون الى جانبي.

.. تشدّ بحضورها من أزي.

وضع حمد رأسه بين كفيه وانحنى بجذعه فوق الطاولة وغاب في خطاب المجهول بصوت غرغرة العبرة:

_ ايها الملاك الطيف!، ايتها الروح التي اعيشها وقد تجاوزت بك الحياة ومداراتها، العمر والزمن، حتى لكأنك تبدين لفرط ما عانيت، اكبر مني سناً، اكثر مني تعباً، واشد نسياناً.

ها انتِ ذي شاخصه، ماثلة، عائشة، وقد بلغت ما بلغت من العمر، وبفارق عشر سنين كان، وما يزال بيننا، أرى وجهك..

..اراه كما كان في عزّ فتوته، وارى بسمتك لحظة تشرق، وانتِ معي كل يوم وليلة، في كل بيت، في كل بلد، في كل غرفة.. في مدارج حياتي، في منامي، في أطيافي واحلامي.

يا مناهل الروح تهزأ بأنياب الدهر، بمخالبه، بأشداقه.. تهزأين بها.. تشقّين الصمت، تمسكين بروحي التائهة الشroud، فأعود معك الى ثلاث سنوات من العشرينات، ونؤوب معاً الى ثمانٍ من الثلاثينات، نسترجع ما كان وما يبقى. انك معي الآن، وأنا، اسجل ما اسجل.. طائفةً حولي، تسمعين ما تهمس خواطر القلب.

رفع رأسه وبان وجهه المخضّل بالدموع صوب رفيقه:

_ اخاطبك مرة اخرى يا حمد.. بعد ما قارب الخمسين على عاشورائي.. أروي ما يهزني الآن.. فاقول لك من جديد.. إن مناهل معي يا حمد لم تغب عني.

ثم عاد الى وضعه السابق مخاطباً الأزمان والذكريات:

_ إنك ما تزالين تدقّين وتدقّين على النافذة وأنا في غمرة ليلتي هذه، في الواحدة من صباحها، الواحد والعشرين من الشهر الثاني من عام ١٩٨٨ وها أنتِ تدقّين النافذة.. تدخلين.. تتوقّفين.. تتأملين ما سيكون مني وانا اكتب، بمثل ما سبق لك أن قمت به، وفي ليلة لا يصل فيها الى السمع حتى همس نسيم ولا رفيف شجر، عندما كنتُ وأنا على وشك ان أنقل الى المستشفى لعارض مفاجيء أصاب قدمي ببغداد، وفي غرفة نومي من دارنا بمحلة القادسية، وبمثل ما سبق لك من ذلك وقبل اعوام قليلة، وانا في دمشق وفي ليلة ليلاء عشتُ صباحها، وقد أوْشك بصري أن يذهب.

وليلة اخرى يا مناهل وأنا في براغ، وعلى حال مفزع من الالم والقلق،
تدخلين وتتأملين ما اكتب اليك وعنك، وتعلمين علم يقين راسخ، أن
قلمي سيمضي في وصف خصالك وفضائلك، ومكارمك، ولطفك
وصبرك، وأن هذا الوجيب الذي يملأ ملكوت الروح سيتّوج ذكرياتي،
لأقول ما لا يستطيع الفكاك عنه ولا يستطيع الفكاك عني..

إيه يا مناهل.. ما زلتُ عند قسمي وعهدي، يوم قلتُ لك كَفَي يديك
أوتذكرين حين حانت ساعة رامونة، بقينا رهيني صمت وأبغ وأفجع
من كل آهة او دمة، نحيب او بكاء.

أجل انني ما زلت عند قسمي، فلم ألمس أثراً مما خلفه الآخرون، وهم
كثيرون.

أما انت يا حبيبتي، فلم تبرّي فيما بعد، فيما تعاهدنا عليه (أقول ذلك
وانا راج عفوك) من أنك ستكونين مغفوةً، بعد عمر مديد من أن تلمسي
او تُبعثري.

هل تذكر يا حمد كنت في انتظاري حين نزلت من الحافلة التي كانت
تقلني عند عودتي لبغداد.. ارتميْتُ عليك معانقا ومختضاً ببيكائي
وغصصي.. انا الذي لا تطاوعني دموعي في أحلك الكوارث..
صرخت:

أخي حمد!:

لقد فقدتُ مناهل!!.. فقدت نصف روحي!.. ضمّني اليك لأبكي!

وانت تعرف مأساة بُعدي عن محنتها، عن آلامها وهي تصارع الموت،
لا حفاظاً على حياتها وحدها، بل لربما اكثر للحفاظ على الجنين في

رحمها، ألا يكون أضحيتها الثالثة بعد رامونا وشقيقتها الأصغر، والتي
ستحمل نفسها تبعة ذلك، لا قدر الموت الرهيب. ثم مواصلاً حديثه:

_ قاتل الله السياسة أين أنا منها ومن مخاض مستنقعها.. كانت وراء
عاشورائي هذه ياحمد، ومن غيرك اعرف بتفاصيلها.

وقلتُ لك يا حبيبتي مناهل:

وأقولها وأنا أخطبك الآن كما الامس:

في ذمة الله ما ألقى وما اجدُ أهذه صخرة أم هذه كبدُ
قد يقتل المرء من أحبابه بعدوا عنه فكيف بمن أحبابه فقدوا
بالروح رُدِّي عليها إنها صلَّة بين المحبين ماذا ينفع الجسدُ
بكيث حتى بكا من ليس يعرفني ونحت حتى حكاني طائرٌ عرُدُ
إنا إلى الله! قولٌ يستريح به ويستوي فيه من دانوا ومن جحدوا
مُدِّي اليّ يدًا، تُمدد اليك يدُ لا بد في العيش أو في الموت نتحدُ
عطى جناحك أطفالي فكنت لهم ثغراً إذا استيقظوا، عيناً إذا رقدوا
قالوا أتى البرقُ عجلاناً فقلتُ لهم والله لو كان خيراً أبطأت بُرُدُ
ضاقتُ مرابع لبنان بما رحبتُ عليّ والتقت الأكام والنجدُ
تلك التي رقصت للعين بهجتها أيام كنا وكانت عيشة رعدُ

_ كَنتَ يا حَمدَ مَعي في كلِّ ألامِي ومَحنَتِي.. كَنتَ ابْنُكَ هَماً مَماً آخِراً!
.. كانَ أصْغَرَ أبْناءِها وأكْثَرَهُم تَعلُّقاً بِها وتَعلُّقاً بِه.. لَم تَمضْ عَلى
صَفاءِ إلابْضَعِ اشْهَرِ عَلى فِطامِها لا غَير!.. سَنَتانِ وبِضْعَةِ اشْهَرِ مَن
العَمرِ يا حَمدِ.

الظلمة الأولى

ناجيتُ قبركِ أستوحي غياهبهُ

عنُ حالِ ضيفٍ عليه مُعجلاً يَفدُ

لا يُوحشُ اللهَ رَبعاً تنزليْنِ بهِ

اظنُ قبركِ رَوضاً نورهُ يَقدُ

ظلامٌ متسع الأبعاد لا يقطعهُ إلا بقع ضوء من كاشف السيارة تمتصه
رمال البادية الرمادية الكابية فلا يترك أثرا.

اهتزازات حاشية النافذة المعدنية التي يتكئ عليها راسي فوق وسادة
يدي، ولمعان نجوم مهتزة عميقة الأبعاد.

حزنٌ ووحشة أعمق.

هذه آالة المزمجرة الرجراجة المتجهة الى المجهول، تبدو في الصورة
خاوية عما سواي.. شيء ما هناك فوق سطحها لا اعرف شكله او
مغزاه يثير الحيرة ويخزُ بالألم.. أتذكّره من حين لحين، بين لحظات
الظلمة المتسعة وبقع الرمال الرمادية الكابية والنجم المهتز وزمجرة
الآلة الحديدية الخاوية.. تلوح من بعيد قبة نيرة لماعة.

..تقترب القبة.. تزداد اقترابا.

شوارع مقفرة نصف مظلمة.. نجتاز بين مسافة فيها واخرى،.. عمود
إنارة موحش في عزلته.

شيء شبحي المعالم يرسم بلا وضوح دكاكين مغلقة.. أقواس مداخل
اسواق مقفرة شديدة الحلقة.

ظلالٌ سوداءٌ محددة المعالم على خلفية جدار رمادي داكن.

الظلال تتحرك تحيط بالسيارة.

..الظلال عباءاتٌ ووجوه وعمائم.

تنزل عدة عباءات سوداء من السيارة.

لغطٌ ونحيب.

تلتف الظلال والوجوه والعباءات والعمم.

وحشةٌ قاسيةٌ وخوف شديد..

تمتدّ عمامة كبيرة داخل السيارة.. ترفعني يدان الى خارجها.

وجوه نسوية مبلولة تلتصق وتتدّى وجهي، وقبلات تغمره وولولة
وبكاء تصخب في أذني.

..أناؤلُ من يدٍ لثانية ومن عباءة لآخرى.

يُصيّبي الدوار أرغب في البكاء إلا إنني أخشاه فتخفقني غصة
وغرغرة في حلقي.

يُحمل الصندوق من على ظهر السيارة ويوضع فوق الأكتاف.

..يطفو الصندوق في الهواء ويتقدم ويمشى الجميع وراه.

أطفو واهنّزُ فوق أحد الأكتاف..

يختفي الجمع، وتهرب الاصوات، ويتلاشى الصندوق.. أطفو وحيداً في
الفضاء... الفضاء موحش.

ساحة الدار فارغة.

أرضيتها من الطابوق الفرشي العريض المبرد بندى الصباح الباكر..
البيت يلقه صمت مطبق.

أتفحص ارضية الدار.. اراقب المربعات الصفراء الكاوية المرصعة
بالمسامات والتفتير.. وأثار طحالب خضراء في بعض زوايا الطابوق
العريض..

تضيع الخطوط والألوان لبرهة.

ارفع راسي فيجابهندي دهليز مدخل الدار نصف العاتم.

ينتهي الدهليز بالبوابة الخشبية الضخمة ذات الدرفتين.. تراسين
حديديين..

أتأمل ذلك لبرهة.

تختلط التفاصيل ثم تضيع.

أتحول ببصري قليلا، جدار حجري واسع، الوانه حائلة ومقشّرة،
مرقّشة بخفيرات عاتمة.

أزحف ببصري الى الأعلى ببطء..

..جدار خشبي اخضر حائل مقشّر الصباغ، بنوافذ طويلة تمتد وتمتد
الى الاعلى ولا يستطيع بصري الارتقاء لحاقتها العلوية.

..أخفض بصري وأجيله فيما حول ساحة البيت..باب بني عاتم بدرفتين
على اليسار، وعلى اليمين سلالم حجرية ملصوقة بجدار بالغ العلوّ
كالح اللون.

أتوجه الى السلالم بخشبية، الدرجة الاولى عالية، احاول تسلقها وانجح
بعد جهد واثابر فاتسلق الثانية بجهد اقل فهي اقل ارتفاعا، اواصل بدأب
وأصل الى المساحة المربعة امام الباب الموارب. يأخذني الخوف من
هذا الارتفاع الشاهق، فبيني وبين ساحة الدار أبعاد شاسعة..أدفع الباب
فتجابهني عُتمة سرعان ما انجلتْ.

ادخل وانا أحس بفرح ينبع من الاعماق وينطلق بصرخة..

يردّ عليّ الصمت..

يتضاءل الفرح ويختفي تماما عند مرأى السرير الوسيع الفارغ المبعثر
الأغطية..

أجيل البصر..

مرآة.. امشاط.. قناني صغيرة على دولاب صغير أمامها..مقعد صغير
مدوّر..قميص نومها مرمي بإهمال على بساط ارضية الغرفة.. ستائر
الغرفة العاتمة مسدلة على النافذتين الطويلتين.. بين النافذتين مائدة
خياطتها بطاوتها العالية وكرسي الخيزران ورائها.. دولاب الملابس
في الركن القصي من الغرفة مغلق الابواب..أعود ببصري الى
السرير.. السرير فارغ!!! السرير خالٍ إلا من وسادتين وأغطية مبعثرة
فوقه..

أقف حائرا.. تدبّ الوحشة وتزداد..

أحس بغصة وغرغرة في حلقي وتتضرب التفاصيل وتغبّش امام عيني..

أتحرك ببطء نحو السرير.. أتسلّقه واضع راسي على وسادتها في
الحاشية اليسرى من السرير فتغمرنى رائحتها.

أمدّ جسمي التعب.. أحتضن الوسادة.. حزن اسود يغرقني.. تعاودني
الغصة والغرغرة.. تتضرب عياني من جديد.. وجنتي تتندّى.. أغمر
رأسي في الوسادة أكثر فأكثر.. تسري رائحتها فيّ من جديد.. تسري
سكينة نا عسة وخر.. تغيب الأشياء.

تِيهٌ بينَ الرّوايِ

أرجعي ما استطعت لي من شبابي

يا سهولاً تدتّرتُ بالهضابِ

غسلَ البُحْرُ أحمُصِها وغطّتْ

عَبَقَاتُ الندى جِباةَ الرّوايِ

لقد قتلني الهمّ يا حمد.. وسأقتل الآخرين معي بهمومي بعد رحيل مناهل
ومن الحرب الخفية عليّ والعلنية ايضاً، لأنني أناهض المزق البالية
من الاعراف والقيود الاجتماعية البالية البغيضة.. أناهض اتفاق
عصابة شيوخ الاقطاع والدين والحاكمين، الذين يضعون كل عصيهم
بل وقضبانهم في عجلة تطور هذا البلد الذي عانى قرابة قرون تسعة
من نير العتاة ممن حكموه..

أنظرُ الى هذا الذي لا يتجاوز عمره السنوات الثلاث وقد ضوى،
وكأني به سيلحق بأمه وبرامونا وحسّان من قبلها وانا في السجن..

أرى الآخرين وقد غامت وجوههم من عتمة اجوائي التي انقلها الى
البيت الكئيب

سأحاول ان اخفف من ظلمتهم هذه وجفاف الاجواء حولهم، بأن انقلهم
في استراحة شفاء في ربوع لبنان وخضرتها وانطلاقة اهلها.. تعال
معي يا حمد.. تعال معنا فالكل يعاملك وكانك ذاتي..

_ اقتراح لا أجمل منه، فانا اكاد اكون وبيتي كذلك، في مثل اوضاعك
ومعاناتك..سافكر بالأمر جدّياً.

أقف متردداً في حديقة زاهية الخضرة محاطة بسياج خشبي قليل الارتفاع.

... أمامي باب المطبخ المفتوح..

بعيداً في الداخل، تجلس امرأة بفخذين سمينين منفرجين نصف عاريين.

تمدّ باحدى يديها عجينة مغزلية... تدعوني بحركة رأسها الى كسر خجلي والتقدم لاخذها: " كِبِيَّة.. كِبِيَّة نَيْه!! "

أتقدم ببطء وحذر... أخذ العجينة المغزلية الصغيرة... العجينة لونها مائل للخضرة.

.. أتذوقها بحذر..

.. طعمها مالح غريب.

.. أردّها بخجل الى المرأة المبتسمة.

أتراجع ببطء الى الحديقة.

أفتح باب السياج الخشبي الواطيء الاخضر

... سفح مدرّج اخضر ينحدر... ينحدر..

... دَرَجَة... دَرَجَة... دَرَجَة

حقول واسعة خضراء..

على يساري اشجار شامخة خضراء.

أشجار عنب قصيرة.

... خضراء
في الجانب الآخر البعيد....
سفع اخضر.
ينحدر... ينحدر الاخر.
.. يلتقي السفحان.
خضرة تشفّ هنا..
.. وشاحات طويلة خضراء، هناك.
أبخرة دخانية... ضباب..
يتقاطع الضباب.. يتقاطع بالخضرة الاخرى....
أنتقم الى حافة المنحدر.. انتقل ببصري في خضرة المدارج.. في السفح
المقابل،
.. في العمق المحزّم بوشاحات الأبخرة الدخانية... بالضباب،
بشجيرات العنب القصيرة المتراسة.
.. أنزلق الى الدرجة الأولى...
اثبتُ قدمي المهترتين على التربة الحجرية.
.. شجيرات العنب تعلو رأسي.
.. أنزلق الى المدرج الذي يليه.

.. والذي بعده.. وآخر.

أواصل انزلاقي باتجاه العمق المضرب.

.. رجل ضخم منحني يلبس شروالا منتفخا اسود يحفر في الارض
بعصاة.

.. العصاة برأس باداة حديدية حادة.

أتذكر أداة تقطيع اللحم في المطبخ.

أقف... أتأمله قليلا.

.. أتأمل الاداة التي تحفر.

.. اواصل انزلاقي مدرجا ومدرجا ومدرجا.

أنزلق عن آخر مدرج.

أقف واستدير.

أرفع رأسي... حيث بدأت؟.

.. أرى خضرة تتصاعد وتمتد.

.. المدارج لا تتمايز.

تتلاشى حاشية الأعالي الخضراء بزرقة السماء الشافة.

أشعة قرص الشمس القريب من الحافة تُعشي عيني.

أشعر بدوار.

أخفض بصري واستدير.

هنالك جدول قريب...

أمشي بفرح اليه.

.. أجلس على حصى حافظه.

برودة الندى لها طعم النعاس.

.. أحس بالخدر.

أمدّ ساقِيّ فيبتل حذائيّ.

على مهلي اطرطش الماء.

ثم بقوة، .. مِيّ! مِيّ! مِيّ! .. أصرخ من جديد ضاحكاً:

. هيه!! هِيّ! مِيّ! مِيّ! مِيّ!!

هيه هيه مِيّ!

نثار الماء يرتفع... يتموّج حول حذائيّ..

يبتلُّ حذائي.

إنتعش وجهي، ... مِيّ! مِيّ! مِيّ!

. أبعثر الحصى من تحت كفيّ.. أمسك حفنة منه.. ارميها في الجدول الرقاق.

ألوان الحصى تتلامع، تختلط.

أنهضُ. أخوضُ في الجدول فوق الحصى.. ينزلق الحصى تحت
قدمي.. أجتازه الى الجانب الآخر.

.. أتوجّه الى المدارج المقابلة.

.. أتسلق بجهد المدرج الاول..

الثاني اقل ارتفاعا.

من جديد، شجيرات العنب تعلوني...

او اصل الصعود.

بضعة مدارج... عند الحافة.. غَبَشُ المساء بدء يتكاثف، خطوط
حمراء، ووردية وصفراء وبرتقالية.

أتسلق المدرج الاخير... تتكاثف الزرقة.

في حواشي السماء، هنا، وهناك.

أحزمة بنفسجية.

بنفسجية... بنفسجية حمراء.

أستدير. أطلّ الى الاسفل...

عتمة القعر دخانية.

..أقف. أجيل النظر بحيرة...

... كم انا جائع!

* * *

أضوية كثيرة معلقة... أحمر... أزرق... أخضر.
موائد حولها أناس بازياء، وازياء... أناس بيناطيل سوداء وقمصان
بيضاء يتحركون بين الموائد حاملين صَوَانٍ وصحوناً واقداح.
.. أشجار هنا وهناك بين الموائد وحولها.
أربعة اطفال حول مائدة.
نجلس. نكركر. نصخب... امامنا صحون
.. نرفع كوؤسا فارغة، نكركر.
.. صِحْتِك!.. صِحْتِين!
أجلس قرب سياج خشبي واطيء.
أمدّ رأسي فوق السياج.
.. أشجار عاتمة تتطاول.
من قَعْرِ الوادي.
تَطْفُو العُتْمَةُ
في عمق القعر... ضاع البصر.
أطيلُ النظرُ.
أغوصُ في العتمه..
لا وحشة في الظلمة!!

عينيّ تواجهان قوس المدخل الذي تتعلق فيه أضوية ملوّنة كثيرة...

من المدخل أرى والدي ببدلته الفاقعة اللون.

يتقدم بخطاه الواسعة صوبي.. شعره الكث منفوش، لِمَتّة كبيرة.. عيناه
جاحظتان فيهما غضب... تحوّل الى استغراب... تحوّل الى جدل.

أنتُ خالتي خلفه شبه مهرولة.

وقف الى جانبي. أطل بوجهه عليّ.

إبتسامته مأكرة مُستغربة...

أرفع قدحي الفارغ تجاهه...

صحتك!!...

تبكي خالتي.

يأخذني والدي تحت ذراعه ونمشي..

أحس بفرح.

في زقاق مظلم نتوقف عند باب عاتمة بدرفتين خشبيتين ضخمتين..

يُفتح الباب. يظهر رجل طويل برداء طويل اسود. غطاء رأسه طويل
اسود.

لحيته طويلة سوداء.

.. هذا هو(أبونا)!!.. ابي; ابو ;أبي وأبونا.. أبونا وأبي..

غرفة بكنبات كثيرة، وكراسٍ، ومناضد، ورفوف، وكتب، وأوانٍ،
وملاعق،....

.. قطةٌ تَموء وتُدور رافعة ذيلها.

_ مَيِّيوو... تتمسح القطة برداء أبونا الاسود الطويل.

أبونا يتحرك في الغرفة بكثرة،... يتكلم ويضحك بصوت عالٍ

- قُمْ وقبّل يد أبونا!، هو من دلّنا عليك.

أنهض بارتباك وخجل وخوف.

.. يرفعني أبونا بيديه الضخمتين..

.. أطيّر عاليًا.

يقربني من وجهه، تدغدغني لحيته...

يجلس...

أجلس على ركبتيه.

أبي في المقعد الامامي قرب السائق... أضع رأسي على حافة النافذة.

.. أشجار ضخمة سوداء تمرق خاطفة من جانبي.

.. نَسَماتٌ طرية حلوة باردة تضرب وجهي.

تنحرف السيارة...

.. ينحرف الوادي.
الوادي مظلّم، عمييق.
. أطيّر... اطيبيّر.
أطيّر فوق الوادي.
يَظلمّ العمييق... الوادي..
يَظلمّ الوادي.
أغض جفنيّ.
رأسي في حضنها...
الدفء في حضنها!!
... أصابعها تمثّط شعري

الرهرة الأولى

ويا أبا الطير في وردٍ وفي صدرٍ

في كل يومٍ له عَشٌّ على شجرٍ

عُريانٌ يحملُ منقاراً وأجنحةً

أخفَّ ما لَمَّ من زادٍ أخو سفرٍ

__ ما العمل يا الحمد؟.. انت تعلم بموقفي من اتجاهات وزعامات الحركة ذات التوجه الفاشي.. قياداتها عليها الف علامة استفهام لم تكن نزيهة ابدا في مواقفها السابقة.. ولكن لقد انضمت تحت لوائها، وبفعل الغيظ من الهيمنة الانكليزية، والتحكم بمصير العراق كله.. إحتلال انكليزي مُبطن.. تحت هذا الغيظ والمشاعر النبيلة لكثير من ضباطها ومراتبها الشباب، إنصموا تحت قياداتها المشبوهة في هذا التحرك الفاشل.. ضحايا كُثر ودماء شريفة سالت رغم القيادات المشبوهة. لقد فرّ كبار القائمين بها الى اماكن آمنة تاركين ضباطا ومراتب جنود تحت رحمة جراب الانكليز والحاكمين الذين نَصَّبوهم.

يحاولون إجباري بشتى السبل ان اخوض في دماء الضحايا وألعنهم، لا ألعن قياداتهم المشبوهة فقط.. هرب رشيد عالي الى مكانه الآمن بعد ان أفرغ خزينة الدولة وترك غير الضحايا، شبابا حرا ضباطا شرفاء ومراتب اخرى لا تدري الى اين تتوجه..

يطلبون مني إعادة الجريدة بالعنوانين التي يريدونها تحت ظل الاحكام العرفية.

.. توقّف المهدي لحظة، وكأنه يراجع قرارا اتخذه قبل لقاءه بالحمد ثم قال بتصميم

_ ساغادر العراق.. ولا مكان يأويني وخصوصا في ظروف الحرب العالمية الطاحنة غير بيت عبد العزيز.. لقد عرفت ضيافته قبل اكثر من عقد من السنين.. سنعبر غدا الى ايران.. ليلا!..

.. لم اخبر احدا غيرك بذلك.

أفيق مرعوبا على صوت مدوّ، فأقفز صارخا من سريري الحديدي واركض دون وعيٍ خارجاً من الغرفة الخالية الى ساحة الدار ذات السقف العالي. ابواب الغرف المطلّة على الباحة مشرعة.. اركض صارخا الى كل واحدة منها ويزداد هلعي حين اجدها كلها خاوية... يتجدد الصوت المدوّي فيزداد هلعي.. لم يبق إلا السلم الذي يقود الى السطح.. اركض تجاهه واصعد درجاته بسرعة مستعينا بكفي.. اسمع لغطاً في السطح وأجد الباب مفتوحا على مصراعيه.. تهبط سكينه مفاجئة.. انطلق مكرراً لألتصق الى ساقِي اختي مليكة.

الكل منشغل بالنظر الى السماء.. ارفع بصري انا ايضا.. طائرتان بجناحين الواحد فوق الآخر، تقتربان ثم تباعدان عن بعض، وتعلو واحدة وتهبط الأخرى، ويعود اللعب المسليّ هذا مرات ومرات، مع اصواتٍ مُفرّقات تختلف شدتها تماما مثل اصوات المفرّقات في ليلة المحيي.

يدوّي من بعيد صوت يشبه ذلك الصوت الذي استفتت عليه..

_ "هذي القنبلة في سنّ الذبّان!"

..هذا الصوت المرعب هو قنبلة..قنبلة!

..أوجّه ضحكتي الى خالتي الواقعة بجوار اختي واكرر..سينّ
الذّبَان..سينّ الذّبَان..للذّبَان أسنان؟! أسنان الذّبَان!!..ذّبَان الأسنان..

يَرْنُ جرس الباب اركض لاقتحه..أطال القفل واقتحه بعد جهد قليل..
يدخل والدي بقامته الطويلة..يطلّ عليّ مبتسماً..

..يُخفي شيئاً وراء ظهره.

.. يتحرك بمكرٍ الى زاوية في ساحة البيت فأتبعه..يدير مفتاحاً صغيراً
داخل شيء يحاول ان يخفيه عدة مرات..

.. يضع ذلك الشيء على أرضية باحة الدار فتنتلق دراجة نارية
صغيرة تدور مع راكبها الصغير حول ساحة الدار مُحدثَةً ضجةً
وصفيراً..

..ادور بفرح وجذل وانا أكركر خلف الآلة الصغيرة..

..تختفي كل معالم الدار الواسع ومن فيه..لا شي في الدنيا غيرنا
يدور..الدراجة وراكبها الملون الصغير وانا من خلفهم.

بيت شرقي بدورين.. ساحة مربعة ببضعة غرف تفتح عليها.. حوض ماء غير عميق مربع الشكل وسط الساحة.. عدة غرف في الدور الثاني مع ممر امامها يلتفت حول حوش الدار.. نساء وثلاثة اطفال.

طفلة بوجه ممثليء وعينين زرقاوين واسعتين وشعر أشقر وملابس ملونة براقعة، تقاربني سنا، تتقدم اليّ وبابتسامة واسعة تسحبني:

_ بيا!.. بيا!

..أتبعها.. غرفة طويلة مفروشة بالخُصر.. على الأجزاء المجاورة للجدران تمتد فرش بوسائد اسطوانية طويلة.

تُجلسني في أحد الاركان امام دمي عديدة مختلفة الاحجام مصبغة واسعة العيون، عليها قلائد مخرزة، وامامها صحن وملاعق صغيرة..

_ بيفرماً!

تلعب بُوران التوكي في الدرب المقابل للبيت..

..أجلس على عتبة الدار اراقبها.

أرمي احجاراً في النهر الضيق القريب.. أراقب واجهات البيوت الحجرية والطينية في الجانب الآخر من النهر.

أرمي احجاراً في النهر الذي لا ارى مياهه..

أخطّ بإصبعي في التراب..أنهضُ.. أسحبها:

_ بيا!.. بيا!

نُهرولُ على طول الدرب الموازي للنهر..

جسرٌ حجري فوق النهر..

_ خِشخاش!.. خِشخاش شَكْرِي!.. شَكْرِي خِشخاش!

يقترب رجل بسرّوأل عريض أسود.. خِشخاش..; يُنزل طبق الخوص الذي يحمله فوق رأسه.. تدفع له بُوران قطعة نحاسية فيعطيهأ نبتة يابسة..

..ساق النبتة رفيع طويل، ينتهي بكرة يابسة مجمّدة بلون بني كابي.

..تهزّها بُوران قرب أذني فاسمع خرخرشة مكتومة.

..تَكسرُ فتحةً في الكرة المجمّدة اليابسة وتمسك الساق من اعلاه وترفعه..

..تلقني برأسها الى الخلف وتفتح فمها وسيعا.. تَنكُثُ الكرة المتيبسة.. يتساقط نثار من بذور عاتمة ومسحوق ابيض..

..تناولني النبتة اليابسة.

..الحبيبات تنهمر في فمي وينهمر معها المسحوق الأبيض السُكْرِي.

أجرش الحبيبات باسناني.. يلسعني طعم شديد المرارة.. ألوكُ معه السكر المتبقي في فمي.

انتظر برهة وأفرغ ما تبقى من محتوي الخِشخاشة وألوكهُ بأصرار.

..لا زلنا واقفين على الجسر الحجري، ولا زالت بوران ترطن بكلمات لا افهم معظمها.

..أتأملُ النهر والبيوت الممتدة على جانبيه.

..أخذ النهر يَتَسَّعُ.. النهر يَطول ويتلَوَّى..

..البيوت تتلَوَّى على جانبيه.

..ترفرف البيوت الملونة مثل قطعة قماش مرسومة.

..يهتَزُّ الجسر.. تتراخى ساقاي.

أتشبث بإصرار بسياج الجسر الحجري.

نهاية النهر الطويل العريض الملتَوَّى البعيدة ترتفع شيئاً فشيئاً نحو السماء.. ترتفع نهاية الدربين ببيوتهما على الجانبين..

.. جزء النهر القريب من الجسر يَتَسَّعُ أكثر فأكثر..

..نغوص انا والجسر..

يعلو ماء النهر.. يكاد يغمرنا.

بدأ النهر- المنقلب صعوداً- والبيوت على جانبيه تدور.

تتزايد سرعة النهر والجسر والبيوت على جانبي دربيه..

أنا انزلق وتمتدّ ساقاي على أرضية الجسر وظهري يحاول الالتصاق والاستناد عبثاً على جدار الجسر..

أميلُ على احد جانبي.. استند على كفي.

..أرى شبح بُوران الملون المهتز، يظهر ويتلاشى.. ويظهر..

يعود شبحها متأرجحا على طبقات متراكبة.. يَشْفَ بعضها.. تلتمع
الوان البعض الآخر بصوت رنّان قرمزي محمّر صاخب..
اسمع ضحكتها الهامسة من بعيد.

تقترب وتزداد كركرتها.. يزداد صخبها أكثر فأكثر.

..تتحول الألوان والخطوط المهتزة الى ضحك متصاعد مجلجل
وضجيج،

..رنينٌ مُعتم وشفاف، ضحك أزرق ووردي، وضجيج بنفسجي موشى
بخطوط حمراء.

أبي وخلفه خالتي وشخصان صغيران في قرية جبلية متربة ببيوت
طينية خربة.

..هو يتحدث طويلا مع رجل ملتح بسروال طويل منتفخ وعمّة صغيرة.

الرجل يشير بيديه بكثرة صوب الجبال المتصاعدة.

..أبي يصغي بانتباه.

.. يتبعه الى مكان غير بعيد.

يختفيان عن الانظار.

..الرجل الملتحي يتأرجح فوق بغل ضخم في ممرات جبلية ضيقة مليئة
بالاحجار.

..قم جبال تكسوها الثلوج.

انا اجلس قريبا من عنق بَغل بني عاتم.

ذراعا ابي تحيطان خصري بإحكام..

أذنا البغل تتحركان متعاكستين.

تُقلت بعض الاحجار من تحت قائمته الامامية اليمنى وتتحدر من على
الحافة القريبة.

أتابع الاحجار المنحدرة وهي تتسارع ساحبةً معها أحجاراً اخرى
وأتربة

يتوقف البغل ويدير رأسه تجاه الوادي.

اتابع الوادي الذي ينظر البغل اليه..

..لا أزال اشاهد الأحجار المتهاوية وهي تتضائل بسرعة مُبعثرةً
الصخور العاتمة الضخمة، ثم مختفيةً في هوةٍ، لا يستطيع بصري
المشدود أن يصل اليها الى قرارها..

أحسُّ انني أُلحَقُ منفلتاً من على ظهر البغل، مسحوباً الى الهاوية حيث
اختفت الاحجار.

..أتشبث بكفيّ والدي الضخمتين المطبقتين على خاصرتي.

..ينظر البغل بسهولة برهة الى المنحدر، ثم يبدأ بالسير بخطوات متمهّلة
حذرة.

.. يتقدم على حافة الهاوية دائماً.

..الاحجار تنزلق من تحت قدميه وتتدحرج على المنحدر الزلق وتأخذ
معها احجاراً وصخوراً اخرى..

.. تطير الى الهاوية محدثةً ضجيجاً واصداءً يستمر رنينها طويلاً في
اذني..

الحافة الحرجة هي اليمنى دائماً وهي التي يُصّر البغل أن يمشي على
حوافها.... على حافة الهاوية.

على اليسار فسحة طريق واسعة من الممر الترابي الحجري.

- الله الله!، شوف النذل!..الله الله!! سيرمينا في الهاوية يصرخ أبي

..أغاي..أغاي صرفت ميكوني..أغاي سَمِعْ نُداري؟!!!

نصل الى قبة خضراء لامعة، فوق هضبة فسيحة خضراء،بداخل القبة
باحة، ارضيتها من بلاط أخضر.

عُمدٌ خُضر..جدران بفسيفساء خضراء وبُسطٌ خُضرممدودة في
الحواشي.

..بركة مرمرية صغيرة خضراء، مائها الزجاجي المتلامع يكشف عن
قاع مليء بقطع نقدية معدنية برّاقة..

ترمي خالتي بضع قطع فتهنّز الصفحة الزجاجية وتنزل القطع بميلان
مختلف.... تتحرك بعض القطع اللامعة في القاع وتضيع بينها.

نحن في درب حجري خالٍ مُترب، على يساري كتل صخرية تتصاعد
الواحدة فوق الاخرى الى السماء.

على اليمين مني حافة الوادي السحيق..

ديز بالكُ تَجِي قَريب مِنهَ.. نَرَه تموت!

انا لا اريد ان أموت!

البيت الخشبي القريب مني معلق فوق حافة " الموت " ..

لا أحب البيت الخشبي هذا المعلق فوق الوادي.. المعلق فوق الموت..

أدخل اليه بحذر!

ألواح ارضية البيت الخشبية لا تهتز تحت قدمي، مثلما تهتز تحت
قدمي والدي.

..الخالة في المطبخ المُضيء.

..البيت كله تخرقه أحزمة الشمس المُغيرة.

.. رائحة ال(آب كُشت) في كل مكان.

أدخل المطبخ.خالتي تخرج لحمًا من قدر الآب كُشت..

.. يتصاعد بُخار متقطع.

تضع البخار في هاوِنِ خشبي!

تُخرج حُمصاً من القدر!

بخار الحُمص أقل...لبلي..لبلي!

أتذكر أهزجتنا في الزقاق في بغداد " يا لبلبي يا لبلوب والعائه ترس
الحيوب "

تضع اللبلي في الهاون..

تدق بعمود خشبي قصير داخل الهاون.

..رائحة اللحم تفوح.

أشعر بجوع فجائي شديد.

أظل واقفاً الى جانبها.

..كم ستضل تدق!؟

تعطيني عجينة صغيرة دافئة.

أهرول الى البلكونة الخشبية المعلقة فوق وادي الموت.

والذي يجلس بملابسه الداخلية وراء طاولة صغيرة فوقها قنينة صغيرة
وقدح به ماء مُضِيب.

تَنْقَطُ دَنْدَنْتَه.

..والذي يدندن كثيراً.. دَنْدَنْتَه بها نغم حُلُوّ يشبه تنويمه أمي في تلك
الازمان.. أزمان غرفة السرير العريض ومرآة المنضدة بالأمشاط
والغلب.. وماكنة الخياطة السوداء ذات الجرس الذي يَرِنُّ بين دقات
أرجل أمي وهي تدندن..

ينظر اليّ ويبتسم.

أتجاوزه.. اتوقف عند السياج ذي الأرع الخشبية المتقاطعة.

أقضم عجينتي الدافئة وانظر بحيرة الى السلاسل الجبلية في الجانب
الآخر.

..هي اعلى من السماء.. السماء تبان من فتحات بين قممها المغطاة
بالتلوج،.. هناك غيمات صغيرة تتحرك تحتها في فتحات الجبال..

أحس إنني أطفو واتحرك بإتجاه معاكس.

أدوخ.. أتشبث بالسياج الخشبي..

أمدّ راسي من بين أذرع السياج بحذر شديد.

..أطلّ بعينين جاحظتين مرعوبتين الى الموت.

عجيب!، لاشيء مخيف في الوادي.. في القعر!

..جدول ماء يجري على عجل بين صخور تبدو صغيرة متناثرة..

في الماء الصاخب تتراقص هنا وهناك في التيار، بُقَع شمسية
متحركة.. اشجار تبدو صغيرة جداً على جانبيه.

..أميز أجساماً صغيرة.

..أناس يجلسون على ضفتي الجدول.

البعض يخوض بين صخوره..

كم أرغب في أن أشاركهم لعبهم هذا!

..تتصاعد إليّ وشوشة الماء ومعها دندنات تنويمة أبي.

أصعدُ بصري شيئاً فشيئاً.. لا أرى نهاية للجبل الذي يتسلق السماء
صافية الزرقة.. صخورٌ وأجماتٌ واحجارٌ وأشجارٌ.. جداول بماء بارد
وسناجيب وماعز وكلب يهزّ ذيله وينبح بمرح..

.. سقيفة باغصان مورقة خضراء وكالحة واخرى متييسة تنفذ بقع
الضوء من خلالها، فوق أرضٍ مندّاة نظيفة بأسرةٍ مَحيوكة من اعواد
غليظة.

نتراكض أنا وبوران ورضا الى الجدول المُكرّك بين الحصى الملون.
..نتبارى بوضع أكفنا في تيار الماء المتدفق قارس البرودة، المتلامع
بانعكاسات الشمس والحصى المتلون.

..نقرب أصابعنا من أفواهنا وننفخ فيها بشدة.

نتسابق الى اشجار الكرز ونتسلقها كالقطة..

نقطفُ الحبات القرمزية ونعبي افواهنا.

..تسيل دماء الكرز فنمسحها بأكامنا.

نتغوط حَبّات كرز.

صفارات إنذار تَنعَب بصوت حاد يثير الخوف.

تسودُ الظلمة فأصرخ!

اتلمّس أبي الذي يهرع الى جانبي.

يرفعني أبي.. يضعني في (رازونة) عميقة في الجدار..

_لا تخاف.. شؤيّه ويجي الضوء!

اسمع همهمة في الغرفة المظلمة..

تنتاب أحدهم نوبة سعال شديدة.

تمضي فترة طويلة قبل ان ينبعث الضياء في الغرفة..

يمسك والدي بيدي ونخرج الى ممر طويل خالٍ.

.. ننزل درجات مُغطات بسجادة حمراء.

نخرج الى الشارع..

الشارع خاوٍ وشبه مظلم.

.. لا مياه ملوّنة تندفع عاليًا كالبارحة من النافورة الضخمة وسط
الساحة الواسعة.

نخطو بضع خطوات.. يتوقف والدي، ثم يتلفت في اتجاهات مختلفة
ويسحبني برفق عائدًا.

تكاد المياه المتموجة المعتمة تصل الى حافة القارب المائل
_ الله الله:..مولانا شُوفلكُ جَارَهُ مُو رَاخُ نِغْرَكُ

يتعالى صوت أبي بغضب.

أرى كف المجذاف تغوص في عتمة الليل والمياه وترتفع..اتباع
اصواتها الرخوة الرتيبة.

.. أضواء تتماوج فوق صفحة الماء واخرى ثابتة غير بعيدة.

..يتراءى الشاطيء.

هلا ببيكم هلا ومرحبة!.. هلا بعودتكم!.. على كيفكم من
تنزلون!.. إنطيني إيدك!.. تعال تعال لا تخاف!

يرفعني رجل غريب وينزلني على سلم حجري لا يعلو كثيرا عن مياه
النهر. يمسك بيد كفي، ويمدّ الأخرى الى آخرين في القارب.

_ هلا هلا.. مهدي.. حمد الله على السلامة هلا هلا.

على السلم يعانق والدي الرجل الغريب

_ تعَبْنَاك وَيَّانَه اخي عبد الرزاق بنصّ الليلي.

_ نَوَّرت البصرة بيك حبيبي المهدي.

أجلس الى جانب الرجل الغريب والى جانبه الآخر والذي وبقية العائلة.
كراسٍ مساندها حديدية سود بمقاعد من قماش أبيض مُتَّسَخ.

أناس كثيرون يجلسون من حولنا في فسحة كبيرة تحوطها جدران
بيضاء وفي مقدمتها قطعة قماش كبيرة بيضاء ايضاً..

كل شيء ابيض..لَمْ يسميها الرجل الغريب (الحمراء)..سينما
الحمراء.

الأنوار مُطفأة..نجوم كثيرة تتلامع في السماء من فوقي..أمامي رجال
فوق خيول متراكضة ينفخون ابواقاً طويلة..

تمتليء الساحة والفضاء باصوات عالية ذات صفير.

أركض بفرح في ساحة البيت.. افتح ابواب الغرف المغلقة وادور فيها
واحدة واحدة، ممثلاً سيارة مسرعة تجار مكانها وتطلق ابواقها بين
مسافة وأخرى..

كل شيء يُغلفه الغبار، حتى أشجار الحديقة والفراندا المطلة عليها
وكذلك ارضية السطح الفسيح.

ثعصب خالتي واختي راسيهما بمنديلين وترشان كل شيء بالماء من
جردين يتطوحان من يديهما.

أخرج باحثاً عن ثلتي من الصغار.

يعود والدي في المساء

_ سواها النذل، سواها النذل، يدمدم بغضب يدخل الى المطبخ حيث
تتواجد خالتي.

أسمع صرخة ألم.

أسمع نحيباً وشهقات تتعالى.

_ البيت؟! البيت والمطبعة!!.. هذا النذل (الدويك) يا إلهي!! صدك
سواها النذل.. رهنهم؟!.. هذا هو صديقك العزيز؟! ما راخ نخلص من
اصدقاتك الأعداء.. هذوله راخ يدفنونه بالحيا!

في النهر والجسر والنخيل.. في العراق

(المقصورة)

سلامٌ على هضباتِ العراق
وشطّيه والجُرفِ والمُنحنى
على النّخلِ ذي السعفاتِ الطوالِ
على سيّدِ الشجرِ المُقتنى

..الزرقة الكثيفة شديدة العتمة تتسرب من خلال القضبان
الغليظة وتُغرقني.. أصدع الى السطح دون عناء يذكر.
أضواءً نمنية تَسبُحُ في الزرقة الداكنة مُشوشة الإنارة، في
القعر فانوس صغير يتأرجح ويقترّب..

..الزرقة ليل، والأضواء النمنية نجيمات متباعدة.. فانوس
القعر نجمة الراعي، وانا افتح عينيّ بكسل.. اسمع مع حوار
النقيق المتقطع همسات مُنغمّة.

..أدفع الاغطية عني واجلس على حافة السرير مُرخيا ساقيّ،
أنصت بامعان..

..النقيق يتواصل والهمس ينقطع..الهمس يعود
غناءً..حدواً..أسرح بعيداً في متاهات ضبابية شفافة
دون أخيلة واضحة المعالم.

.. أنهض وامسح عينيّ..

أتكيء على حافة السياج الخشبي وأسند ذقني الى راحة كفي.

.. زرقه حبر الليل تسيل.. تذوب في عُتمة دجلة،

لاحدود بينها وبين الستارة المنسدلة المرصّعة بالماسات الصغيرة المتلامعة والجوهرة الكبيرة الساقطة من اعالي الزرقه السماوية الكثيفة الى القعر.

ازيز جنادب يتجاوب.. صوت مجذاف يقترب.. تختلط اصوات ضرباته بالنقيق، واضواء ذابله، وانعكاسات متكسرة تتحرك فوق سطح الماء..

يعود الحادي لغنائه المهموس.

أتأمل الحادي مُنسرّحا فوق شازلونج في الشرفة شبه الدائرية الممتدة داخل النهر ومسرحاً بصره في الأفق اللا محدود للظلمة.. يتوقف الحادي عن الغناء ويُنصت.. النقيق يتواصل مع حوار الجنادب وانغام ضربات المجداف.

.. الأنغام تقترب من حافة الشرفة.. تعبير ساحة الدار المكشوفة.. تنساب- صاعدةً- فسحة الدور الثاني حيث اقف.

.. وجهي يندى بنث قطرات ماء المجداف.

سَلَامٌ على جاعلاتِ النقيق..

سَلامٌ على جاعلاتِ النقيقققّ..

النَّقِيقُ.. الهَوَى.. الهَوَى..

بَرِيدَ الهَوَى

.. جاعلاتِ النقيقققّ..بَرِيدَ الهوآآ..

على الشاطئيبيين.. بَرِيدَ الهَوَى..بَرِيدَ الهوآآ

سَلامٌ على جاعلاتِ النقيق .. على الشاطئيبيين

سَلامٌ على جاعلاتِ النقيقَ على الشاطئين بَرِيدَ الهَوَى

يستمر الحداء في الغناء منتقلا من صورة لأخرى وتختلط
انغامه بانغام الجنادب ونقيق الضفادع وضربات المجداف
وصيحة ديك يبشّر بأن " بأنْ قد مضى الليل إلا إني .."

ينهض فينقطع الغناء.. يتوجه الى حافة الشرفة. يقف مُنصتا
دون حراك ومُجيلا بصره بين آن وآخر من اضواء الجسر
المترائي على اليمين، الى موقع الشاطيء الرملي الذي يشفُ
بين ستارة الليل الكثيفة وحبرالنهر الداكن، ثم يساراً حيث
يتميز شعْرُ سَعالي النخيل المشتبك، كتلةً مكثفةً من ظُلمة الليل.

..أسمع انغام الحادي تتعالى برفق من جديد..

على الجسر ما انفك من جانبييه..

على الجسر ما انفك من جانبيه..

.. على الشاطئيبيين..

على الجسرِ ما انفكَّ من جانبيه

أأأأأأأأ الهوى ي آآ

يتيح الهوى..

..الهوىآآ

يتيحُ الهوى..

من عيونِ المهاآآ

على الجسرِ ما انفكَّ من جانبيه

يتيح الهوى..

من عُيونِ المها

على النخل..

على النخل..

ذي السعفاتِ الطوال..

ويستمر الغناء، واستمر في السرحان في الظلمة، وفي متابعة
الحادي الذي يخترق الظلمة بقامته الفارهة والذي يُنظِّم
بإيقاعاته سمفونية الفجر المقرب.

- إيه دنيا!

يُلقي نظرة اخيرة سريعة من الشرفة على بانوراما دجلة
الليل، ويستدير ويخطو، ويبدو أن تأملاته لم تنقطع تماماً وهو
يرتقي السلام، دون أن ينتبه الى موضع اطلالتي عليه من

متكئى على سياج ممر الدور العلوي، ولا في أنني كنت اتابعه في حدوه وتغنييه.

- أنت هنا؟! يسأل مبتسماً وفي دهشة.. منذ متى وانت هنا؟..
ما الذي صحاك في مثل هذه الساعة والفجر لم يَبْنُ بعد؟

انه يعرف إنها لم تكن المرة الاولى لمثل هذه الاطلالة والمتابعة، ولا في انني ساذهب وارتي ملابسي على عجل لأسبقه الى الممر قرب باب الدار لمرافقته.. أو الاصح للحاق به في خروجه اليومي عند الفجر.

لقد فات وقت محاولة الاقناع، بثنيي، لا منعي عن هذا الامر، والعودة الى سريري، فقد مرّ على ذلك زمن، وكاد ان يصبح لحاقي به، عادة يومية اثناء العطل المدرسية. بل لقد اصبحت وربما ومن المرة الاولى مرافقةً، تقابل بالجدل.. وإن لم يخلو من إستغراب مصحوب بحنان، يحاول جاهدا ان لا يكون معلناً تماماً.

خطواته واسعة، لم احاول ان أجاريها. لا ولم احاول ان يكون موقعي، في شبه هرولتي، مجاوراً له في سيره.. إلا ما ندر، حين ياخذني إما فضول، او رغبة في أن اشعره، انني لا ازال موجوداً، وأن لا حاجة به الى الإلتفات الى الخلف للاطمئنان انني لست بعيداً عنه كل البعد.. حينها ارفع راسي، وانا لا ازال مواصلاً خطوي السريع، واتمعّن في وجهه. فأما اجده مُبحراً في عالم بعيد المتاهات، او منشغلاً في دَمْدمة حدائه المنغمّ الخافت.

الظلام لا يزال سائداً، إلا من اضواء المصابيح اليسيرة المتباعدة، تلقي ظلالها الشبحية على الشارع اكثر مما تنيره، فتبعث فيه الكثير من الغموض، وأجواء من الخرافات والاساطير..

هذه الأزقة الجانبية الغارقة في العتمة.. كم فيها الآن من الطنّاطل والسّعالى، تلك التي تناقلنا حكاياها انا وصحابي في الليالي، ونحن نجلس على عتبة دار احدنا.. كم فيها من ارواح هائمة. خصوصاً في تلك الازقة الضيقة المؤدية الى أرصفة دجلة وشرائعها.

..، هناك حيث الغرقى يخرجون من أعماق دجلة، مُلتقّين بأعشاب ومُلطّخين بكتل غرّين القاع اللزج الكثيف، وبعين واحدة محدّقة، وتقوّر الأخرى التي اكلتها الاسماك..

حين اصل الى مشهد الغريق الهائم، يتصاعد الوجيب في صدري وتصخب به أذناي.. اسرع اكثر مُقترباً من ساقّي والدي.

..انظر من جديد الى الزقاق، فأما ان يكون شبح الغريق قد هرب واختفى، او انه يبدأ الآن في الإستدارة عائداً الى مكانه من ظلمات النهر القريب.

ها هي أضوية الجسر الجديد تتلأأ.. لقد انتصر النور اخيراً!
عند مدخل رصيف الجسر يستدير والدي نحوي، فافهم الرسالة المعتادة.

..اقترب على عجل فيمسك بيدي ويبتسم ونواصل السير سوية،
جنباً الى جنب ويداً بيد.

.. عند الربع الأول من الجسر يترك كفي ويبطيء سيره.

نواصل العبور شبه متلاصقين..

حين نصل نهاية الجسر، يمسك بكفي من جديد لنستدير داخلين
سوق السراي.

يبداً بعض باعة الكتب فيه بفتح ابواب دكاكينهم، فتصبح بقع
اضويتها كافية لانارة أجزاء من السوق

.. يترك كفي حينها من جديد، وكل منا يعود الى مساره
وعوالمه..

- صباح الخير استاذ ، يرفع احد الباعة صوته.

- صباح الخير والسلامة ابني.

- صباحكم الله بالخير ابو رافد، تنطلق التحية من دكان ثان.

- صباحكم الله بالخير حجي، يجيب الوالد رافعاً يده بالتحية وهو
يواصل سيره.

- " أبورافد.. كبة تلوگ لهل الخلك الذهب، خلي أستفتح بيك
رزقي اليوم! "

- " تشكر أبو بهية.. صاژ!.. لف اثنين ودزهن
للجريدة..تفضل!

- " خليها عليّه ابورافد..الله يزيديك، هاي هواية انطيتني ! "

- " أطفكُ كان أزيدُ.. هذا إستفتاحُ ابو بهية وانشالله بيها البركة.
"

ننعطف الى شارع المكتبات وتستمر تصابحات الخير..
وتتزايد حين نستدير عند شارع الرشيد، مقتربين من مقهى "
حسن عجمي "

يدخل المقهى دون أن يلتفت صوبي ويلقي التحايا.. يتوجه الى
ركنه المعهود، قرب الزاوية اليمنى.

اقف عند المدخل الواسع ماسحاً ببصري تفاصيل المقهى..

..على اليسار من المدخل، تصطف اباريق الشاي المختلفة
الحجوم على رفوف متدرجة، الوانها زاهية. نقوشها في
الغالب اوراد متباينة الاحجام، واغصان مُورقة، وأشكال
نجمية ودائرية متداخلة..

على يمين الاباريق.. سِماور نحاسي ضخم يضيء بلمعانه،
وأخر مماثل تماماً له على اليسار... تصطف امام اباريق الشاي
ومن الجانبين، سماورات اصغر، تتدرج في ارتفاعها.

في ارجاء المقهى تنتشر تخوت من خشب عاتم، بصفوف
متقابلة، عدا تلك التي تستند على جدران المقهى الثلاثة.

..يغطي سطوح التخوت وظهورها سجاد ايراني.

أرضية المقهى مرصوفة بالطابوق الفرشي النظيف والمندى
دائماً. أما انارته فهي مما يسمح بالهدوء والتأمل، وقراءة

الجرائد بالطبع، وتأتي من فوانيس كهربائية نحاسية مزخرفة تتدلى من أماكن عديدة من السقف.

يجلس " حسن عجمي " بجسمه الضخم الممتليء وراء طاولة فوقها صَوَان نحاسية مختلفة الأحجام، يضع فيها الخارجون حساباتهم من القطع المعدنية.

.. وجهه وادع بشوش على الدوام..

يستقبل حسن عجمي رواده بالتحايا ويودعهم، وهو جالس وراء طاولته، (بالسلامة) او (بمعية الله).. يقوم احيانا لنجدة " الجايجي " العجوز، والمنشغل دائما في مَلءِ أباريق الشاي بالماء المغلي من احد السماورين الضخمين، او بدلق الشاي من ابريق لآخر، او بغسل اقداح الشاي الصغيرة - الاستكانات - وصحونها، وبالطبع ملئها وفق طلبات الزبائن، والتي ينادي مُساعده صانع المقهى بها بصوت عالٍ منعم: " واحد شاي واثنين حامض وواحد زهورات " .

.. صانع المقهى يقوم بإيصال الطلبات الى رواد المقهى.. اما الماء فيدور به ساق خاص يدور باستمرار بين التخوت حاملا دورق الماء في يمينه ومُنعماً رنات الاقداح العديدة، التي يحملها بيساره

..ما يسترعي اهتمامي، ليست كل هذه التفاصيل التي احبها اكثر من اي مكان آخر ارتاده مع والدي....

..الفرحة المشرقة دائماً، هي في بيغوات حسن عجمي الثلاث
بألوانها الصاخبة، ولغوها المُدمدم ذي النبرة الجادة..

.. تصدر اوامراً، اوتلقي حكماً ومواعظ.. وأياً هي المفردات
التي ترددها، فقد كانت دائماً تدمم بها على عجل شديد.

..اخطو بحذر وبيعض الخجل من الحاج حسن.

..يبتسم مشجعاً.. هو يعلم كل العلم انني اقترب لا منه، ولكن من
بيغواته الثلاث.

ها هي الكبيرة منها، والتي يغلب اللون الاصفر على بقية
الوانها، تُفْلح ودون جهد، من تسلق ذراعه الأيسر وتقف
شامخة فوق كتفه..

.. " سلامٌ عليكم!..سلامٌ عليكم! " تدمم العابثة الصفراء،
عاقفةً رأسها المتوج الممدود تجاه الجانب الايسر للحاج
حسن..تلوي رأسها اكثر لتُظهر تساؤلها الواضح وانتظارها
المَلح بعينها المدورة البراقة، والتي اصبحت تواجه عين
الحاج اليسرى.

..يرفع الحاج حسن يده اليسرى بهدوء ودون اكرات ظاهر،
مقدماً حبة يقطين بيضاء كبيرة..تلتقطها البيغاء اللعوب بهدوء
ودون عجلة وتبدء في تكريزها، غير ناسية ان تلقي بالقشور
المنزوعة، ومن موضعها ذاك، الى الصينية الموضوعه على
المنضدة تحتها.

البيغاء الضاربة الى خُصرةٍ عشبية برّاقة، تتناول باناقة حبة
من بضعة حبوب منثورة فوق المنضدة

دون ان تلقي بالا ، لا الى الحاج ولا غيره.

الثالثة مُنشغلة بحلّ معضلة كبيرة!!.. تروح وتجيء بكبرياء ملكيّة وقورة فوق المنضدة، مُطرقة برأسها وناقشة ريش عُنقها.

.. يناولني الحاج بضعة حبات بيض سمان..

..أقترب من الصفراء اللعوب المنتصبه فوق الكتف الايسر ..تعقف رأسها وتدير لي عينها المدوّرة اليسرى متفحّصة متسائلة.

..تلمحُ الحبة البيضاء بين اصبعي :

.. " سلام عليكم!..سلامُ عليكم! " ترطن البيغاء.

أجلس على التخت بهدوء الى جوار والدي المنشغل بقراءة إحدى الصحف..بعد حين ينتبه الى وجودي:

- " شربتُ شي؟ "

..أهزّ رأسي بالنفي.

- " ابو محمد! من فضلك!..يخاطب ساقى الماء..فذُ كَلاصُ شربتُ زبيب و صمّونة بيها قيمر من حجي زباله ابو شربت الزبيب اللي يمكم، لحضرة الأفندي..يشير إليّ مبتسماً " .

..بائع الجرائد الصباحية، والتي تُوزع الى الباعة المتجولين عند الفجر، ينتقل بين تخوت زبائن المقهى، حاملا جرائده

بشكل تظهر اسمائها و عناوينها واضحة للجالسين على تخوت
المقهى.

..يشتري البعض بضع صحف.

الغالبية من رواد المقهى هم من زبائن شخص آخر ممن يُؤجّر
قراءة الصحف، يدور عليهم معيراً اياهم الصحيفة المطلوبة،
ورافعا الجريدة التي أنهى الزبون الآخر قرائتها والتي يضعها
قربه على التخت، ليعيرها الى زبون غيره لم يطالعها بعد.

- " كُبة يا الله!..كُبة يا الله! " تُدمم على عجل البيغاء الصفراء.

.. " كبة يا الله..كبة يا الله " تكرر ها ذات اللون الاخضر.

..ويستمر سجال المنادة المنعم، حتى ينتاهى من على رصيف
الشارع، الذي يُطل عليه المقهى، صوت جهوري مبحوح:

" كُبه يا الله!..كُبه يا الله! "

..يظهر رجل ضخم متقدم في العمر يحمل طنجرة كبيرة فوق
راسه المعتمر بمخدة دائرية يستقر فوقها القدر الذي يتصاعد
من تحت غطاءه البخار..

- " كُبة يا الله!..كُبة يا الله! "، يكرر الرجل النداء، ويقف
مستديرا بحذر مواجهاً المقهى وروادها ويكرر ندائه:

" كُبه يا الله!..كُبه يا الله! "

نعبّر شارع الرشيد الشبه خالي من السيارات وعربات الخيل..نمرُّ ببضعة محال كانت قد فتحت ابوابها.

..نتجاوز جامع " الحيدرخانة "، لنصل بعده بقليل الى سلالم تنحدر الى زقاق ضيق، تمتد على جانبيه دور متراصة، ذات ابواب ضخمة قديمة خشبية، بنقوش بارزة ومطارق نحاسية كبيرة.

بعد اجتياز بضعة بيوت، تبان قطعة خشبية علقت فوق باب مفتوح بصلفتين..القطعة، مؤطرة بإطار متواضع، كتب عليها بخط جميل، " جريدة الرأي العام " وتحت هذا العنوان وبخط اصغر "، جريدة يومية سياسية ".

..دخل الوالد، وبخطى واسعة اجتاز الممر الصغير ونصف الساحة المكشوفة، ناهباً درجات السلم الى الدور الثاني.

..لم ينتظر جواب تحيته الصباحبة لعمال الطباعة في الدور الاول..ربما لم تصل الى مسامعه وهو يقطع المسافة الى غرفة تتوسط الجانب الايمن من الدور الثاني وتُشرف، عبر نوافذها العديدة الطويلة ذات القضبان الحديدية، على الدار كله بطابقيه.

في اقصى زاوية من الغرفة، يجلس شاب نحيف قصير أذناه بارزتان كاذني جرد كبير، وراء منضدة صغيرة، واضعاً أذنه لصق مذياع صغير، ومدوناً على عجل ما يتنصت اليه.. يهبّ الشاب عند دخول والدي.

- أهلاً استاذي.. صباح الخير، يسبق الشاب الوالد بتحيته.
- صباح الخير،.. ها بدر؟! التقطت شي مهم من الصباح؟ يقول
والدي ذلك، دون ان يلتفت تجاه بدر .
..بدر يواصل الاستماع الى الراديو الضخم ويخربش بسرعة
كبيرة، بكفه طويلة الاصابع، حروفا و اشارات فوق قصاصات
ورقية .
..والدي منشغل بخلع سترته على عجل وتعليقها على ظهر
كرسيه، وراء طاولة غير كبيرة، مزحومة بالصحف
الصباحية، وقصاصات اوراق مطبوعة، واجندة صغيرة،
واوراق مكتوبة بخط مختلف.

المقصورة ومصطفى البلام

لمصطفى (البلام) مهام عديدة توفىها رجولته الفتيه، وجسده ذو البنيان المرصوص واريحية اخلاقه. فهو يقوم مع ثلة صغيرة من البلامة نقل (العبرية) من شريعة الجعيفر في جانب الكرخ، الى شاطيء (المجيدية) المقابل لـ(المستشفى المجيدي)، نسبة الى منشئه مجيد باشا والي بغداد، والذي سمي لاحقا في الحقبة الملكية بـ (المستشفى الملكي)، الاسم الذي لم يعترف به الناس.

في الاوقات الخالية من العبرية يهب مصطفى، والذي يناديه الجميع تحببا بـ(مصطاف)، لمساعدة هذا وذاك ممن يقطنون على جوانب شريعة النهر، فهنا تنور يُنصب، وسطح يُطَيّن، وستارة سطح ترمم، ونقل اثاث ثقيل في بضع بيوتات موسرة كـ (المدلل) و(الريس)، او في منع سباحة(صَبّوحي) وحيد (أم صَبّوحي) الخياطة من الاقتراب من شريعة النهر او ضفته الحجرية القريبة.

...الويل كل الويل لمن يتعرض لاي من صبايا (الطرف) بالتحرش او لإيذاء، فصرخة وينك (حُويّه مصطاف)! تكفي لأي بطل همام منهم، ان يختفي عن(الطرف) وعن عيون مصطاف وقبضته لامد غير قصير.

لايقبل مصطاف اي اجر لقاء كل هذه الخدمات العابرة - غير اجر وظيفته كـ (بلام) - الاّ من موسري المحلة وبعد إلحاح، وعلى ان تسمى هدية الويلاد.. مع ان الكل يعرف انه غير متزوج، وانه صريع غرام يائس لـ(غنية الخبازة) جارتنا، والموعودة لابن عمها.

يفخر مصطفى امام صحبه بانه هو دون غيره بلام عمي المهدي والحقيقة ان هذه المهمة التي اصّر ان يقوم بها دون مقابل، لولا حلفان المهدي بأن يقبل الدينار، لا كأجر شهري ولكن ك(هدية الويلاد).

يعرف مصطفى مواعيد مغادرة المهدي الى الجريدة صباحا فيكون في انتظاره لا في شريعة المنطقة ولكن على الضفة الترابية المتركمة بكتل سدة النهر الحجرية (المُسْنَاه) القديمة المنهارة والواقعة اسفل دارنا والتي كنا نصل اليها عبر بقايا سلم حجري خرب يكاد يتحدر بصورة عمودية الى حافة النهر.

كما ويعرف مواعيد عودته فيكون القارب في انتظاره على الشاطيء الرملي امام (المجيدية) من جانب الكرخ وعلى مقربة من حدائق بيت (المدفعي) الغناء المنسرحة الى ضفاف دجلة.

ينقل مصطفى (سفر طاس) غداء المهدي من البيت الى شاطيء المجيدية، حيث يكون في انتظار استلامه ساعي جريدة الراي العام الوفي (جاسم عريبي)، الذي سمى كل ابناءه وبناته على اسماء اولاد وبنات المهدي تيمناً.

_ عمو مصطفى! عمو مصطفى!..بَطّتي طارت!!، الله يخليك عمو مصط!

كنت اصرخ بلوعة تقرب الى البكاء وانا امدّ راسي من الشرفة المطلة على النهر متوجهاً ببناء الغوث الى الشريعة المجاورة حيث ترسو القوارب..وكم هي المرات التي طارت بها هربا من ملاحقة اخي الصغير، او شوقا ممضا الى ماء النهر القريب، وتلك مهمة خطيرة، كانت عندي هي الأسمى، بين مهام الشهامة الاخرى لمصطفى.

في بعض الاماسي وبعد قيلولة تطول او تقصر اعتمادا على انحسار فترة الحر الشديدة افرض نفسي في مرافقة والدي مثلما كنت افرضها في مغادرته المبكرة على الاقدام عند الفجر.

لم تكن متعة المرافقة الى اجواء الجريدة والمطبعة هي وحدها ما كان يشدني، فهناك ركوب القارب، الذي غالبا ما تحوّل العبور فيه الى نزهة نهريّة طويلة.

كان مثل هذا التحول يبدء بعبارة: ابني مصطفى لاتستعجل بينا اليوم.. خلي البلم ينحدر ويّه المي!

حينها أكف عن العبث بيديّ في الماء واجلس صا متا، سارحا في ضفاف تصلح مشروعا للسباحة، مُخليا له الجو لسباحة من نوع آخر في عوالمه الخاصة، وللدننة والحدو دون تشويش.

يصمت مصطفى عن اي حديث نهري كان يستمتع به مع (عمه)، في ايام عبور أخرى، ويترك مجذافيه دون تحريك.

..غالبا ما يسرح هو الآخر.

ولطالما اقتنصت متابعته الساهمة لبيت غنية الخبازة الطيني القريب من بيتنا والمشرف على النهر.

...كان المهدي مسترخياً في دندنته عند مؤخرة القارب الوثيرة، مدوّناً من حين لآخر شفرته الخاصة على وريقات صغيرة، حين هبت نسمة عابثة - لعينة -، فاطارت عددا كبيرا منها الى سطح النهر.

- دخيلك مصطفى ابو الغيرة!! هَبَّ المهدي منتفضا من مكانه والفرع واللوعة الحارقة آخذة بكل معالم وجهه. هَمَّ بان يقفز الى عمق النهر

لولا انه احجم في آخر لحظة عن ذلك ممسكا بحافة القارب ومحدقاً في الوريقات العائمة باسترخاء فوق صفحة النهر.

..المهدي لا يعرف العوم .

قبل ان يكرر نداء استغاثته كان مصطفى قد نضى عنه(دشداشته) وقفز الى الماء...

حين حاولت أن أحذو حذوه أمسك معصمي بغضب:

أُكْعِدْ راحة!...!

كانت خبرتي في العوم في بداياتها البسيطة الاولى.

حين وجد مصطاف ان فكرة الامسك ببعض الوريقات الذائبة بلاءً في قبضته، ومحاولة السباحة وراء اخريات، هي محاولة ليست مُجدية بل وضارة ايضاً، توقف. فالوريقات التي كانت بيديه اصبحت تنفا مهروسة.

عاد واخذ بقاربه يتابعها مقترباً منها ببطء وهدوء، ثم ماداً صفيحة المجداف العريضة بأناة تحت كل وريقة لازالت طافية.

...يرفعها برفق، ثم يقرب نهاية المجداف تلك من الوالد، ليزيحها عن السطح الخشبي البليل بحذر وخوف شديدين.

... كانت عيناه جاحظتين، وفمه فاغراً، وشعره قد نفر وانامله ترتجف، كلما اوشكت واقتربت من أكثر حواف الورقة الملتصقة أماناً لنزعها.

.. أخ يا بويه...!! تنطلق من فمه بلوعة ممضة بين الحين والآخر كلما فشل في نزع واحدة منها فتمزقت بيده.

وضع الاوراق المنتشلة على ألواح الجلوس في القارب.

.. ساحت تلك الخربشات التي كان يخطها على عجل فوق تلك الوريقات فوق بعضها البعض، واصبح العديد منها عبارةً عن بقع زرقاء شافة متلاشية.

ألقي عليها من وقفته في منتصف القارب نظرة أسف وحيرة وانتظار...
كان يأمل ان تبعث الحروف حيَّةً من جديد، وتبرز من اعماق الورق المبلول في حال جفافه خطوطاً مقروءة.

..بقينا جميعا صامتين منتظرين رحمة الشمس اللافحة .

_ ايه دنيا!!..يلله هذا هو!.

.. ابنتم بحسرة، ثم بدء برفع الوريقات التي جفّت وضمها الى تلك السليمة التي لم تتطاير الى النهر.

_ اشكرك ابني ابو الغيرة مصطفى، شوف جَم عزيز عليّ خلصته من الغرق!

ينحدر القارب بدعة.. لا يسأل مصطفى عن مكان الرسو المطلوب.
الجميع... صامتون:

_ دنيا!!، يطلقها المهدي بين صمت وآخر.

_ طق،طق،طق،طق،طق،طق،طق،طق،طق،طق!

..بحيينا اللقلق بحرارة وانفعال من على قمة منذنة (السراي) المُعرّش فوقها بجلال وشموخ .

..يفتر فم المهدي عن ابتسامه عريضة... بوجه اللقلق تحية جديدة
خاصة للمهدي، بطقطقة اعلى .

عودة المقلق وطائر السنونو

انتهى الصيف وانتهت مظاهر عديدة في دجلة..فالسطح المزرق الرائق في وسطها عند الصباح، والفضي المتلامع عند الظهيرة، والمرآة البنفسجية المتوردة الصقيلة عند الغروب، بدء بالعبوس..

إنظفأ تلامع الحصى وقطع الاحجار والبقع الرملية بين الحواشي الغرينية عند شاطئنا القريب، وبدأت الوانها تحول وتبهت مع زحف المياه، التي اخذت تعتدي على حقنا المشروع من الجرف الترابي الرملي، المرصع بكتل حجرية مطمورة من بقايا السدة (العصمليّة) المنهارة، الطافحة ببقع عشبية مخضوضرة، وأشنات بنية، وكهيفات كحلية السواد.

مساحتنا الصغيرة تلك، ما بين سداد البيوت السابحة في المجرى النهري، وبين كتل حجرية ضخمة، تعوم في الصيف مثلما نعوم نحن.

.. كانت تسمح بكل كرم ومودة، ان نتسلق اكتافها ونرمي انفسنا غائصين في العمق من مياهها المحيطة.

على هذه المساحة، التي بدأ زحف المياه بتقليصها، كان يسمح لنا..شلتنا.. نحن شلة (أهل الدروب) الاصغر سنا، او على الاقل أن يُغضّ النظر عما نقوم به.

فلنا حقوق نطالب بها بالرجاء او التوسل.. أوبالصراخ الباكي وركل الابواب..

.. لنا حق العوم عند الجرف، والتسابق الى مبعده مرمى حجر عن حافة النهر.... حق التسلق فوق الكتلة الحجرية العائمة والغوص تحتها، وحق التصارع الودّي على الجرف الترايبي الرملي، والذي غالبا ما تحول الى عراق يرتفع فيه صوت الخاسر بالتحبيب العالي او بالشتائم الأعلى .

..هنا يتدخل احد الكبار من البيوتات القريبة المطلّة او من قاطني زقاق الحارة فيولّي الفائز بالفرار، إما سباحة الى الشريعة المجاورة، أو تسلّقاً عبر الكتل الحجرية الى زقاق آخر.

اما حقوق الاكبر من شلة (أهل الدروب)، فهي تتعدى ما نملكه نحن الاصغر، الى المقامرة الصغيرة بـ (لعبة الحفيرة والحصى) او (الطرّه- كتبة) او حتى المقامرة بلعب (الورق) وهذه ام الكبائر، المحفوفة بكثير من مخاطرتدخل الكبار، لذا كان لها وكرّ خاص، بين الكتل الحجرية الأضخم والاكثر خفاءً وأمنا.

لهذه المجموعة من الشلة، حق مقدس آخر كنا نحسدهم عليه، الا وهو حق التشتام بالأعضاء المحرّم ذكرها علينا، بل وحق التحرش بهذه الصبية او تلك ممن يحاولن ان يسبحن، بكامل اريدتيهن، في ركن من هذا الجرف او على الاقل إسماعهن عبارات الغزل المكشوف، او تأكيد ذلك الغزل بالكشف عن العضو الذكري المحرّم كشفه.. عن بعد.

...مع اعتداء النهر التدريجي على جرفنا، تختفي وبالتدريج كل هذه الفعاليات.

..تختفي من الشاطي الرملي المقابل (سوابيط) السباحة المُسيجة بالحصران، وقدم قطعان الجاموس النهري مع رعائهن من النسوة والصبايا (من وراء السدة)

..في الليل، تَسْحَ اصوات الموالات وترجيحات الناي الحزينة .

.. تقلّ الفوانيس المُضاءة في القوارب السابحة في عتمة ليل دجلة العذب.

...يقل عدد القوارب المُزاحمة لـ(مصطاف) في نقل العبرية الى (صوب المجيدية).

.. يهجر طائر السنونو - ببذلته (السموكنج) الكحلية - وصغاره، عشهم الطيني..(يبنى السنونو عشه على الطريقة السومرية من الطين والحلفاء ومواد لاصقة...زقورة مقلوبة، في إحدى زوايا الغرفة الباردة نصف المعتمة، والتي نتخذها مكانا لقيولتنا في الصيف).

..يهجر اللقلق الوقور عُشه الضخم، المُحاك من الاعواد الطويلة، والذي يشبه سلال بائعي الخضرة، المتوّج لمنارة السراي المطلة على النهر .

مع ارتفاع منسوب المياه الى مستوى يحتل فيه ساحلنا الصغير بالكامل، يصبح لون دجلة غريئياً، وهنا تقتصر السباحة على الرجال البالغين فقط.

تنقطع التحذيرات المتكررة لنا نحن الصغار من مخاطر النهر.

.. يقل عزف فرق موسيقى الآلات النحاسية والطبل والدفوف عند شربعتنا، لتشنيف أسمع غرقى الاعماق، الرافضين لمغادرة مواقعهم من القاع لأكثر من ثلاثة ايام، وترغيبهم بالموسيقى الصاخبة، في أن يطفوا على سطح دجلة من جديد.

..يختفي نقيب الضفادع ويَسْحَ أزيز الجنادب وصرصار الليل المضيء.

..يقف سهر المهدي على الشرفة العائمة في النهر وتنتقل اصوات دندنته
الليلية الى غرفةٍ مظلة.

.. تتبدل الأطواف المتحدرة، المحملة بالبطيخ و(الرقى) والمتعرضة
ابدا الى غزواتنا في عرض النهر، الى أطواف من عدة طبقات
متقاطعة من جذوع أشجار القوّق المتحدّرة من اعالي الشمال .

..نبدء بالتراكم عند التنقل بين غرف الدار رافعين اطراف من ثيابنا
فوق رؤوسنا بين أن وأن.

..تظهر الاوحال في الزقاق .

.. تُغمر الكتل الحجرية الكبيرة التي كنا نتسلقها في النهر تماما.

...مصطاف يرسو بقاربه كل مساء فوق جرفنا المغمور القريب من
باب الدار لنقل (عمه المهدي) بدلا من شريعة (الجعيفر) التي كان علينا
ان نلتف لنصلها بعد عبور الزقاق، قاطعين بضعة عشرات من
الخطوات وصولا اليها.

...يندر السماح لي بمرافقة المهدي في عبور- النزهة النهرية - إلا بعد
الحاح وتوسّل ولولولة باكية... او باستباقه في النزول الى قارب
مصطاف والجلوس في انتظاره عند موخرة القارب.

..المهدي ينزل الى القارب على السلالم الحجرية العتيقة الخربة بحذر
اشد..يوجه اليّ نظرات غضب مفتعل، بين لحظات متابعة عينيه
لموطيء قدمه تجاه القارب .

حالما يستقر آمانا داخل حوض القارب، يرفع راسه.. يتظر اليّ بتساؤل
وحيرة.. يبتسم حال اقترابه من مكاني.

...يجلس الى جانبي

ينحدر القارب بسرعة اكبر.

عند المرور بعش اللقلق وسلّة خضاره الفارغة الموحشة فوق المنارة:

-أبتاه، الى اين يغادرنا اللقلق وطائر السنونو؟

_ الى اماكن بعيدة قصىة .

- وهل سيعودان؟

يصمت بذهول..يسهم ببصره ابعد بكثير من اطواق الجسر المقرب..

_ أيه دنيا!!

سلامٌ على هضباتِ العراقِ

وشطّيه والجرفِ والمنحنى

على النخلِ ذي السّعاتِ الطوالِ

على سيّدِ الشجرِ المُقتنى

ودجلةٌ إذ فارَ آديّها

كما حُمّ ذو حرَدٍ فاغتلى

ودجلةٌ تمشي على هونِها

وتمشي رُخاءً عليها الصبا

ودجلةٌ لهو الصبايا الملاحِ

تخوضُ منها بماءِ صرى
تُريكَ العراقِي في الحالَتين
يُسرف في شحهِ والسدى
سلامٌ على قمرٍ فوقها
عليها هفا وإليها رنا
على الجسر ما انفكَّ من جانبيه
يُتبخُّ الهوى من عيونِ المهي
سلامٌ على جاعاتِ السقيق
على الشاطئينِ بريدَ الهوى
تَقافزُ كالجنِ بين الصخور
وتندسُّ تحتَ مهيلِ النقا

ماتَ مُعْداً .. سُبَّحَ مَلِكاً

كانت الساعة قد قاربت التاسعة ليلاً حين عاد المهدي مهموماً على غير عادته كل يوم ..

أبدلَ ملابسه وتوجه دون كلمة وانسرح على (الشازلونج) في الشرفة المطلة على الأنوار المتلامضة لبيوتات المدفعي والجلبي وبعض نوافذ الردهات الخاصة من مستشفى (المجيدية) في الضفة المقابلة.

.. كانت هنالك بضعة انوار خافتة مترججة فوق صفحة النهر العاتم..

_ دنيا!!!.. إيه دنيا! اطلق حسرتَه بصوت مسموع.

تبعته أم سالم وصينية عشاءه المُعدّ..

حَضرتُ مليكة.

.. تناول عشاءه بصمتٍ أخرسٍ الآخرين الجالسين قربه على التخت في الشرفة.

بعد أن رفعت مليكة صينية الأكل وصحونها الفارغة وتوجهت الى المطبخ، اقتربت أم سالم منه:

_ لستَ على بعضك أبا رافد؟

_ وكيف لي أن أكون على بعضي في هذه الدنيا اللئيمة القاسية!

_ خير انشأ الله.. اقلقتني!؟

_ لا.. ليس خيراً!!.. قالها بغضب واستنكار!.. كيف يكون خيراً وأنا ارى الرجل العظيم.. الشاعر الرائد المُبدع المريض، يرقد على سرير

حديدي، في غرفة فارغة تماما او تكاد، إلا من كرسي شبه متهاك وطاولة خشبية صغيرة وأكداس من الكتب لم تجد لها مكتبة اورفوا.. لا بد أنها بيعت (لعتيق البيع)، الذي يدور في الازقة الفقيرة القريبة المجاورة لبيوتات بنات الهوى المدقعات.. اكوام الكتب ورزم من الاوراق مشدودة بخيوط القنب واخرى مبعثرة يعلو أكثرها الغبار، مرمية على بلاطات الغرفة المتثلثة وتحت السرير.. لم يكن على شباكّي الغرفة المطلّين على حوش الدار الموحشة الخالية من اي اثاث ستارة حقيقية تحمي من شمس الصيف الحارقة.. بل ملاءة سرير شبه باليه لم تكن تكفي لتغطية نصفي النافذة العليا..

سمعتُ بمرضه فقررت زيارته.. لم يكن الزقاق المشبوه بعيدا عن الجريدة.

حين فتح لي خادمه.. بل لأقل رفيقه الوحيد في المكان الموحش، وجابهني خواء الدار من أي معلم يدلّ على ساكن، كدثُ اتراجع، معتقدا اني طرقت الباب الخطأ.. تجاسرت وسألت:

_ هل هذا بيت معروف الرصافي؟

_ نعم سيدي؟ " كدثُ أسأله هل أنت متأكد؟.. "

_ هل هو موجود؟

_ نعم أستاذ.. تفضل!

حين اجتزت باحة البيت اللاهبة بشمس الظهيرة.. جابهتني غرفة خاوية تماما من أي أثاث إلا من أكداس من الكتب صُفَّتْ لصق جدرانها.

..غرفة صغيرة أخرى يعلو جدرانها السخام على أرضيتها بريموس عتيق وطباخ نفطي صغير وطاولة صغيرة تتراكم فوقها عدة صحون وقدر صغير ومقلاة.. تنكة نפט قرب المدخل ..

في باحة البيت، من الطابوق الفرشي العتيق النافر في بعض اجزاءه، لم يكن هنالك إلا صنوبر ماء قرب المطبخ..رائحة المرحاض تزكم الانوف..

حين دخلتُ غرفته وأنا أمسح العرق عن وجهي، حاول الرجل المريض أن ينهض عن سريره لإستقبالي.. سارعت لاحتضانه وهو متكيء على عدة وسائد.. قبّلتُهُ من وجنتيه المتعرقتين.. تَرطّبت عيناه بدموعه:

_ معذرةً يا صاحبي المهدي..لقد تَعَطَلْتُ المروحة المنضدية فارسلتها مع (علوان) للتصليح امس " .. نعم!.. لقد بعثها لعثيق البيع يا صديقي العظيم "

سارع علوان الى جلب (مهقّة) خوص، من فوق احدى صفوف الكتب.. واحدة اخرى كانت الى جانب الرجل العليل..

نادى على علوان الذي كان يأتي شبه راكض ليُلبي طلبات سيده..

_ أسرغ واحضر لآخي المهدي شربت زبيب باردا من دكان (زباله ابو الشربة).. المعذرة لقد تَلَفَ قِصدير صندوق الثلج، فأوصيت على واحد أحر " لقد بعثَ هذا ايضا يا صديقي لتأكل.."

شكرته مدعيًا اني أعاني بداية لمرض السكّري..

قرأ بعضاً من أبيات قصيدي (أجب ايها القلب).. قبلته من وجنتيه واعدت ابياتاً من قصيدته (اقول لرب الشعر مهدي..)..

تذكرنا أيام الملك فيصل وبلاطه.. ابدى ندمه على ما قاله بحقه إجحافاً...شاركته بعضاً من ندمي، على إتعاب جلالته بقصائدي العابثة والنقد الاجتماعي والسياسي الغضوب في الأخرى..

رَوَيْتُ له بعضاً من الوقائع الطريفة والمضحكة من تلك الفترة.. ضحك فشرق بضحكته واصابته نوبة سعال شديدة.. سارعت الى قدح في حجرة المطبخ.. لم يكن هنالك إلا ماء الصنبور الساخن في الحوش، لاركض عائداً به وأنا غارق في عَرقي وخجلي.. شرب بعضه ثم استلقى بظهره على وسائده مغمضاً عينيه المتوزمتين.. جلست الى جانبه ممسكا بكفه الايمن الهادلة فوق حافة السرير صامتاً..

.. عاد علوان بسراحية ماء بارد لضيف الرصافي.. " لا بد أن استعارها من محل قريب " ..

قبلتُ رأسه الذي بقيتُ فوقه بضع شعرات بيض متفرقة.

.. فتح عينيه المحمّرتين.. بدتُ على وجه ابتسامة حزينة.. لم يستطع أن يرفع كفه مودعاً.. أمسكتها بكفي ورفعتها الى شفتي..

إنهمر سيل دموع صامت على خديه ..

أجهش المهدي بالبكاء وهو يقطع روايته لأم سالم التي دمعت عيناها، فترة ثم واصل حديثه.

_ حين رافقتني خادمه الامين ورفيقه الوحيد في وحشته، الى الباب دسستُ في كفه بضعة دنانير كانت في جيبي.

حين وصلتُ الى الجريدة، طلبتُ من جاسم عريبي، معين ومراسل الجريدة، ان ينقل مروحة غرفتي المنضدية، وصندوق الثلج بما فيه من قناني مُبرّدة وبعض الفاكهة الى عنوان مسكن شاعر العراق العليل.

ساد الوجوم على أم سالم ومليكة وصفاء.. بكت أم سالم بصوت عالٍ حين نشج المهدي.. تبعتهما مليكة.. شاركتهما وأنا اشاهد الجميع يبكون. حين غادر الجميع شرفة النهر، تاركين المهدي لسهومه وهو يسرح ببصره عبر منصات الليل، الى ومضات بعض الاضواء في الضفة الاخرى منه.. سمعته من غرفة نوم الصغار المطلّة من الدور الاول على الشرفة، يندندن ويحدو..

نشر المهدي القصيدة في جريدته (الرأي العام) صبيحة اليوم التالي.

تمرّست "بالأولى" فكنت المغامرا

وفكّرت "بالأخرى" فكنت المُجاهرا

وكنت جريئاً حين يدعوك خاطراً

من الفكر أن تدعو إليك المخاطرا

وكنت صريحاً في حياتك كلها

وكان – وما زال – المُصارح نادرا

وإنك أنقى من نفوس خبيثة

ثراوّد بالصمت المريب المناكرا

وأنّى إذ أهدي اليك تحيتي

أهزّ بك الجيل العقوق المعاصرا

أهزّ بك الجيل الذي لا تهزّه

نوابغهُ حتى تزور المقابرا

يخرج المهدي كعادته أيام الجمع من فجرية الله، الى مقهى حسن عمي، ومنها الى مكتبه في الحريدة الخالية من العاملين فيه.. يطلع على بعض قصاصات عليه نشرها في عدد يوم غد.

..يستعيد بعضا من وقائع مضت.. يدندن ويحدو بعلو صوته هناك بحرية كاملة..

كنت أستجديته كعادتي في الليلة السابقة، بأن آتي اليه نصف عارٍ، وقد شددتُ دشدادشتي كعمامة مشرشفة فوق رأسي وبوعاء معدني صغير مفعس بيدي، مقلداً شحاذاً هندياً، كي احصل على ما يكفي لعرض سينمائي عند العصر و(صمّونة) وعمبة (من قطع اللفت والفلل وحفنة من البهارات.. ومادة لزجة قد تكون شريساً)..

يبتسم المهدي، هازا رأسه بتهكم مرح.. يتعمد أن أطيل تسوّلي ليبتسم اطول او يُعلّق مشاكساً.

..ينهضُ الى سترته المعلّقة على مشجب عمودي في غرفة الجلوس.

.. يُخرج بضع عملات معدنية صغيرة.. يضعها في وعائي المعدني المفعس.. أطل في وقفتي استجدائي بجسدٍ منحني ورأسٍ متهدّل أنظر اليه نظرة استعطاف.. يخرج قطعاً معدنية اخرى ويضعها في الوعاء.

..أضع الوعاء على الارض واحتضن ساقيه .. يدفعني برفق:

_ دروخ سَخْتَجِي!!..

عبرتُ بعد الظهر الجسر الجديد من مدخل سوق الشواكة، الى مدخلي سوق السراي وسوق المغايز.. كان المنظر غريبا عليّ..العديد من مخازنهما مُقفلة.. قليل من السابلة داخلهما، وفي الشارع القصير المؤدي الى شارع الرسيد..

شارع الرشيد موحش.. اكثر محلاته بواجهاتها العريضة على الجانبين مغلقة..قليل من السابلة الذين يسرون على رصيفي جانبيه او الذين يعبرونه من جهة لآخرى.. سيارات قليلة تمرق بين حين وآخر بفواصل زمنية طويلة..

تغمرنني موجة وحشةٍ عابرة..

..وجهتي سينما الزوراء وفلم (جائبك والي) الهندي، الذي ارغب بمشاهدته للمرة الثانية..

.. سينما الرشيد وفلمها المسلسل (فلاش غوردن) بوابتها الحديدية المشبكة مقفلة بإحكام..شريط عريض اسود ممدود على بوابتها..

..الحال نفسها مع سينما الوطني المجاورة..شريطها الحريري الاسود أعرض.

.. نوافذ القهوة البرازيلية من الجهة المقابلة يبان من خلالها بضعة اشخاص لا غير..على الواجهة الزجاجية العريضة صورة مؤطرة بالسواد.

.. يُهتصر قلبي ألماً، رغم توجسي ذلك، حين أجد (جائبك والي) بوجها الضاحك، تقفز بساقيها العاريتين وب(شورتها) اللّماع وسوطها.. تقفز فوق مشبك الباب الحديدي المقفل.. الشريط العريض اللّماع الاسود عُلق فوقه إكليل ورد مجفف..

.. اعود مخذولا بمشية متراخية حزينة نفس مساري في القدوم.

.. أنتشاغل بالنظر الى واجهتي كابينتي استوديو (أرشاك) الزجاجيتين..
اليسرى لصور إبداعية عامة.. اليمنى لصور العائلة المالكة.

.. تحت صور العائلة المالكة وجة من الجبس، مغمض العينين، كتب
تحتة (قناع الموت.. الراحل، الشاعر العظيم معروف الرصافي
المتوفى فجر ١٦ مارس ١٩٤٥).. أي فجر هذا اليوم!!

.. صورة كبيرة لرجل في الأربعينات في بدلة انيقة تنصدر الكابينة
الملكية بين افراد صور عائلتها، كتب تحتها.. الشاعر العظيم الراحل
معروف الرصافي..

.. أظل واقفا واطيل النظر الى (قناع الموت).

.. لم أرَ وجه ميت من قبل.. إنه نائم!.. نائم فقط!!.. أين الموت اذا؟؟..
اسمع ضجيجا من بعيد.

.. فجأةً يحتشدُ أناس على جانبي الشارع.

.. من أين وكيف ظهروا؟!

بيان نعشٌ ملفوف بالعلم العراقي محمولاً على عشرات من الاكف.

.. النعش يكاد يطير فوق الاكف.

.. حشود هائلة تتدافع وراءه، كل يحاول أن يأخذ مكانا يصل فيه الى
النعش، ليمد ذراعيه ويساهم في رفعه.

.. كشائذٌ وعمائم تتراص في صفوف ورائهم.

.. صفوفٌ لحاملي أكليل الزهور..

.. امواجُ زحام الحشود في الشارع العريص يصل ماراً قربي فيفيض
على جانبي الرصيف.

.. تأخذني الموجة.

.. أجاهد فأفلق اخيراً في الاحتماء بممر مدخل أرشاك.

.. يلتف النعش الطائر الى اليمين ليعبر جسر (مود).

.. اظل في مكاني اكثر من نصف ساعة والحشود تتقاطر.. الكثير
بمناديل تمسح اعينها الدامعة او الباكية.

ينشر المهدي في جريدته (الرأي العام) وداعه:

لا قيت ربك بالضمير
وأثرت داجية القبور
وذهبت لم تعلق يدك
بغير مكرمة وخير
وكشفت عن صدر يتيه
بقلبه بين الصدور
عريان إلا من صميم
الحب والألم الغزير
لله درك من جريء
دون فكرته جهير
الله عندك كان رمز
سعادة الجمع الغفير
والفسق في شرب الدماء
وليس في شرب الخمر
(معروف) أمس منحتني

عطفَ الكبيرِ على الصغيرِ
كنت الركينَ على القلوبِ
المستفيضَ على الثغورِ
ما كان أشبه نعثكَ
البالي بمُنجردِ السريرِ
وفضالة الكفنِ الأسيْفِ
بذلكِ الثوبِ الحسيرِ
والوحشة الطخياءِ مثلَ
كأيةِ القلبِ الكسيرِ
ما كان أشبهنا وما
أدنى مصيركَ من مصيري
إنا كلانا نازلانِ
من القضاءِ على حفيرِ

وفي قاعة الشعب بذكرى رحيله.. يخاطب المهدي الأدباء الحاضرين:

لُغزُ الحياةِ وحيرةُ الألبابِ
أن يستحيلَ الفكرُ محضَ ترابِ

أن يصبِحَ القلبَ الذكي مفازةً
جِرداءَ حتى من خُفوقِ سَرابِ
فيما التحايلُ بالخلودِ ومُلهِمُ
لحفيرةٍ ومُفكرٍ لِنَبابِ
حَسبي بليتَ تَعلةً إذ مِيتَةٌ
حَتَمَ، وإذ آجالنا بنِصابِ
ليتَ السماءَ الأرضُ ليتَ مدارها
للعبقريِّ بهِ مكانُ شَهَابِ
يوماً له ويقالُ ذاك شُعاغُهُ
لا محضُ أخبارٍ ومحضُ كتابِ
يا معشرَ الأدباءِ غرُّ جهودكم
في المَكْرَماتِ عريقةُ الانسابِ
من منكم رِغمَ الحياةِ وعبئها
لم يحتسبُ للموتِ ألفتَ حسابِ
أنا أبغضُ الموتَ اللئيمَ وطيفةُ
بُغضي خيالَ مخاتلِ نِصابِ
يهبُ الردى شيخوختي ويُقيثُها

بكهولتي ويُقَيِّئُهَا بِشَبَابِي

ذَنْبٌ تَرَصَّدَنِي وَفَوْقَ نُيُوبِهِ

دَمٌ إِخْوَتِي وَأَقْرَابِي وَصِحَابِي

أَعِيدُ الْقَوَافِي زَاهِيَاتِ الْمَطَالِعِ

مَزَامِيرَ عَزَافٍ أَغَارِيدَ سَاجِعِ

لِطَافاً بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ، نَوَافِذاً

إِلَى الْقَلْبِ، يَجْرِي سِحْرُهَا فِي الْمَسَامِعِ

تَكَادُ تُحَسُّ الْقَلْبَ بَيْنَ سَطُورِهَا

وَتَمْسُحُ بِالْأُرْدَانِ مَجْرَى الْمَدَامِعِ

أَجِبْ أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي لَسْتُ نَاطِقاً

إِذَا لَمْ أَشَاوِرْهُ، وَلَسْتُ بِسَامِعِ

فُسَاةٌ مُحْبَوِّكَ الْكَثِيرُونَ إِنَّهُمْ

يَرُونَكَ إِنْ لَمْ تَلْهَبْ غَيْرَ نَافِعِ

وَمَا فَارَقْتَنِي الْمُلْهَبَاتُ وَإِنَّمَا

تَطَامِنْتُ حَتَّى جَمَرُهَا غَيْرُ لَازِعِ

ويا شعراً سارحاً فأقتنص من لواعج
شوارد لا تُصطاد إن لم تسارع
ترامين بعضاً فوق بعضٍ وغطيتُ
شكاةً بأخرى داميات المقاطع
ويا مُضغّة القلب الذي لا فضاءها
برحبٍ ولا أبعادها بشواسعٍ
أنتِ لهذي العاطفاتِ مَفازةٌ
نَسائمها مرنجةٌ بالزعازع
حَمَلْتُكَ حتى الاربعين كاني
حملتُ عِدْوِي من لِيانِ المَراضِعِ
تَلَقَّتْ أطرافي أَلْمُ شَتَاتنا
من الذكرياتِ الذاهباتِ الرَواجعِ
تحاشيتها دهرأ أخافُ انبعاتها
على أنها معدودةٌ من صنائعي
فَمَنها الذي فوقَ الجبينِ لوقعهِ
يدُ، ويدُ بين الحشا والأضالعِ
ومنها الذي يُبكي ويُضحكُ أمرُهُ

فِيْفْتَرُ تَغْرُ عَنْ جُفُونِ دَوَامِعِ

وَمِنْهَا الَّذِي لَا أَنْتَ عَنْهُ إِذَا دَنَا

بِرَاضٍ وَلَا مِنْهُ بَعِيداً بِجَازِعِ

حَوَى السَّجْنَ مِنْهَا ثُلَّةً وَتَحَدَّرَتْ

إِلَى الْقَبْرِ أُخْرَى وَهِيَ أُمُّ الْفَجَائِعِ

تَحَلَّبَ أَقْوَامٌ ضُرُوعَ الْمَنَافِعِ

وَرَحْتُ بِوَسْقٍ مِنْ أَدِيبٍ وَبَارِعِ

وَعَلَلْتُ أَطْفَالِي بِشِرِّ تَعَلَّةٍ

خَلُودُ أَبِيهِمْ فِي بَطُونِ الْمَجَامِعِ

يَهْتَرُ الرُّصَافِي لِلْقَصِيدَةِ:

" اِقُولُ لِرَبِّ الشَّعْرِ مَهْدِي الْجَوَاهِرِي

" إِلَى كَمْ تُنَاغِي بِالْقَوَافِي السَّوَاخِرِ "

" فَتَرْسَلُهَا غُرّاً هَوَاتِفَ بِالْعُلَا

" يُمِيلُ إِلَيْهَا سَمَعَهُ كُلُّ شَاعِرٍ "

" وَتَشْدُو بِهَا، وَالْقَوْمُ صُمًَّ عَنِ الْعُلَا

" فَلَمْ تَلْقَ إِلَّا غَيْرَ وَاغٍ وَذَاكِرٍ "

الحسنة والعري

سئل المقادير هل لا زلت سادرة
أم أنت خجلي لما أرهفته نصبا
وهل تعدت أن أعطيت سائبة
هذا الذي من عظيم مثله سلبا
هذا الضياء الذي يهدي لمكمنه
لصا ويرشد أفعى تنفت العطبا

يصل الهمس الموسوس الى اسماع ام سالم فتضحك..

_ أنت تمزحين معي يا أم علي.. هذه احدى نكاتك.

تصمت أم علي لفترة بوجوم.

- كان من الواجب ان اخبرك كقريبة وصديقة، احسن من ان يصلك
الخبر من غيري وربما بشماته

- تعنين انه وصل الى بغداد وانشغل عنا ليوم او يومين؟

- انه هنا منذ اسبوعين.. لقد استأجر بيتا قرب الجريدة.

تنصت أم سالم هذه المرة بجديّة وبوجه بدت عليه معالم القلق
والارتباك.

- مهما تكن مزاجاته وظروفه لا يعقل ان لا يمر على البيت حين عودته من الشام ليطمأن على البيت والاطفال.. خبريني الحقيقة انت تخفين شيئاً اهم.. تكلمي لقد اوقعتي قلبي وهديتي حيلي.

تكتأب ام علي.. يتعرق وجهها مفرط السمنة.. تلقي بعبائتها التي لا تزال تنهدل من على كتفيها.. تُخرج منديلاً مجعداً من احد جيوب ثوبها الاسود، وقبل ان تمسح وجهها المتعرق تخاطبني:

- صفاء! يرحم روح امك الطاهرة.. قدح ماء!

اتحرك عنهما ببطء شديد لأتسمع بقية ما يقال.

_ قولي ما عندك!.. ام علي، لا تعذبيني اكثر!

تتنحج المرأة السمينة المتربعة امام خالتي:

_ انه الآن في هذا البيت المؤجر مع زوجته السورية.

- ما هذا الخلط الذي تقولينه، انت تنقلين اكاذيب وتقولات اناس مغرضين يريدون الشماتة بابي رافد وبني انا.. حسد وغيره، قاتلهم الله هم لا يتركونا بحالنا.. وانت كيف تصغين وتنقلين هذه الاكاذيب... واستمرت خالتي بالدمدمة ثم اخذ صوتها يرتفع بغضب وكأنها ستقدم على ضرب المرأة المفرطة بطبيعتها كسمنتها.

تصمت ام علي بسهوم مطأطأة رأسها للزوبعة التي كانت قد توقعتها.

حين تجابه ام سالم الصمت الطويل المفزع ذاك، تسأل بصوت منكسر بالعبرة المختنقة:

- كلامك أكيد؟!.. من مصدر موثوق؟!!

- ليس هنالك اكثر ثقة من ابو علي و انت تعرفيه.. لقد طلبه ابو رافد و اوصاه ان ينقل كمية من النقود و هدايا للاطفال جلبها لهم من سورية.. ابو علي ارتأى ان افاتحك انا بالامر و انقل الامانة المرسله.

نكست ام سالم رأسها وبدأت دموعها تسيل بصمت، اعقبتها شهقات مسموعة تحوّلت بسرعة الى نشيج بدأ يتعالى بأطراد مع ازدياد انحناء الجسد المختص.

البيت كئيب.. جميع من في البيت ينتقل دون صوت مسموع يتحركون في مهماتهم و احتياجاتهم كالظلال و ما يجب قوله كان يدور همسا.

اراقب بقلب كسير المرأة التي عصبت رأسها بمنديل تخفيفا لهم و الصداق وهي تهيم دون قرار في ارجاء البيت تبحث عن زاوية جديدة لم تسح فيها دموعها بعد، مرة بصمت، ومرات بنشيج يتصاعد ليصل الى غرفة نومنا في الزاوية العليا من البيت المكشوف على دجلة و السماء.

مرت ايام واضحة كأبة البيت شيئا ثقيلًا أثر حتى على اهتماماتي الطفولية داخله، بل وحتى مع صحبة الزقاق خارجه، تلك التي كنت اراها قبل ذلك سعادة لا تضاهى، أصبحت مجرد ملاذ اهرب فيه من الجو الخانق الكئيب.

.. زوبعة البكاء و هستيريا الغضب تلتهب وتستمر لايام، بعد كل محاولة من الوالد لدخول البيت، اذ ان هذه المحاولات المعدودة كانت تجابه بمتاريس من الصراخ و النحيب و قذائف من الكلمات القاسية

تجعل اجتياز ممر مدخل الدار الذي لا يزيد طوله عن اربعة امتار شيئاً خطراً إن لم يكن مستحيلاً، مما يجبر الاب(الدخيل) على التراجع أسيفاً غاضباً.

كانت محاولاتي للحاق به شوقاً لا تفلح، أما لاحتضانه لي فترة قصيرة في الزقاق، يجد فيها نفسه مضطراً بعدها وعلى عجل، ان يقنعني بالعودة قبل أن يصبح المشهد مثار فضول الجيران المتعاطفين قاطبة مع الجارة الطيبة (المنكوبة)!.
..كنت أمنع احياناً من قبل خالتي التي تحول ذراعيها الممسكة بي بشدة عن اللحاق به حين خروجه.

بدأت الامور تهدأ قليلاً في البيت بعد نصائح الجارات المتقاطرات بانتظام.

.. بدأت الخطط تُحاك معها لتخطي مرحلة هزيمة المعركة الاولى والانتقال الى العمل الجاد للهجوم واسترداد المواقع.

ضمن التمام والرقى والتعاويد وانواع (العمل) المجرب لدى النخبة من المهجورات والطلائقات السابقات، وزيارات مراقد الائمة والشيوخ (المعصومين) و(اصحاب الطريقة)، كنت انا محورا رئيسياً وسلاحاً في الخطة المرسومة.

..في الوقت الذي كان فيه رافد ومليكة شقيقتي الكبرى يرونه خلصة وعياناً، كنت أحرم من زيارته، لا في مكتبه في الجريدة - وبالطبع - ولا في البيت الجديد (الملعون) للحمد.. انا سلاح فعال للضغط عليه!!

..كان جاسم عربيي ساعي الجريدة بل وحتى مصطفى البلام يعودان خائبين حين يرسلهما الوالد ليرافقاني إليه لساعات، او للمبيت معه في عش غرامه الجديد وكنت اعلن بعد امثال ذلك المنع ثورتي وعصياني، وكانت الحجج لإقناعي:

" أن هذه المرأة الجديدة إن هي إلا غولة بشعة.. سعادة شرسة قد تفترس الاطفال الصغار. "

لم اصدق ذلك تماما ولم اكن استسلم لهذا (التحريم).. كنت اجابهه بالزعيق والبكاء، بل وحتى بالشتائم، وبالتهديد بالهرب من البيت والالتحاق بالزوجة الدخيلة (السعادة الشرسة) في البيت الجديد.

.. بدأت هدايا الخالة ام سالم لي تزداد، وتحوّلت معاملتها الى شكل أرق بكثير مما سبق.. اخذت المعاملة الجديدة تفعل فعلها في تهدئتي.

.. وأتى اليوم السعيد (ويبدو انه كان ضمن خطط ونصائح الحلفاء، حانكي خطط الهجوم المضاد من الجيران والاقارب)

.. سُمح لي اخيراً بالذهاب، ولكن بعد أشكال عديدة من الاستمالة واخذ العهد عليّ بالتعاطف مع الطرف المُحب والحريص والمظلوم في آن واحد، الخالة أم سالم.. وان أحسن الاستماع قبل مغادرتي وأتعهد بأن اطبق التوصيات قبل مغادرتي.

.. اخذت أوكّد محبتي وتعاطفي بصوت ضاحك سعيد وأشفعت تأكيدي ذاك بقبلات عديدة على وجه خالتي الدامع.

لا اذكر من الذي اوصلني الى ذلك الزقاق في منطقة باب المعظم،
والذي يواجه مدخل وزارة الدفاع.

كنت في حالة سيئة من الرهبة والاضطراب لدخولي بيت (السعلاة)
المحرم، ولم يخفف من هلعي وغربتي من المكان الذي دخلته إستقبال
والذي المرحب المرح، ولا شوقي الشديد لرؤيته بعد انقطاع طويل.

بعث البيت الشرقي الكبير ذو الدورين الكأبة والعتمة الموحشة في
اعماقي عند دخوله، رغم انفتاح باحته لصفحة السماء والنور.

.. أجيلُ النظر باستغراب في الغرف العديدة الفارغة، بابوابها الخشبية
العاتمة.. بشبابيكها الطويلة العديدة المحرّمة بقضبان معدنية سوداء،
والتي تطل جميعها في الدورين على ساحة الدار المربعة.

.. أتوقُّ في الحال الى النهر الواسع والنخيل المتراعي على الضفتين
والشرفة الرحبة المفتوحة عليهما، الى الزقاق المنحدرة جوانبه على
الشاطيء الرملي، الى الكتل الحجرية القديمة السابحة في الماء، الى
تقافزنا من فوقها الى عمق دجلة.

ها قد وقعت في المصيدة!.. لا عبّودي ولا برهم ولا عُمر!.. راحت
عليك لعبة (الكعاب) و(الدعبل)، ومقايضات الزنابير والنحل تلك التي
كانت تتم في الزقاق عند الظهيرة بين رفقتنا شلّة (أهل الدروب) كما
تسميها الخالة.

اريد ان اعود الآن!!.. كيف والوالد يحتضنني بلا فكاك؟!.. كيف وقد
أغلق الباب الضخم بالترباس خلفي..

تعالى يا رمزىة!.. تعالى هنا!.. صفاء أانا.
ورطة جدىة.. كىف ساواجه هذى التى تخىفنى خالى بها.. (السعلاة..
سارقة الرجال)!

إثبث!!.. تَشَجَّعْ!! انت فى حمایة ابىك!

أسمع صوت اقدم تنزل السلم وتقترب..

.. احاول استجماع شجاعتى(كرجل) لمواجهة الموقف..

.. اشم رائحة عطر خفىف.

ىحتضنى جسد لىن ناعم، برداء حرىرى تنتثر فىه حدىقة من الاوراد،
الزهرىة والحمراء والصفراء.. تستمر فى إحتضانى..

.. العطرُ ىنبعثُ بشكل أشد من حدىقة الاوراد.

أهدأ قلىلا.

.. اهدأ كثرىرا.

برىكة مثنىة واخرى نصف مثنىة تقف امامى واضعة كفىن رقىقین
على كتفىّ

.. ترفع وجهى المرتىك الخجل المتجه الى الارض.

.. أراها تنظر الى بحنان مفراط قبل ان تضمنى من جدىد وتغمر وجهى
بالقبلات

.. ىعبق عطر البستان من جدىد.

أنظر بخجل وخوف الى وجه (السعلاة)..

.. تتسع حدقتاي وأجمد في مكاني من الدهشة.

تنطلق تنهيدة الرهبة التي انحسرت.

.. الوجه الذي احدق فيه لا يثير الفرع.

احس بفرح غامر.. ها قد تجاوزت الخطر المخيف!

.. أرى ابتسامة ودودة يعقبها صوت ناعم:

- يادلي يا دلي شو محبوب هالعفريت الصغير..

أتملى الوجه الذي امامي بشجاعة.

.. الابتسامة لا تزال تنثر الفرحة في الوجه الجميل.

ابيض كالجليب.. يتهدل على جانبيه شعر اسود ناعم كالحرير.. خصل
تندلى بمرح فوق جبهة عالية.. عينان وسيعتان سوداوان.. خدان
متوردان وفم برقوقي صغير.

.. انها أجمل حتى من جارتنا (سنّيه) حسناء زقاقنا.

قبّلتُ سنّية قبل اسابيع.

.. وعدتها انني سأزوجها بعد عشر سنوات حين ألحق بها، ونصبح
انا وهي في عمر واحد.

.. اعيد النظر من جديد!!

.. سحر السعالي لا يدوم طويلا.. سيختفي.. ستظهر على حقيقتها
المخيفة بعد لحظات..

.. لاشيء يتبدل!!

.. تظل هي هي!!، أجمل من سنّيه.

تسحبني ممسكة برفق بذراعي الى غرفتها في الدور العلوي

.. الغرفة واسعة جميلة الترتيب.. معطرة بعطر البستان الذي فاح من
اوراد ثوبها

.. تُخرج من أدراج طاولة زينتها العريضة ذات المرآة الواسعة اشياء
ملفوفة باوراق ملونة.

.. تُجلسني في حضنها وتفتح اللفائف.

.. لعب صغيرة وحلوى على شكل فاكهة مختلفة..

تقبلني من جديد.

.. نغذت التوصية الاولى.. (معرفة السعلاة).

لم أر والدي ولا في أي يوم في بيتنا يمثل هذا المرح والانطلاق،
فوجهه إما ضاحك او مبتسم او على الاقل ينضح بالرضى.. مليء
بالحيوية والنشاط.. يعبث كثيرا مداعبا او مازحا الصبية التي لا تكبر
جارتنا سنّيه - ابنة السابعة عشر كثيرا.. يتبعها الى اماكن لم اكن اراه
يتواجد فيها في بيتنا.

.. لم يكن يتركها لوحدها إلا ما ندر.

بدى لي والدي في عمر ونضارة وعبث عمي جعفر.. أصغر اعمامي.

.. حديثه ومزاحه معي قد زادا ايضا عما في بيتنا.

.. اوشكت وحشتي ان تزول.

هي!! لم أرَ وجهها بتلك الانطلاقة والسعادة والرضى في كل الوجوه
التي كانت تحيط بي في بيتنا او حتى في غيره.

.. تم تنفيذ التوصية الثانية.. (مراقبة تصرف الاثنيين).

حان وقت مغادرة والدي الى الجريدة عند العصر. نزلت لتوصله الى باب البيت وبقيت انا في غرفتها في الدور العلوي.

كنت اراقبها من سياج الممر المشرف على باحة البيت وهي منهمكة اما برش ارضيتها، او ترتيب فرش التخوت الشرقية الانيق.

.. دخلت الى المطبخ واختفت..

من اصوات القدور والصحون أدركت انها تُعدّ طعام العشاء كي يكون جاهزا عند عودة الوالد.

.. ها قد حانت اللحظة المناسبة لاثبات ولائي لجبهة خالتي.

اسرعت عائدا الى غرفتها ولم يطل بحثي، فامامي وعلى منضدة التواليت العريضة بمرآتها الكبيرة، تصطف مجموعة من قناني العطور، وقناني اصباغ، وعلب دهان، ومساحيق بأشكال والوان مختلفة جميلة.

.. أفرغت قناني العطور برشها على اقرب مكان من المنضدة.. سكبت قناني الاصباغ والدهون وبعثرتها.. نثرت كل المساحيق الطحينية البيضاء والوردية فوق أرضية الغرفة.

ما ان أتممت (مهمة الازعاج) في التوصية الاخيرة، حتى زال عني فوراً هوس اللحظة المجنونة.

.. ألقيت نظرة على المنضدة وارضية الغرفة الصاخبة بفوضى الالوان والروائح..

.. أخذني هلع لم أحسه مع أية (مكسورة) سبق وان قمت بها.

.. لا استطيع الهرب!!.. لم يَهْدني تفكيري الى اي خلاص.

أتيت اجر جر قديمي بخذلان الى سياج الممر.. وضعت ذراعي فوقه
ووسدت رأسي..

تاه بصري المشتت في ساحة الدار الفارغة.

- شو بَك حبيبي؟!.. ليش هيك الجلو زعلان؟!.. مستوحش حبيبي؟!..
تعا معي!.. تعا! بدي فرحيك شي كثير حلوا!

سحبتني برفق من ذراعي باتجاه غرفتها.. تبعتها كخرقة عالقة برأس
مطأطأ.

.. اسقطت ذراعي فجأة عند الباب.

- شو هاي ده؟!.. شو لي صار؟!.. صرختُ بفزع وألم.

تحركتُ بخطى وجلة مخذولة.. وقفتُ عند حواشي المساحة المبعثرة
من الغرفة منكسة الرأس. جلستُ على حافة السرير محنية بكامل
جسدها تجاه الارض..

ساد سكون مُرعب، أعقبه صوت نشيج.

.. الصوت المختنق بدأ يتعالى.. اخذ جسدها النحيف يختص مع نوبات
البكاء المتصاعد.

.. أحسست بألم يخنقني.. خجلتُ لم يسبق ان شعرت به بعد اية
(مكسورة) سابقة مهما كانت (شنيعة).. بدأتُ ببكاء صامت.. تحول
صمتي الدامع الى نحيب فاق نحيبها.

.. غامت الغرفة وكل ما حواليّ بسيل من عينيّ وانفيّ وفمي.

.. لم احس بالطريقة التي جرتني بها الى جانبها من حافة السرير.
.. أخذنا نبكي سويةً.

مَسَحْتُ عني دموعي برفق بكفيها، ثم بمنديلها الصغير.

- ليشْ هيك؟.. ليشْ عَمِلْتْ هَيْكْ حبيبي؟!!

.. عاد الخزي يستثير بكائي من جديد.

- ياالله اووم، ولا يهمك!.. ما أوْلنْتُه بيكفَي!.. إنشالله تُوبرني، بيكفَي حبيبي!.. اووم! اووم بنلْمُ الحاجاتِ إِلَيّ وِعو مِنْ دِيَاتِكْ.. اوْمُ حاجه بَنَّا!!

احتضنتني بصمت فترة غير قصيرة.

.. بدأ عطر ورد البستان يفوح من جديد.

- وشو يعني؟! انا كمان كُنْت بَكْبُ حاجاتُ في البيْتْ مَتْمَا بزْعَلْ.. يا لله نلْمُ انا وياك الحاجاتِ اللّي نُكَبُو.

حين عاد الوالد في الليل، كانت قد أزالْت كل ذلك الخراب تقريبا، وعلى المائدة المزينة بصحون الاكلات اللبنانية اللذيذة كان حديثهما مرحا مثل ما كان في الظهيرة.

بقيْتُ رِغم اهتمامها بي في الحديث والطعام ارقب اللحظة التي ستخبره بها بـ (مكسورتي الشنيعة).

.. لا اعرف والى يومنا هذا هل اخبرته، ام لا!

.. تشارف الآن على ثمانينها.. تحية محبة للحرورية الجميلة اينما كانت!

وهكذا يا حمد انت بين شاغوره وحمّانا وقد تلمّست اجوائك في اماكن
ارتدتها وعشقتها من قبل..

.. لا اجمل من زحلة وواديها!

اخترتُ نزلا ظريفا في احد سفوحها..

لعل اختياري كان أن رأيت ملاكاً يَدور في شرفة المنزل المعد
للمصطافين، ممسكة بقنينة واقداح تنقلها لزبائن وراء موائد..صبية
دون العشرين بشعر اصهب سرح، يتطاير مع نسيمات الوادي الندية.
في المساء جلستُ في شرفة مُطلّة على الوادي.. وأتى الملاك
يحاورني.. لا يسأل عن طلباتي.

.. اطلتُ الجوار ومَنيتُ نفسي، بحوار اكثر دفئا في ليل الوادي..

.. طالَ جلوسي في شبه العتمة الشاعرية الزحلية.. طال انتظاري..
جمدتُ خواطري في خيالٍ واحدٍ لا غير..

جلستُ، وجاءت الفاتنة، الساقية، وكنت انا في مثل هذا الحلم الجميل،
تائها، شاردا، لقد كان مزاجي وما يزال عجبيا، فالكائنات ومن فيها،
وما فيها لاتهمني بقدر ما يهمني ان التقط بيتا ثانيا او ثالثا. والفتاة
تنقرس بهذا الطائر الجديد، الغريب، العجيب.

ولم ألمس، بطرف من أناملي تلك الحورية الجميلة، ولم ألتَم الوجه
الساحر الذي يقتحم عيني ونفسي وضميري.. اكتفيت من الجلسة
المُلهمة باحتساء كأس من الشراب، وتمددتُ على الفرشة المهياة لي.

الحمد ضيف على عائلة (بيزون) اللبنانية - السورية العريقة بعد أن قدّمه صديقهم الاعز عمر ابو ريشة طالباً منهم رعايته لاستئصال وحيه.

.. تتقدم (رمزية) ابنة المضيف بأقداح المرطبات،.. صبية في الثامنة عشر من عمرها، رشيقة القوام، انيقة في ملابسها المتواضع.. الوجه صبوح رائق البياض متناسق التقاطيع.. العينان وسيعتان سوداوان، والشعر منسدل فاحم.

.. تتقدم بخفر وحياء تجاه ضيف العائلة الذي سبقته شهرته الى البيت، ذلك الرجل الفارع الطول الأنيق الذي يتحدث بصخب ومرح غزلاً وشعرا.

.. تلتقي عينا الشاعر بعيني غادة الجبل.. تسري هزة بارقة بين القطبين.

.. ظلّ الوجه الفاتن باشراقة ابتسامته الخجولة يورق ليل الشاعر.. يُضنيه.. يُوقد فيه انوار و عطورا ملائكية.. تُبدّل الصور مواقعها أنا وآخر مع شياطين شعره.. ألهمس لم يتحول بعد الى كلمات شعرية.. فيلسوف المعرّة لا يزال بعيدا.

.. لا سبيل الى الملائكة.. لا مدخل للشياطين.. لا وسيلة للنوم.

.. في العُشب ينسل الشاعر واصحاب المنزل في سبات.

.. حديثهم في الصباح دار عن هذا الطائر الغرد الفريد.

الحمد قادم من زحله. يجلس سارحا في المقهى (العربي) الذي يتردد عليه كلما كان في دمشق.

تلك الصبية الرقيقة الخجولة.. ذلك الوجه الساحر.. يا لرتة موسيقى صوتها الساحر.. وجهها خيال شاعر، صوتها نغمة الشعر.. أنت يا من تبحث عن الشعر.. إنها الشعر صورةً وصوتا.

انت لا تستطيع فكاكا من قدرك.. قدرك ليس في المعري وحده.. قدرك في (ملاك الشعر) الذي يطير بك الى أجوائه.. هذا هو يومك الخاص الموعود!!

يترك الحمد فجأة مكانه وصحبه في المقهى الدمشقي ويعود.

تفتح هي الباب:

__ كنت متأكدة من أنك لابد عائد!

يتقدم الشاعر العاشق الى اهلها طالبا يدها.

.. " ها أنت في عالم المعري وحسنائه.. مرحباً بكما.. مرحباً بالشعر وشياطينه! "

قف بالمعرة وأمسح خدّها التربا

وأستوح من طوق الدنيا بما وهبا

واستوح من طعب الدنيا بحكمته

ومن على جرحها من روحه سكبها

على الحصير وكوز الماء يرفد هـ
وزينه ورُفوفٌ تحمِلُ الكتبَا
أقامَ بالضجة الكبرى وأقعدَهَا
شيخٌ أطلَّ عليها مُشفقاً حديبَا
بكى لأوجاعِ ماضيها وحاضرِهَا
وشامٌ مُستقبلاً منها ومُرتقبَا
سلّ المقادير هل لا زلتِ سادرَةً
أم أنتِ خجلى لما أُرهِقته نصيبَا
وهلْ تعمّدتِ أن أعطيتِ سائبةً
هذا الذي من عظيمٍ مثله سلبَا
هذا الضياءَ الذي يَهدي لمكمنه
لِصاً ويرشدُ أفعى تنفثُ العطبَا
لثورةِ الفكرِ تأريخٌ يُحدثنا
بأن ألفِ مسيحٍ دونها صلبَا
آمنتُ بالله والنورِ الذي رَسَمَتْ
به الشرائعَ غزراً منهجاً لِحبا
لكنَّ بي جنفاً عن وعيِ فلسفةِ

تَقْضِي بَأْنَ الْبِرَايَا صُنْفَتْ رُتْبَا
وَأَنَّ مِنْ حِكْمَةٍ أَنْ يَجْتَنِي الرُّطْبَا
فَرْدٌ بِجُهْدٍ أُلُوفٍ تَعْلُكُ الْكَرْبَا

جعفر

أَتَعْلَمُ أَمْ أَنْتَ لَا تَعْلَمُ
بَأَنَّ جِرَاحَ الضَّحَايَا قَمُ
يَصِيحُ عَلَى الْمُدَقِّعِينَ الْجِيَاعِ
أَهِينُوا لِنَامِكُمْ تُكْرَمُوا

ما نَشَفْ، ما نَشَفْ، دَمَه يَسِيلُ وما نَشَفْ

يردد حشد من الجموع المتراصة وراء النعش الملفوف بالعلم العراقي
والتي تسير على مهلها في شارع الرشيد حاملة العشرات من البيارق
ولافتات الشعارات والاكاليل... يجيبها حشد آخر بنغمة مماثلة:

لِلنَجَفِ، لِلنَجَفِ، هَدِّي يَا سَاعِي لِلنَجَفِ..

ويرد الحشد الاول:

رَفَّتْكَ، رَفَّتْكَ، هَا الْيَوْمَ هَدِي رَفَّتِكَ

ترتفع ترجيعة مناخة مدوية من بحر النسوة المتماوج بالعباءات السود
على الرصيفين، تعقبها هلاهل أخريات بترنيمة اخرى
ما نَشَفْ، ما نَشَفْ دَمَكْ يا جعفر ما نَشَفْ..

تترنم المجموعة الاولى، وتجيبها الثانية:

جِنَّتِكَ، جِنَّتِكَ، دَمَكْ يا جعفر جِنَّتِكَ

اصرّ طلاب كلية الطب أن يستلموا جثمان الشهيد جعفر من المستشفى
التعليمي المجاور وان يبيت في حمايتهم حتى الصباح، خوفاً من اي
خطوة من قبل السلطات لعرقلة التشييع الجماهيري المرتقب صبيحة

اليوم التالي، والذي كان اتحاد الطلبة والاحزاب السياسية قد تنادت لتنظيمه، عشية علمهم بوفاة جعفر متأثراً برصاصة مزّقت كبده، والتي لم تفلح كل المحاولات الجراحية على مدى خمسة ايام من ان تنقذ حياته.

تناوب على حراسة الجثمان وإعداده اللائق للتشييع طوال الليل مجموعة من الطلبة، هي التي خرجت به في الصباح الى حشود المشيعيين وحملت جثمانه امام مسيرتهم.

كان المهدي ورؤساء الاحزاب السياسية وممثلي الطوائف الدينية بعمائمهم وكشائدهم وعمائر القسوسة والحاخامات في الانتظار امام مبنى المختبرات والبيولوجيا في الكلية الطبية.

خرجت ثلة من الطلبة حاملة النعش، يعقبها عدد آخر باكاليل الزهور التي تحمل اسماء الكليات الممثلة في مراسيم التشييع.

لم يَطل الصمت المهيب الحزين الذي اعقب نزول النعش وانتظام الالاف الطلبة المشيعيين خلفه، فما ان تحركت الجموع الا خطوات حتى علا هتاف احدهم:

المجد لشهداء الوثبة;

المجد، المجد، المجد ; كررت حشود الطلبة.

الموت للخونة اعداء الشعب.

الموت، الموت، الموت.

ارتفعت عشرات اللافتات من بين الصفوف وتزايدت الاصوات الغاضبة لتصبح هديرأ متعاقباً.

ترجّل شاب بهي الطلعة أليف الوجه، مشرقا بابتسامة عريضة.. بدأ السائق في مساعدته بانزال الحقائب والسلال والصرر من السيارة الملطخة بالاوحوال الجافة والأترية.

بلّغك الخبر على الفور، وانت في مكتبك بجريدة (الرأي العام)

..تهرع وعلائم الفزع تعلو وجهك.. عيناك نصف زائغتين.

..بقلق تقطع الامتار القليلة المعدودة بخطواتك الواسعة، وكانك تريد عبور مفازة محرقة على عجل.

أراقب من مكاني تَبَدَّل ابنسامة القادم من السفر وذبولها..

ذهول وحيرة..ثم خيبة امل.

..يقف نصف مشلول عند العتبات القليلة المتحدرة الى الزقاق وانت تتقدم تجاهه بغضب مدمما بعبارات يتعسّر علي فهمها.

قبل لحظات كنتُ قرب المسافرين المترجّل بضجيجي وقفزاتي وبالفرحة الطفولية الباهرة احاول المساعدة في انزال الحقائب والامتعة التي أنوء بها لأشبار.

كانت لحظات النشوة تشغلني عن فهم الموقف الغريب وإستيعاب المفردات إلا عبارة واحدة كانت تتردد:

..شكو عندك؟!.. شكو عندك هَسَّه جاي؟!!

غير اني بدأت ادرك عدم الرضى، بل وحتى الغضب العارم الذي كان بديلا عن الاحتضان وقبّل الترحيب وفرحة اللقاء..

لم يكن القادم من سفره إلا عمي جعفر في اجازة جامعة دمشق لنصف السنة الدراسية، ولم يكن ذلك الثائر الغضوب إلا والدي الذي لم تخفف المسافة المقطوعة من شدة هياجه.

الاثنان يواحه احدهما الاخر، ولا يزال العتاب شديدا والغضب عارما.

وها انا، وقد تحول ضجيجي وضحكي الى نصف فرع، ارى الشاب الطويل البهيّ المرّح قبل قليل، ينفجر بزوبعة بكاء هستيري، ويستدير على عقبه بحرقة واذى واحتجاج، محاولا الامساك بمقبض باب السيارة التي لا تزال واقفة، وهو يهّم بالصعود والعودة.

وهنا تندفع أنت نحوه محتضنا اياه بشدة، وهو يقاوم باصرار محاولا الافلات من كماشتيّ ذراعيك والصعود الى السيارة مكررا:

_ الآن أعود! أعود!

تظل انت ممسكا به بشدة، ثم ضامًا اياه الى صدرك. رأسك يعلو هامة رأسه الغائص في صدرك العريض، وهو يختضّ ببكاء عنيف مصحوب بحسرات عميقة وهو يكرر ; أعود!... نعم أعود!

اخذتَ تقبل رأسه، تُطلقه لحظة من اسارك لتعود محتضنا اياه، وها انتما صامتان برهة، يقف احدكما بمواجهة الاخر، الاول بابتسامة دامعة والثاني بمعاذرة ومراعاة.

كان هنالك من يشاهد عن قرب من اهل الزقاق وآخرون ممن يمرون على رصيف شارع الرشيد الذي تقفان عليه، متطلّعين بفضول الى الموقف الغريب. كانت يمينك تحتضن هذا الشاب المترخي الآن، وانتما تنزلان سلالم الزقاق وكانك تخشى ان ينزلق طفلك الصغير فيؤدي نفسه، في حين راحت يداك اليسرى تنفضّ بين لحظة واخرى عنه غبار السفر العالق على ملابسه.

حدث هذا اللقاء بعد يومين فقط، على زخّات الرصاص، ولعلعة صوتها المفزع، والذي كان مدير مدرستنا الابتدائية يمر خلالها على الصفوف مهدئاً ومحذراً وناصحاً في الوقت ذاته، ثم ليقف قرب باب المدرسة مراقباً ومنظماً خروجنا بمجاميع صغيرة، وه يوصينا بأخذ الازقة دون الشوارع مساراً الى بيوتنا. لكن فضول الخوف اقوى من اي نصيحة وتوجيه...وها انا عند رصيف شارع كبير مشرف على ساحة (حافظ القاضي) ارى ما لم استوعبه كاملاً.... بخوف التصق بحائط مجاور، متحاشياً تقافز وتراكض مجاميع من الشباب ما بين الشوارع والأرصفة...البعض لايزال حاملاً لوحة قماش مكتوبة ومرفوعة على عودين، صارخاً بصوت عالٍ يسقط،.. يعيش.. الموت ل:،، في حين قفز آخرون على الرصيف والتفتوا مترقبين ما يحدث خلفه.. ركضت مجاميع اخرى تحمل لوحات قماش نصف مطوية الى زقاق قريب..وها هي موجات تتراكض بشكل اسرع مارة على مقربة من موقعي من الجدار، وهي توجه بعضها البعض الى الممرات والازقة القريبة، تتبعها مجاميع وافراد من الشرطة ببنادقها ومسدساتها، عابسة الملامح مُطلقَةً كل عبارات السباب المقذع وهي تجري وراء هذه المجموعة او تلك. وبين حين وآخر كانت تسمع اصوات أعيرة نارية من قريب وبعيد.

لا اعرف ما السبب وفي وضعي المفزع هذا، كانت احساسيس التعاطف مع هؤلاء المتراكضين من الشباب المحمّرة وجوههم بالانفعال، والذين كانوا يصرخون; يسقط!;..يعيش!.

حضرت تشييع احدهم بعد ان سقط برصاص الشرطة، وكنت اقف الى جانب أبي على حافة قبر (قيس) قرب جامع الامام الأعظم.. كان الجسد الملفوف بالكفن الابيض يُنزل الى الحفرة الرهيبة..

..اصوات تعلقو مرردة يسقط!.. يعيش!

لم افهم رهبة الموت والقبر والكفن في ضوء الظهيرة داخل المقبرة، ولكن الفزع الليلي هاجمني عند محاولة الإخلاء الى النوم، بعد رقاد جميع من في البيت..

..كان الفزع اسطوريا.

.. حكايا الجن السابقة التي سمعتها حرّكت كل الطناطل والعماليق والاشباح.. عزرائيل يدور في ظلمات الغرفة.. عيناه مدوّرتان، جامدتان، ضبابيتان كعيون الاسماك، حاملاً شباكه السوداء بيمينه وشوكةً ضخمة مُدماة ببساره.

.. يبرز ملء العين والسمع في الظلمة منكر ونكير بهراواتيهما واقلامهما، احدهما يعدد الذنوب ويُسجلها، علي حين يقوم الاخر بتهشيم الجماجم والاضلاع ويتبادلان مهمتيهما بين الحين والآخر مَنعاً للتعب. قفزت من سريري وأنرتُ الغرفة واندستت بحذر الى جانب اخي الصغير.

مارش عسكري.. المذيع الجهوري الصوت، بنبه عن قرب اعلان نبأ هام.. مارش عسكري آخر.. الموسيقى المعزوفة تثير الحماس تماما كتلك التي كنا نسير على انغامها منتفخي الصدور في ساحة الكشافة مزهويين بملابنا (الكاكية) بقياطينها واشروطتها اللماعة. كنت ادور على انغام المارش، في رواق البيت الشرقي المفتوح ذي الاعمدة مرددا للحن ذاته بصوت عالٍ وماشيا مشية العساكر متعاليا متباهيا...حقا انه لشيء جميل ومثير وبطولي. كان اللحن يتكرر بعد كل اعلان مجدّد للمذيع "بعد قليل نذيع عليكم نبأ هاماً"; !! وحانت لحظة النبأ الهام وصمت البيت. وصمتت الحارة. وكأن الكون كله قد صمت. كان كل من في البيت يجلس بتوتر وترقبّ وتحقّر.

..وبدأت التفاصيل تعدد الكثير من الاشياء الجميلة حقاً والفخمة. وها هو الصوت الجهوري الدافئ يتحدث عن القوة والمنعة والدفاع ضد العدوان المرتقب، وعن حماية الوطن المقدس، وعن طائرات طالما حلمت بقيادتها، وعن مطارات وجيوش كنت أتخيل قادتها ومارشالاتها بأوسمتهم الذهبية اللماعة... عن صديقنا بريطانيا العظمى، التي كانت اميرتها وألية عهد التاج الملكي الجميلة إليزابيث والتي كنت اراها على شاشات السينما بثيابها المزركشة البيضاء المحلاة بالجواهر، حينما كان الكبار يصطحبونني على مريض بعد اصرار وبكاء، والتي كنت على يقين اثناء مشاهدتها في الاخبار السينمائية من أنها ستكون زوجة المستقبل دون اي منازع. (حزنت لاحقاً، حين علمت انها خاننتي ولم تنتظرنني، واختارت شخصا آخر، اسمه دوق وندسور)

رغم كل ما كان يسرده المذيع من كل هذه الاشياء الجميلة، كان غريباً جداً ان ألحظ ان الوجوم ومعالم الألم والرغبة هي التي كانت تملأ وجوه اهل البيت. وينتهي السرد المفصل، ويعزف الراديو المارش العسكري المثير فانطلق الى الرواق لاواصل استعراض الصاحب عبره، وكلما اجتزت باب غرفة الجلوس لاح لي منظر الجميع بوجومهم وصمتهم.

..تخفّ خطواتي...أجد نفسي في النهاية سخيفاً فاتوقف. كنت على يقين مُسبق، من انهم لابد سيطربون لتلك النبرات والعبارات القوية الثابتة وهي تتحدث عن كل ما يثير ويبعث على الزهو...طائرات، طيارين...مارشالات، دروع...صداقة بريطانيا العظمى...العظمى!.. لابد ان هنالك شيئاً على غير ما يرام...تعبير ذو وقع غريب يتردد على افواه الجالسين...تسمية يبدو انها تستثيرهم...شيء جديد عليّ كان اسمه (معاهدة بورتسموث); لا اعلم لماذا لم تغمض لي عين الى ساعة متأخرة تلك الليلة.

الجو في البيت مشحون بأشياء لم اعهد لها فيه سابقا. رافد وجعفر يعودان متأخرين، ومن غرفتنا التي انام فيها مع اخوتي الصغار واختنا الكبرى، اسمع وبرهبة صوت أبي يتصاعد وهو يحذر، ويتوعد اخي وعمي جعفر إن هما خرجا غداً من البيت... يُحاول ان يأخذ عهدا خاصا من جعفر...يجيبه عمي مازحا:

_ أني وين وها القضايا التعبانة وين!..

حين يستمر الوالد في ثورته، أسمع جعفر بنبرة مزحة من جديد ;

_ يا خويّ لا تُسويها جديّات... دِ جيبْ فد بُوسَة...بُوسه لاخوك الصغبيرون وروخ نام...لاتقلق روخ نام .. يعطيه وعداً إضافيا بأنه هو نفسه من سيمنع رافد من الخروج لو حاول ذلك.

كل ذلك المشهد اراه واسمعه من الشباك ذي القضبان الحديدية المطل على الرواق والغرف المقابلة.

يتصاعد بعدها لغط وهمس وحركة متزايدة بين غرف الوالد وجعفر ورافد.... تستمر تفاصيل هذا المشهد لفترة غير قليلة من ليلة السابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٨ . يهدأ البيت بعدها هدوءا يبعث في نوعا آخر من الخوف غيرخوف الطناطل والأشباح والجن الذي يهاجمني في الليلي، حين ارقد في سريري انتظارا لا اغفاءا مرتقبة.

كم هي جميلة عطل المدارس الفجائية وتناول طعام الافطار مع الجميع دون إجبار على الغسيل بالماء البارد واللبس على عجل وحمل (عليجة) الاثقال بكتبتها ودفاتها على الظهر، والتي كانت عندي عنوان إذلال وعبودية.

..ها قد حلت تلك المناسبة الجميلة غير المتوقعة...لقد عُطلت المدارس...آه حبذا لوكان هنالك في كل شهر معاهدة!!

جؤ البيت كان مشحوناً بالصمت على غير العادة... أم سالم تجلس قي ركن غرفة الجلوس المزودة ببعض التخوت والبسط الممدودة.

تجلس متربعة وامامها السماور وصينية اقداح الشاي...لا تستطيع ملامحها اخفاء زوبعة القلق حتى ولا علي...

صمت حزين. جعفر يجلس على التخت المجاور مرتديا كامل ملابسه استعدادا للخروج... الوالد على غير عادته قد غادر عند الإبكار.

أخذ مكاني واجلس بهدوء حذر... لا أجسر على اي حديث حتى ولا على طلب الإفطار.

- الله يُخليك!..الله يخليك تكفى الشر ولا تُطلع اليوم!...لخاطر الله إسمع كلامي!

_ والله للحمام!...يحاول اقناعها، بانه لم يغتسل منذ قدومه...بعرض عليها صرّة ملفوفة.

- أي نعم...والصرّة معباية مناشير!، نُجيبه ساخرة.

تتوسل اليه مرة اخرى ان يتكفى شر "الشيطان اللبي ما مات"، ويبقى مع رافد في البيت.

..يغيّر الحديث مُطفا الجو بمزاحه ونكاته، ورواية احداث طريفة مرت عليه قبل حين.

كان قدوم جعفر الينا بين الحين والآخر مصدر مرح وضجيج وتنظيم العاب جماعية، وبالطبع يصحب ذلك فوضى مثيرة. وكنا نحن اصغر من في البيت ; نجد، وبشكل دائم، السبيل الى أن يُتحفنا; ببصعة (أناات) او حتى عشرة فلوس كاملة، متظاهرا بانه خسر هذه اللعبة او تلك المباراة امامنا. أفلاس كانت تكفي لشراء اشياء، واشياء، واشياء.

فجأة وبعد عبارتين لبقتين او ثلاث مع ام سالم خرج وكأن الامر طبيعي تماما.

- ياربي مرّ هذا اليوم على خير.. يا رب!!...يا سميع، يا مجيب!

كان دعاء ام سالم يعلو بصوت متحشرج رافعةً كفيها صوب السماء.

عبود، حارس المطبعة العجوز يُلقي تحية الصباح ويسأل عن جعفر ورافد، فهو مُرسل من قبل; الاستاذ للجلوس عند عتبة باب الدار لمنع خروجهما.

بعد التحايا والاستفسار المتبادل عن صحة الاهل والاولاد وسير الدنيا العجيبة، يسحب عبود احد الكراسي ليجلس عند مدخل الدار بثقة، مُخرجا علبة تبغ المعنوية المسوّدة، لافاً سيجارته بهدوء واطمئنان عميقين.

ارى رافد يتسلل كالقط الحذر عبر سلالم السطح...اتبعه، فيشير اليّ بسبابة على فمه علامة الصمت، فألتزمه.

يتسلق بمهارة ستارة السطح الفاصلة بيننا وبين جيراننا ويختفي وراها. اعود بحذر وسكون الى رواق الدار فرحا بلعبة الاستغماية المثيرة تلك...ها انا الآن مُؤمن على اسرار هذه اللعبة الجديدة.

ينكشف السر بعد فترة قليلة، ويرتفع صوت الخالة بالبكاء والشكوى الى الله عاليا يعقبه دعاء مُوثر حار;

_ ربي عدّيها على خير هذا اليوم...يا رب!

خيّم صمت ثقيل على البيت.

يمر الوقت متباطئاً...تنفجر اصوات رصاصات قريبة مدوية مرعبة...اقفز دون وعيٍ مني، لانبطح تحت طاولة الطعام في غرفة الاسقبال...يتواصل رعيد زخّات الرصاص...ينقطع فترة ليعود من جديد مقترباً أنا ومبتعداً أنا آخر...أحس بالخلج من خوفاً اللعين هذا ومن مكان الجرذ هذا تحت طاولة الطعام...

..اخرجُ وابحث عن يتواجد في الدار...تاخذني الرهبة، حين أجد البيت خاوياً...او هكذا خُيل لي.

تدبّ حركة قلقة في الدار، يكثر اضطرابها مع ازدياد زخات الرصاص وتردد نعيب صفارات سيارات الإسعاف المقتربة حيناً والمبتعدة حيناً آخر.

..لا غداء هذا اليوم...الغريب ان لا جوع ايضاً.

يخلو البيت من الجميع... الكل يتراكم عبر الزقاق صوب مدخله على شارع الرشيد لمشاهدة حشود المتظاهرين، وحين يلعلع الرصاص تندفع موجة من النسوة الهاربات الى اعماق الزقاق على حين تغلو

زغاريد الاخريات ممن بقين عند مدخل الزقاق، لبتّ الحماس في قلوب
الشباب المتظاهر غير العابيء بالرصاص.

تخفّ اصوات الطلقات وتتباعد عند المساء.. يعود الوالد منفعلًا محمّر
الوجه ويبدء وصفه بغضب وإثارة لمشاهد احداث اليوم مما سمعه
ومما رآه بعينيه، وكيف انه وبعض من النواب كانوا يرقبون من مبنى
البرلمان المطل على (الجسر العتيق) سقوط الضحايا، وكيف كانت
ردة الفعل الغاضبة لدى هذه المجموعة من اعضاء المجلس النيابي،
والبالغة واحدا وعشرين عضواً، والتي سارعت الى تثبيت استقلالها
من المجلس وإدانتها للمعاهدة والجريمة المرتكبة بحق المتظاهرين
بوثيقة مكتوبة، وكيف أنه كان اول اسم ادرج في قائمة وثيقة الإحتجاج
والاستقالة تلك.

كان في حديثه نبرةً من الزهو والتفاخر بملاحم وبطولات الشباب
الغاضب، ويقينه من انتصار الشارع الثائر في نهاية المطاف.

...فجأة ينبري للسؤال عن جعفر ورافد، وحين يعلم بغياهما عن
المنزل يبدء بإنزال غضبه على الجميع دون استثناء.

...يظل يتردد بين مكتب الجريدة على بضع خطوات، وبين البيت:

- ها ماكو خَبر من جعفر؟..ماكو خبر من رافد؟

ويتكرر السؤال مرة هنا، ومرة هناك.

حمداً لله لقد حضر رافد اخيرا عند المساء.

..لكن ليس هنالك خبر عن جعفر.

_ تلفون ابو رافدا!

بهرع الى مكتب الجريدة.

يقدم جاسم مراسل الجريدة منفعلا، ويخبر من في البيت بأن المهدي قد توجه الى المستشفى المجيدي لاصابة جعفر اصابة بسيطة، كان من المفضل نقله اثرها الى المستشفى.

يهرع الجميع باتجاهات مختلفة، الى غرف متفرقة من الدار. تتردى العباءات، و رغم تكرار جاسم في وسط الدار أن الاصابة بسيطة يا ام سالم!... والله الاصابة بسيطة يا مليكة!; لكن الجميع يتسابق في الخروج.

تخلو الدار مرة اخرى الا من الخالة; طليعة، التي كانت تجلس ممسكة مسبحة طويلة سوداء، متممة بالأدعية من آن لآخر:

_ يا الله! يا حسيب! يا مُجيب ; يا رحيم يا عظيم.

امس كنت في رواق المستشفى النظيف اللامع انتظر مع الاخرين خروج الطبيب من نوبة الفحص المسائية. وخرج ملتحم الوجه والملابس البيضاء يبتسم قائلاً: كل شيء على ما يرام... انشاء الله هنالك تحسن اليوم .;

بدأ الجميع بالدخول.. تبعتهم بحذر ورهبة... عند عتبة الباب المفتوح توقفت.

بعد لحظات من قيام الجميع بتقبيلهم له واحدا إثر واحد، وبعد ترتيب الأوراد في أوعيتها، إنتبهت الى وقوفي بعيدا فإشار اليّ براسه، ثم بصوت ضعيف واهن وابتسامة متعبة:

_ تعال يمي صفاء افندي... تعال هنا! ;

كان شحوبه شَمَعِيّاً، وجهه ظل يحمل تلك الوسامة والوداعة التي عهدتها فيه على الدوام... كان قد طلب صبيحة ذلك اليوم ان يُحلق له وجهه وان تُبدل ملابسه. وكان قد سُمح له لأول مرة بتناول كمية قليلة من الاغذية السائلة بعد عدة أيام.

اقتربت بحذر ورهبة. إبتسم مشجعاً وحاول ان يمدّ اليّ يده... امسكت بها، فشد باصابع حاول جهده ان يضع فيها كل قوته، كعادته كل مرة حين كان يعطيني كفه للمصافحة، ايامها كان يهتصر كفي الصغيرة بشكلٍ يثير ألمي واعجابي.. تمتد بعدها يده الى جيوبه لأمنح عشرة فلوس كاملة.

لم يكن الإهتصار هذه المرة وللأسف مثيرا للألم ولا للاعجاب، كان الاهتصار ضعيفا للحد الذي أثار فيّ موجة من الحزن غمرتني بشكل مفاجيء... غالبت نفسي الا انطلق في موجة من البكاء.

...لأعادة البسمة، أشار الى جدتي ان أمنح عشرين فلسا... (قُرأنا)
كاملا!

..لم احس بأية فرحة لهذه المكافأة الضخمة.

..لا اعلم لماذا غمرني حزن ووحشة شديدين عند استلامها من يد
حبابتي المرتجفة.

كان الجميع يتظاهر بالمرح وبالتشجيع إلا; الحبابة; جدتي، التي كانت
كل حركاتها دالّة على القلق الظاهر، الذي تحاول جاهدة إخفائه
بالتشاغل بترتيب مفرش الطاولة، او ابدال مواضع اقداح الماء فوقها،
او فتح وغلق خزانة الملابس الصغيرة في ركن الغرفة..كان فيها
وهي تنتقل باعياء وبطء هنا وهناك، لايفترُّ عن ترديد الدعاء والانتخاء
باسماء كل الائمة الصالحين.

حين اجتزنا بوابة المستشفى الى الشارع، وقفْتُ جدتي لحظة صامتة،
مطأطئة الرأس...وقف الجميع بجانبها بصمت خاشع.

..تركْتُ مِداسيها الأسودين البسيطين على رصيف الشارع...نزعْتُ
عن ساقها جوربيها...تركْتُ شالهاالاسود يسقط على كتفيها وعباءتها
الى الارض...فكَّتُ ازرار قميصها عند الصدر..امسكت بحاشيته
المفتوحين، ثم رفعت رأسها الى السماء يا ربي..يا سميع!، يا رحيم!
يا مُجيب!

...غوئُك وعونُك يا إلهي...غوئُك وعونك يا الله، بجاه الحبيب
المصطفى...بجاه أمتك الصالحين!

بجاهك يا موسى بن جعفر...بجاهك يا بو الجوادين ثم انطلقت بلهفة
المنكوب للفرج القريب، تمشي حافيةً شبه راكضة، حاسرةً الراس،
عاريةً عن عباؤها، مفتوحة الصدر؛

جيتك يا بو الجوادين؛!..؛ جيتك يا موسى بن جعفر!!

الساعة الثامنة مساءً.

نداء تلفوني الى مكتب الجريدة يُبلِّغ مضمونه الى من في البيت على عجل... يبدأ تخاطف العباءات ويهرع جميع من في الدار من الكبار الى المستشفى... البيت يخلو من جديد.

..حزن ووحشة يَهصران القلب... لا مكان لخوف الاشباح هذه المرة، رغم الظلام ورغم خلو الدار.

لا اغفاء مرتقبة، لا نوم. الوقت يقارب منتصف الليل وانا امتد في فراشي منذ ساعتين مُترقباً.

تتصاعدُ صرخةُ ألم رهيبة ممزقةً سكونَ الليل، يتبعها نداء استغاثة حاد... صوتٌ يَطْلُبُ الغوث، يُناشد الرحمة، يَسْتَجِدُّ، ومن دون كلِ الأصوات المتداخلة المتعددة يصلُ الى سَمْعِي واضحاً نافذاً الى أعماق اعماقي..

يا يُمَّة... يا حُبِّيبي يا يُمَّة!;

قفزتُ..

هل قفزت من السرير أم اني قفزت من الطابق الثاني، لا اعلم!... غير اني ومع هذا النداء الممزق كنت أقفُ عند نهاية الرواق القصير.

كان الباب مُشرعاً وحشدُ النسوة بين مُترَبِّعٍ ومتكيءٍ وواقفٍ، ومن ينودُ، ومن يَلِطُّمُ وَجْهَهُ.

لم يسترع انتباهي من بين هذا الحشد إلا تلك الكُتلة السوداء المُتموجة المتلويحة، التي كانت تمتد منها ذراعان نحيفتان تَمسحان الأرض الحجرية بحركة نصف دائرية.

..تعود هذه الحركة مرةً وأخرى وثالثة بصمت.

..فجأة ينطلق من بين هذه الكتلة المتلوية السوداء صوتٌ مفزوعٌ يُشبهُ الحَشْرَجَةَ يا يُمَّة...يا وليدي...يا حبيبي يا يُمَّة.. يرتفع وجهٌ شمعيّ المعالم، جافٌ الحدقتين، وسيعهما، ويلتّ الجمعُ بنظرة زائغة يمينا وشمالا، دون ان يلحظ شيئا مما حوله. يعو دُ الرأسُ لينتكسَ وينزل متحدراً.. مُتلمساً ماسحاً الحجرَ البارد،.. تعود الذراعان الى الحركة نصفِ الدائرية ذاتها كأنهما تبحثان عن ترابٍ يُحثى على الرأس.

..حين لا تجدي هذه الحركة الباحثة، يرتفع نصفُ الجسدِ وتتحركُ الذراعان لتطرقا بمجامعٍ كفيهما بقوةٍ وعنقٍ على الصدرِ الضامرِ الحاسرِ الذي نطّت اضلاعه.

كان صدى تلك الطرقات يعلو على نحيب النائحات الأخريات.

أخذت الكفان المعروقتان تمتدان هذه المرّة، باحثتين بإصرارٍ عن شيءٍ مضاع تحت أعلى الرداء الممزوغ...تبحثُ عن ذلك النابضِ بعنفٍ بين الأضلع النحيفة تُريدان اقتلاعه.

أتعلمُ ام انت لا تعلمُ	بأن جراح الضحايا فمٌ
فمٌ ليس كالمدّعي قوله	وليس كآخرٍ يسترحمُ
يصيحُ على المدّعين الجياع	أريقوا دماءكم تُطعموا
فقلّ للمقيم على ذلّه	هَجِيناً يُسَخَّرُ او يُلجَمُ
تفحمُ لعنتُ أزيزِ الرصاص	وجرّب من الحظِّ ما يُقسَمُ

فإِما إلى حيثُ تبدوا الحياة	لعينيك مكرمةً تُكرِّمُ
وإِما إلى جدثٍ لم يكنْ	ليفضلهُ بيتك المظلمُ
أخي جعفرأُ يا رواء الربيع	إلى عَفنٍ باردٍ يُسَلِّمُ
لثمتُ جِراحك في فتحةٍ؛	هي المصحفُ الطهرُ إذ يُلثَمُ
وقبَلتُ صَدركَ حيثُ الصمِيمُ	من الصدرِ مُنخرقاً يُخرِمُ
وحيثُ تلوذُ طيورُ المُنَى	به، فهي مُفزعَةٌ، حُومُ
أخي جعفرأُ لا أقول الخيال	وذو النارِ يَقْظانَ لا يَحْلُمُ
أرى أفقاً بنجيعِ الدماء	تَنوَّرَ واختفت الأنجمُ

دَبَّتْ عَلَيْكَ زواحفُ الأعوامِ	وَبَرِئْتَ من جُرْحِ وَجْحي دامي
وَبَرِئْتَ من هُزءِ الحياةِ ببعضها	وَتَضاحُكِ الأيامِ بالأيامِ
عِشرون!! طالَتْ حيثُ مَرَّتْ قَبْلَها	خَمسونَ وهي قَصيرةُ الأرقامِ
شَوْها غُصَّتْ بالفظائعِ كَأْسُها	وأمرهُنَّ فَظاعةُ الأوهامِ

أم عزيز

تناهى الصوت مع رجعه عبر النفق الضيق الطويل والذي ينتهي بكوة من الضوء الكابي الآتي عبر الممر الاسطواني الضيق المنحوت في حجر السن، الذي يربط سرداب أبو موسى الطرمّاح بسرداب أم عزيز.

- ها حميدة خير؟ تسائل صوت حبابتي المرتجف.

- ام محمد علي..لك طولة العمر!

وكانت شهقة حزن عميقة اعقبها صمت قصير تلاه نشيج مكتوم متقطع. نهضت أم عزيز متكئة بأناة على يديها وتلفعت بشالها وهي تكرر بهمس " لا حول ولا قوة الا بالله.. لا حول ولا قوة الا بالله.. لك فيها إرادة يا الإهي!"

صعدت ام عزيز سلالم السرداب التحتاني المرتفعة مستعينة بكفيها وهي تنهت.

كنت اتابع حركاتها من مكاني وانا أتخوّف ان تتدحرج ويتداعى في اية لحظة ذلك الهيكل الضامر.. تنفست الصعداء حين ايقنت انها ارتقت السلالم بامان.

كنت وانا ملتحف بغطائي اكاد ارتعد خوفا من الصمت الذي خلفته وراءها، ومن مخايل جدث أم محمد علي المسجى امامي الان، ومن ظلال عزرائيل الذي يسحب بشباكه عبر نفق البئر المؤدي الى سرداب ام كامل..نفق وسيع داجي الظلمة، أعرف انه ينتهي بالبئر المشتركة بين سردابينا..كنا نتنادى عبره انا ورشاد ونزحف لنُطل عبر كوة البئر المشتركة احدنا على الاخر، وحين لا يكون هنالك رقيب علينا كنت اتسلق الى فوهة البئر في دارهم بالاستناد على الساقين والذراعين

المتباعدتين على وسعيهما وكفّيهما المستندة على احجار جدار البئر الاسطواني..

..حين يمسك بنا، والده ابو كامل او عمه اسحاق عند اتمام اللعبة الخطرة هذه، وبعد الانتظار حتى اقفز سالماً، من فوهة البئر الى باحة دارهم، لم اكن انا من ينال شرف العلقة الساخنة، بل رشاد الذي لم تتعد مشاركته اكثر من المشاهدة والتشجيع.. أن يعاقب ذلك الجار الصغير القادم من بغداد، ومدلل (الحبّابة) ام عزيز فذلك له عواقبه، حتى لو كان العقاب عادلاً وضرورياً.

.. نفق البئر الحالك بدأ يمتليء بخيالات الأشباح الوامضة وهمسها الموشوش..

..لم استطع الصمود طويلاً.. قفزت ناهبا سلالم السرداب التحتاني المرتفعة، ومن ثم وبسرعة اكبر سلالم السرداب الفوقاني لاستقبال ضوء الشمس الباهر ونارها الحارقة ولفح الجدران الحجرية بجذل، وبإشراقه من السعادة لاتضاهيها إلا سعادة استقبال شواطئ دجلة الرملية في هروبات الظهيرة في بغداد، حين يهجع الأهل في قيلولة الصيف.

.. ها قد اختفى جدث أم محمد علي المسجي، بوجهه الذاوي المصفر، والحدقتين الواسعتين الناظتين عن محجريهما.. وحتى وانا اجيل البصر ماسحاً اركان البيت السابح في الضوء باستقصاء حذر، لا أجد اثرا لا لعزرائيل ولا لشباكه.. يبدو انه يفضل انجاز مهمته في الأقبية والانفاق العاتمة، اوفي ظلمة الليل، حينما يهجع الجميع وتتغلق عيونهم.

..صمت ساخن في كل زوايا الحوش الحجري الواسع، لم يكن يقطعه، وانا اقرص في أحد زواياه الظليلة، إلا أزيز ذبابة أجوج، او هديل احد ازواج الحمام المعشش فوق تيجان اعمدة الدار الخشبية الشامخة.

افترض الارضية الحجرية فتسري حرارتها في جسدي، ويسري معها خدر لذيد مبلل بالعرق، وحين تهب نسمة من زاوية لا مرئية تنتعش الروح.

..ما احلى التحرر من أسار القبر العميق الرطب البارد المظلم.
أرقب الحاشية السفلية لضوء الشمس الساقط على الجدار. حاشية الضوء قد تجاوزت شبابيك المطبخ وغرفة الضيوف، الساعة اذاً قد اوشكت على الخامسة.. لم يبق الا القليل لصعودها.
ها انا اسمع وقع قبقابها مقتربا من أعلى سلالم السرداب (الفوقاني)..
..ها هي تقف لاقطةً أنفاسها وعلى وجهها معالم خدر ورضى.. تتوجه وتأخذ خرطوم الماء لتبدء برش جسدها اولاً بالماء، ثم ارضية الحوش المبلط بالطابوق الفرشي العريض.. تهب نسمات ساخنة مضمخة بعبير التراب المُندي.

.. هذه الرائحة، هذا العطر الكوني.. رائحة الارض البكر.. رائحة البادية بعد قطرات المِزنة العابرة.
.. بين الحين والحين كانت تعيد رشّ نفسها برشقات من الماء فيلتصق الثوب الرقيق من جديد على تفاصيل الجسد الغض الملفوف.

"..اسمع همسا ووشوشة وصريرا وضحكات منقطعة مكبوتة.
.. أزحف الدرجات العالية من سرداب السن والمؤدية الى السرداب الفوقاني، حيث ينام عمي وزوجته الجديدة قيلولته..
.. أتلمسُ دربي كالفط الحذر..
تهب نسمة دافئة وينزاح جانب من الظلمة عبركوى النور المحزومة بالقضبان.. أنتظر..
..جسدي يرتعش بالترقب، خشية كسفي متلصصا وانا قابع كاتماً
انفاسي عند آخر درجة .
لا يطول انتظاري.. النغمات تتجاوب من جديد بوضوح اكثر..

"..ممانعة متراخية.. كركرات خفيفة..صمت.. تأوهات ..فحيح
..اخشاب التخت القديم تصرّ.. يتسارع بفوضى مزيج الاصوات..
يتصاعد.. ينتظم.
نحيبٌ خافت متقطع.
لا استطيع فهم سبب بكائها!.. "

تقترب مني.
ترشّ نفسها برشقة ماء أخرى..
اتلصص من الزاوية التي امتدّ عليها بتلذذ.. وامعن النظر في خطوط
وزوايا الجسد المترائي وراء الثوب الخفيف المبلول الملتصق بالجسم
المكتنز الغض.
..تسري في الأعماق هزة نشوة يرتجف لها الجسد.
كانت في السادسة عشرة من عمرها..كنت في العاشرة.
تتوقف قليلا عن الرّش وتنظر بسكينة وبابتسامة حلوة اليّ:
- ها قد هربت مرة اخرى مما تسميه القبر.
عادت ترش أرضية الدار.
أصعد الى السطح قبل ان يصعد الآخرون.. امسك بحافة سياج
الطابوق.. تجابهني القبة الذهبية المتلامعة.. حين استمر في التحديق
تقترب القبة.
.. أحتضن هالة الضوء الباهرة فوق هامة القبة.. أنتقل اليها من مكاني
بيسر كبير.. أرخي ساقيّ حول فنار هالة الضوء العريضة.. لاخوف
علي فالامام يحميني، ..لن التصق بقبته دون فكاك، مثلما حصل مع
اللس الذي حاول أن يسرق الواحاً ذهبية من سطحها.. ألصقه الإمام
فوقها مثل ذبابة على صحن دبق..
أنظر الى أطراف النجف من هذا العلو الشاهق.. ارى بحر النجف
يتلامع بالضوء القمري.. نتسابق الى حواشيه الرملية الندية منزلقين

من تلال (الخويش) المشرفة عليه.. ننحدر راكضين.. يتعثّر احدنا..
ينتدحرج ككرة من جرق ملفوفة.. مسار انحداره يثير أتربة واحجارا
رملية صغيرة.. نضحك ساخرين مهرجين حين تتكشف مؤخرته ..
ألتف حول العمود النير أجابه وادي السلام من وراء سور النجف.
.. آلاف.. ملايين القبور الصغيرة تبان ظلالتها في الضوء الفضي
المنسكب من قرص السماء اللامع.. هناك العديد من قصور مقابر
الموسرين القرميدية الخضراء بقبابها بين حشود قبور الفقراء
الصغيرة.. موتى اغنياء بكروش كبيرة اعتمرون عمماً ضخمة سوداء
أو بيضاء.. اولاء موتى فقراء مساكين باسمال مرقعة.. كلاهما وليمة
للدود الشره.

.. تظهر اشباحهم من بين ظلال وادي الموت الواسع.. أزيح وجهي
جانباً.

ها قد عدت من سياحتي.. أقف مستقرا على السطح منتعشاً بنسمة
البادية العذبة العابرة.

أم عزيز وهي تلملم سجادتها وقرآنها ومفتاح الجنان وجنان الصالحين
ومسبحتها الطويلة.. تضعهم جانبا من حصيرتها وتغطيها بمأزر
الصلاة الابيض - (النماز)، قبل أن تضع قدميها في مداسها الاسود.

.. تطفئ المصباح النفطي بعدة نفخات تعقبها نوبة من سعال مكتوم.
.. اسمع قرقعة المداس على درجات السلم وصوتها، وهي تستعين على

الصعود بجهد " ..يا الله..يا ابا الحسنين.. يا أم البنين.. يا.. "

.. تصل الى السطح منهكة..

استندت على حاشية باب السلم لاهثة.. اخذت بضعة انفاس عميقة من
نسمات الليل الباردة..

- " بَعدك ما عُفِيتُ؟! .. لا تُظَلُّ هُوَايَة تُعد النجوم لو رِدَّتْ تُطَلِّعُ وَيَايَة
للحضرة الفجر.. راح نطلع ويّه الأذان.. نام حَبَابَة وتغطى زين! "

.. انظر من بين اعمدة السياج الى الباحة الفارغة.. لا زال هنالك ضوء يرتقي من سرداب البيت.. هادي وزوجته الشابة لا زالا في ركنهما هناك.. زوجته القديمة قد سبقتهما الى السطح الآخر.. " لا بد انه وراء كاس عرقه، ولا بد انها ممتدة الى جانبه تضع رأسها في حضنه.."، .. زوجة على اليمين واخرى على الشمال.. والهمس والضحكات المكتومة

.. قد يفوتني المشهد والاصوات هذه الليلة.
.. " كيف تعد النجوم.. صفائح زجاجية منمنمة.. كل طبقة بزرقه شافة تتمايز بكثافة الزرقه المرصعة بملايين اللآليء والماس والبلور والمناشير الزجاجية وكسر الاصداف والأوشحة الضبابية المشعة.. كيف ابدء العد ومن أين؟!..

.. خيط ضوئي منحدر بلهب بنفسجي متسارع يتلاشى ذيله المضيء.. "رجوم الشياطين!!" .. هل أسقط هذه النجيمة التي رجمت شيطانها من العد؟

.. لو ان كل نجيمة اراها الآن تحرق شيطاناً.. كم سيكون عدد الشياطين الدائرة حولنا في السماء.. عددها إذاً عد النجوم التي لا تعد.. " عدّ النجوم فأل سيء! " .. هل ان عدّها فأل سيء لاننا بذلك نعد شياطين السماء الكثيرة؟!.. "

".. الشيطان ما مات! "، هو تحذير حَبَابَتِي الدائم كلما هممت بعمل تراه خطراً.. وهل يموت مثل هذا العدد إلا بسقوط واحتراق نجوم الكون كلها؟!..

.. هل تعيش كل ملايين الشياطين في السماء؟.. من اين اذاً ياتي شيطان البئر في الليل، وشيطان مقبرة الكرخ، وشيطان غرفتي في بغداد حين تُطفأ الأضواء.. لماذا يختفي هنا فوق سطح جدتي وانا ألاحقه دون خوف مع النجم الساقط؟!.. لِمَ لا يفزعني هنا حتى حينما اصعد لوحدي قبل الجميع مختلياً مع سياحاتي الليلية حول بحر النجف،

ومقابر وادي السلام، وأزقة المدينة العتيقة والسماء الملضومة بالنجوم والشياطين.. كل نور نجم جميل هنا له ظل شيطانه الاظلم.. لم اعتبرهم هنا في نسمات البادية الندية رفاقي في سياحات الكون.. اصديق ودودين؟!.. اصعد اليهم دون وجل، بل وبرغبة في المعاكسة والتحدي.. لماذا الشياطين والارواح والمردة والطناطل مرعبة تسلب الارواح في اماكن اخرى..

لا اجسر حتى على التفكير في أن أنزل الى السرداب في الليل، ولا أن اقترب من فوهة البئر بغطائه المشبك عند مدخل السلم المفضي اليه، انها تهيم هناك في قعر الظلمات باعداد كبيرة تنتظر صيدها لمن يتجاسر ويقدم على محاولة النزول اليها. فتحت عيني.. كانت السماء تهتز بنسيجها اللؤلؤي وأوشحة مجرتها المنسحبة.. ثبتت الصورة المهتزة وأتت ضبابة ضوئية عبرت سياج السطح هاربةً من فنار قبة الامام الذهبية.

..همسُ ترتيل حبابتي يختلط بوشوشة السماور، تصعد الي وتلفني باحساس رخي من الطمانينة والسلام.. احس بندى الفراش المبترد واتلمسه قبل ان انقلب على جنبي الايسر لأطل بخدر لذيد على حوش الدار..

أم عزيز في كامل قياقتها.. رداها الاسود الموشى، الهاشمي الرقيق المخرم فوقه، وشاح الرأس الحريري الرقيق.. عباءتها الهمايونية الملمومة ترقد الى جانبها. .. تستمر في اهتزازات رأسها المنغمة من فوق المصحف المفتوح في حضنها.

امامها السماور وابريق الشاي فوقه وصينية مغطاة بشال خفيف ابيض. .. افطاري ينتظر نزولي.

قللت من انارة الفانوس قبل ان تلم عباؤها المكورة الى جانبها وتنهض
مستعينة بذراعها الايمن وبهمهمة:

.. " يا الله.. يا ابا الحسنين! " .. لفتت شيلتها حول رأسها ووضعت
قدميها في مدامها الروغان الاسود اللامع وارتدت عباؤها..

- نتوكل حباية ونلحك صلاة الفجر بالحضرة!..

خَطْتُ في حوش البيت الغافي المليء بالظلال المترقصة وبقايا
الاشباح المسالمة، التي بدأت تتوارى في فتحات الاقبية ومداخل
السلام وفتحة البئر المحكّمة بالقضبان.

".. شبح جدي ظهر لها قبيل الفجر منذ يومين.. يلتف بأوشحة بيضاء..
يحمل إبريق وضوءه.. إقترب بهدوء وصمت من وسط باحة الدار..
توضأ ثم صلى ودعا بالخير لمن في الدار " .

قبل ان أعبّر خلفها الى مجاز البيت الاظلم المفضي الى البراني ومنها
الى بوابة البيت، إلتفتت ورائي فتلامعت عينا شبح مطل من احدى
الفتحات الدكناء وأوشك آخر أن يمد كيانه الدخاني الرجراج من فوهة
البئر..

.. اسرعت بخطواتي وكدت أتعثّر بساق جدتي في الظلمة.

..الى يساري السلام المؤدية الى غرف (البراني) العليا.

.. ترائى لي شبح (المشتي) بشكله القميء وحدبته الكبيرة ووجهه
العبوس المتغضن.. اين اختفى المشتي!؟

.. اسمع من يقول همسا لعمي:

".. أليش يا ظالم رميته من اعلى السلام ليتكسر وتزهق روحه.. "

.. يمد المشتي ذراعه المهشمة وباصابع متسلخة يحاول ان يتشبث
بملايسي.

.. اتشبث بدوري بعباءة جدتي.

وقفت خلفها في الزقاق شبه العاتم إلا من ذبالة الضوء المتلاشي من
المصباح المغبر الوحيد في أول الزقاق.

ادارت مفتاح الباب الكبير.. صوت طرقة المفتاح تختلط باصوات غريبة تقترب في الظلمة.. تنفست الصعداء.

.. توضحت اصوات سعالات خافتة مكتومة ورنات مداس بدأت تنتغم مقترية من فرع زقاقنا..

لحظات وهفت عباءة تخفق وفوقها عمّة بيضاء.. تجاوزت مكاننا وأضفت معلم حياة على درب الهامد.

.. نتجه نحو باب الطوسي، بصيص من الضوء يتراءى في الدرب المتعرج من شناسيل البيوتات العتيقة ونغمات خافتة لتراتيل ادعية وايات قرانية تتلى.. تعود السكنينة الي ببطء.

.. اتابع انغام طرقة مداس أم عزيز بتلذذ.

.. نقرب من نهاية الزقاق فتنفرج فسح مضيئة من بعيد..

على يميني شباك بقضبان نحاسية مزخرفة تُطل على ظلمة مريبة لضريح خاص.. اتباطاً قليلاً..

أتريث واستجع شجاعتي واسحب نفساً عميقاً قبل ان اهرع نحوه بفضول فرع.

.. امسك بالقضبان النحاسية الغليضة المبتردة.. امدّ رأسي وبصري في العتمة.. تصل الي رائحة تربة ندية عطنة.. يتلامع وشاح ضبابي متموج.. اسمع همساً مريباً..

اركض لاصطف الى جانب جدتي المنشغلة بمتابعة النور القدسي، للخرم الضوئية المنعكسة من تلامع القبة الذهبية القريبة.

- " دخيلك يا بو الحسنين! "!!

..تقف برهة رافعة ذراعها فتنسدل اطراف عباءتها وصايتها..تتدلى مسبحتها من بين اصابع كفها الايمن

.. اكرر وراءها بخفوت " دخيلك يا بو الحسنين! "

امامنا باب الحضرة الخشبي الضخم المزخرف مُشرعاً على الصحن بانارته الهادئة الحاملة..

..على رخام الصحن العريض تتحرك بهدوء عباءات جز وسيدة، عَمَمٌ
بيضاء وسوداء وكشائد خضراء.

من على يسارنا تَمسح تفرعات (السوق الكبير) نعاسها، وتبان ذبالات
ضوء لفوانيس دكاكين صغيرة للمسابح وكتب الادعية وباعة البخور.
.. (السوق الصغير) في ظلمة اغفائه.

..يصل الى انفي نفح الخشب القديم المضمخ بروائح العطور وادخنة
المباخر القريبة التي اشبعت مسامات باب الصحن العريض عبر منات
السنين.

على اليمين وعلى مقربة من العتبة المرصعة بالنحاس العتيق
المزخرف، يقف بائع الحلوة الهندية، بطاولته المدورة المعدنية ذات
المساند الطويلة، وهو يُرْتب عُلباً قصديرية مختلفة الاحجام.

.. اتباطة قليلا لالقي نظرة سريعة على العلب المدورة الصغيرة الانيقة
بهلامها المتماسك الاصفر الرائق الشفاف المزخرف باللوز.

.. اسمع صوت ام عزيز وهو يهدل " السلام عليك يا ابا الائمة..
السلام عليكم ورحمة الله "،

.. اهرع الى جانبها عند مدخل الصحن واكرر " السلام عليك يا ابا
الائمة.. وعليكم السلام ورحمة الله!".

بدأت التمجيدات من مآذن الصحن..

تتلامع آلاف المرايا والمناشير الزجاجية الصغيرة من سقوف واركاب
الرواق الرباعي الواسع المحيط بالمضريح المتأليء بالنقوش
والزخارف الذهبية

.. نجف هائلة تتدلى في سلاسلها الطويلة.. بلورها يعكس آلاف اقواس
قزح تتلامع عبر صفائحها الشافة.. زخارف من معينات فاشانية
لازوردية.. نقوش وكتابات بالخط الكوفي والفارسي، تتداخل بآيات
قرآنية وبالاسماء الحسنى.. عطور ومباخر.. سجاد ايراني يمتد الى
كل زاوية من زوايا الرواق الرباعي المحيط بالمضريح.

أخذت أم عزيز مكانها شبه المتواري في الركن النسائي خافت الضوء
وتربعت.
. أخرج قرآنها وكتاب أدعيثها من محفظته القماشية.. تبتسمت لي،
ايذانا بمنحي كامل حريتي في التجوال في الرواق والضريح وصرن
الحضرة الشريفة.

عادت ام عزيز عند المساء وكان يعلو وجهها المتعب المندى بالعرق تأملٌ وحيرة اكثر منه حزنا، توجهت الى طارمة الحوش المرتفعة حيث مدّت فيها عروس هادي الصغيرة (هيوية)، الحصران والافرشة. جلست فى ركنها المعهود ونصت عنها عبائتها وشالها ومسحت العرق عن وجهها بمنديلها الصغير.

- هل تتذكر المرحومة ام محمد علي؟! لقد كانت تحبك كثيرا.
".وكيف لا اتذكر، كانت تقدم الى دارنا في بغداد اما في مراجعة طبية اولزيارة مرقدى الامامين في الكاظم.. كانت التحذيرات تنصب علي ألا اقترب كثيرا منها او أن اسمح لها بتقبيلي:
- " مريضة بهذا الما يتسمى..دير بالك هذا يعدي! ، هذا مرض قتال!".

لم استطع ولا لمرّة واحدة ان استجيب للتحذير، فما ان تفتح ذراعها مرحبة "هلا وليدي هلا" ، حتى اجد نفسى في احضانها وهي تضمني بقوة وتغمر وجهي بقبلاتها.. من بعيد كان وجه ام سالم ينطق بالاشمئزاز والغضب.

.. الصحون والادوات والمناشف التي تستعملها الزائرة تُعزل على جهة.. اهل البيت يحاولون جاهدين ألا يكونوا على مقربة كبيرة منها في الوقت الذي يسعون جاهدين ان يتظاهروا بفرحهم وسعادتهم بقدمها.

المهدي لا يعود الا في ساعة متأخرة من الليل .. عند الصباح ينزل من غرفته في الطابق العلوي في كامل قيافته ويلقي تحية الصباح ويرحب بام محد علي ترحيبا حارا.. وعن بعد معقول، ويسال عن القريب والبعيد من الاقارب فى النجف..يعتذر عن الإفطار لانه على موعد هام في الصباح الباكر في الجريدة.

كان وجهها الداوي يزداد شحوبا في زيارتها الثانية، تصبح نوبات سعالها الخانق اكثر تقاربا وخطب الدم على منديلها بعد السعال يتحول الى بقع كبيرة وخنثر دموية... هلع من في الدار يزداد اطراداً.. والدي يختفي عن الدار حتى ترحل، حين يعود يتأكد بنفسه ان الشراشف والصحون قد أبدلت قبل ان يتقدم ليتناول الطعام الذي يُقدم اليه. "

- انتَ تعرف زين بيت الملا نبيهة.. هي تعرفك وتحبك.. اول شي اريدك تروح لكان تقي.. تقي الأبرش تُعرفه زين.. تبلغه سلامي وتطلب مئة على لساني أن يذ احد الحمالين، مع عربته محملة (يعني مَنْ) من البطيخ و(مَنْ) من الرقي، وتروح ويا العربانة الى بيت ملا نبيهة.. سلم!، وخبرها ان قرارة اليوم السابع للمرحومة ام محمد علي هو ليلة الجمعة! ببيت أم عزيز واته يشرفنا انها هي (ملايتنا)، والساعة هي تعرفها، يعني الساعة سبعة، وما ترجع إلا بجوابها.. يلا حباية سويلك همة! ولا تتأخر.. اريدك بشغلة ثانية حبابتي.. اريدك تكتب لي مكتوب لعمك المتغرب عزيز، ولعمك الثاني وصاحبك جعفر.. هذا هم هجولُ نفسه بديار الغربية بالشام.. عاف وظيفته وراح يكمل دراسته بالجامعة.. وظيفة وراتب زين وخطبية حلوة تركض وراه، شيريد بعد؟! عاف كل شي وراح يتهجول.. يلا حباية لاتتأخر عليه.. تخلص هادي الشغلات إلك علبة حلاوة الهندي بعده!

راح عن بالي حباية!!.. دُكان محمد الحلو صف دكان تقي، تسلم عليه وخليه يذ لي عشر لفات مزين وأربع بطاله مي ورد.

تناهت اصوات الهلاهل قادمة من سطح بيت ام كامل، اعقبها نداء شكران لله:

- ربي وولي نعمتي انت ادرى بحالي!..شكراً لك شكرا لله.
تبتسم الحباية وينطلق وجهها بالانشراح..تمد يدها لأخذ عبايتها الملقاة الى جانبها ثم تعيدها من جديد الى مكانها :
- من الافضل ان تذهب انت يا صفاء وتعرف الخبر المفرح بعد اكمالك لغدائك.

لم تتأخر معرفة الاخبار طويلا..
.. أم كامل هي التي حضرت فارعة الرأس، عبايتها تتسدل من على كتفيها.. هرعت الى ام عزيز..قَبَلْتُ وجنتيها ورأسها بعد ان وضعت لفائف من الخبز على طرف من الحصيرة الممدودة.
- معجزة..رحمة ورعاية من الله يا ام عزيز..لايبد أني قد اتيت عملا خيرا، او انه دعائك لي في صلاتك.

..تصوّري أم عزيز، أحسست بعقدة في جيب بنطلون ابو كامل وانا أنهيء لنشره على حبل الغسيل.. هل تصدقين ما الذي وجدته في هذا البنطل المبلل..رحمتك ولطفك يا إلهي!!.. دينارين كاملين !
.. بدأت بفك لفافة الكرة المبلولة وانا ارتعش .. إنه راتب ابو كامل كله الذي نسي أن يسلمه لي امس.

..معجزة بعد عيني يا علي، يا ابو الحسين، يا داحي باب خبير.. جيرانك احنا ونروحك فدوة! خلصتنا من مصيبة!!..
.. هل تصدقين !.. كنت قد غسلت الملابس ثلاثة أفوام كاملة! وهات يا دَعْكُ ! وهات يا عَصْرُ!.. وهات يا شَطْف بالماء مرات عديدة !..
ربك رحيم يا حباية .. تصدقيني يا أم عزيز، لقد انت يدي صدفة على العقدة الصغيرة داخل جيب النطلون..كتلة خضراء مكورة.. أوشكت ان افقد وعيي من الفزع حين عرفت ما الذي اقترفته يداي.

واصلت أم كامل روايتها الاسطورية وهي تمسح مدامعها بين حين وآخر..

..جلستُ على ارض السطح اللاهية وبدأت احاول فتح العقدة المكورة بانامل مرتجفة وعينين دامعتين، امسح عيني بين لحظة واخرى كيلا تخطأ انامي ويتمزق الدينار المبلول.. كنت أتمتم بصوت تخنقه العبرة آية الكرسي، وارفع رأسي الى القبة الذهبية المتلامعة واناشده " دخيلك يا ابو الحسين!! "

.. بدأت معالم المعجزة تظهر.. إنفتحت الورقتان المبلولتان شيئاً فشيئاً في كفي بليوننة ويسر وكأن هنالك قوة تسييرهما وتفكهما كاملتين.. كاملتين يا أم عزيز!، دون ثلثة او شقّ.. تغصنّ خفيف، سرعان ما زال تحت تمسيد كفي الأخرى وتحت أدعيتي المستمرة.. نشرتهما على ارضية السطح الحجرية الحارة وجلست الى جوارهما انظر اليهما، اعيد قراءة آياتي وادعيتي، وقد دبّ الامل في قلبي وخف ارتعاشي.. .. رفعتهما بعد دقائق بحدز..وقفت وانا انظر اليهما غير مصدقة عيني..ديناران كاملان سليمان.. دون خدش او ثلثة!!.. قلبتهما ونظرت الى وجهيهما .. بعد عيني وجهك فيصل الاول! ابن الهواشم! اي والله ابن الهواشم الخيرين!.. كان يضحك بوجهي، وجه الخير عليه، قلبته على الوجه الاخر، دينار عراقي، بخط واضح، مثل خط القرآن بعد عيني..

لم استطع الوقوف خذلتني قدماي.. جلست على الارض اللاهية وانصبت دموع الفرح كالسيل.. كنت اشهق وانا ارفع رأسي الى القبة الذهبية واناديه " يا ابو النخوة، ياابو الغيرة بعد عيني ابو الحسين..جيرانك وبحماك احنه " ثم ارفع رأسي الى السماء واشهق بحسرة:

" إلهي شكرك ورضوانك "

نزلت على الفور واعددتُ خبز العباس..

مدّت أم كامل يدها الى الحباة أم عزيز :

- وهذه لفّة ثانية تسلّمها لبيت هادي وهيوبه، وهذه واحدة اخرى لزوجته الاولى(وفية)، إسم على مسمى، لعل خبز العباس يجيب دعاءها، المسكينة.. سنين في انتظار الخلف .. استأذن وارفع الزحمة حبايتنا ام عزيز.. تسمحين لصفاء معي كي اوزع بقية لفات الخبز على الجيران.
- قم حباة!، قم يا صفاء مع خالتك ام كامل.. ولا تنسين ام كامل بيت السعيدي، ربنا رحيم، إستجاب لدعاهم وأرجع إبنتهم وخلصها من محنتها في بلاد الاغراب.. هم كذلك في فرحة هذه الايام.

".. بيت حميدي.. بيت نعيمة!"

" نعيمة!.. كانت تلاعبني لعبة المصارعة.. تجرني ضاحكة الى سرداب بيتهم الصغير، عندما آتي ولا اجد منصور صديقي أجير المخبز وفي الوقت الذي يكون الاخ الكبير عباس غائبا عن الدار .. اجد اللعبة دائماً مثيرةً جدا تتطلق فيّ اثناءها وبعدها احاسيس غريبة تبعث في النشوة والخدر..

.. حرارة تلهبني من أذني الى أسفل الحوض مني..

.. خليط لذيق من المشاعر لم اعرفه سابقا..

.. شيء مختلف عن مصارعة فواد او خالد او غيرهم من شلة اصحابي (أهل الدروب) على ضفاف دجلة.

.. لا اعلم لم كنت اسمح لها وبسهولة مقصودة ان تغلبنني في اللعبة!

.. تلقيني على ظهري ثم تلقي بجسدها فوقي وتبدء تهرزني لاهثة.

.. أحس بدفء انفاسها.. بجسدها الغض الممتليء الملتصق بي.. أحس

بدوار وخدر لذيقين..

.. تتزايد حركتها عنفاً.. يزداد التصاقها.. تتسارع انفاسها ويزداد لهاثها..

تُطلق آهة عميقة طويلة.. تضحك وتدمع عيناها.. ضحكها تنقلب الى كركرة هستيرية.. تغمر وجهي بقبلااتها وهي ترتمي مرتخية عليّ وتكرر بابتسامة واهنة:

__ ها قد غلبتك مرة اخرى.. انتصرت عليك!.. ها قد...

كانت اللعبة تنقطع فجأة وتتوقف عن الهزهة حين تسمع طرق باب البيت.. تنهض انذاك عني على عجل لتسحبني الى باحة الدار العلوية وتجلسني في احد اطرافها وتشير بينانها على فمها إشارة الصمت.. ان كان الطارق القادم صديقي منصور، ابتسمت وقالت:

- " حسنا انك عدت مبكراً! صديقك حضر قبل قليل وهو في انتظارك." .. ان كان من على الباب جارة تسأل عن حاجة يومية متداولة، كقدر او ملح او مِجَنّ.. كانت تلك الحاجة تُلبى من وراء الباب، لتعود على عجل ضاحكة وتسحبني من يدي الى السرداب لنواصل لعبتنا المفضلة.. كانت لعبتنا تصبح ثلاثية بعض الاحيان، حين تتواجد ابنة خالتها، صديقتها الحميمة.. تشتركان سويةً للتغلب عليّ في لعبة المصارعة ذاتها..

.. اللعبة حينئذ تطول وتصبح اكثر اثاره ومرحاً ولذة.

عدت في إحدى العطل لاجد أن ابنة الخالة قد اختفت من لعبتنا تماما .. تزوجت من قريب لها يسكن في مدينة اخرى.
.. تزوجت نعيمة، اخت صديقي، بعدها بفترة قصيرة.
.. بدأت صداقتي لمنصور تفتّر.
.. بدأت أجده مُملاً .. "

- ها راح تروح وتخليني بوحشتك حباية!.. ما اكدر أأخرك أكثر، المدارس راح تبنتي.. اكيد اشتاقيت لأصدقاءك وجماعتك ببغداد. بس لازم أخذ خيريه أشوف يا يوم هو الاحسن اللي تروح بيه.. وبعدين أشوف ويا من تسافر.. محمد البغدادي عنده سفرة لبغداد هو وإينه.. صاحبك يوسف، بعد بغداد رايعين لسامرا للزيارة.

- راح تاخذين الخيرة حباية بالقرآن، لو بالسبحة؟

- لا حباية خيرة القرآن للأشياء المهمة كلش.. حرام واحد يسويها إلا بالضرورة.. خيرتك بالسبحة بعد صلاة الفجر.

- أني رايحة بعد شوية لبيت خالك شيخ عبد الرسول، صار مدّه ما رحنا إهم.. تيجي وياي؟

- أجي.. طبعاً أجي!

.. " هناك دندش! دندش!

أضع رأسي بحضنها في الرواق خافت الضوء.. أغرزه اعمق بإصرار.

.. أحس بدفء عذب.

.. أعبث بجداولها الطويلة المهتزة فوق رأسي

.. اداعب تلك الجداول.. أمسح بها وجهي.. احاول قضم شعيراتها الحريرية الملتفة.

.. انظر بانبهار الى الأعلى الى الليمونتين الصغيرتين اللتين بدأتا تبانان باستحياء من وراء ثوبها الاخضر المورّد.

.. سعادتني لا حدود لها في هذا الحضن الدافئ وهي مندمجة في حكاياتها الشبيهة باقاصيص الف ليلة وليلة.

.. صوتها يخفت ويتموج بالغموض والرهبة حين تصل الى مقطع الجني الخارج من ظلمة الكهف والمكلكل فوق هامة سعيد، التاجر المسافر الملتجئ الى الكهف هرباً من حرّ القيص.

.. ويرق الصوت ويتهدج وهي تروى، مشاعر حنين سعيد لزوجته
وابناءه البعيدين.

.. يُعزّد الصوت ويهدل بالضحكة الممزوجة بعبارة الفرح وهي تنهيهما
بلقاء الأحبة في الختام.

في فترة السكون التي تعقب الخاتمة الحاملة السعيدة، وندش تعبث
بشعري الكث في سهوم وسياحة تأمل بعيدة، أغرز رأسي في الحزن
الدافئ بأصرار اشد وكأني انشبت واطيل اللحظات، التي لا بد وان
يعقبها نهوضها البطيء، بعد ان ترفع رأسي وتنظر اليّ بوجه داعم من
مزيج الحزن والسهوم والغبطة.

.. تطلق اخيرا ضحكته الطفولية العابثة قبل أن تقول عبارتها المعهودة:
" .. كافي اليوم سؤالف .. خَلّي الباقي على المرة الجايّه! "

.. لا تنفع توسلاتي وتشبثي بها بأن ذراعي حول فخذيها للبقاء في
حضانها منعاً لقيامها:

" بس إحكي لي قصة العجان وبنّت الحايك! .. بس هلّ السالوفة
الصغيرة .. بس هايّ دندوشه!! .."

لافائدة تنهض دندش وتسحب بقوة خصلة من شعري بتحذير ممازح.
.. لذيذ ألم هذه المداعبة المُحذّرة .. لذيذ!!

تنطلق نصف مهرولة، بمرح تتراقص جدائلها الشقراء على ظهرها
الاخضر المورّد، تخنفي قبلي في حوش دار الشيخ الوسيح. "

كان أذان الظهر قد فات وانتهت أم عزيز من صلاة الظهرية حين
تحركنا بتكاسل واسترخاء في الازقة الظليلة التي بدأت حركة السابلة
تقلّ فيها.. كان اغلبهم من اصحاب العمائم، البيضاء الكبيرة والاخري
الصغيرة، وتلك السوداء، والكشائد الخضراء.. تقل هربا من سموم
الصحراء، التي كثيرا ما تجد لها منفذا في هذه الازقة الملثوية.

بين الحين والآخر نسمع طرقة مداس يمنيّ، تعلق، ثم
تتخافت، وهي تتجاوزنا...

.. " لا إله إلا الله!.. لا إله إلا الله! " محذراً، أكثر منه ممجداً ..
.. نتحنى جانبا ليمرق شبه معيدي راکض بجلباب مُترَب، يحمل فوق
رأسه نعشا من خشب رخيص دون اغطية او مفارش مزوّقة بالآيات،
ممسكا جانبي النعش بيدين معفرتين.. وجهه ملوّح بالشمس، متعرق،
تنط اوداجه من على رقبته المفخورة المتوزمة.
.. " لا إله إلا الله! " .. " لا إله إلا الله! "، يتباعد الصوت ويخفت وتبقى
رائحة الجسد الذي بدأ بالعطن، ترفّت على انفينا، شدة وخفة، وفق هبات
الانسام الحارة.
.. " لا إله إلا الله.. هو الحي الباقي " اسمع صوت جدتي الخافت
المتهدج.

.. نعبر جامع (صاحب العلى)..جامع عائلتنا..
.. اتباطاً عن مسار جدتي..
.. اصعد العتبة الضيقة القاشانية الزرقاء لاقف امام شباك غرفة
الاضرحة الصغرى المشرع دائما.. اتعلق بقضبانها الخارجية
النحاسية..انظر الى صور ابناء صاحب العلى الاربعة بعمهم الكبيرة
ولحاهم الطويلة البيضاء..
.. أكبرهم يواجهنى بعينيه بصمت.. يحدّق فيّ متسائلا.. اضيع في
سكون الظهيرة.. أصحو على طرق منغمّ في الزقاق لمداس يقترب..
يتوقف!

عند عتبة البوابة الكبيرة للجامع، المجاورة لموقع تشعبطي، يقف ابو
موسى الطرّمّاخ، بقامته الطرماحية السامقة وبعكازه الاطول في
النجف، وبعينيه الزرقاوين المتضاحكتين المنسجمتين مع الوجه
الاييض الرائق، الذي يكاد يخلو من التجاعيد والذي تطوقه لحية شيباء
قصيرة مشدبة.

.. عمّة صغيرة وجلباب وصاية انيقة.. نعل من جلد البقر النخين.. الويل
لشلة (أهل الدروب- النجفية) من جماعتي هنا من نعلهِ وعاكزه!!

ينظر الطرمّاح اليّ صامتاً مبتسماً بود لبرهة.. يأتي صوته الرخي
المرح:

- ها تدخل ويانا لصلاة الظهر لو صبيان بغداد ما يعرفون الصلاة؟
.. لا ينتظر إجابتي، يدخل حانيا هامته عن عارضة الباب العتيق.
.. جاوز المائة عام.. أطول شيوخ اهل النجف عمراً وقامة.
.. اعود لاواجه من جديد تساءل عينيّ الشيخ المُعلّق امامي فوق الجدار
القاشاني الازرق..
انظر الى وجوه وعمائم ولحي اخوته الآخرين المغلقين بأطر صورهم
قبل أن اقرأ الفاتحة بخشوع مسرحي مبالغ فيه.
.. انطلق لألحق بجذتي المقتربة من زقاق أخيها الصغير، الشيخ الكبير
عبد الرسول.

في حوش البيت الوسيع حديقة صغيرة من اشجار الحمضيات والرمان.
.. تحيط بالحوش طارمات فارهة تفضي الى غرف طويلة تشرف كلها
على باحة الدار.. لكلٍ من هذه الغرف مداخل بابواب خشبية عديدة..
الابواب تنتهي بأقواس.. تحيط الاقواس بانصاف دوائر من الزجاج
الملون.. احمر، ازرق، اصفر، اخضر، بنفسجي.. تحت طارمات
الحوش نوافذ للسراديب العليا للبيت..
.. بوابة جانبية كبيرة قرب نفق المدخل تفضي الى (براني) الشيخ.
.. جدران غرف البراني النيرة ملظومة بالكتب والمجلدات السمكية التي
إصفرّت اوراقها.

.. حوش حبابتي اقل سعة .. طارماته اضيق!.. سراديبه العليا ونوافذها
اصغر واكثر عتمة!.. لا حديقة وسطية عندنا!..
.. بيت حبابتي اعلى!.. طابقين مديدين!.. عندنا اعمدة خشبية سامقة من
الخشب الهندي العتيق!!.. لسطحنا امتدادات مقرنصة خشبية يهدل فيها

حمام الحضرة عند المساء وقبل طلوع الشمس.. لا حمام يهدل في بيتهم!

.. بئرا له منافذ مفضية الى بيوت اقاربنا وهي مسرح مخاطراتنا حين تخلو الاجواء.. بئرهم لا منافذ له!

.. وهناك حبابتي بمسبحتها الطويلة.. وبصوت ادعيتها الرخيم عند الفجر.. وهناك حلاوة الهندي في إنتظاري تحت عباءتها المكوّمة الى جانبها على الحصير!

تكاد جولة بصري المتفحصة المقارنة تنتهي.

.. لكن دندش هنا!!

.. هنا الحُصن الدافيء وحديقة اوراد ثوبها الفضفاض.. هنا الجداول الذهبية والعيون الزرقاء المرححة.. هنا قصص الملوك والجن والعشاق!!

.. اترك جدتي وأم تقي – زوجة الشيخ – المُرحّبة وابدأ بحثي عن هدفي الاسمى من المجيء!.. البحث عن دندش!

- تَنْطِينِي الْبَشَارَةَ أَمْ عَزِيزٌ؟!
- بالطبع كلك بشارَةً أَمْ كَامِلٌ.. بشارتك ام كامل الوجة الحلو.. كله خير وطيبة.
- ابو كامل إجه من بغداد ويكول جعفر وصل بغداد البارحه.. إجه بعطلة نوص السنه من الشام.
- صدق بنيتي أَمْ كَامِلٌ! بَشْرَكَ اللهُ بِالْخَيْرِ تَهَلَّلْ وَجْهَ ام عَزِيزٍ وَتَرْقَرَقْتَ دَمْعَتَانِ فِي مَآقِبِهَا..
.. ما أعرف أهلهلْ يا حبيبتي ام كامل، واصلت المرأة العجوز تعقيبها وهي ترفع عباءتها لحظة ثم لتضعها جانباً.. تضع قدمها في مِداسها مرة، تعود لتخرجه منه على الفور.. تستدير لتواجه مدخل الحوش لتعود للنظر الى ضيفتها الواقعة وسط باحة الدار.
أَمْ كَامِلٌ تُطَلِّقُ زَغْرُودَ طَوِيلَةٍ مَنَعْمَةٍ، تَحْتَضِنُ بَعْدَهَا جَارَتَهَا الْمَرْتَبِكَةَ وَتَقْبَلُهَا.
- ساعديني أَمْ كَامِلٌ بِتَحْضِيرِ لَفَّاتِ خَبْزِ الْعَبَّاسِ، وَمَنِي إِلْجِ بَدَلِ الْبَشَارَةِ بِشَارَتَيْنِ.
بعد اقل من ساعة كانت أَمْ عَزِيزٌ وَجَارَتَهَا تَتَوَجَّهَانِ إِلَى الْحَضْرَةِ الْعُلَوِيَّةِ وَبِيَدَيْهِمَا زَنْبِيلَيْنِ غُطِّيَا بِمَلَاءَاتٍ خَفِيفَةٍ بِيضَاءٍ.
بعد ان اتمت أَمْ عَزِيزٌ تَوَزِيعَ لَفَّاتِ الْخَبْزِ الْمَحْشُوءَةِ بِالْعُرُوقِ الْمَقْلِيَةِ وَالْكَرَاتِ وَاللَّبَنِ عَلَى زَوَارِ الْأَمَامِ الْجَالِسِينَ فِي جَوَانِبِ أَرْكَانِ وَارُوقَةِ الْحَضْرَةِ، تَرَكَّتْ أَمْ كَامِلٌ بَزَنْبِيلِيهَا الْفَارِغِينَ وَتَوَجَّهَتْ عَلَى عَجَلٍ حَافِيَةٍ الْقَدَمِينَ لِتُؤَدِيَ صَلَاةَ الشُّكْرِ فِي مَقَامِ الضَّرِيحِ.. مَنَحَتْ الْقَيْمَ عَلَى بَابِهِ هُنَاكَ هَبَّةً سَخِيَةً.
ازمعت على السفر الى بغداد خلال ايام .
" يَا يُمَّةُ وَأَسُوفَاكَ بَعْدَ هَا الْغِيْبَةِ الطَّوِيلَةِ!.. أَضْمَكُ وَأَشْمَكُ! إِنَّتِ آخِرُ الْعَنْكَودِ.. الصَّغِيرُونَ، أَبُو النِّكْتَةِ وَالضَّحْكَةِ وَالْمَقَالِبُ الْخُلُوهِ.. أَبُو الْكُدْلَةِ الْذَهَبِ!! " .

".. الكل عذبوني بتربيتهم ومشاكلهم من اول ايامهم لهذا اليوم إلا انت!..
عزيز هَجِّ وراح، بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَلْفُ فَرَسْخٍ، ومن يوم ما تزوجُ عرفت
إن بعد ما إِلَهْ رجعه.. ومهدي عافنه.. يوم بلاطُ .. ويوم سياسة
ومشاكلُ.. يوم جريدة ومطبعة.. ويوم لا هذي ولا ذيج.. ويوم مدرس
بالبصره.. ويوم حَبِسْ وتوقيفٌ وَبَهْذَلَةٌ، ما بِجِينِي إِلَّا بِمُنَاسِبَةٍ مَهْمَةٍ،
صحيح قايم بواجب المعيشة والسؤال، ومن اروحن لبغداد عيد عنده
وعند وِيلَادَةٌ.. يُحْضِنِّي وَيُطَشُّ عَلَيَّ الْمَلْبَسُ وَزَنَابِيلُ الْفَاكِهَةِ من يرجع
لبيتته من شغله بالجريدة.. لكن وَيْنُ وَيْنُ أَكْدَرُ أَشُوفَه.. وقصة هادي
ابو المصايب قصة.. يوم سايح ورحالة بنجد والخليج، فلوس وليلو
وعقيق يمانى.. ويوم يخسر اللعندة والما عنده بكعدة قمار.. يوم عرك
وسكر.. يوم ويه اهل الانقلاب وجماعة الكيلاني ونتيجة المعتقل..
مُعتقل وشلونُ معتقل! بعيد هناك بارضُ الْمِلْحِ وِباحورة الْحَرْ.. اوصلُ
هناك بعظامي البايده بعد ثلاث تيام من سَفَرٍ وَعَطَشٍ وَتُرَابٍ."

".. ولولا تدخل مهدي ومساغيه جان مات وإندفن بالفاو بمرض ذات
الجنب.. خَلَّصَه وَجَابَه عَنْده لبغداد.. كومة اطباء ومستشفيات لحد ما
خَلَّصَه من الموت.. ليش يذكر هادي اخوه بالخير؟! حاظُ دابه وداب
اخوه مهدي!!.. وتزوج مرة.. وتزوج مرة ثانية، والله يسئُرُ راح يجيب
ثلاث نسوان سوية على راسي بالبيت.

.. بس انت خَبِيْبِي الصغغرون جعفر، ما شفت منك غير الضحكة
وضمّة الصدر والنكته الحلوة.. وما يمر شهر إلا وانت جاي وماخذ
اجازة من وظيفتك حتى تشوف أمك.. ما جيت يوم وايدك خالية يا
صغغروني."

مقاطع من افكار وصور تدور في مخيلة أم عزيز وهي تعد بفرح
حاجاتها الصغيرة في بقجة من قماش من القديفة رصاصي مخضّر
اللون.. انها لا تطيق فكرة ان تحمل حقيبة جلدية حالها حال افندية
ومودليّات ها الزمان.. تلملم كل حاجة غابت للآن عن بالها قبل ساعة..

.. هذا منزر صوفي حاكته أم كامل ونعال كوفي من جلد البعير
لجعفر!.. عباءة كشميرية قديمة في قعر صندوقها الأبنوسي الأسود
الكبير، يلف بها المهدي جسمه الناحل في زمهرير غرفة جريدته
المعلقة فوق الزقاق!.. شال هندي من السوق الكبير لام سالم!..(مشكل
كشاه) من السكاكر والمكسرات للصغار! مع حفنة من القطع النقدية
الصغيرة المعدنية توزعها عليهم بالتساوي.. زيد الذي سيركض تجاهها
ويكرر " ثوفو ثوفو حبابتي إجت.. ثوفو "، سيتدحرج بسمنته ككرة
نحو رواق البيت،.. سالم سيتراكض معفراً بتراب الأزقة ويداه وساقاه
تملؤها الخدوش ويمد يده " حبابة! حبابة! حق السلامة حبابة! " يأخذ
افلاسه وينطلق راكضاً من جديد عائداً الى أزقته .. وبالطبع علبة
حلاوة الهندي لصفاء "

.. يومان لا غير على السفر.
.. نوم يتقطع في لهفة الانتظار.

- يا الله!.. يا الله! يعقبا تتحنح وسعلة صغيرة .
يدخل أخوها الصغير الشيخ عبد الرسول باحة الدار.. يقف منتظرا وهو
يطرق بحيرة واضطراب ويتشاغل بالنظر الى طابوق الحوش الفرشي
والى اعمدة الرواق الخشبية الضخمة
- يا مية هلا بأخوي وحببي ابو تقي .. زمان والله وما شفناك، زين
تذكرت اختك..

.. إنتبهت الى حيرته واضطرابه ..
_ خير ابو تقي شومو على بعضك؟
- لا شيء يا أم عزيز.. قرر تقي النزول الى بغداد بعد ساعة وارتأيت
أن تكوني معه مادام انه قد أوصى على سيارة اجرة خاصة له.. سيارة
خاصة ورفيق سفر يوصلك لباب البيت!

- اراك مرتبك يا عبد الرسول.. صارحني.. ولدي جعفر بخير؟
- راح يكون بخير انشاء الله.
- يعني الآن لا خير؟! قالت ذلك بصوت مرتجف وهي تستند على
عمود الرواق متحاشية الانهيار.
- شيء بسيط وعارض بإذن الله.. صمت برهة واطرق مليا قبل ان
يواصل بصوت خافت،

-.. لا أريدك أن تفزعني فالأمر ما هو إلا عارض بسيط مفاجيء!
- لا تضمضم علي .. اروح لك فدوة كؤل ولاتضم اكثر، حيلي وكع
يا خوي!
- استلمت مكالمة تليفونية قبل قليل بأنه قد تعرض لحادث عابر، نُقل
على اثره الى المستشفى..

قبل أن يكمل عبد الرسول عبارته، كانت صرخة الام المرتعبة:
_ وليددي جعفر!! زلزلت كيانه واخرجته عن توازنه وبدلا من أن
يحاول الاستمرار في تطمينها عن بساطة العارض المفاجيء تولاه
صمت حزين، استفاق منه على صرخة اخرى أعلى وأعمق

" وليدي جعفر!!.. يا امير المؤمنين! انا بجيرتك ودخيلتك يا ابو
الحسنين!.. وليددي!!.."

قبل ان يفيق الشيخ المطرق من ذهوله وحزنه، كانت أم عزيز قد مرقت
الى جانبه كالبرق حافية القدمين فارعة الشعر متلعة الزيق.
تابع في وقفته مشلولاً وسط باحة الدار نداءاتها وهي تخف وتتلاشى:
" جيتك دخيلة يا ابو العباس..يا أمير المؤمنين..يا ابو الحسيسن
والحسسسيي.."

وَبُورِكَ فِي رَحِيلِكَ وَالْمَقَامِ	تَعَالَى الْمَجْدُ يَا قَفْصَ الْعِظَامِ
بِوَحْشَتِهِ..وَبِالْغُصْنِ الدَّوَامِيِّ	وَبُورِكَ ذَلِكَ الْعَشِّ الْمُضَوِّي
تَمَخَّضُ عَنْ جَبَابِرَةِ ضِخَامِ	تَعَالَى الْمَجْدُ يَا أُمَّ الرِّزَايَا
وَوَجْهَ الْأَرْضِ أَيُّ قَتَى هُمَامِ	تَمَلَّى الْقَبْرِ مِنْهَا أَيُّ عِطْرِ
وَرُوحَا وَارْتَكَنْتَ إِلَى حُطَامِ	وَهَبْتَ الثَّرْوَةَ الْكَبْرَى دِمَاءً
قَوَادِمُهُ بِعَاصِفَةِ عُرَامِ	وَأَبْتُ كَمَا يُؤُوبُ النَّسْرُ هَيْضَتُ
نَشْدَتُكَ ضَارِعاً أَلَا تُغَامِي	فِيَا شَمْسِي إِذَا غَامَتْ حَيَاتِي
نَشْدَتُكَ أَنْ تَكْفِي عَن مَلَامِي	وَيَا مَكْفُوفَةً عَن كُلِّ ضُرِّ
فُوَادِي وَهُوَ مُرْتَكِزُ السَّهَامِ	فَلَيْسَ يُطِيقُ سَهْمًا مِثْلَ هَذَا

أنيبا في القلب

_ ما الكتاب الذي تطالعين؟

_ (ستاندال).. (الاحمر والاسود).

_ إنه أقرب الكتاب الى نفسي.

_ وهو غو؟

ومن أدب الغرب ينتقل الحديث الى ادب الشرق.. ثم الشعر.

يقف القطار بضع دقائق في احدى المحطات، فيخرج ليأخذ بضعة انفاس من سيجارته على الرصيف.

يعود خطأً الى عربة أخرى.. يبده بحثه في الوجوه، ثم يبداً القلق يتزايد..

" كيف سأجدها في حشود المسافرين هؤلاء؟" ..

.. عربات القطار طويلة.. يدب اليأس..

" ربما ستنزل في المحطة التالية قبل أن أجدها " ..

بالحماسة، لقد كانت انفاس سموم مقبلة ضيقت فيها فرصة ولا في الاحلام، لقد خسرت كونا من الرقة والثقافة والجمال.. إنك لا تعرف حتى اسمها.. "

ها هو يتفحص وجوه المسافرين بامعان.

_ ها أنت أخيرا.. كنتُ ابحت عنك، لقد اقلقتني غيابك، حتى حسبت أن القطار فاتك وانت سارح في خيالاتك على الرصيف.

_ خبريني ما أسمك، قبل أن يُضيع أحدنا الآخر في المحطة التالية.. اريد معرفته، كي اصرخ باعلى صوتي، مناديا ومناشدا بين الحشود.

_ أنيتا!.. تجيب ضاحكةً.

الجو مشرق وندى وبه لسعة برد صباحية في باريس ها قد بدأت مطالع الشتاء.

ها أنا في عاصمة النور، وعروس الدنيا ونبع الثورة ومنصهر الحضارات..

هنا وعلى الرصيف نفسه الذي تمشى عليه، مشى من قبلك مالارميه وستاندال.. هنا وفي هذا الزقاق الجانبي الضيق، ربما صخب بـ" ازهار الشر " بودلير.. ها هي المواقع تتحدث معك تتحدث عن ابراج نوتردام، حيث كان أحذب(هوغو).

وعلى هذه المصطبة الحجرية امامها، جلس بلزاك منتظرا لقاء صاحبة الرسائل المتعددة التي تهيم به وبها دون أن يلتقيا.

ها أنا معها الآن في ساحة الباستيل.. هنا كانت افكار (روسو) و(فولتير) تدور.. هنا هدرت خطابات ميرابو ودانتون.

في (مقهى الصديقين) بسان جرمان، ملتقى الادباء والفنانين، تزداد اواصر التعارف التعارف بين الحمد وراء مائدة صغيرة في ركن المقهى الزجاجي ومع قدح البيرة المرفوع بانشداه عند أنيتا، يتقدُّ، يتوهجُ لهيب العاطفة:

كم أنت ايها الحمد سريع الإققاد.. لا ضرورة لا الى ولعة اوجدوة، فاحتكاك بسيط كافٍ ليستعر هشيم الروح الميبس بالحرمان، بأسار التقاليد.. اصف اليه ما حنقت به روحك طائعا مختارا باطواق الصحافة والسياسة.

ها هي تتأبط ذراعك، ايها البدوي الخشن الملامح.. ها أنت تسبح بخيالاتك في تهاديك معها على ضفاف السين.

.. غامت السماء قليلا وعلى عجل، فغطت بقية خطوط الالوان القزحية في الافق البعيد.. سَكَنَ الجو وصَمَتْ، ونزل فجأة نديف ابيض عبر الفضاء الفسيح كمظلة طيران نصف شافة، تهبط بايقاع منسجم رخو.. ما أن لامس السطح الغامق الزرقة تحته، حتى اختفت تلك الملامسة الرقيقة تاركةً كونين لا متناهيين، علوي نصف شاف ابيض، فوق آخر ساكن الزرقة غامق عميق ..

..هل هو جذل، إنبهار او سحر غريزي ينفذ في اعماق الروح..شيء لم تره من قبل.

.. صعقةُ طفل باكتشاف جديد مذهل..

إحتضنتْ أنيتا وقبلتْها على عجل، كجزء متمم للمشهد، ثم سحبتها من يدها لتركض بها بفرح وبصرخة جذل فوق الممشى الحجري النديّ العريض، وعيناك معلقتان بمنظر الكونين الفريدين.

توقفتْ منقطع النفس لتحتظنها من الخلف ولتضع خدك الساخن على خدها النديّ..باردٌ رقيقٌ!..مثلجٌ حلوٌ لذيذ! ..

اظلم الكونان وانتما تقفان ملتصقين فوق حافة النهر العريض دون حراك..

ارتقيتما سلاّم حجرية تعود الى زمن (الملك الشمس) لويس الرابع عشر، حيث يتربع فوقها مقهى صغير، تصل اليه وشوشة النهر الذي تمخره مراكب المتنزّهين وأصداء اجراس كنيسة نوتردام القريبة .

ها انتما ضائعان في جموع سان ميشيل.

هنا تتسامى خيالاتك الى السماوات السبع، وانتما ترتقيان مدرج (القلب الامين)، تلك الكنيسة التي يتلامع رخامها فوق تلة مونمارتر.

ها انتما هناك، عصفوران هائمان بين ازواج العشاق السارحة في ازقة الفنانين وبين لوحاتهم ومساندها..

أية جنة هذه وأية حورية، أي إبليس شعرٍ يحظى بها.

أنيتا.. غرفتي قريبة من هنا هل لك في فنجان قهوة معي؟

..._

إن وجة الدجى أنيتا

تجلّأ..

عن صباحٍ ..
من مقلتيك
أطلًا .
وكان النجوم
ألقينَ ظلاً .
في غديرٍ ..
مرقري .. ضحاحٍ ..
بينَ عينيكِ
نُهبَةً للرياحِ
وغياضِ المروجِ
أهدتكِ طلاً
حيثُ هذا الرأسُ
الجميلُ تدلى
وبحيثُ ارتدتتُ ..
هباءً نثيراً
تملاً النفسَ
والفضاءَ
عبيراً ..
خُصلاتٍ من شعركِ
الذهبيِّ
كنتُ فيها الثريِّ ..
أيُّ ثريِّ!!

إسمعي!
إسمعي أنيتا!!

فَهَنَّا .. وَهَنَا
صَادِحُ صَبَا ..
فَتَعَنِّي
وَالطَّرِيقُ الْمَهْجُورُ
عَادَ
فَرْنَا ..
مِنْ جَدِيدٍ
بِبعْثِهِ يَتَهَيَّئُ ..

فَلَقَدْ دَبَّتِ الْحَيَاةُ
إِلَيْهِ
وَتَمَشَى الْمُعَاوِدُونَ
عَلَيْهِ

إِنْ وَجَهَ الدُّجَى
أُنَيْتَا!
يُليخُ ..
وَاللَّيَالِي فِي شَهْرِزَادَ
تَصِيحُ:
هَا هُنَا!
.. هَا هُنَا!!
يَطْيِبُ الصُّبُوحُ

حُلْمٌ رَائِعٌ ..
كَأَنَّ الْخَيَالَ

حين ضاقتُ بهِ الحياةُ
مَجالاً..
مَلَّ أَسفارُهُ..
فحطَّ الرِّحالاً

يا حبيبي!
وللنديمِ هُمومُ
يا حبيبي!..
وليث!!..
شيءٌ عقيمٌ

..ليتَ أن الحياةَ
ظِلٌّ مُغيمٌ
..هكذا:
ليتَ!!..
أَنْ عَيْشاً يَدومُ

ياحبيبي!
راحَ الظَّلامُ يُدأخُ،
والأباريقُ
ظَلَّها يَنْزأخُ
وظلالٌ
من الدِّمِ المَسفوحِ..
بيدِ الصُّبْحِ،
في الفِضاءِ الفَسيحِ

ياحبيبي ورَ غبتي
ودألي
إن لَوْنَ الظلامِ
حالٌ..
فحولي!
و سنَى الفَجْر
يَنحدرنَ
فُلولا
وبناتُ النَعشِ
المُقَلِّ..
الْقَتِيلا
يَتَذَوِّبنَ!!
حَسْرَةً وَعَوِيلا

ياحبيبي!!
مالَ الزمانُ..
فميلي!!
وأميلي!!
بموضعِ التقبيلِ

يا هنائي!!
وشقوتي!!
ونعيمي!
وجحيمي!..
يا كوثري

وَحَمِيمِي!!
يا وَقَائِي..
من وافداتِ الهموم!
جَنَّبِينِي..
رَتَعَ الظلامِ البهيم

يا رُقَادِي!..
إذا استَطَالَ..
سُهادِي
وسُهادِي!
إذا مَلَلْتُ رُقَادِي
يا صَمِيمًا أضعتهُ
من فُؤادِي!

يا يَدُ اللَّهِ رَحْمَةً..
وَعَذَابًا!!
إِفْتَحِي لِي
من الهَناءِ بابًا!!

مِحنةٌ.. و.. (نَهْوة)

حشدوا عليّ الجوع ينشبُ نابهُ
في جلد " أرقطُ " لا يُبالي ناشباً!
ماذا يضرُّ الجوع مجدُّ شامخُ
أني أطلُّ مع الرعيّة ساغباً

_ إنطوني فلوس الخبز!.. إنطوني فلوس الخبز حراميه سرسرية..
خوات الكعبة.. انطوني حقي!.. عَشْرُ تِيامُ تاكلون.. تَتَرَقَّبُونُ من
جيسي..

كان الوقت ليلاً وخبّاز محلة العيواضية يطرق الباب ويركلها بشدة تكاد
تنخلع من جراءها.. يستريح قليلاً ثم يعاود الطرق والشتائم.

_ وين تَرَحُونُ اولاد الكلب!.. هتلية حرامية!..
أم سالم تنزوي في الغرفة شبه الجرداء، إلا من حصيرة مُدت عليها
بعض الأفرشة، ودولاب بدرفتين وعالقة ملابس خشبية في الزاوية،
وحولها مليكة وصفاء وسالم وسليمة وزيد.

تبكي أم سالم ويخنس الجميع من حولها بجمود ..
يحاول صفاء أن يقفز من مكانه الى الباب، ليجابه المارد الضخم
السمين..

..كان يذهب اليه كل يوم لاختذ عدد من الارغفة من مخبزه وينهي
المهمة:

_ تكول أم سالم سجّلها على الحساب!
..ينهض فتسحبه ام سالم من ذراعه:

_ اَعد! لا نَسَوِي نَفْسَكَ رِجال!.. بَعْدَكَ بَكَدُ العِصفور، هَذا مَجرِم يُخَبِرُ
بِئِكَ الكَاع.. اَكَلِكَ اَعد! لا تُجِيبُ لِي مِصِيبَهُ وِبه اَبوكِ الغَائب.. كَافي
المُصَائبُ اللِي عِندي!

كان المهدي في وارشو في مؤتمر المثقفين العالمي للسلام.
جرت الامور بغيابه بعض الوقت بشكل لا باس به، امسك رافد بأمر
حسابات الجريدة بشكل معقول رغم أن الجريدة مُحاصرة بمنع
الاعلانات الحكومية المجزية، تلك التي كانت توزع حسب ولاء
الصحف واقترباها من الخط الحكومي السياسي والشخصي.
..كانت وارداتها تكفي لسد اجور العاملين فيها، وتقي عائلة المهدي
الكبيرة عائلة الجوع..

.. حتى ذلك اليوم، الذي اختفى فيه رافد وما معه من واردات..لم يأت،
ولم يَبْثُ لليلتين في البيت الذي كان يعتمد في قوته على ما يجلبه معه
كلما جاء.

.. لم يكن هناك من يبحث عنه وعن اختفائه المفاجي سواي.
سألْتُ عنه في مقرّ الجريدة، التي اشتغلت فيها اثناء العطل المدرسية،
رَما لنسخ المشتركين، وباجرة يومية ضخمة: قرانين (اربعين فلسا)
في اليوم!

كنت اعرف العاملين فيها وكتّابها باسماءهم، سليم طه التكريتي، بدر
شاكر السياب.. منظمي الحروف، مصطفى وعبود وماهر وعامل
المطبعة الملتخ بالسخام والحبر والغراء علاوي.

.. اما القائم بكافة اعمالها الجانبية الاخرى، من جمع اعلانات الجريدة
وتوزيعها على المشتركين القريبين، ومحصل ديونها، واجور
اعلاناتها، ومراسل المهدي الى الصحف الاخرى والمعارف.. والقائم

بالمهمة الرئيسية التي ينتظرها المهدي بلهفة..(سفر طاس) غدائه من البيت..

إنه الصبي، الفتى، الرجل، الوفي، جاسم عريبي.. هذا كان اقربهم اليّ (رزقه الله فيما بعد بعدد كبير من(العيال) اسماهم باسماء اولاد وبنات المهدي)

سألت جاسم عريبي ومن ثم العاملين عن رافد! استغربوا الامر! وكان جوابهم: انهم كانوا يتصورون ان سرّ غيابه لدينا نحن أهله.

.. هداني تفكيري الى مكان آخر ..
إنه (شفتالو) قزم مقهى البرلمان الأحذب الذي يحبه ويمارحه الجميع.. رافد لاعب شطرنج ورائد مقاهي تلتئم فيها جماعات ادبية ناشئة.. مقهى البرلمان ضالتي اذاً..
وجدت الجواب فعلاً.

.. ارشدني شفتالو الى مكانه:
_ صَعَدْتُ لَهُ قوري الجاي كَبَل ساعة.. تلكاه هسه بعده بُعْرُفْتُهُ بمسافرخانة (نجمة الصباح) اللي يَم الكهوه.
ارتقيت درجات السلم الضيق القدر الى نجمة الصباح.
كانت رائحة صالة النجمة العفنة، نفاذة وغامضة.. خليط من عفن هيكل بنائها الخشبي المتقادم المطّل على شارع الرشيد، ممزوجاً برائحة المرحاض في زاويتها، ببقايا قيء النزلاء السكارى، الذي ازيل ومُسح، بروائح ملابس رطبة عُلقَت على ظهور الاسرة.
جابهتني قطعة كبيرة بخط عريض (الليلة خمسون فلساً تدفع مقدماً)، تحتها لوحة وبجسم اصغر (ممنوع شرب العرق وغيره داخل الفندق).
.. لمحت قنينتي عرق فارغتين تحت احد أسرة الغرف الصغيرة مشرعة الابواب.

لم تكن هنالك ضرورة لأن اسأل الرجل السمين المسترخي وراء طاولة صغيرة فوقها صينية نحاسية كبيرة.
..لمحته جالسا بملابسه الداخلية القذرة، حاني الرأس وكأنه لم يصحو بعد من سكرة الأمس..
وقفت عند باب الغرفة الصغيرة التي رصفت فيها اربعة أسرة حديدية.
.. انتبه الى وجودي.
لم يستغرب كثيرا لذلك، بل عاد ليحني رأسه من جديد بحزن.
_ شنو القصة رافد؟
_ قصة خرائية!
_ ظلُّ بالنا بالبيت.. لا بالبيت!! لا بالجريدة!! .. شنو القصة؟!
_ شلون عرفت مكاني؟! سأل بتعجب.
_ اللي يسأل مايتوه. (لم اخبره عن شفتالو).
_ تعال ويايه نكعد بكهوه (حسن عجمي) ام البيغاوات اللي تُحبُّه،
نشرب جاي واحجيك القصة كلها.

"_ اوضاع الجريدة تدهورت.
.. انقطعت الاعلانات الحكومية والمؤسسات والشركات التابعة او التي لها علاقة بها عن الجريدة، وهي مورد رئيسي لكل جريدة كما تعرف..
لقد كنت انت تذهب وجاسم عريبي لاستحصالها سوياً احيانا.
..والسبب!! المهدي طبعاً، ممثل العراق بل والبلدان العربية كلها في مؤتمر أنصار السلام في وارشو.
مبيعات اعداد الجريدة انخفضت بغياب المهدي وقصائده ومقالاته الغاضبة التي ينتظرها الشارع من باعة الاعداد..
" ساءت امورنا المالية في الجريدة والبيت.
بدأنا ببيع ما يمكن بيعه سداداً للقامة العيش، ولاجور العاملين الاسبوعية.

كان هنالك شيء ثمين يحرص أبونا عليه ويعتز به كثيرا!.. كاميرة (زايس أيكون)، وهي هدية من شخص عزيز عليه لا يُفصح عن اسمه، لكنني اعرف الشخص المحب الذي أهدى..

..ومن غير الشاعرة (مليحة اسحق)، قالها رافد ونحن في المقهى، شبه هامس غامزا بعينه، وعلى شفثيه ابتسامة ذات معنى ."
استمر رافد في روايته وكأنه يقرأ صفحات من الف ليلة..

"_ كنت واثقا انني ببيعها سأحصل على مبلغ مُجزٍ سيكفي لأجور العاملين الاسبوعية الواجب دفعها، وتأمين قوت للبيت لشهر كامل واكثر، وبعضا منه ساتبجح به لفترة، بعد صيام طويل..
.. ومن أصدقٍ واكثر ثقة ومحبة للمهدي ولشعره غير صاحب استديو التصوير الكبير (المصور الاهلي)..قديري.. قديري (الاكرع) كما يسميه الجميع.

كانت مقابلته لي بالأحضان:

_ اشم فيك يا رافد رائحة المهدي الكبير الذي اعشقه! قال قديري ثم واصل:

سمعت أنه نجم من نجوم مؤتمر وارشو العالمي للسلام.. سلامنا جميعاً.. هدفنا.. درب نضالنا، نضال كل الاحرار.. المهدي فُخرنا جميعاً، حامل رايتنا الشجاع، رائدنا.. قال ذلك بحماس اهتزت له.

_ عظيم يا استاذ قديري!.. جنئك، وانت على علم بظروف الجريدة والحصار المفروض عليها.. نحن في ضائقة حقيقية.. عليّ تسديد رواتب عمال الطباعة والبيت الذي لم يبق فيه شيء يذكر لتسليمه (لعتيق البيع).

.. جنئك بكاميرة من أفخم كاميرات العالم هي لإستوديوك المعروف (المصور الاهلي)..

اخرجت الكاميرا لإريها له.

تبدلت سُحنة قديري الى جدية جرفية.

.. أخذها بيديه تفحصها، نظر الى عداد صورها الملتقطة..
_ لم تستعمل تقريبا!.. لقطات خاصة له وللشخص الذي اهداه
الكاميرا.. سارعت معقبا.
_ يا رافدنا العزيز!.. لدينا حشد من الكاميرات.. الناس في شغل شاغل
عنها.. نحار في بيع واحدة في كل شهر، وبخسارة احيانا..
_ والحل يا قدرتي؟
_ اعرف وضعكم الذي شرحته بتفاصيله.. ساساعدك.. اليك عشرين
دينارا هي فوق ما تستحقه الآن في السوق.. لكن مرة نربح، مرة
نخسر!.. معك وأنت ابن حبيبتنا لا خسارة معك ابدا .
أصبت بخيبة امل كبيرة.. صفنت طويلا قبل ان أرد.
_ لا وسيلة عندي غيرك في بيعها وانت ثقة.. واعرف محبتك للمهدي..
اضف الى انه انت وأنا رفاق درب نضالي واحد. "

" عدتُ الى مقر الجريدة اداري حزني وخيبتني.. استلقيتُ على أريكة
في الادارة.. بدأت الحسابات المالية تدور في رأسي:
بعد أجور العمال الاسبوعية، وتاجيل رواتب الكاتبتين وجاسم عريبي،
وبعض لوزم الجريدة الضرورية، لن يبقى اكثر من دينار ونصف او
دينارين على احسن تقدير لتغطية معيشة اسرة كبيرة.. اسرتنا. لن يكفي
هذا المبلغ حتى لسداد ديون الخباز الشرس، وبعضا من ديون قصاب
المحلة.

..في غمامة الحزن هذه والتعب من مراجعة الحسابات، رحلت في
اغفاءة لثلاث ساعات تقريبا.

وانا لا ازال مستلقيا، بدأت بعض الشكوك تراودني عن ثمن الكاميرا
الذي اخذته من الصديق الثقة.. قدرتي!
نهضت.. ما زالت حافظة الكاميرا وكتيب ماركتها وتعليماته موجودة
تحت المنضدة.

.. تناولتها واتجهت الى ستوديو (أرشاك)، اكبر استديو للتصوير في بغداد.

قابلت الكهل الأرمني المهيب ارشاك، بعد أن غادر غرفة تصويره احد الزبائن.

اطلعتهُ على كتيب الكاميرا وصنفها وتعليماتها وغلافها، وسألته عن امكانية شراؤه واحدة عندي في مصاف الجديدة.. عداد صورها الملتقطة عشرة فقط.

_ ها ها! (زايس أيكون)!!.. هذا الموديل بالذات من افضل انواع الكاميرات في العالم.. لو أن مواصفاتها مثلما تذكر فاسعطيك خمسين ديناراً لقاءها.

احسست بفرح هائل وأجبتته بانني سأحضرها خلال اقل من ساعة. كنت على يقين بأن قدرتي سيعيد لي الكاميرا عند ارجاعي المبلغ الذي استلمته منه قبل ساعات.

_ شلون حظ يا رافد.. كبل نُص ساعة بس، واحد حَط عينه عليها من دون كل الكاميرات ودفع لي بيها تساطعش دينار.. بعثها حتى أتخلص من كومة الكاميرات اللي عندي.

_ ما معقول قدرتي.. اليوم الصبح جِنتُ تشكي، ماكو احد يُباوع على الكاميرات هلُ الايام اللي فانتت كلها.. شهر كامل ما بعث ولا كاميرة.. و" ظروف البلد الصعبة.. وقحط ما بعد الحرب " .. كُلُ الأمور صديقي قدرتي، صارت بخير وسوگ الكاميرات تعدل بساعتين، وراحت الكاميرا..!؟!

_ هاي فوكاها، فوك ما ساعدتك، وفكيث زنگتكَ، وبعث بخسارة!.. هيج لعد خوي رافد! سوي زين وذب بالشط!.

_ اشكرك!.. اشكر شهامتك ومحبتك للمهدي رفيقي العزيز!.. وكثر الله خيرك!"

" رحْتُ من غيضي الى أقرب (ميخانة) قريبة بـ(الميدان).. كرعتُ
ربعية عرگ (هب هب) كاملة.

أن أعود الى الدار بلا شيء تقريبا، للافواه الجائعة التي تنتظر الفرج
على يدي، كان امرا يحز في نفسي.. نعم قد يستطيعون بما يتبقى بعد
اجور عمال المطبعة للثقت.. او سد الجوع لإسبوع، لكن المرارة
الاكبر خديعة (الصديق المحب) قدرتي (الأكرع) كانت تسود علي
روحي!

..هداني خيالي، او لعلها ربعية العرق على الجوع، الى حل كنت
اتصوره عبقريا:

.. أن أنضمّ الى مجموعتي من لاعبي البوكر واضاعف المبلغ!..
.. خسرت مبلغ الكاميرا وما معي ليلتها، خلال ساعتين.
لن تصدق ممن استندت مبلغ اقامتي الحالية وبعض زادي.. من شفتالو
عامل مقهى البرلمان القزم الاحدب. "

ضحك رافد بتأس وهو يحني راسه ناظرا الى لا شيء مما تحت قدميه.
_ طيّب!.. حاولت رافد بس ماكدرت.. فُشلت!.. محاولة على اللي تكدر
عليه.. بس ليش تزيد هموم أم سالم بالقلق عليك.. طلبت مني أدور
عليك.. ما أرجع بلياك!

_ راجع.. اكيد!! واليوم راجع، بس خليني ألكه أحد أئدائين منته جَم
فلس للبيت.. روح واني أجي وراك.. أكيد أجي.

في ايام نصف-العوز وقيل محنة الفاقة الشديدة كان (صديقي) واثق، الذي يكبرني سنا، والذي يسكن واخته نزيهة وأبيهما جودت الدليمي، مهندس اسالة الماء، في دار مقابل بيتنا تماماً، خُصت لمهندس المشروع، حيث احواض التصفية والتعقيم ومكائن سحب المياه الجبارة وضخها، والمطل على دجلة.

واثق يطرق الباب بين الحين والآخر سائلاً عني.

اخرج إليه على العتبة، ليخبرني بحاجة السجناء السياسيين في سجن بغداد المركزي الى (مساعدات عينية) لمطبخهم.

شرح لي واثق ماالذي تعنيه (المساعدات العينية) بتعداد نماذج منها.

طلبت منه ان يوافيني غدا في نفس الوقت..

.. هو يعلم من أين ساستلّ تلك المساعدة (العينية)!

عندما هجع الجميع للنوم في السطح، تسللتُ بحذر نازلاً لابحث في خزانة المؤنة البيتية الصغيرة..

..استللتُ صابونة.. وضعتُ في كيس حفنات من الارز.. في كيس

صغير آخر حفنات من العدس.. ومن الدهن الجامد قطعة لفتها بورق ثخين.

.. خبأتُ كل ذلك في مكان لا تكتشفه أم سالم.

وقفت اليوم التالي في الشارع قرب الباب منتظراً ظهور (واثق) من بوابة (مشروع الماء).

تقدم واثق صوبي، وسارع الى اخذ كيس (المساعدات العينية).

قال واثق كلمات كبيرة رنانة!! لا استطيع تفسيرها كلها:

_" انها مشاركة في مهمة نضالية في مسيرة الجماهير الكادحة! " شعرتُ بفخر وزهو لمشاركتي اللصوصية في المسيرة الكادحة للجماهير.

حين تفاقمت أزمة الفاقة، وعلت في الليالي شتائم الخباز على باب بيت المهدي " خوات الكحبة.. حرامية.. سرسرية"، والتي أصبحت احدى فضائح منطقتنا الهادئة الراقية من العيوانية وحديث بيوتاتها، لم ألمح شبح احد يقف ليسأل عن حاجة عائلة المهدي الى مساعدة ما، حتى ولا (العينية منها).. لا بيت جارنا اللصق، الاقطاعي الثري مشحن الحردان، زميل المهدي في مجلس الأعيان القرين بالنواب، ولا من بيت واثق الدليمي واخته وابيه أمامنا.. ولا من عائلة جارنا اللصق الثري الآخر على اليمين (القرغولي)..

.. لا غرابة في الاخير،.. اولاد خالة الرصافي العظيم، الذي مات مُعدماً نصف جائع، وبعدهما شُبع موتاً، بدأ (القرغول) وقفوه في المحاكم لاستلاب مكتبته التي لا يملك شيئاً غيرها في بيته، عدا سريره الحديدي وكرسيين وطاولة خشبية عتيقة، عراق مستमित لانتراعها ممن أوصى الراحل العظيم، بتركها، لخادمه ومساعدته الامين (علوان)، الذي لم يتركه حتى آخر أنفاسه وقاسمه اشد ايام فاقتة وعوزه.
.. قضى ذلك العظيم وكفه بكف خادمه الوفي.

لم ألمح حتى ظلال صديق واحد للمهدي من اولئك الكثر ايام عزه، لا لشيء الا الخشية من المرور امام باب بيت المهدي، خوفا من توقف اضطراري لعين قربه، يُجبره فيه على السؤال عن اوضاع عائلته في غيابه.

حتى صديق الوزارة، الذي كان يقدم من قبل، بسلة خوص عنب صغيرة من مزارعه الكبيرة، والذي كان يقف على الباب منتظرا ومؤكداً على إعادة سلة الخوص الفارغة.. حتى هذا الكريم، إختفى ايام المحنة، واختفت معه سلة خوصه الصغيرة..

لم أر صديقي واثق كذلك.. والى يومنا هذا بعدها.

مخطيء والله.. وأسفي واعتذاري شديدين.. نعم شاهدت الجار
(القرغولي) الثري في عذابات أشد أيام المحنة!

.. نعم شاهدته في منتصف ليلة، ساد فيها رعبنا من الطارقين بأيديهم
وركلات أرجلهم بابنا لُتفتح.

.. كنتُ من سارع لفتح الباب، وأنت خلفي أم سالم مرعوبة، تبعها بعد
ذلك حشد الصغار النازلين من السطح، تحتضنهم مليكة بعد أن فزوا
هلعين من غفوتهم.

كان الجار (القرغولي) بصحبة شلة من رجال الأمن، يرافقه المختار
على الباب.

.. دخلوا دون كلام أو إشارة استئذان، إلا حين كانوا في وسط باحة
البيت.

_ جننا للتفتيش ومعنا شاهدان! وأشاروا الى المختار والقرغولي.
فتشوا البيت لفترة قصيرة، ثم استداروا ليوажهوا أم سالم التي كانت
ترتجف رعباً:

_ ليش تُعبيننا وانتِ هم تتعبين.. طلعينهُ رُزْمُ الاوراق اللي بيها توقيع
انصار السلام اللي جمعها المهدي..

بكتُ أم سالم. سارت وهي ترتجف صوب دولاب خشبي صغير هو
آخر ما تبقى في الغرفة الصغيرة المفروشة بالحصر. فتحتُ بابها
وأخرجت لفائف عديدة، سلمتها بيد مُرتجفة لرجال الأمن. تفحص أحدهم
بعض لفائف الاوراق.. بدا عليه الارتياح أوعز الى رجل آخر يحمل
كراساً كبيراً.

_ خَلِيّ الشاهدين يوقعون على مَحْضُرِ الادلة اللي كبسناها بيتُ المشتبه
بیه، الحمد المهدي، بعد ما يكتبون اساميهم جوه توقيعهم.

نظر الجار القرغولي الضخم السمين الى أم سالم وقال بعتاب شديد:

_ شِلْهُ المهدي بأنصار، وسلام، وهل الطلايب!.. شِلْهُ ويّه هذوله
الهدامين!

أنا حتفهم!!

أنا ذا أمامك ماثلاً مُتَجَبِّراً
أطأ الطغاة بشسع نَعْلِي عازباً
أنا حَتْفهم! أَلجُ البيوتَ عَلَيْهِمُ
أُغري الوليدَ بشتَمهم والحاجبا

عاد المهدي من وارشو.
تحسنت الاوضاع فترة ليست بالطويلة.
بعد مقالات عن حركة السلام ولقطات وقصائد عن ذلك، أغلقت جريدة
الرأي العام بأمر الرقيب.
عدنا الى الإستدانة والى نصف الجوع.
الرقابة لم تكنف بالجريدة.. وضعوا رقبيا على دار المهدي.
.. شاب صغير السن بملابس مدنية رثة، يقف من فجر الله وقيض
ظهيرته القاتلة وأناء الليل، على مبعده امتار من باب دارنا، عند
منعطف دار جارنا الفخم، الشيخ الاقطاعي-العَيْن-، مشحن الحردان.
المهدي يتناول غداءه البسيط بملابسه الداخلية وهو يتصبب عرقا من
صحن في صينية على الارض، بعد أن بيعت المروحة المنضدية
والمنضدة معها الى (عتيق البيع).. لم تبق أيّة طاولة او (طبلية) او
منضدة صغيرة.
كان مُنهكا متوتراً غضوباً من يومه المتعب، وهو يدور في أروقة
المكاتب ليصدر جريدة بديلة عن (الرأي العام) بأسم آخر.
رمى ملعقة الاكل ونهض فجأة وقد إربد وجهه.. توجه صوب باب البيت
بخطى واسعة سريعة.. فتحه بعنف.. خرج الى الشارع الملتهب بشمس
الظهيرة بملابسه الداخلية.. سار عثُ الى الباب لأرى وجهته.

.. كان المهدي يركض صوب رجل الامن الذي يراقب دارنا.
..فزع الشاب الصغير، ذو الملابس الرثة، حين تنبّه الى عاصفة
الغضب القادمة.

.. شلّت حركته للحظات وجحظت عيناه وهو ينظر صوب المهدي
بقامته الطويلة، بوجهه المتشفيّ وهممته المزمجرة.
سَمَعنا!.. سمع الكل صرخة الشاب المرعوبة:

_ والله عَمي أني مالي ذنب! مو أني... عمي هو دزوني!
لم تطل وقفته الا لحظة واخذ يركض بعدها وكأن الجن تطارده.
حين انتبه المهدي الى صرخة الرعب والتوسل، وهروب الشاب
الضعيف ذي الثياب الرثة، توقف فجأة وهو نصف عارٍ في الشمس
الحارقة وسط الشارع، وكأنه أفاق من كابوس رهيب ليجد نفسه خارج
بيته..

.. هزّ كفه.. دمدم بضع اصوات وعاد متمهلا صوب الباب المشرعة
بوجه حزين..

اخفق رقيب الأمن المسكين ليومين، ليعود بعدها ويقف في مكان ابعد.

عاد المهدي من جولته المتعبة الفاشلة بين أروقة القُشلة، ومكاتب
محامين اصدقاء لاصدار جريدة بديلة بدلا من الرأي العام، التي اغلقتها
السلطات..

.. جلس بنفْس الوجوم والغضب والنقمة لتناول غداءه، كما في الايام
العديدة السابقة.

لانتّ معالم وجهه فجأة، وتوقف عن ازرداد طعامه، وكأنه تذكّر شيئا
هاما قطع عليه انغماسه في تناول غداءه:

_ أم سالم! يا أم سالم! لو تكدرينْ تُحضرينْ قَدْ ماعونْ زينْ من هذا
التّهجينْ الطيب، وكِرسَة خبز، وكِلاص ميّ بارد، وشيف ركي من
صندوك الثلج وتخليهم بهاي الصينية (سحب الصينية التي تحت

صَحْنَه) .. اَكِيذُ هَذَا الْمَسْكِينِ الْوَائِكْفَ مِنَ الصَّبْحِيَّةِ بِهَلْ الشَّمْسِ جَوْعَانَ
وَعَطْشَانَ.
تَنَاولْتُ الصَّبِيئَةَ الْمَعْدَّةَ، وَفَتَحْتُ أُمَّ سَالِمِ الْبَابِ. تَوَجَّهْتُ بِهَا صَوْبَ
رَقِيبِ الْأَمْنِ الشَّابِ.

بعد منتصف الاربعينات، افتتح الشبان اسماعيل ناجي طبيب الباطنية
وخالد ناجي الجراح الممارس اول عيادة شعبية لخدمة بسطاء الناس
المُعدمين..

العيادة في الطابق الاول تشرف من جانب على شارع الرشيد ومن
الجانب الآخر على شارع المتنبى.

اجور كل افراد العائلة الشهرية للمراجعة والعلاج، مائة وخمسون
فلسا.. للجميع.

العيادة تقابل سلالم الزقاق المنحدرة الى جريدة الرأي العام.

المهدي صاحب الجريدة، كاتبها وشاعرها.

الطبيبان الشبان مُغرمان بالمهدي وشعره.

.. كانت زيارتهما لمكتب المهدي تُقابل بالترحاب والموَدّة وإعجاب
الشاعر بمشروعهما الانساني..

تعددت زيارتهما للجريدة، لتتراق بعد مدة بزيارات بيتنا الملاصق
الذي كنا نسكنه..

.. بعد فترة كانا من أهل البيت.. يحضران دون موعد بوجهما المبتسم

البشّر.. يفرح كل من في البيت بالقادمين.انتقلنا من الدار في زقاق

الحيدر خانة بعد فجيعة الشهيد جعفر، في الوقت الذي ازدادت فيه مهام

ومشاريع الطبيبان المثال في براعتهما وانسانيتهما.

قلّت الزيارات، وإن لم تنقطع.

أصبح اسماعيل ناجي في نهاية الاربعينات، نائبا لعميد الكلية الطبية

الدكتور الاشهر هاشم الوتري.

في ظروف العازة الشديدة، والحصار الذي ضيقت السلطات خناقه على

المهدي، جاءت مناسبة هامة في تاريخ الكلية الطبية، إذ مُنح عميدها

أعلى درجة فخرية بريطانية تعطى لطبيب عراقي.

قرر اطباء الكلية وادارتها اقامة حفل تكريمي ضخم للوتري

_ مرحبا استاذنا الكبير ابا رافد.. أنا تلميذك الشاب المحب الدكتور اسماعيل ناجي.

_ اهلا دكتورنا الغالي، مشتاقون!.. لكن لا استطيع العتب فاننت واخيك خالد منشغلان بأعظم الاعمال الانسانية.

_ طلب ورجاء منك استاذنا المهدي الكبير.. طلب من محب! حاضر دكتورنا فقط اطلب.

_ انت أول المدعوين بالطبع للحفل المقام لعميدنا الوتري.. أن تشرفنا بحضورك.. والمهدي يحضر، يعني كل الشباب المنتظر سيهله لوجوده ولسماع صوته.

_ انت غالي عليّ ابني اسماعيل.. لكن مزاجي ووضعي الحالي لا يسمح لي باحتفالات واجتماعات ومقالات.. ارجوك قَدِّرْ واقبل اعتذاري.

_ انا اول الراضخين لامتناعك.. لكن كيف الامر مع مئات الاطباء الشباب ينتظرون رؤيتك وسماع صوتك.. لست انا من يعتذر لهم.. سارسل الدعوة الخاصة وكلنا أمل بتغيير رايك.. طلبي، طلب مُحب ولسان مُحبين.. تعيش استاذنا المهدي الكبير!

_ اسمعيني أم سالم وبلا كيف، وشلون، وماذا، والى متى، ومن كل هذا
الكلام اللي لا يقدم ولا يأخر.. آني رايح، واذا تأخرت وما جيت اليوم،
يعني القضية راح تطول..
عندج بقية فلوس المطبعة الي بعته.. هاي تكفيج اشهر واكثر..
_ شنو انت رايح للحرب، لو لحفلة داعيك إلهما بالتواسيل؟!
_ هي حفلة حرب!.. يا قاتل يا مقتول.. اودعناكم!!

كانت سيارة فخمة عليها شعار الكلية الطبية قد أرسلت للمهدي تنتظره
عند الباب لتقله.
فتح السائق بابها الخلفي.. حياه المهدي وانزلق مسترخيا في مقعدها
الوثير.. أخرج سيجارة واولعها..
_ توكل على الله ابني وسوق!!..

كانت حدائق المسبح غاصّة بمئات الحضور من الجالسين في فضاءها
الرحب الجميل وقد زينت اشجارها السامقة بنشرة اضوية خافتة.
تصدّر المجلس، الذي علت همهمة جالسيه، أقطاب الحكومة ووجهاء
البلد وعدد من السفراء وكبار الاطباء الاجانب المدعوون فوق مقاعد
وثيرة، وتراصت خلفهم مئات

الكراسي التي احتلها ضيوف الدرجة الثانية من اطباء قديموا من
مختلف انحاء البلاد وطلاب الكلية الطبية واساتذة وادباء وصحفيون.
لم تكن المقاعد كافية لمئات الوافدين، الكثرة منهم ممن حشر نفسه بين
المدعوين حين علم بدعوة المهدي الى الحفل، تراصوا واقفين في
مماشي الحديقة الواسعة خلف وحول صفوف كراسي الجالسين.
بدأ الإحتفال بكلمة عريف الحفل، ثم تلتها كلمات اخرى وكانت الكثرة
من الشباب تبحث بأعينها عن المهدي الذي لم يكن حاضرا بعد..
ما أن دخل المهدي بقامته الفارعة وبخطاه الواسعة الواثقة مدخل
الحدائق متجهاً صوب مقاعدها الامامية، حتى علا تصفيق الكثرة
الغالبية من الحضور.. تهامس الشباب فيما بينهم بأوجه باسمه طّلقة..
.. عريف الحفل الذي يتهيأ لدعوة المتحدث التالي، وأمام ضجيج
الحضور بالتصفيق والهمهمة التي اصبحت لغطاً وضجيجاً، لم يكن
امامه إلا أن يترك تسلسل المتحدثين، ليذيق على المايكرفون امامه كي
يهدأ الجميع ويعلن:

_ شرفنا المهدي الكبير بحضور هذا التكريم لعميدنا المبجل، وامام هذا
الاستقبال الحار منا جميعا، ليتقدم ضيفنا العزيز ولنسعد بصوته ..
مرحباً بك استاذنا الكبير.. تَفَضَّلْ!!
يُغيّر المهدي وجهته.. يرتقي المنصة.. تَعْلُو عاصفة التصفيق من جديد.

وقف المهدي امام الميكروفون.
.. خفتت الهممه ثم ران سكون شامل، إلا من سَعَلَاتِ بَدَتِ وكانها
تُخرق حرمة صمت الانتظار.
.. نَظَرَ الى ابعد ما يقف عليه المتراصون من الشباب المحتشد خلف
الصفوف وعلى جنباتها.
.. إنتصب بقامته الفارعة وهو بيتسم رافعاً رأسه، وكأنه يُحيي لا
الصفوةَ الجالسة على بُعد أشبار تحت مَنصَتَه في الصفوف الامامية،
بل الجموعَ المحتشدة خلفها.
.. أخرج أوراقاً مُجَعّدة كانت في جيب صِدار بدلته.. أفردھا، ودون أن
ينظر إليها علا صوته وتحركت كفه اليمنى لتفرشَ اصابعها الطويلة،
وكانها هي التي ستتحدث:

_ مَجَدْتُ فَيْكَ مَشَاعِراً وَمَوَاهِباً !!...
كانت مروحة الاصابع في نصف امتداد الذراع، مُوجّهة الى المُحتفي
به الجالس امامه..
اعتدل الدكتور هاشم الوتري في مقعده وبَدَتِ معالم ابتسامه جذل وفخر
تبان على وجهه المكننز المحمّر..

مَجَدْتُ فَيْكَ مَشَاعِراً وَمَوَاهِباً
وقضيتُ فَرَضاً للمواهبِ واجبا
لله دَرَكَ أَيُّ آسٍ مُنْقِذِ
يُزجي الى الداءِ الدواءَ كتائباً
متحدياً حُكْمَ الطِّبَاعِ! ودافعاً
غَضَبِ السماءِ، وللقضاءِ مُغالبا
أمتدّت كَفٌّ من المقعد المجاور، لتستقر فوق كَفِّ المُحتفي به مباركةً
مُهَنِّئةً.

أوقفت للصرعى نهاراً دأئياً
وسهرت ليلاً نابغياً ناصباً
ولأنت أثنخت الفؤاد من الأسى
للمثخنين من الجراح تعاقباً
الحاضنين جراحهم وكانهم
يتحضنون خرائداً وكواعباً
علت ابتسامات الاستحسان على وجوه الشباب المكتظ على المماشي
وعلى وجه الوتري العميد..
بدى بعض الوجوم على وجوه بعض الجالسين من الصفوة في الصفوف
الامامية.
بغدادُ كانَ المجدُ عندكُ قبنةً
تلهُو، وعوداً يَستحثُّ الضارِباً
وزِقاقَ حَمْرِ تستجدُّ مَساحِباً
وهَشِيمَ رِيحانٍ يُذرى جانباً
و" الجسرُ " تَمنحه العُيُونُ من المَها
في الناسِيبِينَ وشائِجاً ومَناسِباً
الحمدُ للتاريخِ كيفَ تحوَّلتُ
تلكَ المَرافةُ فاستحلنَ مَتاعِباً
والكأسُ عادتُ كأسَ موتٍ ينتشي
زاهي الشبابِ بها ويمسحُ شارِباً
و" الجسرُ " يَفخرُ أن فوقَ أديمه
جثتُ الضحايا قد تَركنَ مَساجِباً
علتُ حُمرةً على وجه العميد المُحتفى به.. يُنظرُ الى جانبيه من الجالسين
من كبار الحاكِمين، التي علاها بعض الوجوم وتحفَّزَ الترقب.

واصل المهدي إلقاءه غير أن نبرة غضب بدأت تتصاعد فيها.. بدى لا وجهه فحسب متحزراً، بل كل ما فيه، وقفته، مروحة كفه الممدودة اليمنى، رأسه المرفوع عالياً، لمعان عينيه.. حتى غُضون غاضبة برزت في وجهه لتتشارك في عاصفة الإلقاء.. بدى لكثير من الشباب المنصتين بصمت رهيب، أن فوديه وهامة شعره وقذاله الذي بدت فيه وخطات الشيب، قد شاركت في غضبه..

..ظن البعض منهم أن بدلته ورباط عنقه، شاركا في مطالع الإعصار القادم..

إِيهِ عَمِيدَ الدارِ كُلِّ لَنِيْمَةٍ
لابدٌ واجدةٌ لَنِيْماً صاحبا
ولقد رأى المستعمرون فرائساً
منا، وألّوا صَيِّدَ كَلْبٍ سائبا
فتعهدوه فراح طوع بَنانِيهم
يَبِرونَ أنياباً لَهُ ومخالببا
مُستأجِرِينَ يخبِرونَ ديارهم
ويُكافئون على الخرابِ رواتبا
مُتَمَرِّينَ يَنْصَبونَ صُدورهم
مِثْلَ السِّباعِ ضراوةً وتكألبا
حتى إذا جَدَّتْ وغيى وتضرمت
ناراً تَلْفُ أبعاداً وأقاربا
لَزَموا جُحورهم، وطارَ حَلِيمهم
دُعراً، وبُدلتِ الأسودُ أراببا

تلقت عميد الدار يمينا ويسارا بوجه محتقن وعينين زائغتين الى الصفوة الجالسة واكثرهم من كبار الحاكمين، وقد غاصوا في مقاعدهم، ودمدم بشيء، بدا وكأنه اعتذارا.. غير أن ذلك لم يقلل من معالم وجوههم الكئيبة ولا شحوب البعض منهم.

حاول البعض أن يُصقّق، وآخر أن يهتّف، فدزّهم رفقتهم من الشباب
تلهافاً لسماع ما بعده، وعلا لغطّ وابتسامات تشفّ في كثير من وجوه
الاطباء الشباب المتراحمين والمتراصّين خلف المقاعد وفي ممرات
الحديقة الواسعة.

واصل المهدي زوبعته
إيّه عميد الدار شكوى صاحب
طَفَحَتْ لَوَاعِجُهُ فَنَاجَى صَاحِبَا
حَشَدُوا عَلَيَّ الْمُغْرِيَاتِ مُسِيلَةً
صَغَرًا لِعَابِ الْأُرْدَلِينَ رَغَائِبَا
وَبَأْنُ أَرْوَاحٍ ضَحَى وَزِيرًا مِثْلَمَا
أَصْبَحْتُ عَنْ أَمْسٍ بَلِيلٍ نَائِبَا
حَتَّى إِذَا الْجُنْدِيُّ شَدَّ جِزَامَهُ
وَرَأَى الْفُضِيلَةَ أَنْ يَظَلَّ مُحَارِبَا
حَشَدُوا عَلَيْهِ الْجُوعَ يَنْهَشُ نَابَهُ
فِي جِلْدٍ "أَرْقَطٌ" لَا يُبَالِي نَاشِبَا
يَتَّبِعُونَ بَأْنَ مَوْجَأَ طَاغِيَا
سَدَّوْا عَلَيْهِ مَنَافِذًا وَمَسَارِبَا
حَسِبُوا فَمَلُّهُ فَمِ الزَّمَانِ مَوَاهِبِي
أَبْدًا تَجُوبُ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا

تَسْتَلُّ مِنْ أَظْفَارِهِمْ وَتَحْطُّ
مِنْ أَقْدَارِهِمْ، وَتَتَلُّ مَجْدًا كَاذِبَا
أَعْلَمْتُ "هَاشِمٌ" أَيَّ وَقْدٍ جَاحِمِ
هَذَا الْأَدِيمِ تَرَاهُ نَضُوءًا شَاحِبَا
أَنَا ذَا أَمَامِكَ مَائِلًا مُتَجَبِّرًا
أَطَا الطَّغَاةَ بِشَسَعِ نَعْلِي عَازِبَا

أنا حَتْفُهُمْ! أَلْجُ الْبَيْوتَ عَلَيْهِمْ أُغْرِي الْوَالِدَ بِشْتَمِهِمْ وَالْحَاجِبَا

أمتدت ذراع المهدي الغاضب بمروحة كفه المنشورة مشيرة الى نوري السعيد (رئيس صفوة الحاكمين) الجالسين على يمينه ويساره..
نفض السعيد يده وهو ينهض عن مقعده بوجه شاحب عبوس، ونهض وزرائه الاخرون وعددا من صفوة المقاعد الامامية وراءه..
.. إنسلوا من القاعة التي علا لغط اطباءها الشباب، وكثرة من اقرانهم الطلبة الاخرين..تمالكوا انفسهم عن التصفيق او الهتاف احتراماً لعميدهم الذي يحتفون به.

.. تملل العميد الوتري في مقعده وقد أصبح وجهه قرمزياً من الإحتقان وهو في حيرة من الحركة التالية، التي عليها القيام بها لاعضاء الوزارة ورئيسها من المغادرين واتباعهم،..ووجوب بقاءه في مقعده بين ضيوفه الاخرين من السفراء وكبار الاطباء الاجانب المدعويين.
.. استمر هدير المهدي في المنصة وهو يتابع عصف كلماته لثُلُج " الحَتْفُ " بالمُنسلين الهاربين فيُعِيد بصوت اعلى:

أنا حَتْفُهُمْ أَلْجُ الْبَيْوتَ عَلَيْهِمْ أُغْرِي الْوَالِدَ بِشْتَمِهِمْ وَالْحَاجِبَا

القاهرة

- احمر..اسود !!، اسود..احمر!!

- هل تعرفين سبب ثورة المهدي في المطار ؟ سأل رافد
- عدم تنظيم ام سالم لمعدات وملابس ووثائق سفرنا. اجابت مليكة
- إنك مخطأة تماما.
- ما هو برأيك اذا ؟..اهو وصولنا الى المطار غير مبكرين؟
- ولا هذا ايضا ..انك تجهلين المهدي. لقد كان كل ذلك حججا مفتعلة
- لينفجر بالهياج المصوغ على هيئة غضب، لالشيء إلا ليغطي ضعفه
- في ان يودع ابناؤه الثلاثة..أن يشهد سفرهم امامه..أن يطيروا وهو
- حاضر الى ارض بعيدة ان يشهد فراقهم لأمد طويل..القاهرة بعيدة
- ياعزيزتي!
- ..إنفجر المهدي بالغضب والنقمة على الجميع لأسباب واهية، والحقيقة
- دون ايّ سبب، وصبّ شتائمه على الخالة، وغادر المطار حتى دون
- ان يعانقنا هروبا من ضعف لا يريد أن يراه أحد فيه.
- .. إنه يكره الوداع!..
- اذكري لي مرة واحدة في مطار او محطة كان فيها مودعا حتى لأقرب
- الناس اليه ؟
- والله صحيح - قالتها بعد لحظة سهوم وتفكير - لا اذكر مرة واحدة.
- لقد أشفقتُ عليه بشدة في تلك اللحظات..انه لا يطيق أن يشهد احد
- لحظات ضعفه وانفعالات تأثره في حزن او وداع، بل حتى في فرحة
- لقاء شخص عزيز.. مَرَجَلٌ من المشاعر المغيَّبَة.
- كنت أستمع الى ذلك الحوار وانا اجلس جوارهما على مقعدي المحاذي
- لنافذة الطائرة وانا أداري خليطاً من الحزن والاثارة والحلم، ملقياً

ببصري الى الغيوم وبقع الضوء والظل المتسابقة على مربعات الارض المتباعدة في الاعماق.

"الاصدقاء..الصخب واللعب على ضفاف دجلة،مسابقات العوم، معارك القوة والنخوة والغيرة الصببانية، الطناطل المرءة، حكايا الجن وعترة وابو زيد الهلالي في اقايبص الليل على شطنانها ثم مكتبة روايات الجيب الكبيرة الخاصة بي كل ذلك اصبح بعيدا الآن"

" المدينة العريقة الضخمة آتية، تلك التي كنت تحلم بأن تراها كلما شاهدت فيلما مصرياً..ازقتها العتيقة، مقاهيها الحافلة بالنور والصخب.. " واحدٌ كركاديل.. واحدٌ أهوه على الريحه يا عمّ حنفي وصلّحو!! " .. اسم فخم يشبه الكركدن.. لكن ما هو شكل وطعم الكركديل؟!.. كيف تكون القهوة عل الريحه؟!.. وكيف يصلّح عم حنفي هذه الطلبات!.. القلعة.. الهرم.. النيل.. الترام.. " ابوه كده.. أمّال.. يا جدّغ! " ..هل ستستطيع ان تقلدهم في نطقها هناك..

لماذا لم يُثر غضب ابوك في المطار فزعك؟!.. أثار عطفك وشفقتك وحننك..من سينقل الآن " سفرطاس" غدائه الى الجريدة.. " تفضل استاذ صفاء فد لقمه وياي.. " كم كنت اشعر بعطف كبير تجاهه وهو يفترس طعامه كنمر جائع "

"..ما هي الغربة التي تتحدث عنها جدتي بمرارة، " شلون إلك صبر يامهدي إنتيهم ببلاد الغربة.. " ..

- الرجاء شد الأحزمة استعدادا للهبوط في مطار بيروت، يرتفع صوت قبطان الطائرة.

وشوشة البحر عجيبة، غامضة كفضاءه المترامي الأبعاد.. نثار النجوم في بحر السماء.. الجوف الاظلم يبتلع كل ما حوله من أضوية الرصيف الكابية، هفيف النسما، صدى الموج المتهامس، جوف الظلام يبتلع كل ما حولي، حتى حواشي الساحل الرملي واجزاء من الجروف الصخرية.. يكاد يسحب الرصيف العريض المقفر الذي اقف عليه واعدة الضوء الكابية

.. اشباح الفنادق القليلة المنحدرة تزحف بسكون صوب الهوة العميقة..

.. أزحف معها كلها صوب الغور..

دوار!..

.. اجهد في تثبيت قدمي على ارضية الرصيف .

.. اذاً هو ذا البحر العجيب!!

الزرقة المخضرة.. اللازورد.. تتخطى زجاج النافذة.. تنساب في الغرفة الانيقة الواسعة.. تعلقو.. ترتفع.. اجدني طافيا وانا في سرير الفندق الوثير وسط البحر، الممتدة ابعاده الى حواشي الزرقة الارجوانية الخفيفة، المنسدلة كالوشاح عن صفحة السماء المنثنية برقة فوقها..

اهرب على عجل وقبل اكمال افطارنا نحن الثلاثة في شرفة الفندق الواسعة الى الرصيف الخالي إلا من افراد قلائل من مارة متأنقين.

استمر في السير أسيح في الزرقة المخضرة " عوالم البحار السندبادية السبعة.. معارك السفن.. (القرصان القرمزي).. (القرصان الدموي).. (كابتن هوك).. تتباعد وتتشابك الصواري في البحار الهائجة وسط العواصف المزمجرة.. تشتد معارك القراصنة.. "

يرتفع صوت احد المارة.. اصحو الى الزرقة الشافة الهادئة امامي.. ها قد وصلت الى مشارف المدينة المكتضة.

يقترب شاب بملابس قروية.

_ احمر اسود!.. احمر اسود!.. اسود احمر!

..يعرض امامي وعلى افريز الرصيف العريض ورقنا لعب سوداوتين
وثالثة حمراء.

- بُصْ واربح..شوف واربح..هدا يوم حظك بص وشوف.. احمر
اسود..هايدي حمرا، هايدي سُوده، وهايدي هي الحمرة! ..
.. ارى الورقة الحمراء تستقر بوضوح في الوسط .
- ياللا بنلعب.. بذك تكسب نُص ليرا؟! يالّه، يالّه.. فين الحمرا.. فَرَجيني
فين الحمرا

اعاد رمي الاوراق بسرعة..ها هي الورقة الحمراء تعود من جديد
وتتوسط بوضوح الورقتين السوداوتين
اضع اصبعي على ظهر الورقة الوسطى واقول بتاكيد احمر!
يقالب الورقة..يالللجدل، اكاد افقر نشوة.

- غلبتني يا ملعون!..!! ..يدفع نصف الليرة بأريحية.
نواصل اللعب..اشير باصبعي بثقة الى موقع الورقة الحمراء من جديد
_ اسود!

..اخسر الجولة .
.. " زلة بسيطة " اخاطب نفسي.. " ما عليك لم تخسر شيئا لحد الآن!"..
أشير مرة اخرى..ضاعت نصف ليرة اخرى
" لا تهتم، مرة تصيب ومرة تخيب..لكن الامور هذه المرة واضحة
كالشمس، ارى الحمراء من جديد في الوسط..ركّز فقط!! "
أشير!.. واخسر!!

..أشير واخسر!..،..وأخسر!.. واخسر! ..ضاعت الليرات الخمسة.
..إكفهرّ البحر.. عبست وجوه المارة.. ضاع حلم التجوال المرفه في
المدينة، اختفت الحلوى اللبنانية المجففة، والشاورمة الشهيرة ونزهتنا
البحرية نحن الثلاثة التي كُلفت بشراء تذاكرها.

وصلت رسالة من والدي الى القاهرة بعد اسبوع.
.. وصول رسائله هزة فرح عارم لدي دائما، خصوصا هذه الرسالة،
فلقد كان فيها روح النكتة، لا السخرية مني، مما اضحكني وجعلني
سعيدا ومليئا بالتفاؤل وروعة الدنيا.. والدي الذي وصلته رسالة اخي
رافد مطمئنا، عن تفاصيل رحلاتنا وقضاء ليلة ونهارا في بيروت قبل
وصولنا الى القاهرة، لم تفته ان يروي له ساخرا، كيف خُذعت بلاعب
(الثلاث ورقات) وخسارتي مصروف نزهتي التي كانت هدية منه..
.. ضحكك كثيرا وانا اقرأ رسالته التي تروي، عن (الشيخ الحمد)، عن
نفسه، الذي خُذع مثلي بمقامرة (محرّمة) مع نظير لنصاب (الثلاث
ورقات)، ولكن في الكوفة بدلا من بيروت.

".. أنا طفل-افندي صغير- (زعطوط)، يعبث بنزق احيانا.. لكن وفي
الوقت ذاته، شيخ حمد، بعمّة وقفطان يتقدم المصلين في الجوامع؟! .."
..كم اشتقت في حينها لاحتضانه وتقبيله على الايام المضيفة الفرحة
التي اعقبت رسالته:

"..كنت في عمرك تقريبا - ربما اكبر بقليل - آنذاك.
..أه لو تعلم ما هي الآمال التي راودتني والطموحات التي لم اتمكن من
وضع حدود لابعادها المترامية، الشاهقة، بل حتى الخطرة منها. الوان
منها راودتني وانا اضع رأسي على الوسادة الندية في السطح الاعلى
من البيت، أخترق افلاك السماوات وأسيح بين كواكبها المنثورة في
الفضاءات المتسامية عاتمة الزرقة. كم مرة ركبت سفينة (درب التبانة)
كي اصل اسرع الى ما اريد، وكم مرة الى هذا النجم المُشع واخرى
الى الآخر الابعد الاقل لمعاناً.. الى ذلك النجم الذي يُطل بحياء
ويتلاشى وراء وشاح ذيل الدرب الحلبي المتلاشي.. يخفق الوشاح

كشعاع تائه في اليمّ الداكن، ويغيب النجم ويتراءى من جديد وراء الذيل السائب..

..غدا عيد الاعياد ومطلع المنى وبدء المسيرة الكبرى!
اصحو قبل الجميع وانسى صلاة شكراني الموعودة في الفجر، رغم طربي لأجمل أذان رنّ في اذني من منارة الصحن الحيدري، التي تشرف تماما على سطح دارنا اللصيق.. كنت هائما في خيالاتي التي وجدتتها تنتظرني حالما افقت من سويغات رقادي القلق.
.. اخذت أذرعُ السطح طولا وعرضا مدمدما بكلمات مبهمة لما يدور في رأسي.

لم اعرف بالتحديد ما هي الخطوات التي علي اتباعها حتى مجيء اللحظة المنتظرة.

..كان صوت أبي يصل إليّ بوضوح من السطح الادنى قبل الركعات:
.. " الللهُ أكبر.. " " الله أكبر! " .. " ربنا ولك الحمد " .

كانت الشمس قد ارسلت خيوطها الاولى على سياج السطح حين بدأت اضع قدمي على السلم وانا ارتجف من الانفعال..توقفتُ قليلا عن الهبوط لأتماسك وانتظر حتى تنتظم انفاسي قبل ان اصل الى باحة البيت حيث والدي واخي الاكبر وبقية الاهل يتربعون الحُصر، تتوسطهم الوالدة وراء سماور الشاي الموشوش بخفوت.

لا بد وان منظري كان مضحكا لتلك الهيبة الزائفة التي كنت اضع لبوسها وعليّ أن اتصنعها وانا اتقدم لألثم يد والدي ورأس والدتي وأسلم بوقار على اخي الكبير عزيز، متمنيا للجميع بصوت مضخم عيداً سعيداً..

اشار والدي بيده دون ان ينطق بكلمة الى صالة البيت الكبيرة، متمالكا نفسه من قهقهة مكبوتة.

..عزيز لم يتمالك نفسه في ان تتعدى ابتسامته الى ضحكة خفيفة – منعها التأدب بحضور والدي – من ان تكون عالية ساخرة.

..أحمرّت وجنتاي واحترقت اذناي.
كنت اعرف ما الذي ينتظرنى في الصلاة.. فقد غششت بأن نزلت
متلصقا في الليلة السابقة.. رغم جلفاني، باني لن ادخل الصلاة حتى
الصباح.
..الله اوسع قلبا ورحمة من ان يعاقبني ليمينٍ لم اكن مخلصا في حلفانه.
.. تجاوزتهم ودخلت الصلاة بوجل.
..ها هي هناك بيضاء زاهية ملتفة على بعضها باناقة ورفعة ملكية فوق
هامة مشجب الملابس.
.. يخفق قلبي فرحا وشوقا وانا اتقدم واقترّب بخطاي منها.
.. ينسدل من تحتها بجلال رداء أسود من الجوخ..
..ستكون لي ابد الدهر!!
.. أخلع جلابيتي الطويلة..
..اتقدم واقترّب منها وقلبي يكاد ينخلع من الخفقان.
..أمدّ ذراعي وارفعها بهيبة.. نعم أرفع العِمّة الأنيقة الزاهية الملتفة.
..أضع العِمّة على رأسي.
..نعم عمّتي أنا!.. فوق رأسي انا!، اعتمرها وأنا شبه عارٍ، قبل ان
ارتدي الصاية الفخمة السوداء.
أسرّخ في خيالاتي وانا أتأمل نفسي في المرأة.
..لا اعلم كم طال تهويمى في أحلامي قبل ان اخرج بهيبة وأطل على
الجمع الجالس..كانوا قد بدأوا افطارهم.
أتقدم الى والدي وانحني مقبلا رأسه بفرح..
- مبروك عليك ولدي!..مبروك عليك شيخنا الحمد! قالتها والدتي
بفرح وحماس
- مبروك شيخنا!.. انشاء الله تكون كفاء لها.. هذا اول الدرب الصحيح
إبني!..لن اوصيك احتراما لنفسك، بل احتراما لها وللرمز الذي ترتديه

الآن وسترتديه العمر كله.. " هذي مو هزوة شيخ حمد، اريدك تصير
قدوة شيخنا!! "

بعد الأفطار نهض الشيخ الكبير وقفز وراءه الشيخ الصغير.. نعم، انا
الشيخ الحمد !.

.. لم أنسَ ان استعرض نفسي امام اختي وأخويّ الاصغرين مبتسما،
وبالطبع مناكدا.

- إسمع شيخنا! سأكلفك بمهمة تليق بمقامك الجديد هذا،.. سيأتينا ضيوف
في الغد.. وانت الآن احد رجالات البيت المعتمدين، وهذه اول مرة اعهد
اليك بالسفر الى الكوفة للتسوق هناك - ومع مبلغ لا يستهان به -، فلن
تجد البضاعة الجيدة هنا في النجف مثلما تجدها في اسواق
الكوفة.. خصوصا السمك.

..دس في يدي قائمة بالمشتريات واعقبها بحفنة ثقيلة من الروبيات
وعقّب:

- " ما اوصيك هذي عشر روبيات مبلغ مو قليل شيخنا، وشوف أحسن
الموجود بالسوك "

"يا للمغامرة العجيبة، هذه الرحلة الى الكوفة، ولوحدي.. مغامرة بالطبع
سبق وان حققتها بمعية ابي، ومرات قلائل اخرى مع اخي الاكبر،
رجل البيت في غياب ابي

.. انا وجيل؟.. بالطبع وجيل!.. ومع هذه المهمة الموكلة وبالمبلغ
الضخم، لا بد انها خطوة اولى لايكون رجل البيت الآخر بعد
عزيز!.. ستكون ولاشك مغامرة ان اطوف وحدي في بلدة كبيرة
كالكوفة ! "

"..ها انذا على شواطيء نهرها الكبير وهو يكاد يفيض بعلوه، في الفيء
من نخيلها الملتف حوله بحنان مُهدّيء، أرنو الى السيل الجارف الهادر.

..لفائف القش والاعواد الراقصة تدور مقتربة حول الثغرات اللولبية
الملتقّة بسرعة، يتّيه فيها البصر المنجذب الى عمّة اعماق هذه
الدوّارات النهريّة.. احدى باصرار، دون وعي وبارادة مسلوّبة، الى ذلك
المجهول المُغيّب في غور التهر الغاضب.. ها هي حزم القش والاعواد
المتراقصة بمرح ووجل تُشَفَط في ومضةٍ خاطفة، يعقبها صفير واضح
وقصير قادم من هذا البوق المائي الدوّار.. تُبْتَلَع وتغيب، تتعلّق فوهة
البوق دون اثر لما كان حيا متراقصا فوق موجات الماء. "

"..تظهر فجوة صغيرة اخرى في مكان آخر، تتوسع الفجوة، تدور
فوهة البوق الحلزوني المتراقص، تتسع تسحب موسيقاها لفائف قش
طافية اخرى.. تلتحق بها اعواد وكسر اغصان خضراء.. ترقص الحلقة
الملتئمة بمرح حول فوهة البوق اللولبي المتسارع .. يُخْتَم المشهد
الراقص كسابقه بصفير إبتلاع حاد. "

.. لحظة صمت جليّة.

".. هكذا نظهر.. هكذا نعم.. يسحبنا التيار.. نلتئم راقصين بمرح ووجل
حول فوهة الاعماق المجهولة المظلمة.. تُبْتَلَع دون اثر باق فوق سطح
اللجة "

".. يستمر نهر الحياة الصاخب في جريانه.."
..أتكئ على جذع نخلة قريبة خوف الإنزلاق.
أسمع هديل حمامة ورفيف اجنحة، تهب نسمة ندية يوشوش لها سعف
النخل

..انظر عاليا وابتسم.. ألفت طرف عبائتي حول ذراعي كما يفعل اخي
الاكبر حين يهّم بسير عجل.. وجهتي وسط المدينة.
..قبل وصولي الى اطرافها، اقف برهة ريثما أعدل وضع عمّتي التي
أزحتها الى الخلف اثناء سيرتي على الضفاف.
..أسدل عباءة الجز الجديدة، تاركا مجالا واسعا لاطهار لمعة الصاية
الجديدة السوداء الانيقة..

..اضع على وجهي قناع رفعة الشيخ الجليل.. يغمرني الجذل.
امشي بخيلاء وجدية.. لا التفت يمينا او شمالا خوف ان يتبدل الهندام
الذي جهدت على ترتيبه.. انا على يقين من ان الانظار ترمقني
بإعجاب.. اكيد ان عددا من صبيّات الكوفة الحسان يتهامن ويتغامزن
بمروري.. لن التفت ولن أبين اهتمامي بهن.
..ها هو مدخل السوق يظهر وتصل اصوات بعض الباعة الجواله
الواقفين على جانبي المدخل.

.. المح الالوان الزاهية لبضائع تزدهم بها دكاكين السوق المسقف.
.. عباءات وعمائم ، .. عمراتٌ ملتفة، .. عقالاتٌ سوداء وبنية وبيضاء
مذهبةٌ مختلفة الطول والسُمْك، .. صايات ، .. جُئِب ، .. دشاديش
ملونة تنزاحم من بعيد داخل السوق، .. اناس يخرجون فرحين باحمالهم
ومشترياتهم.

..يزداد الضجيج وتعلو اصوات الباعة المنادين على بضائعهم..
يرتفع صوت منعم عن قرب:

“..أحمر!!..أسود!!..أسود..أحمر!!، جرب حظك!! أحمر اسود.“
..هذا المَلْعَب!!.. إلعَب تُغَلِب!!، احمر اسود..اسود أحمر والروبية
بروبيتين”

“الروبية بروبيتين.. الروبية بروبيتين!
تفضل شيخنا.. ربح حلال!”

اتمهل قليلا وانظر بحذر..أنحرف عن مسار الداخلين والخارجين من
السوق..
انظر من مبعده خطوات الى الطاولة الصغيرة التي يقف وراءها
المنادي.

..اراقب بحذر حركة يديه السريعة وهو يعرض الاوراق بوضوح.
..ورقتان بعلامات سوداء، وثالثة بعلامات مشابهة حمراء.

..يلقي بالاوراق الثلاثة الواحدة تلو الاخرى.
ارى بوضوح جازم الورقة بالعلامات الحمراء تتوسط السوداوتين .
اتنان من اللاعبين يتقدمان الى جوار الطاولة.. يشيران باصبعيهما الى
ظهر الورقة الوسطى..
يكشف الورقة المشار اليها..
يقفزان فرحاً.. " احمر! احمر "
يخرج صاحب الاوراق اربعة روبيات وينقدهما.
روبية! بروبيتين! يعلو صوته اثناء منحهما مكسبهما.
يشيران من جديد.. يا للحظ الجميل، يكسبان اربعة اخرى.
أعدّ بيني وبين نفسي مكسبهما الإجمالي..
..لقد كسب كل منهما عشرة روبيات!!
يغادران فيلتفت إليّ صاحب الورقات الثلاث.
" هذي هيه الدنيا..يوم غلب ويوم خسارة..الحمد لله ربنا كريم ..النه
رب كريم..تفضل شيخنا!..تعال مولانا!..حتى الخسارة وياك بركة..ايه
والله بركة! "
يحمّر وجه الشيخ الصبي..يتلفّت يمينا..يتلفّت يسارا، الكل منشغل
بتحفز بالدخول الى السوق او بالخروج منه محمّلاً بالبضائع
والمشتريات.. لا احد يلتفت صوبه.
" أتقدم بأناة وحذر..أقف امام الطاولة..أعيد النظر بوجل يمينا ويسارا
من جديد.. أضع يدي في جيب (الصاية) العميق..تصل اصابعي فتلمس
القطع المعدنية..ألمس اصغرها..أمسك بها..أخرج يدي ممسكة بنصف
(الروبية) بإحكام..أرفع بصري الى وجه الرجل امامي دون
هدف..أستمر في التحديق..الساحر يرمي باوراقه العجيبة الثلاث على
الطاولة..يجمعها..تطير من جديد وتحط في نفس الموقع..الحمراء دائما
في الوسط .

في المرة الثالثة أضع نصف (الروبية) بيد مرتجفة فوق ظهر الورقة
الوسطية الحمراء... يتسمر بصري بظهر الورقة والقطعة المعدنية
البرونزية فوقها.. تمتد يد الرجل امامه بهدوء وتكشف وجه الورقة !!
أختض من نشوة الإنفعال وأصرخ مكرراً بتلذذ حمراء! حمراء!
_ حظك قوي مثل إيمانك شيخنا!.

يقولها الرجل امامي مستسلماً وهو يضع قطعة مشابهة لقطعته المعدنية
على الطاولة.

..يتسمر بصري من جديد بالاوراق السحرية الثلاث.. يستمر
تحديقي.. تختفي معالم العوالم من حولي.. لا تبقى من معالم صاحب
اللعبة إلا اصابع نحيفة طويلة سمراء ترقص الورقات الملونة.. تحط
وتستقر الوريقات.

أضع نصف روبية فوق ظهر الورقة الوسطية..

- حمراء، حمراء !!

يحس بالدم يرتفع نافرا من اذنيه.. لاشيء في الدنيا مثل لذة الكسب
هذه.. لاشيء

" ساعود بثروة الى البيت.. سأز هو بغناي! "

- لا حظ عندي هذا اليوم مولانا. يصله صوت الرجل المتأسي وهو
يمد يده مانحاً نصف روبية اخرى.

..يتلاشى ضجيج السوق.. صدى الباعة.. وشوشة احاديث المارة.. صدى

عجلات العربات وحوافر خيولها.. لا يبقى الا رنينٌ مُنعم غريب:

..احمر!.. اسود!.. احمر اسود!.. اسود احمر.. احمر!

يتناهى الصوت اليّ منراً من أعالي سماوية بعيدة. يتردد صدى الكلمتين
من وراء الغيب في اذنيي.. يستمر تحديقه بالوريقات المتبدلة مواقعها..

الوان جميلة تتطاير وتتبدل في الفضاء امامي.. تحط وتستقر بمرح .

.. يضع نصفَي الروبية فوق ظهر الورقة .. " روبية كاملة.. سيكون

رحي روبيتين! "

- اسود! مو كل مرة إلك شيخنا.. فد مرة واحدة على الاقل اغلب آني
"لا عليك، سأعيد ربحي.. يبدو انني لم اركز جيدا هذه المرة.. سأضع

روبيتين "

- اسود!

..مرة اخرى

- أسود!

يزيح الشيخ الصبي عمامته جانبا ويمسح العرق المتصبب على جبهته.
- اسود!.. هاي شنو مولانا! ركز شيخنا، ركز! ورجع خسارتك.. هيه
كلة تركيز!.. شوف! شوف! هاي الحمرة!.. باوع زين!.. هاي
الحمرة.. هاي الحمرة!

تنطير الاوراق وتستقر، وتختلط الوانها امام البصر، الاحمر يستقر
دائما وبوضوح اوسط الاسودين .

يعلو من جديد صوت الرجل بتأسي:

- اسود شيخنا.. أسود!

"ضاع نصف المبلغ.. كلا لن اعود إلا ومعني كل البضائع
المطلوبة.. على الاقل معظمها.. الذريعة: ارتفاع الاسعار هذا اليوم في
الكوفة لكثرة الزوار.. لا احد يستطيع نفي يوم ماضي ولم يشهده احد
غيري "

يرفع الصبي عمامته بحركة ذاهلة ويضعها على الطاولة الصغيرة الى
جانب الوريقات.. يمسح وجهه المتعرق ورأسه ويأخذ نفسا عميقا:

" يا ربي خلصني.. دخيلك يا بو الحسنين، حتى وإن نصف المبلغ..
دخيلكم! "

"- ثلاث روبيات على الورقة الجانبية هذه المرة!

- أسود.. اسود شيخنا ! وبعد فترة صمت.. لا تكلي خلصت
فليساتي.. شيخنا ما معقول كللك خير وبركة مولانا!

يطأطأ الشيخ الصبي رأسه بذهول..يمسك نفسه عن ان ينخرط في موجة
بكاء اختنق بها حلقه..تتضرب رؤياه، تغيب كل المعالم..يستدير
كالمأخوذ عن الطاولة الصغيرة ويجر جر خطاه..

"- نسيت عمامتك شيخنا.. !

يرفع الشاب وراء المنضدة العمامة عن الطاولة وقدمها له.. يضع فيها
بضع عملات نحاسية صغيرة:

- هذي اجرة الطريق مولانا، ما اريدك تروح تدعي علينا عند ابو
الحسين.. الدنيا حظوظ شيخنا، يا اسود، يا ابيض..، يا احمر!

" أقف مطأطأ الراس امام والدي الذي يواهنني في باحة الدار وعن بعيد تتربع والذتي بمسبحتها الطويلة السوداء وهي تضرب فخذها وتنود ..وتلتمع في الزاوية البعيدة عينا اخي الكبير بمكر وسخرية يحار في تفجير غضبه بالشتائم، او امساك فهقهة ساخرة يداريها بإشفاق.

_ طيب آمنت بالله، وإنا الى الله وانا اليه راجعون.. لقد سُرقت

منك النقود في

زحمة السوق.. الاصح صرفتها والعلم عند الله اين!.. الروبيات واختفت!؟ لكن كيف تطاوعك نفسك يا لئيم بقص جيب بدلتك الثمينة الجديدة!؟

..قصوا لك جيبك في زحام السوق!! يرتفع الصوت ساخراً. "

كان في انتظارنا عند سلم الطائرة شاب سمح الوجه، حنطي اللون، بعينين عسليتين ضاحكتين، يرتدي بدلة سبورت ذات ياقة مفتوحة، يقف الى جانبه رجل مهيب الطلعة ممثليء الوجه مائل الى السمرة، برأس مرفوع يعلوه طربوش قاني الحمرة، يبتسم ابتسامة بها رزانة وكبرياء، ببدة عاتمة اللون ورباط عنق ووردة صغيرة تثبت فوق ياقته اليسرى.

قفز الشاب بوجه متهلل وعانق رافد بحرارة ثم مد يده مصافحا مليكة لينحني بعدها علي محتضنا:

- اكيد ان الطيران من بغداد لبيروت ومن ثم الى القاهرة كان مريحا..يا هلا يا هلا.. انا عدنان من السفارة العراقية، مرحبا بكم في القاهرة أم الدنيا!.. وملتفتا بمرح الى الرجل الوقور:
_أقدم لكم الأستاذ محمد سعيد بيه العريان.

تقدم ذو الطربوش الاحمر فمد يده، مصافحا بوجاهة، اخي واختي ثم انحنى بلطف ومودة علي محتضنا:

- ده الشيطان الصغير هو صفاء وانت رافد ودي الست الاميرة مليكة..يا مرحبا بكم بمصر، زي ما آل عدنان " أم الدنيا " ..

..انا من طرف الباشا..الباشا طه حسين الله يطول عمره يبعث ليكو كل تمنياته.. اقامة سعيدة في ضيافة بلدكو مصر. دراستكو ههه، مُش حنسييكو لحد ما تخلصوا وتاخذو الشهادة الكبيرة - من الجامعة هنا.

لم افهم كل ما كان يقوله في حينه إلا انه مع الحديث بدأت تختفي من على وجهه علائم الرسمية و البهوية، ليحل محلها علائم مرحلة - بتحفظ -، واسترسل مع الجميع في حديث شيق كان يوزعه بعدالة بيننا نحن الثلاثة، مع التفاتات ودودة الى الشاب الوسيم عدنان.

وبعد جلسة لنصف ساعة في مقهى انيق داخل المطار دعانا فيه الى تناول الشاي، مع قطعة كاتوه، خصوصي لي:

- دنت كأي من عند شهر زاد مش كده يا واد.. دانته آخر حلاوه والله ..
احلى من جنة الكاتوه ديته!

لم يطل مقامه بيننا ونهض فجأة بابتسامة اعتذار:

- دانا مقدرش على فراء الباشا اكثر من كده.. ويمكن هو كمان.. اشوف
وشكؤ بخير. ثم التفت الى عدنان.. مش حاوصيك دُول أمانة لحد
متوصلهم مدرستهم وسكنهم، ثم مستدركاً:

..الله ده أنه كنت حانسه!! " ثم اخرج من جيب سترته الداخلي اربعة
مضاريف .

سلم المضاريف لرافد:

- دول هدية سلامة الوصول بعثها والدكو الباشا الدكتور.. ده في
مقام والدكو ولا ايه؟! - ومحتضنا اياي .. بنقول ايه يا شيطان يا
صغير؟! ثم توجه بالحديث الى عدنان:

- ودول توصلهم لناظر ثانوية الخديوي توفيق في حلوان والأبله
منيرة ناظرة اعدادية حلوان للبنات!.. دا أبله منيرة سكر معسل
حاحبها يا ستي والله.. سلم رسالتين لعدنان.

كان الجميع نياماً وأنا أطلّ من شرفة شقة عدنان الانيقة في حي الزمالك، ..مقهى الزمالك يفتح ابوابه، وفتى اسمر بمريّلة بيضاء يتحرك بسرعة، مرتباً كراسٍ وموائد خيزران على الرصيف امام المقهى الواسع، في الداخل تتلامع من بعيد اباريق الشاي المعدنية والخزفية وراء منصة كبيرة مع الوان واحجام مختلفة من الاقداح والصحون.

..مطعم صغير يجلس بعض رواده يتناولون افطارهم على بضعة موائد منثورة امامهم.. واجهة مخزن لمواد استهلاكية مرتب بعضها في واجهة انيقة.. بعض السابلة.. بضعة سيارات صغيرة تمرق في اتجاهين.. احدهم يرفع صوته من داخل المقهى

- يا واؤ ما تُخَلِّي عندك دم وتتحرك شوية.. وشوف عندك الزباين الجايين.. ما تتحرك يا رزل!

.. حديقة صغيرة عامة تحت الشرفة خالية الا من كلب راقد في احد زواياها وبضعة عسافير تنتنط جذلة من شجرة لآخرى.

اسمع مفتاح الشقة يتك، التفت الى الصالة، يفتح الباب بحذر وتدخل صبية دون العشرينات من العمر بملبس انيق متواضع ووجه جميل التقاطيع.

- صباح الخير.. دَ نتو وصِلتو إمبراح مش كده؟ تتقدم مني على مهلها.. عدنان لسه نائم دا ما يحبس حَدْ يُصحيةً بكيز يوم الجمعة.. إنتَ إسمك إيه يا صاحبي؟

بعد حوار قصير توجهت هي الى المطبخ وتبعثها وتناهي الي عطر شفيف، تأملتُها من الخلف.. رشيقة، معتدلة الطول بشعر كستنائي معقوف الى الاعلى

..بدأت تجمع الصحون والاقداح المتروكة من الليلة الفائتة لتضعها في حوض (السينك)

- ساخرج قليلا للتنزه.. نصف ساعة او بعض.

- حاسبٌ ما تتأخرشٌ على الفطار، دنا حاعمك حنت فطار
مخصوص..أوعه تتوه، متروخش بعيد، ده مصر بتضيع.

لم يكن شاطيء النيل بعيدا..يا إلهي يا للجمال والاناقة التي لا
تضاهى..يا لركة الهواء المُعطر بخضرة الجزيرة القريبة!
..انا في جنائن السندباد..مسكين السندباد لم اقرأ عنه في رحلاته انه
عاش في القاهرة..انت مسكين يا صديقي انا اكثر حظا منك.. هيه!!
.. انطلقتُ صارخا وانا ارفع صوتي وذراعي على علوهما " انا
سندباد جديد..انا صفاء..انا سعيد.. انا سندباد جديد سعيد ..هيببيبي
هووو هيببيبي!!"

فتحتُ الباب بابتسامة
- " كويس..ذانت راجل بصحيح ياسيدي وما توهتش! "
وعادت على عجل الى المطبخ
..توجهت انا الى الشرفة.
لم يكن هنالك صوت يسمع في المطبخ قبل ان يرتفع همس " حاسبٌ دا
الواد مُش صغير وفاهم كل حاجة!!.."
صمتٌ جديد.. "وبعدين معاك!!.."
" .. ويا بهيه وخبريني يا بُوي علي كتل ياسين.."
ارتفع صوت رجولي مرح يغني من المطبخ.
" انا عطشان؟!.. طبعا عطشان واريد قدح ماء.. والماء والقدح في
المطبخ..نعم طبعا عطشان بعد جولة الصباح المثيرة على النيل "
.. توجهت بحذر الى المطبخ.

..كانت هي وراء حوض (السنك) تمسك باسترخاء بصحن يكاد يتهاوى
من يدها وعيناها مغمضتان وعدنان يلتصق وراءها محتضناً بوجه
مبتسم يتشمم عطر شعرها الذي انسدل.
..غزل مَرَح؟!..مَرَح على هيئة غزل؟!..مَرَح ومَرَح؟!
يبدو انه احس بوجودي عن قرب..التفت بهدوء وهو يكاد لا يغير
وضعه..

_ صباح الخير.. هذه بهية ! وابتعد عنها مغنيا بصوت اعلى "ويا
بهية وخبريني يا بوي عن لي كتل ياسين؟! " ..صمت ومن جديد "
كتلته السود عينيها من فوء ظهر الهجين.. "
..كم جميلة هي مصر.. كم سعيد انا بأم الدنيا!!
..محطة (بولاق).. اخرج من مقصورة في عربة الدرجة الاولى الى
رواق العربية... (المَقَطِّم).. (طُرّه).. (بورتلاند) ..رافعات
عملاقة.. عربات محملة بالاسمنت تسبح في الاعالي عبر اسلاك تصلها
بالجبل.. سكك وعربات نقل دائبة الحركة.. مباني لمصانع اخرى.. لوحة
اعلان جميلة ضخمة تكاد تسد الافق بقنينة ضخمة وقدرح بسائل ذهبي
لامع ذو رغوة (ستيلا..بيرتك المفضلة!!).. ريف هاديء ينبسط عبر
الواح التلغراف المتسارعة الى الورااء بانتظام وبلحن عذب.. تر
طورق، ترطورق ترطورق..طورق طورق ترق طورق.. وتهتز
عربات القطار..خضرة تَرَّف وتتموج مع الحان حركته، نخيل
يعبرمتراكضا راقصا كالحلم في زرقة ضبابية شفاقة،..طرق ن
طرق..طرق ن ن طرق طرق ننتنن..اعود الى المقصورة.. نحن
نتوقف عند محطة (شبين الكوم).
تستمر تلال المقَطِّم بالمرور المضرب تقطعها اعمدة الكهرباء المنطبعة
فوقها..

" ضفاف دجلة..صخب شلة" أهل الدروب " على شواطئها الرملية في ..اشباح النخيل المتمواج ..ملامح وحركات الوالد القلقة المتعبة ثم الثائرة وهو يدور في قاعة المغادرة..شبح (الحياة -ام عزيز)، العجوز الضامر،ملتفعا بالصاية والشيلة والعيون الكليلة المغرورقة بالدموع: " شلون ينطيك كلبك تشمرهم بديار الغربية " .. " .."

..نعبر تلال المقطم المضبية بالدمع..تقطعها اعمدة الكهرباء المنطبعة فوقها والمارة بسرعة اكبر..تصرّ العجلات طويلاً..تنقطع تراكبات الصور..

محطة .. (حلوان العين)..لوحة إعلان كبيرة تخفي وراءها كل المعالم..رمال تزحف..تتسارع الى الخلف..اعمدة الكهرباء تقطعها وتمرق بسرعة اكبر فوق صفحاتها.

" .. نتسابق سباحة سريعة في مياه دجلة الرائقة..نقفز على الشاطيء الرملي عند الجانب الآخر..نملأ سراويلنا المشدودة من اسفلها على أفخاذنا، بالقئاء المنطرح بين خضرة الاوراق والعروق الزاحفة.." ولكم يا اولاد القحبة.." يتعقبنا الصوت المزمجر ويقترّب..نفرّ ضاحكين ونوميء مناكدين بأذرعنا صوب الفلاح المقترّب..نقفز الى مياه دجلة ونسبح باتجاه ضفتنا..تنتفخ سراويلنا وتطفو على عجيزاتنا وتتلاطم فوقها القئاءات المسروقة. "

..تصرّ عجلات القطار من جديد.. الابنية المارة تتباطأ..

- (حلوان البلد)..ها قد وصلنا..تعال وساعدني في انزال الحقائب !!

الإنتفاضة

تفرق المتظاهرون امام طلاقات البنادق ولجأ كل جمع منهم الى الشوارع الفرعية

والأزقة الضيقة على جانبي شارع الكفاح. كان الرصاص ينطلق من نوافذ مركز الشرطة الكائن في ركن الزقاق المقابل لمقبرة الشيخ عمر وهو عبارة عن بيت قديم بطابقين وبنوافذ واعمدة خشبية قد حالت الوانها.

..اقررت الازقة وجانبي الشارع القريبة من المركز..

..اضحت المهمة ضجيجا حين سكتت الاطلاقات النارية..

..تعالى هتاف واضح الكلمات على الضجيج وخرجت لافتة يحملها متظاهران وهم يكررون الهتاف..

..خرجت مجاميع صغيرة بحذر وراء اللافتة، وقفزت تجمعات صغيرة اخرى بحماس وعنفوان.

انطلقت من جديد رصاصة من احدى نوافذ المركز..

..هرع البعض لاجئين الى الفروع والازقة الجانبية، على حين تنادى الباقون مناشدين على الثبات واستمرار سير التظاهرة.

..دوّت عدة اطلاقات..طويت لافتات وانسحبت اخرى..

خلا الشارع من جديد إلا من جسد يتلوى.. بدأ بمدّ يده بضعف، مستجيرا بمن يراه من اولئك المتراحمين في الأزقة.

..ركض احدهم تجاهه محاولا نجدته فدوّت اطلاقتان..

..ترجع.. تواصلت طلقات منفردة.

..زحف الجريح المتلوى..وصل الى حافة الرصيف..تسلقه بصعوبة، تاركا خلفه على الاسفلت وحافة الرصيف بُرُكاً صغيرة من الدماء وبقعا

عائمة..خرج إثنان من الزقاق مسرعين وبراسين منخفضين..سحباه من ذراعيه.

..عادت الاطلاقات ترن من جديد..

..التّم حول الجريح جمع من الناس دسّ ادهم قميصه فوق مكان الجرح النازف.

خف وتباعد تردد الطلقات.

..ارتفعت لافقات بحذر.

.. اصوات طلقات جديدة.

..تفرق البعض وواصل جمع آخر سيرهم الحذر..

هنالك من يظهر على السطح المجاور المشرف على مركز الشرطة..يدلق صفيحة من النفط.

..يدلق صفيحة اخرى ويرمي خرقة كبيرة ملتهبة..ترتفع نار بدخان كثيف وشرر.

..يُسمع ازيز الخشب المحترق.

يهلل ويموج حشد المتظاهرين

..يتقدمون بعزم تجاه مركز الشرطة.

..تنطلق اصوات اطلاقات مدممة منفردة ومتواصلة..يسقط اثنان

.. يظهر شرطي بملابس ميدان كاملة، بأحزمة رصاص تغطي الصدر والخصر، خوذة عسكرية حديدية، وبسطالين ضخمين.

..يواصل اطلاقاته اوسط الشارع.

..يهرع من تبقى الى الازقة الفرعية.

..يخرج من المركز احد الشرطة مختنقا بسعاله..يركض فزعا الى زقاق مجاور ويختفي في احد البيوت.

..يواصل الشرطي بملابس الميدان نزوله على إحدى ركبتيه واطلاقاته المنفردة المتواترة.

..يتسلق بضعة انفار سياج المقبرة.

..تترامى احجار منتزعة من القبور الخربة فتصيب احدها خوذة الشرطي.

..يفقد الشرطي توازنه..تسقط بندقيته الى جانبه.

..يندفع كثيرون من الازقة وهم يصرخون ويهللون مشجعين بقية الحشد.

..يتحامل الشرطي على نفسه..يركض..يدخل احد الابواب الضيقة المشرعة والمطلّة على الشارع.

..يرتقي السلام الخربة منها.. يتعثرو وينزلق.. يعود ليرتقيها بارتباك.

..تفاح مجموعة منهم في الارتقاء وسط صخب الاصوات المشجعة والفرحة.

- صيدوه ها ال ابن القحبة !

- كتلوه ها الخايس !

- اجاك الموت وين تولى؟!!

- ياالله اخوتي! ياالله كتطعوه واشمروه للجلاب!!

وتواصل الصراخ والضجيج والتنادي والقهقات والشتائم.

.. رُميت الى الشارع الخوذة الحديدية، تلاها الحذاء العسكري الضخم.

..خرج احدهم يلوح ببندقية الشرطي عاليا فوق رأسه.

.. يُرمى بالجسد المهشم الرأس بملابسه العسكرية المدماة الى ارض الرصيف.

..سقط ككيس لم يحكم حشوه..دمية قماش قديمة كبيرة..

- الله أكبر..الله أكبر !

وبدأت اقدام المتراكمين المتزاحمين على حيازة السبق في دهس وركل الجثة..

- حَبِلْ..حَبِلْ! ياالله اخوتي دبروا حَبِلْ!!

سُحِّلَ الجسد شبع العاري.

.. إرتدى احدهم سترته الصوفية الخضراء الدامية.. إرتدى آخر فَرِحاً
بنطاله.. ثالث دبك ببسطاله الضخم القديم.

.. واصلت الحشود مسيرتها الصاخبة بالهتاف وتكررت كلمات الهتافات
باصوات ورجع مختلف النبرة

.. " يسقط.." "يعيش نضال الـ.." " الموت للـ.." " وطن حُرُّ
و.." " تسقط حكومة الـ.." " الدكتاتورية البغيضة.." " الديقراطية
والـ.."

..بدأ ضوء النهار انسحابه.. لا زالت المسيرة تتواصل والجسد المهشم
يترك سوائل وردية متسخة وراءه.

..بدأت مناوشات كلامية بين متظاهرين في الصفوف الامامية .. تباطأت
المسيرة ثم توقفت .. تحولت المناوشات الى تماسك بالايدي وشتائم.
لمن تعود ملكية بندقية الشرطي المسحول؟!
.. واصلت المسيرة تقدمها.

.. ارتفعت اصوات مطالبة بحرق الجثة.
.. ألفتُ الجثة المشوهة بحصيرة أخذت من احد تخوت مقهي فارغ.
.. صببت كمية وافرة من الكيروسين فوق الحصيرة الملفوفة.
.. تعالى اللهب وانتشرت رائحه اللحم المحترق..

تحولت هتافات المتظاهرين من شكلها الناقم والعدائي الى ضجيج وصخب ومسيرة فرح لا نظام لها وتبدلت الهتافات الى " عاشت وحدة الجيش والشعب.."، " الجيش سند الجماهير.."، " الكادح والجندي في صف واحد.. " ..

كانت الدبابات قد نزلت الى الشوارع الرئيسية، بعد ان أعلن عبر بيانات الاذاعة عن سقوط الوزارة واعلان الاحكام العرفية وتشكيل حكومة عسكرية برئاسة نور الدين محمود .

.. المظاهرة الرئيسية قد وصلت الى الباب الشرقي.. اطفئت فجأة جميع انوار الشوارع.

سكنت الهتافات للحظات وارتفعت مكانها همهمة عالية، لتعود النداءات الداعية الى انتظام المسيرة والحث على تواصلها.

..تسلق البعض ظهور الدبابات معانقين الضباط البارزة انصاف اجسادهم من بوابة الدبابات المشرعة، بملابس الميدان والثابتين في مواضعهم بهدوء وصمت...أخرج احد الضباط منهم برتبة رئيس جسده كاملا، وقف فوق ظهر احدى الدبابات الامامية .. رفع صوته فضاغ بين هتافات المتظاهرين.

.. خرج جنديه المساعد ليقف معه.. أطلق صوت صفارته عدة مرات.. هددت الاصوات اخيرا.

- اخواني تفرقوا وعودوا الى بيوتكم .. دعونا نقوم نحن بما انتم تطالبون به.. هيا يا إخوان تفرقوا على مهل واسلكو الازقة الجانبية المؤدية الى بيوتكم..ياالله يا شباب تحركوا!..

علت همهمة من الحشد الملتف حول الدبابة.. وتردد هتاف من احدهم.. - عاشت وحدة الجيش والشعب!
..ردد حشد كبير الهتاف.

..عادت صافرة الجندي ترتفع ويعود معها هدوء الحشد من جديد.

- تفرقوا يا شباب.. تفرقوا دون ان تلجئونا الى المجابهة.. تفرقوا حالا .. انها الاحكام العرفية! ومنع التجول.. تفرقوا!
ازدادت لهجة الضابط جدية لتتحول الى نبرة عالية متنوعة.
..بدأت هممة المتظاهرين تعلو وبحذر من جديد وعاد احدهم ليهتف..
مع ترجيع المتظاهرين للهتاف لمعت عاليا فوق الرؤوس خطوط نارية
وامضة حمراء بذيول صفراء متلاشية، اعقبها هدير متقطع لاصوات
طلقات تاركة بعدها دمدمات وأصداء ذات رنين معدني صافر.
وجدت نفسي مع الكثرة ممن حولي قاعيا ومنحنيا بجسدي الى الامام.
نهضت وانا أحس بأن صدى الرنين ينتشر ويهز كل اعضاءي..
..نهض آخرون.

..أجيل النظر فأرى شتات الجموع تتفرق في مساحات من الشارع
وعلى الارصفة.. قسم غير قليل قد وجد نفسه في الزقاق الملتوي
المجاور لسينما ديانا .
..صوت هتاف مرتجف!

قبل ان يضيع آخر صوت في العتمة تبرق فوق الرؤوس من جديد
خيوط النار الحمراء بذيولها المصفرة المتلاشية بأعداد أكثر من
سابقها، يعقبها دفق ناري فتختلط الاصوات المدممة والصفير الحاد
المتواصل بخيوط النار المتلامعة.

.. اجد نفسي وآخرين نتراكض دون ادراك عبر الزقاق الملتوي الاظلم..
..أصل الى أزقة المربعة.. اعبر الى أزقة خاوية اخرى.. اتجاوز
اسواق الشورجة المقفرة.

.اواصل سيرني في دروب ضيقة ليست غريبة علي.. يزداد عطن
رائحة الجدران المشبعة بالبول، اعرف اني اسير بالطريق الصحيح.
.. هذه هي دروب الحيدرخانة .

.. أسرع بحذر واعبر ساحة الميدان المقفرة، خوف ان يكتشف مسراي
افراد شرطة الشعبة الخاصة القريبة .

.. " رأسه ينحدر الى الخلف من على نقالة - سدية - شعبة الطب العدلي
القدرة..

عيناه جاحظتان ووجهه رمادي ضارب الى الصفرة.
..كنا قد افلحنا بزخم الجمع الهائل وزعيقنا الفوضوي وهتافاتنا العدائية
على تسلّم جثة واحدة من قتلى تظاهرات اليوم الاول.."
" عرفنا من مضمد الطب العدلي الذي سلمنا الجثة ان أسم القتيل هو
كمال عبد اللطيف ..عامل من عمال ورش اصلاح السيارات في شارع
الشيخ عمر.

.. وضعنا عليه أكاليل كانت قد أعدت سلفا من أولئك الذي كانوا
يخططون وينسقون لتظاهرات اليوم الثاني .

.. ر فعت لافقات تحمل حروفا حمراء.. المجد والخلود لشهداء
الانتفاضة .. المجد لارواح الشهداء والموت للمجرمين الطغاة .. أتعلم
أم انت لا تعلم ..بأن جراح الضحايا فم .. (....) .. (.. ..).

.. مشى الحشد في نفس طريق اليوم الاول السابق.

.. تزايد عدد المتظاهرين بشكل ملحوظ في منطقة الفضل ..

"..اغلقت بقية المحلات والمقاهي المشرفة على الشارع على عجل.

..تكاثر عدد النسوة النائحات المولولات من وراء عبااتهن..

.. " اويلي على كُلب أمك " ..، " شوفوو المسكين بعزّ شبابه .. " ..،

" ييوووو على كُلب اللي خُلفتك "

.. هلهلتُ احدى النسوة..فترددة زغاريد الاخريات..اعقبها صيحة "
ييووووووووه " طويلة مكررة.

ازداد حماس الحشد السائر وتأرجحت عينا الرأس المتهدل الجاحظة
وجابهتني بنظرات متسائلة كسيرة..

.. تباطأت في السير.

خَفَّت حملقت الحدقتين المرعوبتين في عينيّ . "

" عند الفرع المؤدي الى ساحة الرصافي، دَوّت اصوات اعيرة نارية واضطرب سيل الحشد المزمجر.
.. سقطت الاكالييل عن الجثة المحمولة..تهاوى الجسد نفسه من فوق الحاملة.
.. سحب الجسد من بين التجمعات المتضاربة الاتجاه.
اودع الجسد داخل مقهى فارغ نصف مغلق ".

"..كان هنالك شخص بملابس العمال يتلوى ويتخبط بدمائه وسط الشارع الذي اصبح لا يحوي الا فلولا تائهة.
بتوقف الاطلاقات عادت التجمعات تنتظم مسيرتها في الشارع، ورُفعت اللافتات امامها وعلت الهتافات من جديد..
.. وضع الجسد المتلوي النازف فوق احد تخوت المقاهي..حُمِل فوق اكتاف الحشد الصاخب."
" حوّل الحشد مسيرته باتجاه ساحة الرصافي ليلتقي بالتظاهرة الاخرى السائرة في شارع الرشيد.
.. بدأت تسيل من التخت دقات دموية."
" .. الجريح يمد يده الى الجمع الصاخب تحته.. يفتح فمه.. يضيع صوته الواهن.. اتخيل اني اسمع صوته الضائع:
- ياهللُ الرَّحَم نزلوني.. وقفوا نزيفي. أسعفوني.. المستشفى يا أهل الرحم!.. راح أموت من العطش!.. قطرةٌ مُيَّ يا هللُ الرَّحَم "
.. يضيع صوت الجريح المناشد بين " يسقط!.. يعيش!.. يسقط..
اصوات اطلاقات صادرة من شارع الرشيد وتسمع من بعيد معها اصوات سيارات الاسعاف الناعبة.
..تقترب سيارة اسعاف امام الركب السائر.. يحاول ممرضو الاسعاف استلام الجريح من المسيرة العابرة صوب شارع الرشيد..
يحاول حاملوا التخت الدامي ان يتحاشوهم وقد زاد حماسهم في الهتاف.

..يمد الجريح الواهن يده صوب سيارة الاسعاف القريبة و..يفتح فمه..يضيع الصوت..يحاول ان يرمي بجسده المنقوع بالدماء الى الارض.

يقف ثلاثة رجال بمعية احد مضمدي سيارة الاسعاف متصددين بحزم لحاملي التخت المرفوع ويجبروهم على انزاله ووضع على الارض. يرفع الرجال الثلاثة الجسد المتراخي ويبدو أن الجريح قد فقد وعيه.. يدخلوه اخيرا سيارة الاسعاف..اتنفس الصعداء. " يتوقف لفترة شريط احداث اليوم السابق .

..أواصل السير الآن، وبهدوء اكثر، في ازقة محلة الطوبجي .. البيوت هنا أكبر وأكثر نظافة وهيبة.. ابواب كثيرة مشرعة يقف امامها مجاميع من الشباب وبعض الصغار.. البعض منهم يحمل خبزا والاخر يحمل دوارق ماء او اقداح لبن..اشرب شاكرا قحدا.

يعرض علي ادهم المبيت في احد الدور حتى الصباح تحسبا لوقوعي في يد السلطات العرفية ..اعتذر شاكرا واواصل سيرى.. " لو حثنت سيرى المتخفي، فقد أصل بعد ساعتين الى بيتنا في الاعظمية " .

..أفاجأ أمام بوابة أحد البيوت المشرعة بأصدقاء ثلاثة، باسل وجاسم (تصنيف)، ذلك اللقب الذي أُلصق به ظلما لانه مغرم بالغناء وينتهز أية فرصة ضئيلة ليرفع صوته الجميل وفي اي مكان واية مناسبة، غير مبال بققشات من معه من اصحابه المناكدين..

يقف الى جانبهما، صديقنا الهادي ابراهيم (ابن الهايشه الحلوب)..كانت امه سميحة كبيرة الاثناء.

لباسل غرفة خاصة مؤثثة بسرير عريض، ودولاب ملابس واسع، وكنبة فخمة، وعدة مقاعد لضيوفه.

..على طاولته الخشبية الدائرية الانيقة مجالات رياضية، واخرى لمغامرات الوطواط، والرجل الخفي، ونساء الامازون المحاربات..

هنالك البومات عديدة بالوان مختلفة، لمجاميع طوابعه التي كان يتكلف شرائها مبالغ تكفي لسنين من مصروفاتي الجيبية الاسبوعية المقننة باعتدال.

..انه الابن الوحيد لابييه الشخص المرموق الميسور الاحوال.

- .." مصطفى على ثروة ! رجل علم وادب ومرب فاضل ونزيه "، كان ذلك هو تعقيب والدي على التحية المرسله معي من صديقه القديم اثناء احدى زياراتي لباسل في دارهم القديمة في الطوبجي آنذاك. اطلّ علينا الوجه الطيب الممتليء بابتسامة وقورة من باب الغرفة الموارب

_ سلامات ابني صفاء!..اكيد ان والدك قلق عليك في هذه

الليالي المتعبة

الخطرة..لنا قول اكثر من انكم جيل جديد من المراهقين، لا تحسون حسابا لا لمستقبلكم ولا لعذاب اهاليكم.. تعتبرون كل شئ في الحياة مغامرة مثيرة، لكنكم تنسون ان المغامرة لن تكون مغامرة ما لم تحمل عواقبها الخطرة والقاتلة احيانا.

.. كان في صوته ملامه مهذبة هادئه ثم متسائلا :

- هل اتصلت بالاهل لتعلمهم بمكان وجودك؟!..تعال معي واتصل بهم الآن وطمأنهم انك باقٍ معنا حتى صبيحة الغد.

..أطلعتُ من رفع سماعة التلفون في بيتنا بمكاني..كان قلقهم مضاعفا..

.. " الآن قد زال نصف قلقهم..حسنا فعلت " .

طرقت الباب عند الفجر..تغيب الوالد عن الدار..

.. بعد يومين على اعلان الاحكام العرفية، وصلتنا اشارة من المختار بأن نستعد لكبسة يحتمل ان يلقى القبض فيها عليّ وعلى مليكة بغياب الوالد ورافد.

كانت الكبسات تلك تتم عند منتصف الليل او بعده، لذا كان علينا ان نتهياً انا والاخت الكبيرة مليكة على الهروب عند حلول الظلام. الخروج من دارنا مروراً بالزقاق الطويل من محلة الحارة في الاعظمية، والذي ينتهي بمقهى الحارة، حيث يتربع فيها اكثر من مخبر سرّي، مخاطرة غير مأمونة العواقب.

.. اهتديت الى فكرة للخلاص!

لبيت المجاور الخالي من اصحابه اغلب الاوقات والذي يشترك معنا في الاطلالة على دجلة في شرفة تكاد تكون لصيقة لشرفتنا، بابه الرئيسية تفضي الى زقاق ينتهي بمنطقة هادئة خالية من المقاهي والاسواق وقريبة من جسر الكاظمية المتحرك - الممدود على طوافات عائمة.

أشرت الى مليكة بالخطأ، ورغم هلعها والاعتراض الباكي للخالتين من مخاطر التشعبط والنطنطة فوق مرتفع من مياه دجلة، فقد نفذ العبور الى الشرفة المجاورة تحت سيل من الادعية الحارة اليائسة والابصار المرعوبة للمرأتين.

لم يكن مكان الهروب والاختفاء سوى بيوتات (صاحب العلى) في النجف.. واولها دار ام عزيز جدتنا .

عُظلت المدارس بأمر من الحاكم العسكري العام، ومرت ايام الهروب والتخفي وعدنا من النجف لنجد أن الدار لاتزال خالية من المهدي.. تم اعتقاله مع رؤوساء الاحزاب والصحف المعارضة ومجموعة مستقلة .

صبيحة اليوم الاول لعودة الدراسة، كنت سارحا في افكار وخيالات تزدهم علي كلما انفردت بنفسي وانا امشي ببطيء المترنح المعهود عند الصباح.

.. صاحبني فجأة في مسيرتي ظلان ضخمان.

.. خيم احدهما على بوجهه وهو ينحني.

- " يمكن تتفضل وانا للشعبة "

كان الصوت الخشن الأمر بخفوت آتٍ من وجه برز من الظل الاضخم.. الوجه حاد الملامح يطل علي من اعاليه بشعره الاسود ذو الخصلة المنسدلة على الجبين.. العينان مزورتان وملامح الوجه حادة وبشاربين غير كثين.

كانا كلاهما ببديلين بيضاوين انيقتين..

..أخذنا يسيران الى جانبي بهدوء ونحن نتجاوز بوابة مدرستي، الاعدادية المركزية.

.. لمحنا بعض من الطلاب الموشكين على دخول البوابة الحديدية الضخمة السوداء المشرعة..

حين تجاوزنا البوابة وقف البعض منهم متأملين المنظر الغريب:

(امشي انا بهدوء ودون تعبير منشغلا بتصوراتي الجديدة ودون أن التفت صوب المدرسة، ويمشي على جانبي عملاقان بملابس بيضاء متشابهة متجانسة).

لم تدم حيرة المتفرجين من طلاب الاعدادية المركزية طويلا، حين تذكروا أن مركز التحقيقات - الشعبة الخاصة- لا يبعد إلا بضع خطوات عن اسوار المدرسة .

تم تفقيشي..دوّنت كل المعلومات التي كان البعض منها يستدعي تأملا او تفكيرا مواربا قبل الاجابة.. بعض الاسئلة كنت حقا لا اعرف اجاباتها.. غالبا ما كانت الصفعات التي اتلقاها تجد مفعولها، في استقامة وقفتي وأن اجيب حتى على الاسئلة التي لا اعرف اجاباتها الصحيحة.

..تجاوزنا الزنزانة الاولى، ثم الثانية.. الزنزانة الثالثة الطويلة الكابية الضياء والتي دُفعت الى داخلها كان بين العدد الكبير من الرجال من نزلئها، وجه واحد فقط غير غريب عني.. قابلني بأبتسامة.. عرفته بعد برهة وبعد أن اعتادت عيناى على ضوء الزنزانة الكابي.

- " هَلَلْ..هَلَهْلْ هل هَلَلَا..مى مى مى مِمِمِئْتْ هَلَا..مىت هَلَا "

لم يكن ذلك الصوت المتأثأ إلا صوت وجدي شوكت أحد قاطني محلتنا.

..باءت محاولات وجدي في الأشهر الاخيرة الفاتته بالفشل في اقناعي بالانضمام الى اتحاد الطلبة رغم ترغيبى بأن أبعث الى مهرجان الشبيبة في برلين.

هَبَّ وجدي من مكانه في آخر الزنزانة ليتقدم ويعانقني بحرارة.. هذا صفففففاء اببين الممهدي.

سرت هممة ترحيب بين المجموعة المسترخية على الارض.. كانت الزنزانات الثلاث تشرف على ممر كونكريتي واحد، ضيق، يعلوه جدار حجري عال متسخ .

..الزنزانة الاولى، كانت للموقوفين في قضايا اخلاقية وجنح..لصوص ولوطيون وقوادون من القطع الصغير متورطون في عراكات غير خطيرة..معظمهم في اسمال او ملابس رثة، بينهم اطفال، البعض منهم لانتجاوز اعمارهم العاشرة.

..كانت هذه الزنزانة، صامتة في النهار، مع خليط من شتائم وموالات متقاطعة الاصوات في اول الليل.

.. بعد منتصف الليل تصل الينا منها، اصوات ضعيفة، لاستنجات مولولة للصغار، قد يعقبها صرخات ألم قصيرة سرعان ما تنكتم. ..يعود الهدوء الى الزنزانة فور سماع صرير البوابة الحديدية المقابلة والمفضي الى المركز الاداري.

- " لك تاليها وياكم اولاد القحبة .. سَوا شُما تَرُدون بسْ بلا فضايح وهوسه ومشاكل " يزَعق (ابو اسماعيل)، احد الشرطة الخفر، مادا رأسه عبر البوابة الضخمة المواربة متوَعِّداً .

..ينتظر ابو اسماعيل متتصناً برهة قبل ان يعيد غلق البوابة التي يمتزج صريرها بشتائمه المتلاشية.

.. لا أحد يأتي لزيارة هذه الزنزانة لا صباحا ولا حتى في المساء.. لا احد منهم ينادي على ابو اسماعيل في المساء، ليجلب له علبة سكاثر او بضعة ارغفة من الخبز من السوق المجاور.. مشفوعة ب درهم كامل.. " واشر " ..

نزلاء هذه الزنزانة يأتي دورهم في الوجبة الثالثة والاخيرة عند الذهاب الى المرافق في النوبة الصباحية والمسائية.

- " ياللا ما خلصت خريتك .. يا ابن القحبة!!..بشلون لو جنيث ماكيل باجه لو لحم قوزي..ياله نزلها وفضنا " .

كان صوت ابواسماعيل يصل الينا مزجرا باقبح الشتائم من المرافق القريبة، الملحقة بالممر، مُستعجلاً نزلاء الزنزانة الاولى في قضاء حاجتهم.

.. الزنزانة الثانية نزلها اكثر وجاهة من الجميع فمعظمهم بصايات
واشمغة او عقالات وعباءات جز انيقة.

..قتلة وشقاوات - قُتوات - لهم صيِّتٌ وسمعة!.. لصوص محترفون
مرحون..افراد مدانون بجرائم غسل العار لهم هيبية ومقام رفيع..
قوادون من طراز بارز تأخروا في دفع الحصص - المقسومة -
لكبارات رجال الشرطة.

كل هذه المجموعة قد تمت ادانتهم وحكم عليهم، وهم في انتظار تكملة
اوراق محكومياتهم لتتم احالتهم الى السجون المقررة المتفرقة.

..الزنزانة رقم ٢ هذه هادئة اثناء النهار..تسمع منها في الليالي صوت
عتابة جنوبية شجية، مصحوبة باستحسان جماعي، او أ صوات
وهمهمات يعقبها صوت احدهم متسائلا بحيرة: " من ها الكف..لو من
ها الكف..لو ها الكف؟ " ..او أمراً " هاي الأبيد تكعد..والايد هاي تكعد
..والأبيد هاي.. " ..ثم صرخة أمرة بنبرة أعلى: " ..جيبها من ها الأبيد
" تعقبها صرخات استحسان .

تُنظّم لنزلاء الزنزانة رقم ٢ في الصباح، بل وحتى في المساء، زيارات
خاصة وازفافية تتم من وراء القضبان، يحمل اصحابها من الزائرين،
امتعة وزناييل محملة بالاطعمة وعلباً وصرر.

.. يقوم جيراننا هؤلاء باحالة واحدة من تلك الزناييل على الاقل يوميا
الى الزنزانة الثالثة - زنزانتنا - مع عبارة متعارف لزائريهم :

- " حوّلوها لهلّ الشباب النشامي.. هذوله يستاهلون! "
في اواخر الليل تهدأ هذه الزنزانة تماما.

.. دورهم هو الأول في وجبة المرافق الصباحية :

- " على راحتك اخويا على راحتك لا تستعجل..اللي بعدك
يكدرينتظر! " ، يتردد صوت ابو اسماعيل بوّد مطمئنا من وراء باب
المرحاض.

.. لأبي اسماعيل من هذه المجموعة محصول (واشرات) عديدة واحيانا ارباع دنانير في اليوم، وذلك تلبية لطلباتها في استحضر اقداح الشاي او المشروبات الغازية أو لفات (التكة والكباب) من السوق المجاورة.

نزلاء الزنزانة الثالثة - نحن -، ويدعون بالسياسيين وهم مجموعتان: الاولى ممن تم الحكم عليهم بمدد مختلفة وهم ينتظرون إتمام اوراق احكامهم الصادرة والمُحالة من المحكمة العسكرية، ليرسلوا معها الى السجون الثلاثة، سجن بغداد المركزي، وسجن الكوت، او سجن نقرة السلطان.. من بين هؤلاء عدد مخضرم عريق في سجونه ومعتقلاته . المجموعة الثانية من الزنزانة، هم معتقلو تظاهرات الانتفاضة او المحرضين عليها.. هؤلاء ينتظرون مصيرهم بالافراج بعد عدة اسابيع من التوقيف، او الإحالة الى المحكمة العرفية العسكرية.

..يكاد يكون كل النزلاء في زنرانتنا- ومن الفئتين- من الافندية . هذه الزنزانة التي بدأ عدد نزلاءها، من الوافدين بعد منتصف الليل، يتضاعف خلال يومين متتاليين، كانت هادئة بوجه عام اثناء النهار.. إلا من اصوات تدمر جماعية مصحوبة بقرقعة ضرب الصحون المعدنية على الارضية الكونكريتية - .او طرق هذه الصحون على القضبان -، احتجاجا على رداءة الطعام الذي هو في الغالب عبارة عن بضعة فصوص من الباقلاء اليابسة والعديد من قشورها العائمة في سائل مسود، مع رغيف صمونة سمراء يستعصي قضمها احيانا .. او اصوات احتجاج أكثر عصبية ونبرة حين يعود احد الموقوفين من تحقيق اضافي وعليه آثار ضرب ظاهرة.

.. لا يعير ابو اسماعيل اية اذن لامثال هذه الاصوات التي اعتادها . ..تهدد اصوات من الزنزانة الثانية في اغلب الاحوال متضامنة مع زنرانتنا، ومنذرة ابو اسماعيل بقطع (واشراته).

.. في الليل تسمع منها اصوات حوارات سياسية، نادرا ما يعلو فيها صوت احدهم بعصبية او تشنج.. اصوات حكايا وقفشات تتناوب على احد نزلاتها يعقبها ضحك صاخب.

..كان نصيب تأتأة وجدي شوكت حصة كبيرة من هذه القفشات.

يخترق احيانا صمت الليل نشيد اعيد مراراً:

- " السجن ليس لمثلنا نحن الاباة

السجن للمجرمين الطغاة "

" ولكننا سنصمد سنصمد

وان لنا مسقبلا سيخذ "

" لنا الغد، لنا الغد، لنا الغد

حيث تنصب المشائق..لمن؟؟

.. " للمجرمين الطغاة.. للمجرمين الطغاة "

او يبدء صوت آخر فينشد بعد فترة صمت فتشاركه نفس الجوقة

- " الى الامام..نحن نمشي تحت رايات السلام... .. "

ولا بد للنشيد الكردي ان يعلو ايضا

- " امروكي..داني كوردي بخوشه بها توا.. "

يتراكم في الغالب بعدها ابو اسماعيل ليضرب بعصاه على قضبان

الزنزانة بشدة:

- " اسكتوا الله يخليكم..اسكتوا مو أني اللي اتعاقب لو يسمع المعاون!! "

حين لا ينفذ رجاء ابو اسماعيل..تنصب لعناته وشتائم المهذبة على

الشيوعيين العملاء الملحدين .

لرواد هذه الزنزانة الدور الثاني في نوبة المرافق الصباحية

..شتائم ابو اسماعيل الاستعجالية من وراء ابواب المراحيض، غالبا

ما تكون شتائم مهذبة .

..زائرو هذه الزنزانة قلة ضئيلة، في الغالب من مجموعة الافندية

المحترمين التي لا تحمل زناويل طعام اولفائف افرشة او لوازم يومية.

.. لا يستجيب ابو اسماعيل لجلب علبة سكاثر او بعض الاطعمة من السوق المجاور لأن دفع الدرهم الاضافي له يعتبره اكثر افراد الزنزانة "رشوة"، والرشوة عند المناضلين شيء مستكر..إنها قضية مبدأ. وحين يتدخل افراد اغوات الزنزانة المجاورة لحثه على تلبية الطلبات القليلة يستجيب مكرها بعد أن يدمدم:

- " هذوله مؤ مثلكم بؤخجية.. هذوله جماعة فكُثر عُصيين بخله والعياذ بالله.. "

تزايد عدد نزلاء الزنزانة للحد الذي اصبح النوم على الجنب امرا لا مفر منه. في اليوم الثالث أتى معاون شرطة المركز، وبدأ يقرأ مجموعة من الاسماء.. كان اسمي مدرجا في القائمة ايضا.

- " انتو اللي إنذكرتُ اساميهم يُحضرّون حاجاتهم حتى يتم نقلهم الى مركز ثاني "

.. علت اصوات تتذمر واخرى تستفسر عن المكان المجهول المزمع نقلنا اليه.

صرخ معاون الشرطة أمرا بالصمت، وموضحا انه لا علم له بالوجهة المقصودة.

بعد ساعتين غادرنا الزنزانة لنقف في الممرالمقابل، مع ثلة من الشرطة، وحين بدأنا السير باتجاه البوابة الحديدية المشرعة بدأ نشيد الباقيين في الزنزانة..

- " السجن ليس لمثلنا نحن الاباة.. السجن للمجرمين الطغاة.. ولكننا " .. حين حاول واحد منا، نحن المُسفرّين الاستجابة للاصوات القادمة من زنزانة ٣ والمشاركة في النشيد، اتته ضربة قوية على الرأس من معاون الشرطة " انجب ابن الكعبة! ، اهترّ الصوت للكفخة ثم

خمد.. خرجت المسيرة صامتة لتحتشر في بوكس حديدي مغلق بنافاذة صغيرة محكمة بقضبان.
تحرك اليوكس في طريقه الى المجهول.
ساعة من حركة الحافلة بين شوارع بغداد اولا ثم خارجها كنا نتابعها من النافذة الصغيرة.

- لقد اصبحنا داخل معسكر ابي غريب!، قال احدهم بدهشة، بينما بدأ سير الحافلة بالتباطؤ.
توقفت اخيرا وتم انزالنا وصقنا وعدنا من جديد.
.. كنا امام بناية قديمة طويلة من طابق واحد، مزودة بشبابيك صغيرة عالية. وبوابة خشبية بدرقتين مسورة بسياج حديدي معتدل الارتفاع.
حضر ضابط برتبة ملازم ثانٍ مع مُجندين.. استلم قائمة الاسماء من عريف الشرطة الذي رافقتنا.
- اهلا بيكم في معسكر ابو غريب!.. لا تعتبرون بقاءكم وينا حبس.. حتى ولا اعتقال، اعتبروها اقامة مؤقتة حتى يتم اطلاق سراحكم بعد مدة.
ابتسم الجميع.. ضحك بعضنا فرحا.. انهالت الاسئلة والاستيضاحات على الضابط الذي كان يجيب عليها بأبتسامة مطمئنة وطولة بال.
فُتحت بوابة البناية الخشبية.. كان في انتظارنا بداخل الممر الطويل مجموعة مرحبة من الشباب، البعض منهم يرتدي ملابس بيئية، دشداشة، او بيجامات .
- اهلا بالشباب.. هله بيكم، بادرنا عدد منهم.
قبل ان يغادرنا الضابط ويغلق البوابة الخشبية خلفه قال:
- اي شكوى او طلب يمكنكم ان توصلوها لينا عن طريق ممثلكم وزمياكم في السكن لا المعتقل (جعفر مطر) وستصل الى آمر المعتقل نفسه .. ولا بد ان نجد لها حلولا .

.. يا للمفاجئة المفرحة، اذا صديقي وصديق العائلة جعفر مطر، زميل
اختي مليكة وزوجها ابو العيس في كلية دار المعلمين العالية، معنا
في المعسكر!!

كان معظم الموجودين هنا هم طلبة دار المعلمين العالية وكليتي الآداب
والحقوق.

تم توزيعنا على الغرف، وكنت في الغرفة التي ينزل فيها جعفر مطر
مع ثلاثة آخرين من زملائه في الكلية.

الغرفة كغيرها في البناية معتدلة المساحة ومزودة بحصيرتين على
الجانبين مدّت عليها بطانيات النوم النظيفة الصوفية.. تبقى بين
الحصيرتين وبين الافرشة الممدودة مجالات تكفي لوضع رقعة
الشطرنج المصنوعة محليا، مع قطعها المختلفة المنحوتة من عجين
الصمون.

.. شباك الانارة الصغير في اعلى الجدار غير محكم بأية قضبان.
حين فتحت البوابة الخشبية في الليل ووضعت فيها قدور العشاء، قام
بنقل القدور من السيارة العسكرية الى المطبخ مجموعة من النزلاء
المناوبين لذلك اليوم .

.. المطبخ مزود بموقد نفطي وقدور وأوان واقداح وملاعق وشوكات.
كان العشاء مكونا من الدجاج وسلطة الخضار مع ارغفة كافية من
الصمون الابيض والاسمر.

.. الوجبات جميعها في هذا (الفندق-المعتقل) كانت افضل مما اعتاد
معظم النزلاء تناوله في بيوتهم.. وانا منهم.

عند توزيع واجبات المناوبة اليومية على الذين انضموا حديثا، وهي
تشمل تنظيف ومسح ارضيات الغرف والممر المشترك الطويل.. غسيل
الملابس والاغطية.. تسخين الاكل وتوزيعه.. تنظيف المرافق الصحية
الموجودة داخل البناية.. إعداد الشاي وتوزيعه ..

.. كانت حصتي في المسؤوليات هو غسل الصحن بشكل يومي دائم
بصفتي اصغر المجموعة عمرا وبصفتها اقل المسؤوليات جهداً.

يتم فتح الباب الخلفي المؤدي الى ساحة واسعة محاطة بسياج اوتدة خشبية غير مرتفع مرتين في اليوم، مرة عند العاشرة صباحا، والآخرى عند الخامسة مساءا ولمدة ساعة نسترخي فيها في الشمس الدافئة، ونطل منها على الساحة الاخرى الاوسع المشجرة والمقابلة لنا

.. الساحة المقابلة مزودة بمقاعد ومناضد وكراسي استراحة طويلة. كنا نستمتع بمشاهدة مظاهر الابهة ونعلق وبنكات ساخرة احيانا على المجموعة الاخر

تخرج الى الساحة الاوسع من البناية والاحدث عمراننا من مقرنا: .. بدلات انيقة.. ارواب دي شامبر.. طاقيات ذات اشكال متنوعة وغريبة.. قبعات إفرنجية.. غلابين مختلفة الاطوال والالوان .. سيجار هافاني..

الكل في حالة استرخاء فخم، فمن يمد جسده على كراسي الاستراحة الطويلة، الى آخر يتمشى ساهما أو مندمجا في حديث يبدو أنه مرح.. تصل الينا اصوات الضحكات.. هناك من يجلس امام صاحبه بشطرنج ومائدته من الخشب المطعم بالعاج.. أثنان يلعبان النرد.. آخران يلعبان لعبة (الريشة والمضرب).. مجموعة صغيرة تجلس في حوارات جادة. سلال الاطعمة، التي تأتي من مساكن الجبهة المقابلة ومن مريديها، كبيرة ومتنوعة.. اقفاص فواكه ضخمة، علب انيقة بشرائط.. قدور أكل ضخمة تتصاعد ابخرتها، تكفي لكتيبة كاملة.. سيارات فخمة تتقاطر صباح مساء ينزل منها الزائرون بوجوه مهيبه وبدلات احتفالية انيقة. في البناية المقابلة لنا كانت الصفوة المعتقلة.. رؤساء احزاب.. رؤساء تحرير صحف معارضة.. وجوه سياسية مستقلة مرموقة.. كان المهدي احد نزلاء مقام الخمسة نجوم هذا.

- إضراب!! " ماكو دوام! " .. إضراب!
- " ادخلو اولادي! ادخلو.. يوم دوام عادي.. يالته دخلو!! " ..
كانت عين العصفور الجانبية تخزني شزرا.. عين واحدة ثابتة عليّ،
لا ارى اتجاه الاخرى..

- " اضراب.. روحوا لبيوتكم.. اضراب ماكو دوام " .. يزيد عنادي
وتعلو نبرة صوتي، رغم الرهبة التي تعتريني من عين الطير الجانبية
المثبتة عليّ.

تميل عين الطير الحولاء جانبا، ويستدير وجه علاء الدين الرئيس
ويصبح مواجهها لي.. يقف لحظة ثابتا في مكانه من الجهة الثانية من
بوابة الاعدادية المركزية الضخمة المشرعة.. تتسع حدقة عينه اليمنى
بغضب وتهتز حدقة الاخرى الحولاء محاولة الاقتراب، حين لا تفلح
تبتعد الى الزاوية القصوى من العين.. يتقدم صوبي بهدوء
وثبات.. يصبح عني قيد شبر.. يطل عليّ من علو قامته الضخمة لحظة
قبل أن ترتفع يميناه لتهوى بعنف على خدي الايسر وجانبا من
صدغي.. يتزلزل رأسي وتهتز معالم الرؤية امامي.. يختضّ جسدي
واميل الى الجهة المعاكسة قبل أن اعيد توازني.. ارفع رأسي وانظر
اليه بغضب عارم.. أصرّ باسناني وأطبق شفتيّ بحزم كي لا اطلق
صرخة احتجاج او عبارة تحدّ..

.. استدير من جديد مواجهاً الشارع الضيق الذي يقف فيه بعض الطلبة
مترددین بخطواتهم، دون ان يحسموا موقف دخولهم الى المدرسة من
عدمه.

- إضراب!! .. ماكو دوام! .. روحوا لبيوتكم.. اضراب!
كان صوتي يقرب من الصراخ هذه المرة ونبرته اشد تصميما.
- " دخلو اولادي دخلو! .. دوام.. دوام وما عليكم بها المهزلة.. يالته
اولادي، واجبكم المدرسة.. يالته دخلو.. "

التظاهرات كانت محدودة هذه المرة لم تتعد حدود المشاركة الطلابية الجامعية وبعض من طلاب المدارس الثانوية، ولم يكن دافعها اي استفزاز او قانون مجحف جديد من السلطة، ولم يكن هنالك اي تجاوز جامعي بالفصل او صدور قوانين امتحانية جديدة.. الغرض الرئيس هو محاولة ابقاء جذوة انتفاضة تشرين، التي اخمدتها الاحكام العرفية العسكرية .

لم يكن النفخ في رماد الجذوة كافيا لاتقادها.. سرعان ما تفرقت المظاهرات محدودة السعة، اما بتقلص عدد افرادها التدريجي اثناء المسيرة، او تحت تهديد مجاميع صغيرة من الامن والشرطة، أو نتيجة لاعتقالات فورية لمتظاهرين تفرقوا هنا وهناك مع تعقب وجوه معروفة منهم لرجال الامن والشعبة الخاصة.. افلثُ هذه المرة من الاعتقال في ذلك اليوم .

.. حين رافقتني في اليوم التالي الشخصان الانيقان ببدلتيهما البيضاين، قبل التقافي من الفرع المجاور لبوابة الدفاع الجانبية والمؤدي الى الاعداية المركزية، لم يُثر لا طولهما ولا ظليلهما اي استغراب.. لم يوجها اية كلمة لمصاحبتهم، ومشيت بينهما دون وجل او تلكأ.. حين اجتزنا بوابة الاعداية المشرعة، والطلبة الموجودين في ساحتها او الهاميين بدخولها، لم يثر المنظر اي دهشة لديهم كالتي اثارتها في المرة السابقة.

- " همّ صادوك صفاء مرة ثانية! " علّق أحد الطلبة، اعقبتها ضحكات وعبارات ممازحة.

في موقف الشعبة الخاصة وفي نفس الزنزانة من جديد.. لاشيء تبدل غير وجوه نزلائها.. تعرفت على ثلاثة او اربعة ممن شاركوني المكان نفسه او معتقل " ابو غريب " .. بعد ساعة او أقل دُفع الى الزنزانة بصديق آخر للعائلة ولي.. عز الدين مصطفى رسول وكان يسب ويلعن بوجهه المحمّر المحتقن، الحظ العاثر هذه المرة، فقد وجدوا في

جيبه منشور الحزب الشيوعي الذي نسي أن يتخلص منه بعد قراءته او تسليمه الى سيء حظ آخر.

.. بعد ساعتين دخل علينا وجدي ومن خلال التأتأة عرفنا أنه قبض عليه اثناء تواريه عند احد الاقارب.

لم تكن الزنزانة مزدحمة كالمرة السابقة، غير أن الزنزانة المجاورة رقم ٢ كانت على نفس الواجهة والنظافة، وبقيت زنزانة رقم ٣ على قذارتها وفوضى وجوها المريبة والبائسة ذات الاسمال.. وفيها نفس الشريحة من الاطفال متسخي الوجوه الحفاة.

كان ابو اسماعيل، وهو ابواسماعيل السابق ذاته، أكثر مللا وخشونة في تعامله معنا، رغم محاولة البعض استرضائه بدرهم اضافي لجلب استكانة الشاي او علبة سجائر.. كان النزلاء هذه المرة اقل عقائدية مع (الرشوة) من النزلاء الشيوعيين المحكومين، الذين كانوا معنا في زنزانة ٣ في المرة السابقة، والذين يبدو انهم قد تم توزيعهم كل الى سجنه.

.. لم تزدحم الزنزانة بأفواج من قادمين جدد كالمرة السابقة . عدد زائرينا من الافندية كان اقل ايضا.. عند زيارة استاذ المسرح العراقي حقي الشبلي لاحد اقاربه من الموقوفين، وحين قفرت فرحا لاحتيايه من وراء القضبان اخبرني بأسفه لاضطراره الى اعطاء دوري كمسيلم الكذاب في المسرحية التي سيتم عرضها بعد اسبوع على قاعة مسرح الاعدادية المركزية.. كان خجلي كبيرا من انني قد خذلته مرغما.. (خذلته وفي ظروف مماثلة بعد سنة في ثانوية الاعظمية- التي ارغمت على الانتقال اليها -، وفي الدور الرئيسي من مسرحية القبلة القاتلة وقبل ايام معدودة من عرض المسرحية).

لم تدم اقامة الكثرة منا في موقف الشعبة الخاصة أكثر من عشرة ايام.

توزّع افراد الشرطة في اماكن مختلفة.. وضع حاملو الهراوات منهم كمادات مشابهة لتلك التي تحمل البنادق.

..سقطت بضعة اسطوانات كارتونية صغيرة سوداء في الشارع بين اقدام المتظاهرين، وبدأت تدور على نفسها قبل أن تُطلق دخاناً ابيضاً.. توالى الاطلاقات المكتومة مصحوبة بسقوط عدد آخر من هذه الاسطوانات..

تصاعدت سحابات دخان صغيرة، اعقبها سعال بعض المتظاهرين ممن وضعوا اكفهم فوق اعينهم وبدأوا بدعكها بشدة..تحرك العديد بشكل عشوائي وهم يُحنون رؤوسهم داعكين اعينهم بشكل اشد.

.. هرع افراد الشرطة من حملة الهراوات تجاه المتظاهرين المتصادمين ببعضهم، واهووا بهراواتهم على الرؤوس والظهور والاعقاب.

.. اقتربت شاحنة ودخلت وسط الحشد المتخلخل.. نزل افراد بكماماتهم ليدفعوا بمن لم يفلح في الهروب، الى ظهر الشاحنة..

- " غازات مسيئة للدموع.. غازات مسيئة للدموع.. اعتصموا يا رفاق داخل بناية الكلية.. تعالوا الى داخل بناية الكلية!! "

أفلح عدد غير كبير في الاحتماء داخل البناية قبل ان تغلق ابوابها من الداخل وتحكّم برتاجات حالت دون تعقب الشرطة واقتحامها.

.. وجدتُ نفسي داخل احد اروقة البناية وانا ادعك عينيّ بشدة، دون ان استطيع منع الحرقه الشديدة وسيل الدموع المنهمر.. بدأتُ أسعل سعالاً حاداً، اعقبه لهيب حارق في حنجرتي ورجامتي.. كلما زاد سعال الحماية هذا، كلما ازدادت معه الحرقه اللاسعة..

- أحضروا جرادل ماء!..ماء يا اخوان!..اغسلوا وجوهكم بالماء !
تراكض البعض بحثاً عن صنابير الماء.. وجدوا المرافق وبدأ البحث عن جردل للماء.. وعندما وجدناه وبدأنا بملئه بالماء، انقطع جريان

الماء من كافة صنابير المرافق ومن تلك الموجودة في ساحة الكلية
ايضا ، ومن اقسام البناية العلوي..

لقد قامت الشرطة بقطع الماء من مقياس الماء الموجود قرب بوابة
الكلية الخارجية.

.. بدأ عدد من قذائف الغازات تتساقط على قاعات الكلية عبر النوافذ
المشرعة.. سارعنا الى اغلاقها.. خرجنا الى الاروقة الجانبية.. تسرب
الغاز وهو يلاحقنا الى هذه الممرات من تحت مجالات الابواب التي
اغلقناها خلفنا بعد خروجنا من القاعات.. نضونا عنا قمصانا وسترات
من كان يرتديها.. قسم منا نزع حتى بنطاله وبقي بملابسه الداخلية..
افلحنا بحشر ثيابنا المنزوعة في احكام سدّ بعض الثغرات التي يتسرب
منها الغاز.

نقّع من كان يحمل منديلا منديله بالماء القليل في قعر الجردل ونزع
آخرون فانيلااتهم او قمصانهم لينقعوها بالماء الشحيح ووضعوها على
انوفهم وعيونهم.

.. واصلت الشرطة قذف قنابل الغاز الى ساحة الكلية الخلفية هذه المرة..
انتقلت غمامات الغاز الى البيوتات نصف الخربة والى الاخرى
البسيطة خلف ابنية الكلية..
كان في ذلك خلاصنا..

لقد تمّ الاتفاق بعد ساعة مع سكان المنطقة وفق الشروط التالية: .. " أن
ننهي الاعتصام في بناية الكلية.. أن نوقف الهتاف والصراخ.. أن نتسلل
فردا فردا عبر سور الكلية الخلفي المثلوم الى الازقة المجاورة لبيوتات
المحتجّين من سكانها.. وأن نذهب الى بيوتنا دون تعرض الشرطة لنا
في هذه الازقة "

.. بدأ بعض عقلاء المجموعة، بتنظيم خروجنا عبر سور الكلية الخلفي
نصف الخرب.

كنت اعرف ازقة هذه المنطقة بصورة تفصيلية، فقد سبق لمقر احدى جرائد المهدي ان يكون في احدها، وهو الزقاق الذي تؤدي نهايته الى فرع خلفي من فروع المبعي العام، (الكلجية)، حيث انتهيت اليه صدفة في مساري قبل اكثر من ثلاثة اعوام وانا احاول ان اتجاوز ضجري، بالهروب من الجلوس في غرفة والدي المنشغل والمنهمك في كتاباته او دورانه على محرر او كاتب او احد عمال الطباعة.

..حين انتهيت في جولة هروب سارحة في الزقاق الخالي في الظهيرة الى الوصول الى نهايته، جابهتني وجوه نسوية مرعبة.. .. وجوه متعبة مريضة، ملطخة بأصباغ دبقة، تقف امام بيت شرقي شبه خال مشرع بابه.

.. رفعت احداهن ثوبها الداخلي الخفيف الذي لا يستر الا جزءا يسيرا من جسدها الذابل.. لتعرض مفاتها على احد المتسكعين القلة المارين من هناك وقت الظهيرة..

..تضرب على اسفل بطنها الضامرة المغضنة وتردد بحسرة مبحوحة:

- " كل ها المال بُثلاث دراهم..كل.. " .. " كل هذا بُثلت دراهم! "

..اصابني فزع جنوني.. انطلقت راكضا بسرعة من يتعقبه الشيطان نفسه.

.. دخلت لاهتا الى بوابة الجريدة المشرعة ليل نهار وانا غير مصدق بنجاتي لا من الشرطة بل من العالم المرعب الرهيب الذي وقعت على معالمه.

.. بقيت ألثت دقائق طويلة قبل ان استعيد انفاسي بصعوبة واصعد بعدها الى زاويتي من غرفة عمل والدي وأخذ مكاني بصمت كي لا ينتبه الآخرون الى ارتباكي.. سيطر علي ذهول وحزن لا اعرف حقيقته..

كان " المال " المعروف شيء ظل يتابعني بصحوي اياما، وينغص علي منامي الذي هاجمته الكوابيس ليا ل عديدة، ومنعني من ان آكل بشهية اي زاد يقدم الي ، بل لقد تقيأت مرتين في ذلك اليوم المنحوس.. .. يطن صفراء ذابلة مغضنة لا تخلو من بقع حمراء وخطوط سوداء، ساقان هزيلتان تنتعل قدماهما المتسخة الاصابع نعل مطاطي احمر اللون، فخذان احدهما هزيل متغضن، والاخر يماثله إلا عن بقعة دائرية كبيرة حمراء متورمة، تتوسطها حفرة وردية اللون صديدية، متقرنة رمادية شاحبة في حواشيها..

.. بين اعلى هذين الجزئين من بقايا الجسد البشري المهترىء.. بين اعلى ما يسمى مجازاً بالفخذين، كانت هنالك كتلة متغضنة زاوية، مسودة بجذور الشعر المنزوع الذي لم تُحسن ازالته.

.. بعد اكثر من عشر سنين، حين برزت الصورة كما تبرز امامي الآن، في احد مشاهد عرض سريري في علم الامراض التطبيقية، عرفت ان هذه الدائرة الورمية الصديدية المتقرنة الحواشي التي شاهدتها في اعلى الفخذ الايمن، هي (الشانكر السفلسي).

حين انزل السلالم ما بين شارع الرشيد وزقاق الجريدة بعد هذا الحادث، كنت اخشى رفع بصري كثيرا خشية ان أرى نهاية زقاقنا المؤدي الى زقاق الكارثة.. اعجل بخطواتي لاصل الى بوابة الجريدة المشرعة.. أرفع بصري حالما ادخل وانتفس بعمق قبل ان آخذ مكاني من شناشيل غرفة التحرير، المُطلّة على السلالم المؤدية الى شارع الرشيد.

.. ارقب كعادتي يوميا اهل الزقاق في صعودهم ونزولهم، وحركة المارة في الشارع الكبير المواجه.. لايفوتني عند العصر، ان انتبه الى ظهور السيارة الفخمة السوداء، التي تقف دقائق امام مدخل الزقاق، ليركض حال ووقوفها رجل سمين ينوء بجسمه الضخم وكرشه المهترز وكتلتَي ردفه الهائلتين اثناء ارتقاءه السريع سلالم الزقاق وبيده كيس ثقيل ابيض.. يقف منحنيا بخشوع امام النافذة الخلفية للسيارة السوداء..

ينزل زجاج النافذة ويبان رجل شرطة تلمع رتبته العسكرية العالية فوق كتفيه وهو يجلس في مقعده الخلفي بهيبة ووقار شديدين، ودون ان يلتفت بوجهه وعينيه المختلفتين وراء نظارة سوداء.

.. يمد الرجل الضخم السمين المرتدي دشادشة بيضاء حريرية يده التي تحمل الكيس الثقيل.. يتناولها رجل الشرطة ذو الرتب اللامعة بيده اليسرى بملل دون ان يتزحزح عن جلسته الوقورة فوق مقعده.. يرفع زجاج شباك السيارة الخلفي.. تتحرك السيارة الطويلة السوداء.. ينحني الرجل الضخم السمين بخشوع منتظرا تجاوز السيارة السوداء واختفاءها.

يعود الخرتيت السمين ليتوجه الى نهاية الزقاق.. الى عالم الرعب الرهيب.
.. يتكرر المشهد كل مساء.

مرة اخرى الى الشعبة الخاصة.. في داخل مركز الشرطة هذا، اجلس كالعادة في ممر ضيق نصف مظلم، امام غرفة معاون الشرطة في انتظار دوري في التحقيق.. اسمع صوت المعاون يشتم صارخا.. يصل صوت الصفعات.. تأخذني رهبة لا تطول.

اثناء تفتيش الشرطي المعتاد لجيوبي امام مكتب المعاون، تذكرت مرعوبا وجود ورقة صغيرة في جيب بنطالي، وقد كتبت فيها ستة اسماء من زملائي في الاعدادية، وامام كل اسم الزقاق او فرع الشارع المؤدي الى مدرستنا.. كانت مهمتهم الموكلة اليهم هي محاولة اقناع الطلبة المتوجهين الى الدوام الصباحي بالعودة من حيث اتوا لأن هنالك اضرابا، او حثهم على المشاركة في التظاهرات التي ستنتقل من امام كلية الاداب.

.. كنت قد نسيت ان اتخلص من هذه الورقة باسماءها امس بعد اتمام توجيهاتي لزملائي الستة.

حاولت ان امد كفي الأيمن الى جيب بنطالي بحذر شديد، اثناء انشغال الشرطي بإفراغ بقية جيوبي.

.. انتبه معاون الشرطة الى حركتي.. صرخ باعلى صوته وهو ينهض من وراء مكتبه محذرا الشرطي:

- " لك انتبه حمار! شوف هذا شديّ يطلع من جيبيه! "

قبل ان يحاول الشرطي ايقافي من اخراج ما في جيب بنطالي، كنت قد افلحت في اخراج الورقة.

.. انكفنت على وجهي منبطحا فوق الارض الاسمنتيه وحشرت الورقة كاملة في فمي وبدأت اعلكها على عجل.

.. سارع الشرطي الى الانبطاح بدوره محاولا مد كفه تحت وجهي المطبق باصرار على الارض، في حين سارع المعاون وشرطي آخر اتى لنجدتهما الى توجيه الركلات الى مختلف انحاء جسمي.

.. حين افلح المعاون الذي انبطح امامي ايضا في مد ابهامه داخل فمي، محاولا اخراج الورقة، اطبقت بكل قوى فكي على ذلك الابهام. .. سمعت صرخة حادة، اعقبته شتائم ولعنات وازدادت الاقدام الراكلة والساحقة فوق جسدي.

صحتُ بعد لحظات بصوت حاولت إسماعه الى الراكلين:

- " بلعِتها!.. بلعِتها!.. بلعِتها " ..كنت فعلا قد افلحت في ابتلاع الورقة المغلوكة جيدا كلها.

استمرت الركلات والشتائم لحظات بعدها.. توقفت اخيرا.

حين جررت الى داخل الزنزانة.. كنت مدمى الوجه، لا استطيع الوقوف على ساقي المررضتين.

..من الزنزانة ٣ علت اصوات احتجاجات ولعنات.. اطلق هتاف استجاب لترديده البعض.

لم استطع النوم لا على ظهري ولا على اي من الجنين.. كانت اضلاعي وكل عضلة في جسمي تتحسس حصيرة الزنزانة تحتي برودة

الم حارقة.. اضطرت ان اتحامل على نفسي كي انبطح على الارض
بحذر لانام دون اية محاولة لأن انقلب على ظهري او على اي من
الجنبيين.

..نادوا عليّ بعد يومين.. اقتادوني الى غرفة مدير المركز.. وجدت
والدي جالسا على كنبه مجاورة لطاولة المدير.. وامامه فنجان قهوة
ممتليء يبدو انه لم يقربه .

وقفت امام المهدي الذي كان ينظر اليّ بحيرة فيها عتاب واستغراب
والم..

اشار مدير المركز الى كرسي في احد اركان الغرفة وأوماً برأسه..
جلست.

.. ساد صمت توجهت فيه عينا والدي محمّلة فيّ بحيرة .

.. طُرق الباب بلطف.. دخل رجل بملابس مدنيه، ابهامه الايمن مشدود
بضماذ كبير.

أدى التحية العسكرية امام مدير المركز ووقف منتظرا بهدوء.

- " هاي ليش عضيت اصبع المحقق المسكين ؟ "

كان المهدي يوجه سؤاله اليّ بنبرة توبيخ، على حين كانت عيناه
المحدقتان في بثبات تكادان تفضحان الغضب المُفتعل وراءهما .. كان
فيهما تساؤل مرح ساخر.

- يكذبون !.. إدّعاء" بئويه " .. إدّعاء!

- " لك شلون يكذبون.. شلون إدّعاء! .. شلون إدّعاء والموظف
المسكين مضبّرة اصا بيعه؟! "

- كذب!.. إدّعاء! قلتها مجددا دون أن ارفع بصري في مواحهته.

طال الصمت الذي اعقب الحوار.. سمعت اقدام المخبر تؤدي التحية
العسكرية، قبل ان ارفع بصري لارآه منصرفا وهو ينظر الي بغضب
معاتب.

تكاد الوجوه ذاتها تتكرر في الزنزانة ٣..

.. دفعوا الينا بعد يومين بوجه جديد، طالب حقوقي أنيق أهيف، بوجه طويل نحيف يحمل تقاطيع ودودة، وعيون زرقاء زرقة السماء الصافية، بانث عليه، ومن اللحظة الاولى لدخوله، تصرفات وديعة خجولة..

.. عبد الرزاق " ابو عيون جميلة "، هذا اللقب الذي اطلقه عليه زملائه في الزنزانة، إنه عبد الرزاق الحميري.

ربطتني بعبد الرزاق مودة حميمة، اكثر حتى من الآخرين التي كنت قد عرفتهم خارج الموقف، او في الموقف .

كان صمته الشاعرى وحديثه الهاديء الشحيح وسهومه بين الحين والآخر، سهوم فنان عاشق، ربما هو الذي جرنى الى صحبته خلال اسابيع تلت.

.. تزايد عدد المعتقلين بالتدريج للحد الذي كان من الضروري فيه توزيعهم على معتقلات اخرى.

لم يكن المعتقل الجديد الذي نقلنا اليه، إلا دار المعلمين الريفية في الرستمية - المعطلة انذاك -، ولوجودها ضمن نطاق معسكر الرشيد العسكري الضخم، فقد اصبحنا تحت اشراف معتقلينا من ضباط المعسكر.. لم تنزل الاحكام العرفية سارية التطبيق.

اقسام كبيرة من ردهات وقاعات البناية تحت تصرفنا، وكذلك حديقتها الواسعة، التي كنا نخرج اليها للاستراحة والرياضة مرتين، مرة عند الضحى واخرى عند المساء.. ساعة في كل مرة.

كات غالبية المعتقلين فيها من العمال والكسبة البسطاء مع عدد قليل من الطلاب.

.. هنا في معتقل الرستمية كانت معرفتي بالشاب الألمعي، عامل الحدادة، والمتقف اليساري الواسع الاطلاع، المتزن الهاديء يحيى البارح .

تركزت لقاءات هذا الشاب اليافع الممتليء حماسة ووطنية صادقة بعيدة عن التظاهر والحذقة، تركت اعرق الاثر في نفسي ولسنوات، وزاد من تاثيرها فيما بعد اغتياه المديبر بيرود وتخطيط مع ثلة من رفاقه في سجن الكوت بعد قرابة العام.

كان كل شيء بديعا في معتقل الرستمية، الذي كان كل شيء فيه موقرا ومريحا قياسا الى الزنزانة رقم ٣ في موقف الشعبة الخاصة.. إلا شيئا واحدا لم نرتح اليه، الا وهو الطعام ذي الوجبات الثلاث.

.. دون اية مقدمات اعلنا الاضراب عن الطعام.. أعدنا الى السيارة العسكرية الطعام الذي كان ينقله منها رئيس عرفاء في المعسكر، مع بيان احتجاجي موقع منا جميعا، كنا انا ويحيى البارح قد دبجناه. لم ننتظر إلا ساعتين حتى كان ضابط برتبة ملازم اول يتفاوض معنا ويتساءل عن الاسباب ويطلب منا حلولا.

جلسنا انا ويحيى نملي طلباتنا من المأكولات الواجب توفيرها.. لسلامة الموقوفين وعدم التفريط في صحتهم .. في نهاية القائمة وضمن طلبات الخضار المطلوبة من قائد معسكر الرشيد.. اضفت العبارة الاخيرة على العريضة، والتي كانت انظار الموقعين تقع عليها قبل اية عبارة أخرى اثناء توقيعهم.

" وحبذا لو كان بصل! .. يا سيادة القائد "

وكان لقبني في المعتقل بين زملائي والى نهاية الاعتقال:

(الزميل، حبذا لو كان بصل!)

(قتل (يحيى البارح) في سجن الكوت خلال اضراب سجناءه بعد عدة اشهر).

تم تقديمنا - ومن مختلف المواقف - الى المحكمة العسكرية، وعند قدومنا الى قاعة الانتظار في المحكمة، التقيت مرة اخرى بعبد الرزاق ذي العيون الزرقاء، وكان قد سلّم بقدره، اذ كنا قد عرفنا وضمن من حكم عليهم من المجاميع قبلنا، بأن الأحكام قد صدرت من دائرة التحقيقات الجنائية، وتمت احوالها الى الضباط الثلاثة الكبار فوق منصة المحكمة لتلاوتها.

من بين شقوق الباب العتيق، لمحت المهدي، يجلس متعبا منهوكا، ذابل الوجه، زائغ العينين، مع بضعة آخرين، في انتظار الاحكام التي يُنتظر (صدورها) بعد ساعة اوساعتين.. أمسكت نفسي بصعوبة عن البكاء. وقفنا نحن الثمانية امام منصة الحكام العسكريين الثلاث العالية، بثبات وصمت إلا واحدا كان يقف في آخر الصف، وهو كما يبدو عامل بسيط، اوقعه حظه العائر بيننا، بدأ فجأة بالولولة والبكاء وشرح انه لا يعلم لماذا تمّ إلقاء القبض عليه، وان لديه عائلة واطفال وأم ضريرة يكدح هو لوحده لاعالتهم..

.. اكبر الحكام رتبة والجالس في الوسط من الآخرين، طلب منه الصمت، حتى يحين دوره في الدفاع عن نفسه.. لم يستجب لطلب الحاكم او ربما لم يسمعه من خوفه واضطرابه..صرخ الحاكم من جديد وبصوت مجلجل:

_" مو كافي عاد! إنجب وإنلصم.. تسكت لو اگول للحرس يجروك
كُبل للحبس "

كان دوري هو الاول.

- " شتكول بدفاعك؟ "

لا اعرف كيف ان شيطاننا قد تلبسني وانا القي خطابا رناناً، عن حقوق المتهم في الدفاع، وعن عدم وجود محام في القاعة يقوم بالدفاع لا عني فحسب، بل عن بقية المتهمين الآخرين ايضا، هؤلاء الذين اوقفتم الشرطة دون حق مشروع، وعن المحكمة غير الشرعية في عهود القضاء النزيه.. عن وجوب وجود محكمة مدنية، لا عسكرية.. وان الاحكام العرفية وضع غير دستوري في بلد يفترض فيه ان يكون ديمقراطيا..

وجهي محمر متورم، لا اعرف من اين تأتي الكلمات والعبارات، التي قد لا افقه حتى نصف ما كنت قد نطقت به.. صوتي يتعالى وكأني فوق منصة المدرسة في المبارات الخطابية السنوية..

الحاكم يطلب مني السكوت.. ويبدو انني لا اسمع ما الذي يقوله.. كنت لا اراه ولا ارى احداً.. كان هنالك سراب ضبابي امامي وانا احاول ان الحق به.

..فجأة انتبهت الى صوت مطرقة عنيفة وصوت اجش مزلزل:

- " لك مؤ كافي عاد!!.. مو ثبرتنا ثبيرة! لك والله لو مؤ...!!، مؤكافي لغوة طلعت روحنا وخلصت صبرنا، مؤ طلعت لك روحك.. كافي!!.. كافي ولك! "

.. يبدو انني اكتفيت بعد هذه الصرخة.

.. احسست فجأة بعرق بارد يغطي وجهي، واستشعرت صمناً غير مسبوق من حولي رغم حوار الاخرين وصرخات الحاكم المستمرة المنثورة عليهم.

حين جاء دور عبد الرزاق الجميري، حاول بهدوء ومنطق رجل يدرس القانون، ان يبين للمحكمة، انه خارج نطاق الادانة، او حتى خارج اصول التقديم الى المحكمة العسكرية.

- " تريد تعرف شنو سبب ادانتك .. أ خذ نموذج من كتبك الهدامة، هاي اللي دزوها إلنا من مجموعتك من كتب الشيوعيين المكبوسة عندك بالبيت .. هذا هو الكتاب اللي حكمتك! "

لم يكن الكتاب الذي رماه الحاكم العسكري بغضب تحت اقدام عبد الرزاق وكان دليل ادانته غير كتاب (كوخ العم توم).
.. حكم على عبد الرزاق بستة اشهر تنفذ من تأريخ صدور الحكم.
.. حكم على اثنين بنفس المدة.

.. حكم على آخرين من الحاضرين امام المحكمة بالسجن سنة واحدة لكل منهما.

تقرر إخلاء سبيل الاثنين الباقيين، كان من بينهما ذلك العامل الذي كان يبكي مستعظفا الحكام الثلاثة.

.. اما انا فقد حكم عليّ بستة اشهر مع وقف التنفيذ، على أن تضاف هذه المدة، الى اية عقوبة بالسجن مستجدة، خلال السنتين القادمتين.

حين اقتادوني مُكبلاً وعلى انفراد، مروا بي على والذي الذي كان منتظراً في الرواق.

كان وجهه شاحبا وشفته مزمومتان وعينه تحقدان صوبي بثبات، يقف منتصبا كعادته حتى في اشد المواقف.

ابتسم ابتسامة ودودة، وامسك بكفيّ بثبات دون ان يحاول احتضاني او لف ذراعه حولي.. هنالك اناس يرقبونه!! ولن يتيح لنفسه اي مظهر من مظاهر الضعف الابوي.

- يداك ساختان! .. هل انت محموم؟ سأل بصوت ظهر عليه القلق.

- رَشْحٌ بسيط عابر..

- لاتقلق!، الحكم مع وقف التنفيذ، معناه انك ستخرج خلال يومين بعد اجراءات تتعلق باوراق محكوميتك.

اشار ضابط على الحارسين المرافقين بأخذي ونقلني الى السجن المركزي، لحين اكمال اوراق اطلاق سراحي.

في السجن المركزي، كان علي الاختيار بين (جماعة المستنقع)، وبين (جماعة القاعدة).

لم يكن الخيار حقيقياً، فقد أرشدت من قبل احد الموكلين باصطحابي من السجناء، حال دخولي عبر الباب العالية ذات القضبان الحديدية، وبعد ان عبرت الممر الطويل من بوابة السجن المركزي الضخمة المؤدية الى بناية السجناء السياسيين.

- تفضل واسترخ هنا رفيق صفاء - منذ عبوري بوابة القضبان الطويلة - تمّ منحي لقب (رفيق)، وكنت لا انادى باسمي لوحده بعد ذلك من اغلب المسجونين معي، ما لم يسبقه لقبى.. وجدت لقبى الجديد فحماً ويضفي على رجولة وهيبة، وجبّ عليّ الحفاظ عليهما دائماً في الحديث والتصرف مع بقية (الرفاق) اثناء وجودي في السجن .

.. تبرع احد (الرفاق) ليجلب (اليطغ)، وهو عبارة عن فراش جيد المظهر وبطانيتين ووسادة، ومنشفة .. تركوا لي الخيار في المكان الذي اراه مناسباً لوضع اليطغ .

اخترت مكاني قرب الدكتور محمد صالح سميسم طالب الكلية الطبية المحكوم لعدة سنوات.. كنت اعرفه من السابق، عبر صلات عائلية. كان الإحتفاء بي خاصاً جداً، فانا اصغر الموجودين، وابن المهدي قبل اي شيء .

هممت بالنهوض بعد حين والخروج الى ساحة السجن.

.. حذروني من الاختلاط بجماعة (المستنقع)!

.. لجماعة المستنقع مهجع منفرد واوقات مخصصة من ساحة السجن، في مثل هذا الوقت من المساء، لهم دورهم لاحتلال قلب الساحة الرئيسية.. كان الوقت موعدهم للعب كرة الطائرة.

.. رغم تظاهري بانني قد أدركت تفهمي لنصيحة الابتعاد عن (المستنقع)، وموافق، فقد زاد فضولي لمعرفة ماهية المستنقع، ومن هم افراد جماعته الخطرين الذين يجب الابتعاد عنهم.

خرجت الى الساحة الوسطية التي تم رشها بالماء، نُصبت بها شبكة كرة الطائرة، وهناك مجموعتان على طرفي الشبكة من الساحة. لم تكن اللعبة قد بدأت بعد، وافراد من المجموعتين، ينظمان ارتفاع الشبكة، وتحديد خطوط ساحة اللعب بمسحوق الجبس الابيض.. اخرون يتحركون باسترخاء ضمن المساحة المرسومة، انتظاراً لاكمال الترتيبات اللازمة لبدء اللعبة.

لمحتُ وجهاً خُيل الي انني عرفته.. امعنت النظر، انه الشخص ذاته رغم لحية قصيرة كان قد اطلقها.. بالتأكيد هو!.. زهير القيسي لا غير، زميلي في مدرسة المتوسطة الغربية، لاعب الشطرنج الذي لا يُجارى فيها..

اسرعت تجاهه، وحين لمحني، خطى بدوره لثقتي وتتعانق عناقا حارا، ودخلنا في تفاصيل شيقّة عن الفترة الفاصلة التي سبقت لقاء الصدفة العجيبة هذا.

لم اعرف عنه اي شيء اثناء الفترة الدراسية مما يشير آنذاك الى اتجاهه اليساري، غير ثقافته الواسعة والندوات الادبية التي كان يشترك بها.. كان على قدر كبير من الهدوء والاتزان يسبق بكثير اعوام عمره. قام زهير بتعريفي على افراد المستنقع المتواجدين في الساحة، وبالطبع كان يسبق اسمي في التعريف ابن الاستاذ المهدي.. .. كان ترحيب المستنقع عطرا وساراً.

حين عدت الى ردهتي وتوجهت لا ستريح جالسا فوق فراشي الممدود، قابلني نفس دليلي الى الردهة عند اول دخولي الى السجن معاتباً بلطف. - " هذا مو صحيح، آني اشوف من الأحسن لو تبتعد عن جماعة المستنقع " .

رددت ابتسامته بابتسامه وواصلت خطواتي، لاجلس على فراشي قرب محمد صالح ..

- " كقول لي ابوجاسم الله يخليك، شنو يعني " المستنقع "؟!.. كنت اهمس بخجل الأمي الجاهل بكلمات تساؤلي هذه مقربا فمي من اذنه.
- " هذوله جماعة راية الشغيلة " .. رد علي بهمس ايضا وهو يبتسم..
زاد الغموض علي!

- " وشنو هاي راية الشغيلة!؟
- جماعة منشقة عن الحزب الشيوعي الرئيسي، اي منشقين على جماعة القاعدة . ثم معقبًا:
- " شوف صاحبي لا تدوخ راسكْ بهذي الامور! كلها يومين على الاكثر وتطلع وتستراح من كل ها اللغوة "

كنت مدعوا في الليل في الردهة الثانية لجماعة القاعدة الى عشاء خاص على شرف قدمي، عند رفيق اقدم في السجن.. صادق الفلاحي..
.. كان الاحتفاء والعشاء (تمن ماش)، كلاهما حاراً ولذيذاً.
تم اصطحابي ليلا بعد يومين الى غرفة ضابط برتبة عالية في مبنى وزارة الدفاع .
.. بالاضافة الى الضابط العسكري الكبير، كان المهدي جالسا يحتسي فنجان قهوته.. الاثنان منشغلان في حديث ودي حار.
.. واجهني المهدي با بتسامة طليقة، وواصل اكمال حديثه.
اشار الضابط عليّ بالجلوس، واعطى باشارة من رأسه علامة الانصراف للشرطي الذي رافقني اليه.
.. خرج آخر معلّم من معالم الحبس، بعد ان أدى تحيته العسكرية.

كانت الساعة تقارب العاشرة ليلا حين غادرت مع المهدي غرفة الضابط الكبير.

احسست بسعادة غامرة وانا امشي الى جانبه فوق ارصفاة وزارة الدفاع الطويلة.

.. كنت اشاركه صمته ساهما واحس بحرارة تشع من وجهي وتبعث في جسدي قشعريرة لذيدة.

حين تجاوزنا آخر جندي عند بوابة وزارة الدفاع، تقدم خطوتين باتجاه شارع الرشيد.. توقف ساهما لحظة قبل ان يلتفت إلي ويلمس وجهي برقة..

مدّ ذراعه اليمنى ليحتضنني الى جنبه بشدة:

- ابني انت محموم!

" ته يا ربيع "

خرج الحمد المهدي من معتقل (ابو غريب).
عادت مليكة من مهربها في النجف.
خرجت من السجن المركزي، إثر وساطات لدى اعلی الجهات الحاكمة
ليصبح حكم المجلس العسكري، ستة اشهر مع وقف التنفيذ، لمدة سنتين
(تحت المراقبة)... ارسل علاء الدين الرئيس، مدير الاعدادية المركزية
بطلبي اثناء حصة الرياضيات.
جلس وراء مكتبه الضخم، بوجه عابس، وعينه الحولاء تتراقص في
زاويتها الطرفية:

_ عليك بالانتقال الى مدرسة أخرى!.. لا يمكن أن يكون بين طلاب
صفوة بغداد، رواد سجون ومواقف، ومحركي شغب واضرابات
شيوعية.. إن لم تنتقل فسأجد وسيلة لفصلك.. تدبر أمرک احسن!!
انتقلت! وتم قبولي - وبوساطة الحمد المهدي - في ثانوية الاعظمية.

سارت اوضاع المهدي من سيء الى اسوء، وعلى اغلب الجبهات.
.. الصحيفة أغلقت.

.. محاولات فتح صحف اخرى باسماء مغايرة لم تدم طويلا.
.. فجأة بدأت عليه حملة تشهير وشتائم في الصحف..
لم تقم اية صحيفة او قلم يساري، او وطني، أو صديق بالرد عليها.
..تم تجاهل اليسار الوطني، لدور المهدي الرائد، في حركة انصار
السلام، ليضعوا اسماء أخرى، دون اية اشارة الى أنه كان الممثل
الوحيد عن مثقفي البلدان العربية كلها، في مؤتمر وارشو مع بيكاسو
وجوليو كوري وغيرهم من عباقرة الفكر والابداع في العالم..

تجاهلوا دوره في حركة نضال الجماهير، وهو الذي كان قبل أمد قصير نشيد حشود الشباب، في انتفاضاتها وصوتها الهادر في قصائده، في وثبة عام ثمانية واربعين، ولا قيل اسابيع من شتائم الصحف، حين حوّل احتفالاً للترحيب بالمحامين العرب في مؤتمرهم ببغداد، الى تظاهرة صاخبة وهو يلقي قصيدته:

سلامٌ على حاقِدِ ثائر
على لاحِبٍ من دمِ سائر

يَخْبُ وَيَعْلَمُ أَنْ الطَّرِيقَ
لأَبْدِ مُفْضِ إِلَى آخِرِ
سلامٌ على جاعِلِينَ الحَتُوفِ
جسراً إِلَى الموكِبِ العَابِرِ
سلامٌ على مُثْقَلِ بالحديدِ
ويَشْمَخُ كَالقَائِدِ الظَافِرِ
كَأَنَّ القِيودَ عَلَى معصمِهِ
مفَاتِيحَ مُسْتَقْبَلِ بَاهِرِ
سَمِيرَ الأَذَى وَالظَلَامِ الرَهيبِ
خِلا الحَيِّ بَعْدَكَ مِنْ سَامِرِ
سَلِمْتَ فَإِنَّكَ فِي نَاطِرِي
فإنْ غَبْتَ عَنْهُ ففِي خَاطِرِي

رافد في سجن الكوت، وقد مرّ عشرون يوماً على إضرابه ورفاقه
الشيوعيين عن الطعام...ألقي القبض على ابن المهدي الحمد قبل اسابيع
من ذلك، لحمله منشورات الحزب ولحيازته على كتب (هدامة) تمّ
كبسها في غرفته من منزل المهدي
..حُكّم عليه بالسجن لمدة ستة اشهر .
زرته في سجن الكوت بعد خروجي من السجن المركزي في بغداد.
.. قَدِمَ بملابس السجن المخططة فبدت مهلهلة عليه.
..أصبح نصف ذلك (الرافد)،الذي كان ضعيف البنية اصلاً.
بدا اصفرأ كمن نُقِعَ طويلاً بماء الكركم.
.. غارت عيناه، وبدت عظام وجنتيه محددة واضحة، وكان عليها غشاءً
رقيقاً لاصقاً يسهل انتزاعه.
.. برزت اسنانه الامامية ونطّت اذناه الى الخارج كوريقتين يابستين.
كدتُ ابكي، غير اني تحاملت، لأبعد عنه همأ اضافيا هو في غنى عنه.
حاول طمأننتي بحديثه، فخذله صوته الذي بدا لي فحيح شبح مخيفاً
فصمت.. وصمتُ.

مع اغلاق السلطات صحف الحمد المهدي التي يصدرها والتي يرأس تحريرها، أخذت بقايا المطبعة العزيزة عليه التي باعها تنفذ، بعد أن قضت اسنان افراد عائلته الكبيرة الجياع، حديدها وصفائح احرفها الرصاصية ومصاطب ترتيبها، واكداس ورقها.. لم يُطق الحمد المهدي صبرا على سكوت اليسار، (صفوة احبته) في الدفاع عنه، على حملة التشهير الصحفية الواسعة، فكان ردّ الجريح المكلوم

عُذِيتُ بِشْتَمِكَ سَيِّدَ الشُّعْرَاءِ
دِيدَانُ أَوْبِنَةٍ بَغِيرِ غِذَاءِ
عَلِقْتُ زَوَاجِفَهَا بِمَجْدِكَ مِثْلَمَا
طَمَعَ الْعَلِيقُ بِدَوْحَةِ سَمَاءِ
مَنْ عَالِمِ الْجَبْرُوتِ نُزِّلَ عِنَصْرٌ
كَانَ الْغَرِيبَ بِعَالِمِ الْجِبْنَاءِ
كَانَ الْغَرِيبَ بِعَالِمِ مُتَمَخِّضِ
عَنْ خَائِنٍ وَمُخْرَبٍ وَمُرَائِي
وَأَنَا الْفِدَاءُ لِمُخْلِصٍ مُتَعَذِّبِ
أَمَا الدَّعَى فَفِدْيَةٌ لِحَدَائِي

لم يمض وقت طويل حتى تعمد الحمد المهدي تسريب اخبار نواياه، في مشاركته بقصيدة في احتفالات تنويج جلاله الملك فيصل الثاني.
..تسريبٌ أتقن صبّه في منافذ عديدة، عن عمد مسبق، وتشفٍ غاضب.

بدأت اصواتُ الصحف، المفترض كونها تقف ضد توجه شارع اليسار، والتي كانت تنهش فيه، بدأت تخفت وتختفي تماما بعد حين. كان ذلك شيئا غريباً غامضاً.

.. وضعَ الحمد المهدي له تفاسيره واحتمالاته الخاصة به.. زاد ذلك من تصميمه، على تحويل الشائعة التي سربها بنفسه، الى جعلها هدفاً وحقيقةً مُنجزة..

.. تصميمٌ اكيد على المشاركة في احتفالات التتويج.

بدأت وفود، ممثلةً لمختلف اتجاهات الدرب اليساري، في القوم الى دارنا في محلة (الحارة) وراء جامع الامام الاعظم.. دار متواضعة في زقاق شعبي، يكفي للحمد المهدي فيه، انها تطل على ضفاف دجلة صيفا، وتخوض مسناته وشرفته في مياهه خريفاً.

كان قدوم جماعات من (الافندية)، فخمي الاناقة، عبر الازقة المؤدية الى الدار، شيئا غريباً على أهل الحارة الفقراء الطيبين، ممن اعتادوا قبلها على مفارز صغيرة من الشرطة، تقدم لتصطحب فردا او أفرادا من نفس هذه الدار التي يزورونها، ليقنادوها الى مخفر او معتقل او سجن.

كل مساء تقريبا وعلى مدى ايام طوال كانت غرفة الاستقبال تضيق بهم، فانقل صواني استكانات الشاي اليهم، وتصخب أذني خلالها برجاءاتهم وهدير صوت الحمد المهدي الغاضب:

__ ساشارك!! ولي الفخر ايها السادة الكرام النشامى، ذوي النخوة في مواقف الضنك وفي العدوان عليّ، تلك المواقف التي لن انساها، والتي غمرتموني بها في الاشهر الفائتة، وفي السنين الاربع الاخيرة.. لي الفخر ايها السادة الكرام أن اشارك في التتويج، ثم يعلو صوته أكثر:

_ إن القصيدة كاملة!!.. كاملة!! كاملة هنا في جيبي!! ويضرب على
جيب سترته.
(لم اسمع الحمد المهدي يدندن بهذه القصيدة قبل حضور مجاميع السادة
الوافدين.)

أضواء خافتة على الموائد، ونشرات مصابيح الزينة تلمع بعيونها الملونة بين اوراق واغصان اشجار حدائق القصر العاليه.
.. الحان موسيقى هادئة تعوم في الاجواء، تعزفها فرقة موسيقية نصف متخفية في عريشة مزينة عند زاوية قصية..
رجال ببدلات (فراك) و(سموكنك)،.. بعضهم بقبعات طويلة سوداء، وآخرين تلمع شعورهم المدهونة بـ(البرلنتين).

.. الكل بصدرات بيضاء و(بابيونات) تشدّ ياقات الاعناق المُتَشَاة.
.. ايديهم التي تبرز من أكمام كارتونية بيضاء طويلة صلبة، مزينة بـ(كافلنك) من الاحجار الكريمة، او الذهب او العاج، تمسك اناملها، بطريقة غاية في الاناقة والرقّة، اقداحاً طويلة بشراب ذهبي، يتصاعد منه حباب بوشوشة ناعمة.

نساء بتبرج ناعس رقيق لوجوه مرحة مغناجة، بقبعاتٍ عريضة هفافة، تنسدل تحتها شعور شقراء وصهباء وسوداء طويلة، وجدائل باشرطة منمنمة او مزخرفة وملونة مزينة، تنسرح فوق بدلات طويلة، اكثرها بيضاء موردة، مرصعة باحجار كريمة لامعة، تزحف اكثر اذيالها، فوق بساط نجيل الحدائق الناعم المقصوص بعناية فائقة.

نُدُلُّ شقر طوال ببدلات من لونين: بنطال ضيق ازرق، وصدرات صفراء بازرار نحاسية لامعة، يحملون صَوَانٍ صُنُفَت فوقها اقداح طويلة بشراب ذهبي يتصاعد حبابه الى سطحه بوشوشة ناعمة.

الجميع يتحرك ببطء وارتخاء مدروس، وكأنهم يسرون وفق انغام خفية تحدد مسارهم، وطريقة حركاتهم، وتوقفاتها الانيقة الناعمة.

دخل الحمد ببذلته (السموكنك)، التي استأجرها له صفاء، من محل (ساسون) للبدلات الرسمية، المجاور لمقهى (حسن عجمي)، بعد أن أخذ ساسون مقاساته.

تلقت يمينا ويسارا عند طرف حدائق القصر.
.. لم يلتفت أحد الى وجوده .

.. تريتت ونظر الى الجمع الملون -الغريب- القريب منه.

.. راقب حركته!... الوانه المزركشة!.. همهمة اصواته!.. ألفاظه المطعمة بكلمات اجنبية، انكليزية في الغالب.. تابع الحركة البندولية المرسومة بين رجاله ونسائه..

النذل الشقر الملونون، يعبرونه من جانبه بصوان فارغة، واخرى تحمل فوقها اقداح الشراب الذهبي ذي الحباب الموشوش.
توقف نادل ملون بالازرق والاصفر وسأل:

Pardonnez-moi mon monsieur..Tu connais ta place? _

_ Oui..oui!..اجاب الحمد، وهو نصف مشتت مشدوه.

.. وجد غريباً جداً عليه، وهو الحمد الكبير، أن لا يتهافت الى حضوره العديد من الجالسين،.. أن ينهضوا ليرحبوا به على موئدهم، لا أن يقوده صبي ملمع ملون مزركش، ليجد له مائدة قصية في زاوية منبوذة منزلة.

تردد قليلاً..

" عُذ!.. عُذ ايها الحمد!! إنه ليس مكانك ابدًا.. عُذ!! "

" أعود؟!.. كيف أعود بعد موقفي الصلب المتشمت بالوفود الكثيرة التي تقاطرت عليّ ممن يُدعون باليسار الوطني.. أعود لتهريني الشتائم التي يركون فيها عناصر يمينهم المدسوس؟؟.. أعود الى جياع بيتي الكثر، ليقتضوا حديد المطابع، وصفائح حروفها الرصاصية، وكتل ورق المطابع؟؟!! "

" إثبت!!..إن هي إلا لحظات،.. دقائق،.. ساعة او ساعتين من المحنة، ويستقر بعدها كل شيء في مكانه!!.. كم محنةٍ وكم من موقف صعب خطر رميت نفسك فيه متحديا، او حتى مغامرا.. لكونها مغامرة لا غير.. خُضت غمارها لاختبار نفسك وقدرتها في التصدي، غير واضح للعواقب التي قد تكون مهلكة اي حساب "

" خُض هذا المجال الغريب امامك!.. وليكن ما يكن!! "

اندسّ الحمد بين الدُمى الانيقة الناعمة شبه الراقصة بعذوبة في حركتها.. التقت بين الموائد العديدة المنثورة باحثاً عن مائدة غير مشغولة.. وجد مائدة شاغرة، ليست معزولة، يشرف منها على المشهد.. الصخب فيها قليل.

المكان غير بعيد عن منصة واسعة، يتوسطها مسند اوراق يحمل الشعار الملكي تنتصب حوله مايكروفونات عديدة.

ارتفع تصفيق مُنظّم، حين دخل جلاله الملك فيصل الثاني والى جانبه خاله الوصي عبد الإله وورائه الحاشية الملكية، يتبعهم اعضاء الحكومة وكبار مسؤوليها، يتقدمهم نوري السعيد.

جلس الجميع على موائدهم القريبة من المنصة.. لم تكن مائدة الحمد بعيدة عنهم.

رفع البعض كؤوسهم الطويلة تحيةً للملك الشاب.

بعد أن آنس الجمع المحتفى به الى امكنتهم، وخفّ الضجيج، وجلس من في الحفل.. سرّت احاديث وضحكات شبه هامسة..

انتبه بعض الجالسين من موائد الحاكمين، الملتفين حول نوري السعيد وفاضل الجمالي والمدفعي، الى وجود الحمد غير بعيد عنهم.

.. نهض البعض وأشاروا اليه يدعونه للانضمام الى موائدهم.

بدأ عريف الحفل بالتهنئة والدعاء لصاحب الجلالة.
..رُفعت الانخاب من جديد تحيةً.

بدأت الكلمات فوق المنصة، من رئاسة الحكومة، ثم كلمة مدير الديوان الملكي، الذي قدّم سجلّ الملك واصله وحسبه ونسبه ومآثر العائلة الهاشمية ودورها في تقدّم العراق وتطوّره.
تلا ذلك قراءه برقيات التهاني من الملوك والرؤساء.

.. والآن يتقدم الشاعر الحمد الكبير لإلقاء قصيدته: اعلن عريف الحفل.
نهض الحمد.

.. تعثر بكرسي أمامه.

.. استقام وعلّ من هندامه.

.. مشى بخطوات قصيرة متمهلة صوب المنصة.

أفردَ اوراقا عديدة فوق المسند وراء الميكروفونات العديدة.

.. ضاع بعض شحوب ملامح وجهه خلفها.

.. تمهّل قليلا، وهو يسرح ببصره بين الاوراق امامه، وكأنه نسي شيئا
عليه استنكاره.

..أخذت بصوته بحةً، ازالها بنحنة خفيفة معذرا:

تَهْ يَا رَبِيعُ بَزْهَرِكِ الْعَطْرِ النَّدِيِّ

وَبَصْنُوكِ الزَّاهِي جَلَالُ الْمَوْلِدِ

وَأَلْبَسَ بِوَرَقَتِهَا الْبَهِيَّةَ خُضْرَةً

هِيَ مِنْ شَعَارِ وُلاَةِ عَهْدِ مُحَمَّدٍ

الشَّعْرُ مَا وَجَدَ الرَّسُولُ رِسَالَةً

تُهْدِي الشُّعُوبَ إِلَى الطَّرِيقِ فَتَهْتَدِي

فَأَعْدُ عَلَى بَغْدَادِ ظِلِّ غَمَامَةٍ

بِاللُّطْفِ تَنْضَحُ وَالسَّنَى وَالسُّودِدِ

ولتزدهرُ بكِ دولَةُ الشعرِ التي
كانت تسودُ بِسامعٍ وبمُنشِدِ
تتمازجُ الألوان فيها عن سنيِّ
شَفَقِ كُلِّ صَبِيغَةٍ مُتَوَرِّدِ
عن بَأسِ (هارونِ) ورقَةٍ (مَعْبِدِ)
وهوى الخليجِ بِها ونُسكِ (المُهتدي)

صفق الحاضرون بأدبٍ مُحْتشَمِ رقيقٍ للحمد.
حين عاد الى مكانه من مائدة (السعيد) و(الجمالي)، مجففا عرقاً تحبب
على جبينه.
التفت اليه الوصي عبد الإله من مائدته المجاورة:
_ لم يكن ذلك إلقاءك ايها الحمد، ليس ذلك المعهود الذي نعرفه، كما
في يوم الإحتفاء بمقدم الرئيس الخوري، ولا في غيره مما سمعناه في
الاذاعات.
_ إنه الرشح اللعين الذي عانيته مؤخراً يا صاحب السمو.

الحمد مزارعاً

مكافأة (ته يا ربيع) الملكية، ارضاً زراعية كبيرة في (علي الغربي)،
وسلفة كبيرة من المصرف الزراعي، استطاع الحمد أن يحصل عليه
بيسر .

انتقلت العائلة الى بيت واسع في كورنيش الاعظمية، مطل على دجلة
المهدي .

كانت نتيجة امتحان (البكالوريا) لصفاء، الميئوس منها في قناعة
الجميع، بعد الحبس في مواقف الشرطة، والمعتقلات، والسجن
والمحكومة المعلقة (مع وقف التنفيذ) وما يترتب عليها من مراقبة
ومراجعة (التحقيقات الجنائية) الدورية.. كانت النتيجة مفاجأة للجميع
وعلى الاخص الحمد المهدي..

.. حصل صفاء على اعلى المعدلات، التي تفتح امامه باب البعثات
والزمالات الحكومية للدول الاوربية، وانكلترا على رأسها، وبالطبع
لأي كلية يريدتها في بغداد.

على جلسة شاي المساء التي تجتمع فيها العائلة كلها، في الشرفة المطلة
على النهر الواسع، خلع المهدي ساعته (اللونجين) من معصمه،
ليضعها في معصم صفاء دون احتضان، هازا رأسه بتعجب وابتسامة
مشاكسة:

_ وهائي هم وحده من مفاجأتك يا ابو حسن.. عجيب أمرك.. بيك كل
النقائض الحلوة والمرّة.. يله، الطبية كدامك.. دكتور!، قالها حاتاً
ومبتسماً.

لم يطل الامر بنا في البيت الرائع في اطلالته قرب جسر الامامين،
لرغبة صاحبه في سكنه هو وعائلته.

لم يحصل صفاء على بعثة - مغامرة - اوربا الحكومية، رغم كل التوسطات، فلن تسمح ابدا دائرة البعثات، ولا التحقيقات الجنائية بأرسال اي عنصر (هدام)، في بعثات الى الخارج، ليكون بوقا ضد النظام، وهو ما تعاني منه الدائرتين حالياً وخصوصا في انكلترا، من بعض طلبة بعثاتها الحكومية.

لم يكن امامه، وبعد خيبة الامل الكبيرة، إلا الدخول الى الكلية الطبية، التي كانت مطمح النخبة المميزة.

انتقل الحمد مرة اخرى الى بيت الوزير السابق (سامي فتاح)، في منطقة سكنية راقية قرب (النادي الاولمبي).

اعطيَتْ غرفة نوم خاصة (لطبيب المستقبل)، في حين راح الآخرون من العائلة الكبيرة، ينامون في غرفة واسعة كبيرة واحدة، بما فيهم رافد ابن الحمد المهدي البكر..

كان ذلك التمييز سبباً في رواسب نفسية عميقة (اوضحها رافد لشقيقه بعد عشرات السنين وهو على فراش مرضه الفتاك)، في حوار رائع الصراحة والرقّة:

"_ لم كنت تخرب ما أحرص عليه، بين الحين والآخر.

_ الغيرة!!

لم يزد الشقيق الا شيب المريض، على هذه الكلمة بحرف وهو ينظر الى صفاء وكأنه يقول بشكل واضح.. "كلمة تغني عن شرح طويل.. وانت سيد العارفين!"

بدأت زيارات الحمد لمزرعته في (علي الغربي)، للتفقد والتعرف عليها، وعلى احتياجات استصلاحها واروائها وفلاحتها.
.. زيارات ليومين او ثلاثة، تتكرر كل اسبوع او اسبوعين..
انقلبت الآية.
اصبح يزور البيت في بغداد ليومين او ثلاث، يغيب اسبوعا او اسبوعين في مزرعته.

ها هي مشكلة مفاجئة مقلقة امام المهدي..
.. اعلن صفاء رغم كل امتيازات الموقع، في ارقى مؤسسة دراسية في العراق، ورغم امتيازاته الخاصة في البيت، اعلن عصيانه، رافضا كلية الطب ومستخدما كل اساليبه الملتوية بالاقناع، ومستغلا بعض الظروف الحقيقية في خطر حكم (السجن مع وقف التنفيذ) المعلق، وبعض ملاحظات بسيطة من اجهزة الامن، وأن يرضخ الحمد، وبمرارة، الى اصراره على ترك درب الطب، والسفر الى انكلترا، بل وحتى الى اية بقعة خارج الوطن، على النفقة الخاصة، لدراسة الهندسة المعمارية، التي لم تكن موجودة آنذاك في العراق، مستغلا ظروف الحمد التي تحسنت آنيا.

كانت لحظات مغادرة حافلة نيرن المتجهة الى دمشق، عذاب نفسي، وتأنيب ضمير رافقني العمر كله، وأنا أرى الحمد المهدي، الذي بدالي ولأول مرة، كهلاً منهك، غير حليق، بوجه شاحب، اختلطت فيه شعرات بيضاء بين اخرى ناطأت سوداء، بعينين محمرتين شبه زائغتين، وبغير تلك الاناقة التي أعرفها في ملبسه، يصعد الى الحافلة قبل لحظات من صعود الركاب اليها، ليضع كفيه متلمساً طراوة المقعد الذي سأجلس عليه في الرحلة الطويلة..

حين تحركت الحافلة وأنا ارقبه ويرقبي من نافذتها، لم يرفع يده مودعا، كانت شفتاه مطبقتين وعيناه تتابعانها وتتابعاني وهي تتبعد ببطء.
لم أبك في لحظتها، كي لا ازيد المهدي همماً، غير أن هزة البكاء كانت تخنقني في مراحل عديدة من الرحلة كلما تذكرتها.
.. ومن دمشق الى بيروت والى ظهر سفينة (ميستراديس).

في البيت الطيني الواسع بغرفه العديدة الواسعة الملبوخة بالجص من الداخل والمطلية بدهان ابيض، وبساحة وسطية مفتوحة للسماء والشمس، تتوسطها بقعة بنخلتين برحيتين، نشوتين معرّشتين بسعفهما الاخضر الداكن الهفاف، فوق شجيرتي رمان، أزهرتا باقداح حمراء زاهية، تحوطهما نباتات صغيرة واوراد، تعبت ببعضها، وتبحث بينها نائرات التربة الرخوة التي حولها، دجاجات نزقات، يرقبهن دائرا حولهن بزهو وكبرياء (الشيخ صيهود)، ديك بالوان بنفسجية وزرقاء وصفراء وسوداء وعرف امبراطوري أحمر.

ساحة البيت قد رُشت قبل قليل، وعبقت رائحة الارض العطرة كما بعد مزنة سريعة عابرة..

على أحد التخوت العديدة المرصوفة حول الساحة التي غطيت بأفرشة وبسط ريفية محاكاة بالوان ونقوش بدائية بهيجة، وضعت فوقها وسائد اسطوانية كبيرة حريرية براقية، انسرح رجل في الخمسينات بغُترة نجمية منسدلة من على هامته، مسترخيا بجسمه الطويل، وقد لفّ على ركبتيه الملمومتين، اطراف صايته وعباءته الجَز..كانت عيناه ترقبان ذيول الغروب العابرة في السماء..

..تُسمع منه دندنة بنغم يشبه الحدو البدوي..

.. لم يكن شيخ الأعراب هذا إلا الحمد الكبير.

لا زال نور الفجر لم يخترق تماماً أو شحة الضباب الخفيفة، وبدت الشجيرات ونخلات الضفة الشرقية المقابلة، كاشباح تحاول ان تشق طريقها لتخوض في مياه النهر العريض المتدثر تحت ابخرة واوشحة زرقاء رمادية..

هبت نسمات باردة، معطرة بروائح اعشاب الضفاف الندية، وشجيرات السعتر الصغيرة، واوراق اشجار الكالبتوس القريبة من الشاطيء..
لقت عباةته الجز حول قامته، وعدل من شماغه على جانبي وجهه..
تمطى ثم افرد ذراعيه عبر ردني (زبونته) فكادت أن تفلت عباةته عن كتفيه.. أخذ نفساً نشواناً عميقاً وعلا صوته، وهو يرفع رأسه الى السماء، التي انفرج عنها ضوء خجول يمزق حواشي الظلمة:
_ إيه دنيا!!

بعد وقفة سارحة على ضفة النهر، الذي بدأ يكشف عن وجهه قليلاً، من خلال اوشحته الضبابيه وابخرته، مثل عروس خجول تتمهل في رفع برقعها، مشى سارحاً وهو يتنصت الى عندليب بدأ غنائه من على غصن قريب، وصياح ديكة تناهى من بعيد، لا بد وأن شارك فيها (شيخ صيهود)، ديكه المدلل، وثغاء شاة تنادي حَمَلْها، وهديل حمامات على الجرف القريب.. ومعها امتزجت اصواتٌ نغم متواتر، لضابط ايقاع طبال، في فرقة موسيقية:

_ دُم، دُم.. دُم، دُم.. دُم، دُم.. دُم، دُم.. دُم، دُم.. دُم، دُم..

كان صوت آلة الطبل، ماكنة السقي التي اشتراها قبل فترة قصيرة لتصب مياهها الدافقة في الجدول الذي يسقي ارضه الزراعية.
وقف الحمد عند ملتقى النهر بالجدول، يرقب بانهار، تدفق المياه المندفعة بعنف وصخب، من فوهة انبوب الماكنة الضخم.. يرقب انحدارها السريع الى الجدول الذي تختلط وشوشته بدمدمة الماكنة وتكتكتها..

" شيء عجيب.. هذا الحوار السحري بين الجدول والماكنة المرتجة

فوقه.. لغة خاصة.. شعر منعمٌ حقاً "

مشى على حافة جدولهِ..

" جدولي!!.. ماءي!!.. ارضي!! زرعِي!! فضاءي الرحب.. نعم.. أنا
المزارع!!.. اين كنت طامرا نفسك، في غور اقبية المطابع وسخام
حبرها ورصاص حروفها؟!.. اين كنت من هذه الجنان، وانت تخوض
في مستنقعات السياسة ودهاليز مؤامراتها.. اين كنت من هذا ايام الفاقة
والعوز حين يعرض عنك اقرب المقربون والاصدقاء.. أثنى كل هذه
الحرية، وهذا الفردوس البعيد-القريب، كلمة؟!.. ثمناً مقولة، سمّها
شعراً او ما شئت.. اكل هذا العطاء الإلهي لأحرف رمزية جرداء " ته
يا ربيع " .. ولتكن احرف من ذهب او من نور، ولتكن جريدة الجرائد،
فهل يستحق كل هذا الذي امامك وكل ما تتعم فيه "
أعاد النظر الى جدولهِ!!.. جدولهِ المتدفق بالحياة.. سرح قليلاً قبل أن
يرفع رأسه ويعلو صوته:

_ أيهُ دنيا.. دنيا!!

حين اعاد النظر ومسح ببصره الافق الرحب للحقول الممتدة امامه،
بدت له من بعيد توهجات تنانير شجر، بين تجمعات بيوت طينية
صغيرة وخيمات متناثرة.

على هضبة صغيرة معشوبة، تحت شجرة توت ضخمة، اتكأ راعٍ
بظهره عليها ممسكاً بنايئه، يعزف الحانا هادئة عذبة.
كانت اغنامه وبضعة عنزات يسرحن غير بعيد عنه، انشغلت بعضهن
في قضم الاعشاب الندية الطرية في حين اقتعد واستلقى البعض الآخر
على جنبه بكسل ونعاس.. تقافزت بعض الحملان وراء بعضها تلعب
بمرح، فيما دار كلب اصهب حولهن راصدا مراقباً، مطارداً فردا
وآخر، ممن يحاولون الابتعاد.

اقترب الحمد وهو يرقب المشهد بانبهار وجدل.
..كانت هنالك شاة سوداء يقف تحتها حملها الصغير، يسحب حلماتها
القرمزية العاتمة الطويلة، الواحدة تلو الاخرى باصرار وشدة، تتلمل
منه الأم المرضعة فوقه.. تقف صابرة رغم ألم الهصر والشد
لضروعها.
توقف عند المشهد المثير.

.. لم يتزحزح عن مكانه لحظة وهو يحني راسه متابعاً، وعلى وجهه
ابتسامة عطوفة..

تحركت الشاة مبتعدة بهدوء بعدما ايقنت من إشباع رضيعها.
اقترب الحمد من الحمل الرضيع.. مدّ اصابعه الى خطمه.. تلمّظ الحمل
اصابعه وامتص اطرافها.. رفعه ووضع على صدره.. احتضنه وسار
به صوب الراعي اعتدل الراعي ثم نهض عن مكانه:

__ صباحكم الله بالخير!

__ وصباحكم الله بالخير والعافية والسرور مَحْرُوس!

__ شكّد عُمر هذا الحَمَل؟

__ اسبو عين ويومين مَحْرُوس.

__ شجئِر يُضَلُّ يرضع من أمه؟

__ مُو هواي.. جَم اسبوع.. عَمي كل وحيّد وإله وكث بالرضاعة.. وكل

أَمْ وإلها مزاجها شوكتُ نُقْطَمَةٌ.. تُرْفَسُه وما تخليّة يُمُصُ بحلماتها.. والله
مثله عمي المَحْرُوسُ هُنَّ هم مزاجات.
ضحك الحمد بانطلاقة كبيرة .. نظر الى الناي المرمي قرب قاعدة
الشجرة..

_ شلون تعلمت هذول النغمات على الناي؟

_ الناي هدية من صاحبي، والنُغماتُ والمولات تدور بكل شي حُوْنَهُ..
بالشِجْرُ والهوا والمائي الجاري والمطر، وبالمناحه والسبابة، وبهلهولة
الفرح.. عمي والكل هُنِيْ يغني بس إنطية حَجَّة.. عرس، لو ولادة، لو
طُهور.. بالفِرْحُ يغنونُ عمي وبالضوجة يُغنونُ، حتى بالحزن تشوفه
يندبُ بموال ويغني..
طرب الحمد لحديث الراعي.

.. مد يده وأخرج بضعة دنانير من جيب صايته.
.. عرضَ كفه الممسكة بها صوبه بلطف وبابتسامة..
أجفل الراعي وتراجع الى الورااء..

_ لا وْحَكُ المَحْرُوسُ.. خيرك جِئِر وسايحُ، والله يزيدُه!.. حَسَافَةُ عمي
المَحْرُوسُ ما عندي شيّ اضيْفُكُم بيه.. اترىك الفجرية، واطلع ادور
اجمع غَنَمَاتِ الفِلْحِ، اسرُحْ بيهنُ ويَّ غنماتي، ومن اعطش، مية الساكية
الحلوة نشربها سوية أني وربعي من الغنيمات، ومن ارجع بيهن كَبَل
آذان العصر أكل لكيماتي ويه مرتي وعيالي.. لا زاد ولا زوَاد اشيلن
وياي.
أحتضنه الحمد.

.. قبل الراعي كتفيه ثم أخذ رأسه بين كفيه وقبله من رأسه.
حين تركه الحمد ليعود وهو شارد الذهن، التفت بعد حين ونظر الى
المرعى الذي غادره. شاهد الراعي يَهشُّ بعصاً، غنماتٍ سارحات.
في جلسته المسائية المعتادة، المنسرحة فوق أحد التخوت، ابلاغته (أم
جلاب) التي ترعى شؤونه، عن شخص عند بوابة البيت يقف منتظرا

راجيا مقابلته..

كان الراعي يحتضن على صدره الحَمَل الاسود الصغير بيد، في حين
تمسك الاخرى بقياد الشاة.

_ عمي المَحْرُوسُ، طَوِيلُ العَمْرِ.. يَخْلِيكَ اللهُ وَنَبِيهِ وَأَلْهُ، لَتَقْبَلُ مِنِّي
هَذِي الْهَدِيَّةَ الصَّغِيرَةَ، عَلَى زِيَارَتِكَ الْحَلْوَةَ لِمَجَانِي.. كُلُّ فَجْرِيَّةٍ أَجِي
أَخْذَهُنَّ وَيَايَ لِلرَّبِيعِ، وَيَهْ بَقِيَّةَ غَنَمَاتِ جِيرَانِي الْفَلِخِ وَيَّهْ غَنَمَاتِي
وَارْجِعُهُنَّ لِحَنَابِكُمْ كَبَلُ أَذَانِ الْعَصْرِ.

انتهت دندنة (المَحْرُوسُ) عند المساء فوق التخت :-

لَفَّ الْعِبَاءَةَ وَاسْتَقَلَّ

بِقَطِيعِهِ عَجَلًا.. وَمَهَلًا

وَانْصَاعَ يَسْحَبُ خَلْفَهُ

رَكْبًا يُعْرَسُ حَيْثُ حَلًّا

يَرْمِي بِهَا جِبَلًا فَتَتَّبِعُ

خَطْوَهُ .. وَيَحِطُّ سَهْلًا

أَبْدًا يِقَاسِمُهَا نَصِيبًا

مِنْ شَطِيفِ الْعَيْشِ عَدَلًا

يَصَلِّي كَمَا تَصَلِّي الْهَجِيرِ

وَيَسْتَقِي تَمْدًا وَضَحَلًا

يُومِي فَتَفْهَمُ مَا يُرِيدُ

وَيُرْتَمِي فَتَنْهَبُ عَجَلًا

وَتَكَادُ تُعْرَبُ بِالنُّعْغَاءِ

هَلَا وَحَيْهَلَا وَهَلَّا

نَايَا يَذُودُ بِهِ الْوَنَى

وَيَلَوُّنُ النَّسَقَ الْمُمَلَا

وَعَصَا يَهْشُ بِهَا وَيَرْقَى

ذِرْوَةً.. وَيُقِيمُ ظِلًّا

يا راعيَ الاغنامِ انتَ
أعزُّ مملكةً وأعلى
لله ملكك ما أدقَّ
وما أرقَّ وما أجلاً
يرويك من رشفاته
قمرُ السماء اذا أطلَّ
ويقبك في وعثِ السرى
وهج المجرة أن تظلا
وتلم في الأسحار
عنقودَ النجوم اذا تدلَّى

اكتملت مظاهر الربيع لا بالارض وحدها، التي اعشوشب جانب منها وانتشرت بينها ورود برية صغيرة بيضاء وصفراء، وازرقت بقع اخرى بالخزامى، وتمايلت شقائق حمراء مجاميعا من بساط مرهف خفيف، تتلاعب به الريح، فتبان حبيبات سود راقصة على سطحه المتموج، في حين نفرت شاردة شَفِيقات فرادى، ترتقي راکضة منحنية في عثراتها على أکمات ومنحدرات وشفاف الجدول العريض..

أکتمل المظهر الربيعي بالنهار المزوّق، واكتملت معه دورة البدر الازرق المائل للخضرة، الذي تتوّج بلُجينه الفضي اللامع، وانحسرت عنه وقرب حواشي دائرته الذائبة، نجيمات القبة الزرقاء البلورية نصف الشافة عند اطرافه، وتكاثفت اكثر فأكثر كلما ابتعدت عن محيط مملكته المتوّجة..

..خفّ بريق وهج المجرة، أمام هالة النور السحري، المتحرك بخدر وصمت بين غيمات صغيرة عابرة.

لم يطق الحمد صبيرا على متابعة البانوراما السماوية من وقفته، وقد لفت عباةته الجَز، جاعلا منها حزاما كورديا حول خصره، ومُسقطا غترته لتأخذ مكانا منسرحا فوق كتفيه..

ارتقى واستلقى على الارض المعشوشبة الندية، وافرد ذراعيه على وسعيهما، وكأنه يريد أن يحيط بُحور السماء المترامية وقبتها المخزّمة بالنجوم المتلامعة والمتغامزة وقمرها الفضي المتموّج، لا ببصره وحده، بل أن يحتضن ذلك كله بذراعيه المبسوطتين..

".. شيء واحد ينتقص من كونك العلوي كله هذا.. أن يغفو كون جميل رقيق ممشوق آخر لیتوسّد ذراعك الممدودة!"

.. "هل يكتمل جمال مفردات اي كون إلا بها.. بانثاء.. حتى الرب شغل بها " " وخلقناكم من ذكر وأنثى "!!

".. لم لا يكون الكون، بل وكل الاكوان قد ولدتها انثى كونية أم،.. اسمها أم الاكوان، مثلما نقول جميعا الطبيعة الأم.. الوطن الأم.. لن يقول ولم

يقول أحد من قبل،.. الطبيعة الاب، ولا الوطن الاب! "

"..انت بحاجة الى انثاك ايها الشيخ!، الشاعر!، الاستاذ!.. انت في حالة نقصان وضياح دونها حتى مع هذا الكون المترامي الجميل! "

.. لم يتحرك او يتململ في رقدته خشية أن يخدش الصمت القدسي الازرق.

أرعى جسده واغمض عينيه، ليتحسس اكثر نسمة ندية عابرة..

اخذته إغفاءة قصيرة، نهض بعدها بنشاط ونفض عبايته التي انفلتت عن خصره وتحزّم بها من جديد.

بدأ سيره المتمهل بين المروج التي تفاوتت وتحركت لمعانات سطوحها وعمّاتها برياح رخوة عابرة بين الحين والآخر..

أبصر من بعيد ضوءاً يرسم حواشي خيمة كبيرة ينفرج مدخلها..

حين اقترب من مصدر الضوء، اعاد وضع عبايته على كتفيه وعدّل مكان غترته من رأسه..

جلست عند مدخل الخيمة امرأة، برداء طويل اسود ضمّ قدميها المتربعتين وبعمامة نسوية جنوبية.. كان وجهها الذي تتنور ملامحه وتخبو، وفق لهيب الجمرات، التي كانت منشغلة في النفخ فيها، بين احجار مسودة ثلاث، تستقر فوقها دلة كبيرة..

كانت ملامح وجهها تشير الى منتصف اربعيناتها..

داخل الخيمة بدت فتاة في العشرينات، بثياب فلاحية زاهية الالوان تعيد ترتيب افرشة ووسائد وحُصر ملفوفة صغيرة، واخرى مبسطة على الارض.

_ مسّاج بالخير والسرور يا حَيْتِي الزائرة..
_ ومساك بالخير والصحة والسلامة يا شيخ المكارم.. تفضل
استريح..يا مَحْرُوس!ِ

_ يزيد فضلج زينة العربان.. اخاف الوكّت متأخر عليكم..
_ وشكو أحلى من كعدّات الليالي بمثل هيجي صحوة وكمرية ونسمات
عذبيات..

_ زينة!.. بنيتي زينة!.. يالاها! حصيرة ودوشك ومخدرات وطبيلية
الجكاير!.. ما ينادلج كؤل.. تعرفين اللازم زين.. واسمه عليج زين
من زينة، مو زينة من زين!
ابتسم الشيخ الحمد على هذه المقاربة الذكية
_ حاضر خالة ام عوف.

دقائق وكان الشيخ حمد قد تربّع فوق الفرش الوثير.. وضعت زينة أمامه
صحنا من التمر الأشرسي الجاف ووعاء صغيرا من اللبن الرائب.
_ ما احسب وافكر جثير.. انتو جنابكم مِلاج الكيعان الجداد، الجايين
من بغداد.. سمعنا بيكم، واليوم شرفتنا بجيتكم.. شلونهُ الكيعان وياكم
مَحْرُوس؟!.. عساها ما كصرت بضيافة أهلها الجداد؟!.. والله وشِفَتْ
خيرها بعيني من هَلَيْتو علينا.

_ كله من خير بركاتج علينا زائرة.. ما دام انتي بيهها، دوّم خضرة
وزاهية.

_ والله وكلامك حلو يا زين المشايخ.
_ فناجين الكهوة واللي وياها!!

احضرت زينة صينية نحاسية صغيرة فوقهما فجانين وصحنا به قطعة
كبيرة من حلوة الراشي.. انحنّت لتضعها امام الحمد الذي رفع رأسه
ناظرا دون وجل الى الوجه الصبوح، الخمري.. التقت عيناها بعينيه
المترصدين، فعَلَتْ وجنتيها حمرة خفيفة شارك فيها جبينها القريب
من وجهه (امسك نفسه بحزم كي لا يقبل الوجنة الخمرية المحمّرة

القريبة).

.. خفضت زينة عينيها وعادت على عجل، شبه هاربة، الى مكانها داخل الخيمة.

تكررت اماسي الحمد في ضيافة أم عوف..

..اصبحت كل مساء تقريبا على مدى اسبوعين..

طلب من أم عوف يد زينة للزواج، من يد خالتها، حاضنتها ومربيتها، وراعية كل فقرة من حياتها العشرينية..
شاورت رجال قبيلتها..

كانت ليلة الزفاف شيئا مشهودا لا في علي الغربي ومزارعها، بل وما حولها من القرى والمدن المحيطة بها ..

.. حفلة فرح كبيرة، غنى فيها مطربو الجنوب، وهززن اعطافهن راقصات مضارب العجر (الكاولية)، غير البعيد، وتقلت الابلام والمشاحيف كثيرا من ساكني (علي الشرقي) في الضفة المقابلة.

.. أطلقت الاعيرة النارية، صاحبته زغاريد جمهرة النسوة داخل بيت المحروس، وفي الخيام التي ضربت في الحقل امام البيت، ومن افواه اللواتي وقفن فارعات يتمايلن مع الانغام والمواليات، وسط حشد من الرجال، الذين امتدت رؤوسهم لتتطلع من خارج البيت عبر بوابته العريضة المشرعة.

يا أم عوف عجيبات ليالينا

يُدنينَ أهواننا القصوى ويُقصينا

في كل يوم بلا وعيٍ ولا سببٍ

يُنزلنَ ناساً على حُكمٍ ويُعلِننا

يَدفننَ شهدَ ابتسامٍ في مرآشفنا

عذباً بعلقمٍ دمعٍ في مآقينا

يا أمّ عوفٍ وما يُدريكِ ما خَبَاتِ
لنا المقاديرُ من عُقبى ويُدرينا
أنا وكيف سيُرَخى من أعتنا
تُطوافنا ومتى تُلقى مَراسينا

يا أمّ عوفِ بلوح الغيبِ موعدنا
هنا، وعندك، أضيافاً، تلاقينا
زواحفا نرتمي أنا.. وأوتةً
مُصعدينَ بأجواءٍ شواهِينا
مُز عزينَ كأنَ الجنِّ تُسلمنا
للريحِ تَنشُرنا حيناً وتطوينا

حتى نزلنا بساحِ مِنْكَ مُحْتَضِنِ
رأدَ الضحى والندى والرملِ والطينا

خِلْتُ السَمَا تهوي لتلثمهُ
والنجمُ يَمسُحُ من أعطافِهِ لينا
يا أمّ عوفٍ وما أهٍ بنافعةٍ
أهٍ على عابثٍ رَخِصٍ لِماضينا
سَمَحِ نَجْرُ بِهِ أذياننا مَرَحاً
حيناً.. ونَعْتُرُ في أذيانِهِ حيناً
مثل الطيورِ وما ريشَتُ قَوادِمنا
نَطِيرُ رَهْواً بما اسطاعتُ خَوافينا
يا أمّ عوفٍ وكادَ الحُلمُ يسلبنا
خيرَ الطباعِ وكادَ العقلُ يُردينا
خمسونَ زُمَّتْ مَلِيئاتِ حَقائِبها

من التجار يب بعناها بعشرينا

يا أم عوف برينات جرائرنا
كانت وأمنة العقبى مهاوينا
إذ نندفع فبعفو من نواز عنا
أو نرتدع فبمحض من نواهينا
كانت محاسننا شتى واعظما
أنا نخاف عليها من مساوينا
كنا نقول إذا ما فاتنا سحر
لابد من سحر ثان يوافينا
لابد من مطلع للشمس يفرحنا
ومن أصيل على مهل يحينا

يا أم عوف كواد أنت نازلة
دماً فسيحاً، ندياً كان واديننا
في مثل رملتك الحمراء زاهية
كانت تخب عفاريتاً مهاوينا
ومثل خيمتك الذكاء فارهة
كانت ترف على رمل صوارينا
لم ندر سوق تجار في عواطفهم
ومشترين مودات وشارينا
لا نعرف الود إلا أنه دنف
من الصباية يعتاد المحينا

عُفلاً اتيناكِ لم تعلق بنا عُرراً
ولا حجولٌ وإن رقتُ هوادينا
إنا أتيناكِ من أرضٍ ملائكتها
بالعُهرِ تُرجمُ أو تُرضي الشياطينا
من عهدِ آدمَ والاقوامِ مُزجيةً
خوفَ الشرورِ الضحايا والقرابيننا
أكلما ابتدَعَ الإنسانُ آلهةً
للخيرِ صَيَّرَها شرّاً نَعابينا!؟

يارملة الله رُدي عن تَحيتنا
بخيرِ ما فيكِ من لُطفٍ وحيينا
وسامرنا فقد ألوى بنا سَمراً
وطارحينا فقد عُيِّتَ قوافينا

ويا بساطاً من الخضراءِ طرّزه
صوبُ الغمامِ أفانينا أفانينا
أوصي المروجَ بنا خيراً لعلَّ بها
من ضنكَةِ الروحِ فينا ما يداوينا

كان المهدي يجلس مُدلياً ساقيه الى فورة المياه الصاخبة، الساقطة من فوهة الانبوبة الواسعة لماكنة السقي الضخمة فوقه، ينتصت الى ايقاعها الرتيب.

.. دوم، دُم.. دُم.. دُم.. دُم.. دُم، المخلط بوشوشة الماء الصاخب تحته، بجذل واستغراب، متتبعا فورة غضب الجدول، وانحساره بعد بضعة اقدم، لينساب بعنف اقل متلوياً، ضارباً حافتي القناة الطينية، ثم انسياب المياه بهدوء وتراخي ودعة..
التفت بعد قليل يمينا، لينظر الى النهر العظيم، الذي تنتصب عند حافته الماكنة المهتزة.

.. متملياً الزرقة العابرة، وهي تنهادى بسلام، غير مبالية بما تبتزّه الماكنة الضخمة من مياهها، ولا بصخب تلك الآلة العابثة عند ضفته الغربية.. ولا ببعض السمكات المتقافزات هنا وهناك، لومضة عين، لتعود غاطسة في غورها.

مَسَحَ ببصره نخيل الضفة الشرقية في الطرف الآخر من النهر، بجذوعه المنتصبية بشموخه المتوّج بالسعف، الذي تعتمر بخضرتة، والتي تلامعت فيه قممه تحت حزم الضوء المُرسلة من الغرب..

.. بدأ النهر الكبير المتجه في رحلته صوب الجنوب، بابدال اردية صفحته الزرقاء، الى خليط من الوان متلامعة، من بنفسجي مزرق، وزرقة بحرية غامقة واوشحة وردية شافة بلورية.

.. تبادلت الالوان مواقعها، وتعتّم جرف الشاطئ الشرقي، ليبدو وكأنه كهف ضيق طويل، يغور تحت صفوف الجذوع الممتدة على طول الضفة الشرقية.

.. إلتفت المهدي يسارا ليوّاجه قرص الشمس المحمّر، الذي بان وكأنه يغرق، بسلام واستسلام طبيعين، في بحر الافق المحترق.

رمى المهدي ببذنه الى الخلف، ليستلقي وظهره يقترش التربة الطرية، وعيناه معلقتان بخصلات الشمس الغارقة الغاربة، الحمراء والذهبية

والصفراء والصبهاء والبنفسجسة الشافة، التي تناثرث في صفحة السماء فوقه، في حين ازداد عبث قدميه المتدليتين بالماء الصاخب تحته..

ضحك بجذل بصوت عالٍ ثم خاطب الكون بمرح:

_ ايه دنيا!!.. ايه دنيا!!.. ايه دنيا!!.. ايه دنيا!!

قبل أن تَحَلَّ العتمة، نهض ونفض الأتربة عن بنطاله.. خلع سترته، نقّضها ثم القاها على كتفه الايمن ممسكاً بحافتها، وسار رهواً صوب البيت الطيني الكبير.. دخل دون استئذان من بوابته المشرعة.. حيا بانحناءة من رأسه وابتسامة واسعة زينة وام جلاب، اللتين كانتا منشغلتين بادخال الدجاجات و(الشيخ صيهود)، ديك الحمد المدلل الى قفص في زاوية من الحوش..

كان الشيخ الحمد في نفس موضعه المعهود في مثل هذا الوقت من المساء، منسرحا فوق التخت المفروش.

جلس المهدي عند الطرف الآخر من التخت..

_ مساكم الله بالخير شيخ حمد!

_ ومساكم بالخير والعافية استاذ مهدي .

_ والله وصارلك زمان..

_ سمعت عنك وعن انشغالك بالكاع وماكينة المي، والسركال، والمهودر والفلخ، وبالحبوب والشتلات.. حتى إني سمعت عنك، أنك صرت تسرح مع الرعيان وغنماتهم بالبراري.. مبروك زواجك من هلّ الحليوه الزغبيرونه..

أنت زينة بصينية فوقها صحن لبن رائب، وأخربتمر برحي، وقدحين من اللبن المخفوق..

وشوش الحمد بأذن المهدي ونهض.

.. غاب دقائق ليعود بقدحين وقنينة عرق (زحلاوي)..

نادى على أم جلاب لتجلب وعاءً مليئاً بكسر الثلج.
صَفَّقَ النديمان لبعض كوسهما كما في حانة (مهران) في الزمن البعيد،
وجرى حديث رافقته ضحكات مجلجلة، تخللتها همسات وشوشات،
كان الحمد يتلفت فيها خشية سماع زينة لبعض ما يدور من وقائع عابثة
او (فُحش).

انسحبت زينة من مكانها في زاوية الحوش الى غرفة في الطرف الآخر
منه.

_ خَلَيْتَكُمْ بعافية ومسيّة هنيهة!

.. غادرت أم جلاب البيت.

_ واخيراً نلت مرادك يا خيي حمد.. طبيعة رائعة حولك، سكينه وارض
منشغل بنثر حبوبها، وسقيها، وثمار حصادها.. مُزارع بالتمام!!.. بل
شيخاً (مَحْرُوساً) مَلَاكاً، وبيتاً مفتوحاً للسماء، وللضيوف البسطاء
الطيبين الخالين من عُقد المدينة وأوبنتها.. وزوجة صبية حلوة تملء
عليك لا فراشك وحده بل وعبئك وتطوافك في الحقول والمراعي،
وتقوم على خدمتك ورعايتك كمنحة ربانية سماوية عجيبة نزلت عليها
من السماء..

واهم من ذلك كله ابتعادك عن عالم المطابع، وحروف الرصاص
الصدئة، ومستنقع السياسة والسياسيين ومؤمراتهم..

_ ومعها الضجر والملل وضياع هزات التحدى ولذة اختبار القدرات
في اقتحام المخاطر.. ملل وضجر.. لقد كانت (طَربئةُ عرس) كما يقول
المثل الشعبي، سرعان ما اضمحلت ثم تلاشت.. ثم ماذا؟!.. ألم تكن
هنالك دجلة ولا ضفافها في بغداد!.. لا قمرها الزاهي فوقها! ولا نخيلها
بسفاته الطوال، ولا صباياها الجميلات!.. أنسيت عبور دجلة بعد أن
يهجع الناس، في زورق مصطاف الى ضفاف عشق (مليحة) و(لياليها
الملاح).. ثم اين (مهران)، وهو يرطن " خبيبي عندي إلك واحد
زخلاوي ابو خبة الخلوة " .. ثم مخاظ السياسة الذي تستهجنه، يا مهدي،

ليست كلها مستنقع، بل هنالك جزر استراحات ومراقبة صغيرة فيها،
تشرف منها على الاعيب القرده العابثين بها من مكانك.. أي " فرجة
بلاش!! "

.. اسمع يا المهدي.. لقد أتاني الفرج ليخلصني من سامي وخنوعي
الذليل هذا.. لقد تلقيت دعوة لحضور تأبين الشهيد عدنان المالكي في
دمشق.. سأذهب!!.. سانزع جلدي الجديد هذا عني واهرب الى
هناك!!.. لا تناقشني في هذا الامر ارجوك يا المهدي.. لقد قراري!!
_ ومن قال اني ساناقشك في ذلك، لقد تلقيت مثل هذه الدعوة في نفس
الوقت.

..معا سويا.. وسويا معا!!

الذي خَلَّفَ الخنوعَ ورائه

خَلَّفْتُ غاشيةَ الخنوعِ ورائي
وأنتِ أَقبسُ جَمرةَ الشُّهداءِ
ما أنتِ إِذْ لا تصدعينَ فواحشاً
إِلا كراضيةً عن الفحشاءِ

كنتَ حاضرا يا حمد في ذلك اليوم الذي لن ننساه لا انا ولا انت.
عدد الحضور على مدرج جامعة دمشق لا يقدر، ولحسن حظي وسوء
حظهم انني كنت آخر من سيعتلي المنبر ولست ادري كم من اللعنات
انصبت على مسؤولي التنظيم وعلى الذين اطالوا خطاباتهم او عليّ وانا
اعيد مقاطع قصيدتي، لأن معظم الحضور كان صائما ويريد ان يعود
مهرولاً الى بيته.

ولاول مرة في تأريخي الشعري اجد المدرج يضح بهتاف وتصفيق
كبيرين، مطالبة باعادة الشطر الاول من مطلع القصيدة قبل اتمام
البيت:

" خَلَّفْتُ غاشيةَ الخنوعِ ورائي.. "

خَلَّفْتُ غاشيةَ الخنوعِ ورائي
وأنتِ أَقبسُ جَمرةَ الشُّهداءِ

ومضت القصيدة شاقة طريقها الى قلوب هذا الحشد الكبير، حتى
وصلت الى المورد المتوهج منها:

حاسبتُ نفسي والأناة تردُّها
في مَعرضِ التصريحِ للإيماءِ
بيني أُلعتِ فِلستُ منكِ وقد مشى
فيكِ الخمولُ ولستِ من خلطائي
ماذا يميزكِ والسكوتُ قسيمةٌ
عن خانعٍ ومهادنٍ ومرائي
أبضعفِ الإيمانِ يَخدعُ نفسهُ
من سنِّ حبِّ الموتِ للضعفاءِ
خَلِّي النقاطَ على الحروفِ وأوْغلي
في الجهرِ ماوسعتُ حروفِ هجاءِ
ما انتِ إذْ لا تصدعينَ فواحشاً
إلا كراضيةً عن الفحشاءِ

..وصاح الجمهور الحاشد يرمته وبكلمة حلوة وباللهجة السورية
الدارجة:
" ما بِيرْجَع.. ما بِيرْجَع " ..

يا من رأى حلفاً عَجيباً أمره
بين الثرى وكواكبِ الجوزاءِ
وتعلقتُ هُزءاً على أضوائهِ
بنيوبِ ذُوبانِ أكارعِ شَاءِ
ستدوسُ أقدامُ الشعوبِ كخرقةٍ
مهرؤءةٍ من كان سوطِ بلاءِ

ستعودُ تُصهرُ طَلْقَةً وَقذيفَةً
تَرْمِي الطَّغَاةَ سَلَّاسِلُ السَّجْنَاءِ
يَا شَامُ يَا لَمَحَ الكَوَاكِبِ فِي دَجَى
يَا مَوَكِبِ الأَعْرَاسِ فِي صَحْرَاءِ
يَا أُمَّ أَقْيَالٍ وَمَدْرَجِ امَةِ
وَعَرِينِ أَشْبَالٍ وَكَهْفِ رَجَاءِ
لِلَّهِ أَنْتِ أَكُلُ يَوْمِكِ حَاشِدِ
بِرَجُولَةٍ وَمَرُوءَةٍ وَقَتَاءِ
الْيَوْمِ عِيدُ الوَاهِبِينَ وَفِي غَدِ
عِيدُ الفَتْوحِ وَأَمْسِ عِيدُ جَلَاءِ

مغامرة الهروب .. عودة إلى المهدي

الثلج يغطي الكون كله.. السماء والشوارع والازقة الضيقة وارصفة المحطات والحدائق بمصاطبها وأشجارها.. البرد قارس والظلام رغم المصابيح النعسانة يسبح هنا وهناك في الزوايا وعند مداخل المحلات المغلقة وأنا احمل حقيبتني، اترنح ساحبا قدمي لا اعرف اين اتوجه.. انتهت مدة الانذار الممنوحة لي من قبل ربة البيت بمغادرة سكني لديها فهي تخاف من ان وجودي فيه اغواء لابنتها الشابة والتي عقدت آمالا عليها وعلى خطيبها الايرلندي ذو الوظيفة الثابتة ذات الدخل المعقول.

من قال ان الجحيم هو النار.. الجحيم هو الثلج، هو هذا البياض المقيت الميِّت المُميت.

- لا اريد ان اغامر بمستقبل ابنتي.. ها قد انتهت مدة الانذار بالاخلاء و عليك المغادرة وبلا اي تاخير.

.. لم تنفع محاولاتي باقناعها بأن اغادر صبيحة اليوم التالي.

ها قد لاحت خيوط تباشير الفجر والثلج يغطي السماء وكل معالم الارض المكشوفة السقوف والازقة وكل المصاطب التي تصلح للاستلقاء وحتى مداخل المحلات الظليلة قد زحفت فوق ارضيتها السنة الثلج الجهنمية فلا مكان فيها للقرفصة والاتكاء على ابواب المحلات المغلقة.

متعب نعسان جائع اسحب قدمي بعناء حاملا حقيبتني الثقيلة، دون وجهة معينة..

وجدت نفسي وقد وضح النهار، قريبا من مسكن تلك العائلة البولندية، التي رفضتُ غرفتها الصغيرة العابقة برائحة الثوم والبصل وبمربعات الكارتون السادة لاجزاء من زجاج نافذتها.. صناديق مرصوفة بديلا

عن السرير ولكن بفراش واغطية نظيفة.. باوند واحد اسبوعيا فقط..
"لقد رفست نعمتك ايها الاحمق المغرور" .. أجد نفسي امام باب بيتهم
من جديد.

.. تفتح السيدة البولندية الكهلة الباب.. تميل براسها متألمة وجهي برهة
لا اكثر.. تسحبني من ذراعي دون كلمة واحدة وانا اتبعها كالمغنط،
تاركاً حقيبتني في الثلج.. تجلسني جوار المدفأة التي تازّ نيرانها الملتهبة
بنغم مطمئن.. لايزال هناك بقية من عصيدة وجبة الافطار قرب
المدفأة.. تضعها وهي صامتة ساهية في وعاء وتقطع شرائح من رغيف
خبز اسمر وتضعها امامي.

.. تأتي بحقيبتني من الخارج وتصعد بها.. تعود فتسكب كوبا من الشاي
وتضع شريحة خبز اخرى.

.. اصحو في المساء، فأجد شابا خلاسيا يبحث في خزانة الحائط الخشبية
والمح اكياس البصل والثوم.. يخرج فصوصا منها.. يتنبه الى صحوي.
- كنت اخالك لن تصحو حتى الصباح.. أنا راندولف زميلك في الغرفة..
أنا من ترينداد.. سأنزل قبلك فقد حان موعد وجبة العشاء.. إن أجر هذه
الوجبة زهيد ونحن نتناولها في الغالب مع رب البيت، أنه شخص طيب
رغم تقطية وجهه، لقد أكل فحم المنجم نصف رثنيته، لكنه يعمل الآن
جابيا للتذاكر في باصات مصلحة الركاب، بديلا عن الحفر في اعماق
الارض.. لقد رأفوا بحاله قبل مدة قصيرة.

..وجد لي راندولف عملاً في نفس المطعم الذي يشتغل فيه.. اربعة
ساعات في في غسل الصحون ليلا.

تحسنت اوضاعي، فانا اتناول الآن وجبتين، عصيدة الصباح مع
قدح من الشاي وشريحتين من الخبز الاسمر ومساءً الوجبة الثانية
مع سلافيش بعد عودته من عمله في المساء.

يدور نقاش ساخن بيني وبين سلافيتش احيانا

.. سلافيتش يزمجر:

- لقد تعاونوا مع هتلر في احتلالنا.. لقد ذبحوا خيرة ضباطنا.

- دعايات رأسمالية لنشويه صورة الاتحاد السوفياتي العظيم.

- ألم تسمعوا في بلدكم ايران، بمجزرة كاتين؟!.. لقد ذبحوا أكثر من خمسة وعشرين الفا من خيرة شبابنا- جاءوا لنصرتهم - في غابة كاتين محل اعتقالهم ذبح النعاج..

- اولا انا من العراق، ثانيا واكرر انها اكاذيب الامبريالية بحق الاتحاد السوفياتي العظيم صديق الشعوب.

ينهض سلافيتش وقد احتقن وجهه واخذ يسعل وضرب المائدة بكفه بقوة كادت أن تقع من فوقها اكواب الشاي، وبصوت مختق شبيه بالحشرجة صرخ:

- لقد وقفوا يتفرجون على مجزرات هتلر وقنابله الحارقة وهي تبيد كتائب المقاومة البولندية التي نهضت الى العفن حاملة سلاح الثورة للتحرك ولمساعدة جيوش السوفييت الضخمة المتقدمة.. لقد بنى الالمان جدرانا على العديد من الازقة التي تحصن فيها المقاومون ثم احرقوا ودمروا بمدافع الاحياء المؤدية لها لا بمقاوميهها بل بكل قاطنيها نساء واطفالا وشيوخا.. لقد وقفوا احبابك السوفيات بجيوشهم الجرارة يتفرجون على المذابح والحرائق والخراب وهم على مبعده كيلومترات معدودة، وبعد ان صقيت المقاومة دخلوا..

-انها تخرصات ابواق الراسمالية الاستعمارية.. سيبقى الاتحاد السوفيتي العظيم..

_ انظر اليّ!!.. أنظر!.. انسان مهدم هرم وانا لم اتجاوز الخمسين، لقد شاهدت ذلك بعيني، فقدت نصف اهلي واقاربي وخيرة اصدقائي في

المجزرة، نحن من القلة التي نجت وتمكنت من الهروب.. لم الق سلاحي بل حاربت ومع العديد من امثالي من الناجين مع الانكليز وحلفائهم في الجبهات.. لقد قتل منا عشرات الالاف في هذه الجبهات لاسقاط الفاشية والرايخ الثالث.. وماذا كان جزاءنا هنا بعد الحرب، لقد اوكلت لنا اصعب الاشغال واكثرها ارهاقا ودمارا.. ثمان سنوات في اعماق قبور المناجم الرطبة المظلمة، اكل الفحم فيها رثي، لقد ابدلوا عملي لا رأفت بي، بل لاني اصبحت لا اصلح لماكنة الانتاج.. ماكنة لا تعرف الرحمة.. ماكنة تطالب بوقودها فقط.. نحن وقودها.. وانت الآن ايها الصبي الغر اللعين تلقي علي درسا في السياسة.

نهض سلافتش من كرسيه وهو يزمجر بكلماته الاخيرة.

- ألا تترك يا حبيبي سلافتش هذا الشاب المسكين وحاله.. دعه يكمل قذح شايه ليذهب الى عمله. تدخلت ربة البيت مقاطعة وامسكت بذراع سلافتش مهدئة واجلسته على مقعده برقة..

- هل تريدان قذحا آخر من الشاي؟

بعد اسبوعين وصلنتي رسالة من المهدي من دمشق..

" ولدي الحبيب صفاء

أما يكفيك ضياعا؟! إن لي صورة كاملة عن وضعك الآن، عن دراستك التي توقفت، عن حياة الفاقة والعوز التي تعيشها وعن الاعمال المرهقة المتدنية التي تنقوت بها

، لقد تركت كلية الطب الزاهية في بغداد، واحرقت الاخضر واليابس لتغادرنا.

أنا لا اعاتبك الآن ومن يدري ماستكون ظروفك وانا اغادر العراق الى الشام..

اغادر فتغادرون، اعود فتعودون. حملتكم معي في الصميم، وحملتكم ما في صميمي، واشركتكم بهذا الجحيم مرغمين من عذاباتي وشجوني

وقلتي وثوراتي وغربتي وتغربي، وبين الحين والآخر المتباعد بعضا من مسرة وومضة كاذبة من دعة البيت المستقر الدافيء.
لا بد وانك سمعت وقرات عني وانا " أخلف غاشية الخنوع ورائي"،
نعم خلقتها غير ذي ندم، وها نحن في ضيافة دمشق البهية. نحن في شقة مريحة في منطقة (السبكة) في قلب الشام ومكانك جاهز فيها ينتظر قدومك لإن ايادي هذه الضيافة الكريمة لامتد للاسف الى انكلترا ولعلي لن اطلعك على جديد حين اقول أن الجامعة السورية من الجامعات العريقة واجواءها تناسبك تماما، وقد تخرج من كلية الطب فيها زمرة من خيرة الاطباء الانسانيين المرموقين وهي المهنة الانسب الى مفاهيمك وطباعك وانا لا افهم حتى هذه اللحظة سبب رفضك لها وتمردك عليها في بغداد.

دعنا من الماضي فالمستقبل هنا واعد ومبشر.
بامكاني ارسال تكاليف سفر العودة، فقط اخبرني اين ارسلها اليك.
الكل بشوق للقياك وبانتظار قدومك "

وجدت عملا عن طريق صديقي خالد (خالد احمد زكي..الحالم الجيفاري المغدور لاحقا)، في معمل للبيرة في ضواحي لندن حيث كان يشتغل هو هناك وبراتب احسن مما اتقاضاه في غسل الصحون في ولفرهامتن.

وجدت غرفة صغيرة عند عائلة يهودية في بيت متهاك في افقر احياء المدينة وبأجر زهيد..وبذلك استطعت ومن عملي المرهق ومن ساعات العمل الاضافية الليلية في تعبئة الشاحنات بصناديق البيرة، أن اوفر خلال شهرين اجور سفري..ونش بحري عتيق عبر بي القناة الانكليزية، قطار الى مرسيليا..وتحت سقف السماء فوق سطح سفينة من هناك-on deck-الى بيروت ثم بحافلة للركاب وصلت الى دمشق.

وصلتُ من بيروت بحقيبة تكتظ بملابس لم تعرف الغسيل اشهرًا.. بضع هدايا رمزية غير ذات قيمة اقدمها لبقية اهلي.. رباط حريري ثمين لوالدي.. لشاعري المهدي.. والكل لا يناديه الآن، الا المهدي الكبير .

حين عاد والدي الى المنزل مبتسماً، وقد عرف بوصولي وهو في بناية مجلة الجندي القربية، نظر اليّ بصمت وهو يجتاز عتبة الباب وعلت وجهه ابتسامة ساخرة مرحة.. أخذتُ كفيه

وقبلت ظاهريهما ووضعتهما على جبيني وهامة رأسي..

- واخيرا عدت الى صوابك وقدمت.. مرحبا بك.. انها دمشق!

..اليست احسن من بلد المداخن والضباب.. ينادي "هل جهزت يا أم سالم وجبة تليق بطبيب المستقبل؟" .. نعم كلية الطب بانتظارك ولا مهرب جديد آخر منها بعد الآن.

يُطلب من المهدي ان ينظم نشيدا للشباب السوري وجيشه الشعبي المتصدي للعدو الصهيوني، الذي تدك مواقعه المدفعية السورية من الجولان من حين لآخر.. تنشر القصيدة

في مجلة الجندي بعنوان

(دائرة المجد) ومطلعها:

يا جبهة المجد لا تُراعي وانتفضي حُرّة وقومي

.. أدور في البيت عصراً وانا اردد منغما ابيات القصيدة ومقلدا اصوات الجوقة الموسيقية المصاحبة..

"يا دائرة المجد لا تراعي.. وانتفضي حرة.. يا دائرة المجد.. يادارة.."

المهدي يخرج رأسه من الغرفة ناهراً.. "كفى يا زنيم!.. لقد وصلت اليّ
رسالتك الغثيثة!"

..ومن يومها لم تنتشر القصيدة في اي صحيفة او ديوان للشاعر.

(المهاجرين)

- هيا بنا استاذ!!.. غدا اقول لك هيا بنا دكتور!، ادعوك اليوم الى مقهى
في المهاجرين بمناسبة قبولك من جديد في كلية الطب في دمشق .
- وانا قبلت الدعوة استاذنا المهدي .

لا ازال وانا في العشرين، لاستطيع اللحاق بخطواته الواسعة، حالي
قبل اربعة عشر عاما، ولازلت اعرف متى اسرع في الخطو لاوازيه
في المسير، ومتى ادع بيني وبينه مسافة خطوتين ليكون طليقا في
عوامله الخاصة. انني اعني الآن، ان السير في الدروب او فوق ارصفتها
الشوارع، بالنسبة له هو للسير فقط وليس للحديث والحوار، ولم اره
العمر كله يجاذب احدا حوارا اثناء مشيه في الشوارع.
انعطفنا الى اليمين وبانت بناية البرلمان بهندستها القديمة المتواضعة
الجميلة.

جرنا الترام وهويجار ويهتز ويترنح ، متسلقا منعطفات الشوارع
الضيقة المزدهمة بعربات السير وكثرة من السابلة، ممن ينتظر نسمات
المساء المعتدلة ليخرج للنزهة، او التسوق في المخازن التي تحسن
زينتها في المساء والليل.

إخترنا مقهىً ذي موقع جميل على سفح قاسيون، يشرف على اجزاء
كبيرة من المدينة العريقة.

اطلق الوالد آهة نشوى وهو يجيل بصره في الشفق الوردى البنفسجي
للافق والذي اخذ يعكس على معالم المدينة، محيلاً زجاج بعض نوافذها
الى بحيرات متباعدة صغيرة من الالوان البراقة.

- ليست هذه أجمل من مدينة الضباب والضجيج التي كنت مطموراً
فيها؟، أنت مقتنع الان بعودتك الى دراستك القديمة التي هربت منها..

الطب!، اجمل واقدم المهن التي عرفتها البشرية واكثرها رحمة
وانسانية.

- القلب وما يَهوى، استاذ! اجبت بابتسامة.

- حضرتك تقصد، الهواء، من الهواء؟! .. قالها بسخرية مرحة.

..افندينا ، اين الرسم من هذه المهنة العظيمة!!

- الم تختر الفن انت؟!..أين (خلگ) طبيب من شاعر عظيم مثلك؟

- انا لم اختر الشعر، الشعر هو الذي اختارني، بل قل تقمصني كبلاء
منزل دون ارادة مني، الم اقل:

"وعللت اطفالي بشر تعلقة.."، وهل كل شاعر المهدي، اوكل فنان
بيكاسو؟

..ثم معقبا بعتاب:

والله حرنا وياك، الناس يحسدوك على دراستك وكليتك العظيمة..شتريد
اكثر من هذه؟

- اريد رضاك!! واريد مزاجك ما يتعكر بهل الكعدة الحلوة بسبب
صعلوك صغير مثلي..صحتك استاذنا المهدي الكبير!

ورفعت كاس (السينالكو) بمرح محيياً.

تمر الايام رخية حلوة.. اصحبه في الكثير من امسياته في مقاهي

المهاجرين فوق سفوح جبل قاسيون..اسعد كثيرا حين اجده ولاول مرة

لا ينوء بحمل همومه كما هو الحال في بغداد..هو شخص آخر، شاب

في منتصف الخمسينات، رغم "وخط المشيب" الزاهي لفوديه..انيق

الملبس، واثق الخطى وسيعها كعهده ابداء، يشرق وجهه في الغالب

بابتسامة متخفية نصف ساخرة، يدندن كثيرا بمرح، غير دندناته

الغضوبية الحارقة في الاجواء المسعورة التي عشناها سابقا..

معه انا الان في مقهى بقاسيون وهو يبدء همساته، التي تكاد لا تسمع

بدءاً، والتي تتحول بالتدريج الى همهمة فحدو بدوي خافت..

رَقَّت نسائم المهاجرين بعد أن ذابت بهرجة الوان الغروب بالزرقة
الكثيفة المتحدرة، وأضيئت عناقيد ملونة من مصابيح المقهى، وبدأ رواد
المقهى يتقاطرون وبينهم صبايا الشام الحسان..
زاد انتعاش المهدي واعتدلت قامته اكثر وبدأت عيناه تمسح بجذل
اسراب القاديات.
حرك كرسيه واعطى ظهره للسفح، ووجهه لمنحدرات المدينة وزينة
اضوائها.
..مد ساقيه وانتصب جذعه بشموخ، رافعا هامته وسرحت عيناه
بالزرقة العاتمة فوق خط الافق وبدأ بدندنة خافتة كحادٍ يستعد لمسيرة
الركب خلفه.
..استطاعت اذناي أن تلتقط عبر رنات الحدو الخافت:
" مشسى وخطُ وو.. المششيبب.."
.. ادركت انه أن الاوان، لانسحب بهدوء.

عندما عدت من جولة تسكّع على المشارف المطلّة للمهاجرين على المدينة، والتي بدت في كامل زينتها من الاضواء، كان قد مضى ساعة ونصف تقريبا.. المهدي يجلس محاورا بمرح " شوقي بغدادي "، الشاعر الجميل بكل آفاق هذه الكلمة، وصديق المهدي المحب.. ينظّم الى مجموعته في سفوح قاسيون الشاعر محمد الحريري..ضخم الجثة سمح الوجه كالطفل.

.. شوقي بغدادي يدعو به (الفيل الضخم)..المهدي يدعو به (الببليل الصغير) ويفتح كفه الوسيعة وكانه يحمل بلبلا صغيرا على راحتها.

- أسمعنا يا استاذ، فقد شاهدتك وانا أهُم بالدخول الى المقهى، سارحا في عوالمك التي لا تخفى علي، فتركناك حتى تيقنت، انك عدت الى عالمنا الارضي المتواضع.

- لاشيء يذكر لحد الآن..نتف صغيرة، من وحي صباياكم، اللواتي لا يتواضعن حتى ولا بلحاظهن، على كهل مثلي..

.. الساحة قد خلت لك يا شوقي!

- " فَشْرُ! زَيْنُ الشباب، ابو رافد!

..سمّعنا دخيل سماك..دخيل سما المهدي!

وضع المهدي علبة سجائره امامه، والتي امتلأ غلافها بكلمات ومقاطع صغيرة متراكبة ومشوشة الخطوط..

..قرب وجهه من شوقي:

مَشَى وَخَطَّ الْمَشِيبَ بِمَفْرَقِيهِ وَطَارَ غُرَابٌ سَعِدٍ مِنْ يَدِيهِ
 وَرَاحَتْ مِنْ زَهَاهَا أَمْسٌ حُبًّا تَقُولُ الْيَوْمَ وَأَسْفَا عَلَيْهِ

تَبَدَّلَ غَيْرَ رَوْنَقِهِ وَوَلَّاحَتْ تَضَارِيسُ السَّنِينِ بِأَخْدَعِيهِ
 رَمَادًا خِلْتَهُ لَوْلَا بَقَايَا تَوَقَّدَ جَمْرَتَيْنِ بِمَقْلَتِيهِ

مَشَى وَخَطَّ الْمَشِيبَ بِهِ فَالَوَى بِأَيْكَتِهِ وَعَاثَ بِوَجْنَتِيهِ
 وَئِيدَ خَطِيٍّ كَأَنَّ عَذَابَ جِيلٍ تَخَيَّرَهُ فَحَطَّ بِمَنْكَبِيهِ

وَقَرَّبَ مِنْ مَنِيَّتِهِ وَخَوْفٍ لَقَرَّبَ الْمَوْتَ شَرُّ مَنِيَّتِيهِ
 مَشَى وَخَطَّ الْمَشِيبَ بِهِ فَرَنَّتْ مَنَاحَةٌ تَاكَلِيهِ بِمَسْمَعِيهِ

وَرَا حَ يُصِيخُ عَنِ أَلْمِ وَرُعبٍ إِلَى وَاهِ مُرْجَعَةٍ وَوِيهِ

شوقي بغدادى يتمايل برأسه مع انغام قراءة القصيدة

و(البلبل) ينهض من كرسيه ويحتضن المهدي فيضيع بين كتله
 الرجراجة.. يقبل راس المهدي..

_ تخزي العين.. سيد الشباب والله!

_ خليني اسمعها من احدى الصبايا الكثار الحلوات الجالسين حوالينا!..
 اجابه المهدي هازا رأسه بمرح

_ اللي بتريدو سيدنا، وسيد كل الشباب!.. بدك أوم وأجيبهن لَعْنَدَكَ
 وخليهن يتشعبطوا بيك.. ها رايخ لعنهن مليخ!!.. والله بعملها لو تشير
 بصباعك..

ضحك شوقي بصوت عالٍ..

- خليهن مطرحهن جَيننا لحسنُ ثووم، بيفزو من ها الخرتيتُ الهاجم
عليهن وببهبوا.

ضحك المهدي كثيرا قبل ان يعلق:

_ انت تغار من ها البلبل الغريد شوقي!؟..

رعةٌ وعنفٌ وحبٌ وصخبٌ في دمشق

وعندما تلوحُ
في الليل آلاف المصابيح
على السفوح
كأنها كواكبٌ
تسيحُ في الفضاء
أحسُّ يا دمشق
أنكِ قطعةٌ من السماء

أسدل الليل ستائره ورَّهت دمشق باضوائها، وتلألأت نجوم قاسيون وحي الاكراد المعلقين في السماء، وانا في زاويتي من ساحة مقهى المحافظة مع أحد الكتب الجامعية المقررة.
قدم رشيد.. سحب كرسيّاً قريباً وجلس قرب طاولتي، وقبل ان أسأله عما يحب ان يشرب قال على عجل وبلهجة منفعلةً:
- استمع الآن الى هذه القصيدة الثورية.. ابتدا بقرائتها وكأنه على خشبة مسرح.. يعلو صوته ملوحاً بكفيه .. تتسع حدقتاه.. تجحظ عيناه .. وينهض عن كرسية احيانا.. أتمّ القصيدة.. وبين التهكم والجد عقب بقوله:

- لقد ألقيتُ هذه القصيدة في حشود المتظاهرين ببغداد، ومنذ ذلك الحين والشرطة والمخبرين بدأوا بتعقبي هناك، واصبحت مواقف الشعبة الخاصة سكني الثاني، حتى تسنى لي الهرب والقدم الى دمشق.. صمت برهة ليسالني بنفس اللهجة المسرحية الساخرة:
- ما رايك بهذه القصة المدعومة بالقصيدة الغاضبة لاتقدم بها الى السلطات السورية لطلب اللجوء؟

- ولكنهم سيعرفون يا رشيد، انك كنت في اطراف اللادقية تمارس التعليم للمرحلة الابتدائية قبل أن تُفصل او لنقل يُستغنى عن خدماتك هناك.

- من سيعرف عن مدرسة صغيرة في قرية نائية.. ثم إن موضوع اللجوء ستحسمه السلطات العسكرية لا وزارة التربية.. أنت تعلم اني بأمس الحاجة الى الخمسة والسبعين ليرة الممنوحة للاجئين العراقيين، اضف الى أن الاقامة الرسمية ستسهل فرصة أفضل للبحث عن عمل. خلال قرابة الشهر من معرفتي برشيد ياسين ولقاءاتنا العديدة، وبالرغم من سرده للكثير من تفاصيل حياته الغرائبية في احياء بغداد القديمة، كان يتحاشى التطرق الى فترة تواجده في قرية قرب اللادقية او عمله في التعليم هناك، بل ويحوّل مسار الحديث لو اقترب من تلك الفترة، حتى حين استمرت علاقة الصداقة، التي اصبحت متينة في الاشهر بل والسنين التي تلتها.

كنت أتابع حياته - الغجرية - الصعبة في دمشق آنذاك، من النوم على الكنبه الممزقة في الغرفة الصغيرة في احدى الصحف التي يقوم بمراجعة وتصحيح بعض مواضيعها قبل النشر، الى الاستدانة غير مأمولة التسديد لما يسد الرمق، الى وسيلة للحصول على علب السجائر من هذا او ذاك، ولن اقول من الاصدقاء إن كان له اصدقاء، فلم أر أياً منهم آنذاك..

لقد كان صعب الطباع، بل وعدوانيا في كثير من الاحيان لمن يخالفه الرأي، وكثيرا ما كنت أسأل من هذا العراقي او ذاك، عن صبري على تحمل صداقته .. الغريب انه لم يدخل معي في اي موقف صدامي، رغم انفعالاته الصاخبة في نقاشاتنا العديدة والتي لا يُبقي فيها على أحد سليم الذكر.

لم تكن تسمح ضروفي آنذاك، وانا أدوب خجلا من تلقي مصروفي الاسبوعي الجامعي من المهدي الكبير مفرط السخاء، أن أمد يد العون،

ولكن أن تنتقل احدى بطانيات الدار، او وسادته الى كنيته الممزقة، أو أن اضع على كتفيه معطفي في يوم قارس البرودة، وهو الهدية الغالية من بلاسم الياسين (الاقطاعي الكبير) حين قدم الى لندن.

أنا حَصْمُ الإِقطَاعِ والإِدْقَاعِ
وكثيرٌ في ذلكم أتباعي

وَعَرِيبٌ جُمُ البِدَاعَةِ..
.. والأيام تأتي غرائب الإبداع

أن يقيني شَرَّ احتياجي إلى الأذنين..
" شيخٌ " في ذروة الإقطاع

.. ان نشترك انا ورشيد في صحن فول اوطعمية، وان أدفع حساب الشاي في أحد مقاهي دمشق، فهذا قد كان من مستطاعي.

.. تم قبول طلب لجوء رشيد، وكانت اول بوادر خيره، ان يعين بوظيفته المسائية في التصحيح والمراجعة بشكل رسمي، في نفس الصحيفة التي ينام فوق كنيته وبراتب شهري قدره ثمانون ليرة.. بدات النضارة والابتساماة النزرة تعود الى الوجه الاسمر المتجهم.. اخيرا استبدلت سترته المهلهلة بواحدة تكاد تكون أنيقة.. كثر تردده على المقهى لا لاحتساء الشاي، بل وعصير البرتقال الطازج من كيسه الخاص.. بدأ رشيد برد الدعوة على الجلسة في المقهى بجلسة مماثلة في اليوم الذي يليه.

.. اصبح في إمكانية والدي، بعد حصول رشيد على اللجوء والاقامة، على الاستجابة الى رجاءي في مفاتحة رئيس تحرير مجلة الجندي، التي يشرف علي على موادها، لتعيينه بوظيفة ما في المجلة، واستجاب الأديب الشهم (نخلة كلاس) الى الطلب فوراً وطلب مقابلة رشيد، الذي يتحول دائماً في مثل المواقف هذه الى أرق شخص واكثرهم مرونة وسلاسة.

.. تم تعيينه بوظيفة المراجعة والتصحيح وبراتب جيد آنذاك وهو مائة وخمسون ليرة.

وكانت جلسة احتفالية في كازينو (شلالات ابو زاد) بضواحي دمشق، ومع العرق الزحلاوي والمزة و(المشاوي).

..كنا نحتفل بنفس الوقت، برسوب الصديق الشاعر مجيد الراضي، الذي يقدم من العراق لاداء امتحاناته الخارجية في كلية الآداب بجامعة دمشق.

(لاحقاً تكررت الاحتفالات في نفس المكان مع قدوم مجيد مرات عديدة.. في رسوبه او نجاحه في امتحانات لاحقة).

.. رشيد الآن يسكن في غرفة وسيدة مع احدى العائلات، التي تؤجر بعض غرفها، الى افراد من الطلبة، او صغار الموظفين، او السائحين.. أخذ يتناق في ملبسه، ويرتاد مطاعم لطيفة في وجبة غدائه، وتظل اكشاك الفول والطعمية لجولاتنا المسائية في المهاجرين او ساحة المرجة او عند ناصية مقهى ابو كمال المطل من رابيته على بردى.

عندما ينبهر رشيد بكثرة اكشاك الاكل في ساحات وشوارع دمشق وقرب متنزهاتها، وحين تعبق روائحها المشهية المثيرة، يطلق حسرة حرى ويشكو بأسى:

_ لماذا يا رب!، ومع كل هذه المُغريات المعروضة من الاطعمة،

خلقتَ لنا فماً واحداً؟!!

.. نتجراً ونرتاد مقهى الكاردينيا الارستقراطية بل ويطلب رشيد الكاتوه مع القهوة، نخرج بعدها على السينما الفخمة المجاورة لنشاهد فلم يولييسيس.. نخرج عند منتصف الليل لنسير باتجاه معرض دمشق الدولي.. صاحبي يترنم بصوته العذب اغنية لعبد الحليم التي يحفظ كل اغانيه .

.. نتوجه الى شارع ابو رمانه وتطل علينا نجوم سفوح قاسيون.
.. هو في ذروة الانسراح.. يقف على رصيف الشارع الانيق.. يتكأ على جذع احد اشجار زينة جوز الهند، وينشد كما في حلم:

وعندما تلوخُ في الليلِ

آلاف المصاييح

على السفوحِ

كأنها كواكبُ

تسبحُ في الفضاءِ

أحسُ يادمشقُ

انكِ قطعةٌ من السماء .

.. ينتهي من تخطيطاته بالقلم وانا اجلس امامه لعشرين دقيقة ويريني

بورتريت كثير الشبه بي.

هو رسام مقتدر!

- اذاً انت رسام ايضا؟!!

.. من صندوق حقيبة معدنية، يُخرج بضعة انابيب الوان زيتية،

واحجام فرش مختلفة ويسلمها لي.

- انت تحتاجها اكثر مني الآن!

.. يختطف من يدي في المساء لوحتين مائيتين كانتا عند محل للتأطير

وينظر اليهما بانبهار..

- متى رسمتهما.. أليست هذه سفوح (بلودان)؟
.. يرفض تسليم اللوحتين الي،..يسرع بي رغم احتجاجي، الى مقهى
ابو كمال حيث ينتحي هناك جانبا، رجل في مطلع الثلاثينات، كث
الشعر سمح الوجه بسيط الملبس..
.. يقدمني اليه، فيمد كفه مصافحا بترحاب ومودة..
- هذا يا عزيزي صفاء هو فاتح المدرس!.. هذا هو سيد الرسم الرفيع.
- كم سمعتُ بك، وكم تابعت اعمالك الجميلة استاذ فاتح.. لقد سعدت
وتشرفت بمعرفتك، وانا اشكر صديقي رشيد على هذه الفرصة
المتاحة.
- اريد رأيك أخي فاتح بهاتين اللوحتين لرسام عراقي، واخرج رشيد
اللوحتين.
- لابد ان من رسمهما، فنان مقتدر، فاللوحة المائية تحتاج الى مهارة
وزخم عاطفي يتفجر بدقائق .
- اخي العزيز، انه هذا الشاب اليافع الذي امامك..
.. حلّ الظلام، وتلامعتْ اشرطة الاضواء الملونة المنعكسة من
معرض دمشق الدولي فوق مرآة بردى العاتمة.

.. كان رشيد يقف عند مدخل السلم المؤدي الى شقتنا في انتظار
قدومي، مكفهر الوجه، غضوبا حزينا، مطرق الرأس.
..صمت لبرهة قبل ان يتحشرج صوته ويخرج كالمهمة المتكسرة:
- هل سمعت الاخبار.. ياللمجرمين السفلة!
- بالطبع.. فقد كنا ساهرين مع الراديو لفترة متأخرة، والمهدي يذرع
صالة البيت ذهابا وايابا.

صمت كل من في الدار وانسحب الجميع الى احدى غرفة الاستقبال،
فقد بدا المهدي يدندن، وبعد قليل وضحت كلمات:
.. " يا معدن الخسة من تقاتلوا.. " .. " يا معدن الخسة من تقاتلوا.. " ..
.. " وفوق من تساقط القنابل.. " .. " يا معدن الخسة من تقاتلوا..
ومن.. "
وبدا الحدو واستمر الى قرابة الفجر.

يا معدن الخسة من تقاتل
وفوق من تساقط القنابل

أصيذاً يزود عن أوطانه
أم حرة عن عرضها تناضل

علا صوت رشيد منفعلا:

- انهم يناشدون الجماهير لحمل السلاح ودحر غزاة العدوان الثلاثي..
هيا بنا الى السفارة المصرية لتسجيل اسماءنا كمتطوعين، قبل ان
تصخب شوارع دمشق بمظاهرات الغضب.
قابلنا هناك مسؤول العلاقات في السفارة، طالبين ترخيصا بالسفر فورا
كمتطوعين، وفي جلسة قصيرة وبادب جم وترحاب تمكن من تهدئة
انفعلاتنا، وشكرنا مطمئنا، أنهم ليسوا بحاجة في الوقت الراهن الى
حملة السلاح، فالجبهة تكتض بالمتطوعين المصريين، وسجل اسمينا
وعنوانينا شاكرًا، واعدًا الاتصال بنا حين تحكم الضرورة.

إهتزت دمشق واكتضت شوارعها بالمتظاهرين الغاضبين، طالبين من
الدولة في هتافاتهم تجنيدهم وارسالهم الى القناة، وبدخلها العسكري
لدعم الجيش المصري.. استمر هدير المتظاهرين ولم تهدأ شوارع
دمشق حتى ساعة متأخرة من الليل.

تكررت أمسيات مقهى ابو كمال، وتوسعت الجلسة بازدياد معارف رشيد وهم جميعهم من السوريين من المتعاملين مع الصحافة او التصوير او من العاملين في الاذاعة..

.. الجلسات دائما حول طاولة فاتح المدرس، وحول احاديثه الغرائبية الشيقة عن الرسم والحدث السياسي.

.. بمبادرة أحد الجالسين في الاستفسار، وغالبا ما يكون رشيد:

" هل من نتاج جديد في القصة؟"

.. يُخرج فاتح من محفظته الجلدية بضعة اوراق

.. يبدء في قراءة قصة قصيرة او مقاطع منها.

.. يغيب فاتح اثناء القراءة عمن معه..

.. يسرح في عوالم احداثها، حتى لتخال انه يتحدث مع نفسه او مع اشخاص آخرين غير منظورين.

.. أتأمله وقد انزلتُ، وسِحتُ بعيدا أنا الآخر عن الحاضرين..

" .. أهذا الذي امامي نموذج لانسان طبيعي، أم أن به مسأ؟!"

.. اهو ذات الشخص، الذي كان قبل دقائق يتحدث بهدوء وأناة عن

مشاغل الناس والحدث الفني، ويلقي نكاته ويراقب استجاباتهم لحديثه..

..أبتسمُ جذلا حين اصحو من ثوان انقطاعاتي وسرحاني:

"وهل يكون فاتح الرسام والكاتب المبدع لو لم تتلبسه هذه الحالة؟"

.. المظاهرات تعم شوارع بغداد والبصرة احتجاجاً على مؤامرات حلف بغداد وضد الأوضاع (الاستبدادية).

.. يسقط هناك عدد كبير من المصابين خلال صداماتهم مع الشرطة، وتكتض المعتقلات بالموقوفين:

.. أدعى وبعض الزملاء الجامعيين لندوة اذاعية تشجب مايجري في العراق

.. الكل يعطي اسماً مستعاراً حين يأتي دوره امام المايكروفون في التنديد

.. يفاجأ المشرف الاذاعي عن الندوة حين يأتي دوري وانا اذكر عبر المايكروفون، ومع تشديدي على احرف الكلمات، اسمي الصريح (صفاء المهدي الحمد)..

..حين نجتمع في جلستنا المسائية حول مائدة فاتح، يخرج رشيد وريقتين ينظر الى الاخرين منتظراً برهة من الزمن.
.. يصمت الصحب.

.. يتعالى شيئاً فشيئاً، صوته العميق الحزين:

بغدادُ يا بلدَ الكفاح

يا قصةً

صفحاتها نورُ

وأحرفها جراحُ

يا موطني النائي الحبيبُ

يا أرض اجدادي التي

أقصيتُ عنها كالغريبُ

قلبي يمزقه الحنينُ

إلى ثراكِ المستباحِ

كالطير أقصته الرياح
ورمته مقصوص الجناح
بغداد

هل يُرضى لمثلك
أن تكون
أمةً تُضامُ
وتستغلُّ

كما يشاء الغاصبون:

أمةً لتجار الرقيق

أهوى شبابك

خلف قُضبان السجون

أهوى عُيونهم المضيئة

وهي تيسمُ للصعاب

وترى شعاع الفجر

من خلل البنادق والحراب

إني لأسمعهم أرائي

ينشدون

" السجنُ ليس لمثلنا

نحنُ الأباةُ

هو للأذلاء الطغاة "

أهوى الجماهير الغفيرة

وهي تقنمُ الحصون

كالسيل هادرة

وتجارُ الخيانة يرجفون

فزعاً من الحقد الكبير

كعناكب غمر اللهب

خيوط مسكنها الحقيق

كان اللهب يتصاعد من تقاطيع وجهه ومن اطراف اصابعه تهرب العناكب.

.. حلّ صمت وانقطعت اصوات ضجيج المقهى واصداء معرض دمشق عن آذان الجالسين، واطرق فاتح لفترة غير قصيرة

انقطعت لفترات عن لقاءات المقهى، فقد شحّ الوقت وأنا أتدبر أمر مصاريفي الجامعية من عمل اقوم به بين ساعات المحاضرات.

.. أعيد المظروف الدوري الذي يضعه والذي علي فوق طاولة غرفتي الصغيرة تغطية لمصاريفي الجامعية شاكرا.. أقبل يده وخده.

.. بابتسامة اخبره بان لي وظيفة محترمة: مدرس محاضر لطالبات (مدرسة النجاح الاهلية للمرحلة المتوسطة)

- والجامعة.. والطب والمحاضرات؟ يتساءل المهدي.
- لقد رتبّت ادارة المدرسة جدولا للصف يتوافق والساعات الحرة بين المحاضرات الجامعية.

.. اربعة ساعات للرياضيات في الاسبوع ومثلها للفيزياء.
- أنت وعشرين صبية سورية جميلة في الصف.. كيف تدبّر أمرك..
عشرين صبية ياملعون.. عشرين غادة حسناء سورية.. سورية يافعة!
يلعن دينك!!!.. ألم يحاولوا ايقاعك في شباكهم؟

- الحق في اليومين الاولين نعم، بل لقد ضيقوا علي الحناق في الفرصة بين حصتين في الزاوية المحصورة بين باب الصف والسلام.. " أستاذ سؤال!!.. استاذ سؤال!!.. تقبرني أستاذ سؤال!! "

..لم ينفذني من هذا الحصار إلا رؤية حشد الصبايا المحاصرين لي لاستاذ الجغرافيا المتجهم وهو يرتقي السلم لحصته المقررة.

- بالله عليك ألتزم بحاجة الى استاذ للعربية.. او حتى مساعد له .. قالها المهدي وابتسامة عريضة تسبح على وجهه وهو يهز براسه وتلتمع عيناه بجذل ساخر..

.. استدار وهو يندندن ويهز يده متوجهاً الى صالة الاستقبال حيث ركنه الذي لا يتبدل في زاويتها .
.. يبدو ان استمرار مرحة هذا في تلك الامسية وروح الانطلاقة الساخر، كادت تؤدي الى كارثة..

أسمع صرخة رعب واستغاثة في المساء..
- " يا يُمّة!.. يا يمّه! " .. " النار.. النار.. النار طفيها " .. "شده تسوي يا رجال " صوت أم سالم يعلو بلوعة واستجداد و غضب.
.. شدة تسوي؟.. لبعه هي؟!.. النار لبعه؟!.. ماراخ تبطل من سؤالفك!..
مؤكبرت يارجال.. ده تصغر لو دتكبر؟!، شوف شوف بالمراية، شوف شيباتك اللي احتركن..
.. إهده يارجال.. أكعد! لا تتحرك ! خلييني أمسخ لك وجهك من السخام وأنظف شعرك المعطب.. أكعد!!

أنا وسالم والصغيرتان نقف عند عتبة باب غرفة النوم المليئة بالدخان .. المهدي يجلس على المقعد، جلسة تلميذ مشاكس مجبر على الطاعة لحين.

.. تعلق وجهه المبقع بالسخام ابتسامة مشاكسة.. أم سالم تمسح الوجه المعقر بقطعة مبلولة.. تبدأ بعدها بقص بقايا الشعر المعطب وما حواليه..

- مؤكافي يارجال، كل يوم وعندك سالفة.. كل يوم ومو كع كلوبنا.. هم هذه لعب سياسة؟!.. هم هذه شعر تلعب بيه بالكلمات وتسفط بيهن على مزاجك؟!.. بعد كافي لعب!!

.. يجلس التلميذ المشاكس وعيناه تدوران هنا وهناك بعث..
.. " هوووه " .. "هوووه" صرخ فجأة مفرعاً أم سالم بمرح

.. يمد يده فجأة ممسكاً بخصرها مدغداً ..
ضحكت أم سالم، مبتعدة عنه وضحكنا ..
.. بعدها بأقل من نصف ساعة، كانت جلستنا العائلية المرححة حول منقلة الشاي،

ولفات الخبز وكباب العروق بأيدينا، واستمرت جلستنا حتى نهض علي
واخذ يذرع الغرفة من حولنا، وبسهوم والابتسامة لا تغيب عن محياه،
بدأ يدندن ..

.. فتح باب غرفة النوم التي كنا فيها، واغلقها من بعده ..

.. بدأت الدندنة تتحول الى همهمة ..

.. تأتي الكلمات المتقطعة من صالة الضيوف ..

.. تتوضح شيئاً فشيئاً

" إِنَّ عِرْسِي وَهِيَ جَامِحَةٌ .. فَجَّةٌ .. " .. إِنَّ عِرْسِي وَهِيَ جَامِحَةٌ
فَجَّةٌ .. "

.. يبدأ الحدو والترنم المتناوب يتناسق ..

.. الصوت أصبح عميقاً دافئاً عذباً

.. أدخل سالم والطفلتين الى غرفة نومهم

.. أضع سبابتي على فمي مبتسماً

- هسس! .. ناموا .. بلا صوت .. صاژ؟؟

يدخلون تحت اغطيتهم مبتسمين .. ينظر احدهم الى الآخر ويهمسون
بمرح لبعضهم وسباباتهم على شفاهم المنفرجة:

- هُسس!

.. أغلق عليهم الباب بعد اطفاء الضوء ..

.. ابدأ بالخطو الدائري في باحة البيت الصغيرة، متوقفا لبرهات، تتزايد

الى دقائق .. اتنصت من خلف باب الصالة للحدو البدوي المُنعم

إن عِرسِي وهي جامحةٌ
فجّةٌ.. لونٌ من الأدبِ

جاءتْ الكانونَ توقدهُ
وبه جَزَلٌ من الحَسْبِ

فوقَ بعضِ بعضُها، طبّقاً
لأنداتِ صنَعِ مُرتعبِ

خُفنَ فاستسلمنَ عن فزعِ
للمنايا.. شرٌّ مُرتَقِبِ

ومشى بَرْدُ الرمادِ بها
كتمشي الموتِ في الرُكْبِ

خِلْتُها والعودُ يلمسُها
ثُثُقُلُ " الكبريتِ " بالعتبِ

فتأبَت، ثمّةً أرتعدتْ
ثم أقعَت، ثم لم تثبِ

قلتْ أذكي -ويك- جَذوتها
وأريحِها من التعبِ

أطعمِها الزيتَ يمش بها
مِشيّةَ الكُفرانِ في السَّعْبِ

فاستعناذتُ وهي قائلَةٌ :
ليس هذا " الجَدُّ " من لعبي

قلْتُ هاتيهِ.. وثارَ لها
ضَرَمٌ كالبرقِ في السحبِ

شبَّ في مبيّضِ سالفتي
فكأنِّي بعدُ لم أُشبِ

فأتى وجهي فلطّخه
كخاليطِ البُسرِ والرُّطبِ

ومشتُ عرسي لتسعفني
وكما تهوى لتشمّت بي

هتفت: بنُستُ مغامرةً
يا أبنَ خمسينِ.. أنتَ صبي؟!
أوما تنفكُ مُحْتَضِناً
لعبَةً.. من هذه اللعبِ
راحَ في حرفٍ يزخرُفه
وهو عن شيءٍ سِواه غَبي

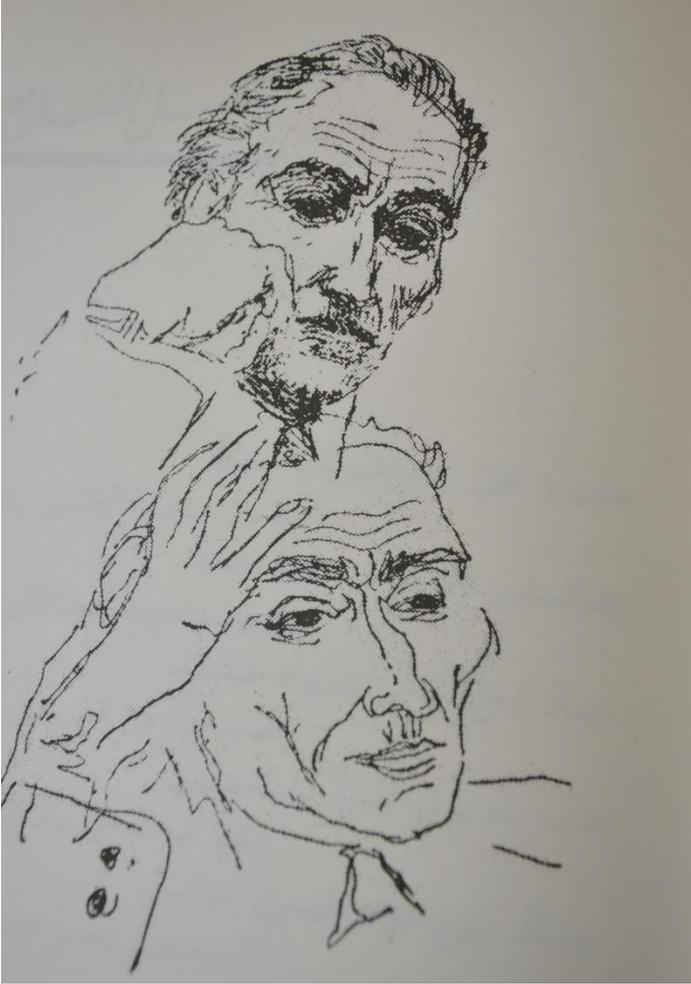
قلْتُ يا هذي لو اخترمتُ
مفرقي شقين لم أُشبِ

أنا ذا من أربعين خلتُ
أطعمُ النيرانَ باللهبِ

فاذا خفتُ وضعتُ لها
خَيْرَ لحمي موضعَ الحطبِ

أشعلُ النيرانَ لا رَغَباً
وإصاليها بلا رَهَبِ

غيرَ علمي أنها سَبَبُ
لحياةٍ.. أيما سببِ



البيت لا يخلو ابدا من ضيف او زائر..اقوم مرات عديدة بواجب الاستقبال والمحاورة والضيافة حتى يتواجد المهدي..لا يقتصر الحضور على الجنس الخشن، فكثيرا ما يتواجد العنصر الناعم ايضا، وهنا تكون انطلاقة في ذروتها، وكنت اكثر الناس حظاً بان اكون

مشاركاً بهذه الاجواء، فأمر سالم ستكون منشغلة بواجبات المطبخ، او انها لاتجد الحديث الدائر منسجماً معها.
.. بقدم صفاء الحافظ (اغتالنه المافية الصدامية في السبعينات)

.. بعد اكماله دراسة الدكتوراة في جامعة السوربون بباريس يصبح اكثر الناس ترددا على الدار وتتعمق الصلة بحيث يدخل دون موعد، وقد يبقى الى ساعة متأخرة من الليل..وسيم انيق منطلق الحديث والنكتة مع المهدي، خصوصا حين يتعلق الامر بالحديث عن المرأة وعن ذكريات باريس..

المهدي يميل براسه منصتاً!!

.. "للا.. هي من عائلة محافظة من الحله.. ودعتها الى شقتي في الحي اللاتيني.. وقالت وهي بجانبني في السرير..سنضع الوسادة بيننا فلا بد ان يكون هنالك حاجز في النوم بيني وبينك.. فأجبتها: بالطبع ياحلوتي..سيكون المانع المطاطي حاجزا بيني وبينك " يقولها صفاء الحافظ بما يشبه الهمس مقرباً فمه من اذنه يضحك المهدي..يكركر ويكاد يشرق بالضحك.. "والله انه اكثر الحواجز أمانا.." وينطلق من جديد في موجة ضحك اخرى.

عبد الجبار وهبي -ابوسعيد- (اغتالوه مع رفاقه في مجزرة ٦٣) يحضر وزوجته، المحامية نظيمة وهبي، وابنه الصغير سعيد، ونادية ابنته ذات الاربعة عشر ربيعا (المطربة انوار عبد الوهاب لاحقا).

.. (ابوسعيد) احلى الناس خُلقا وطيبة ولطفا وانطلاقا..يحبه المهدي اكثر من اي عراقي آخر في الشام، لا تُحسه الا ذلك الانسان المتواضع الوديع الدمث الاخلاق..لا ذلك القيادي الشيوعي الكبير..يترددون على الدار كما الاهل ونزورهم بمعية المهدي في دارهم الشرقية المكتشفة

.. تُعيد نظيمة اليّ كتاب (الحي اللاتيني) الذي استعارته ابنتها نادية وهي غاضبة:

_ هل تريد أن تفسد اخلاق ابنتي!؟

..يزوره قياديون شيوعيون كبار آخرون..جورج تلو وعبد القادر البستاني وآخرون..وتختلف مقابلته عما هي مع ابوسعيد..فهو هنا في غاية الادب(الثقيل) مقابل التحفظ (الثقيل) الذي يتحدث به الرفاق .. يعمّ البيت جو رسمي..تنتفس الصعداء بمغادرتهم.

يفد احمد الصافي النجفي الينا من لبنان.. ابي يقابله بسرور صادق غير انه سرعان ما يضيّق بمزاجاته القلقة واحاديث الزمن العتيق.. لا يظهرها ولكني احس بملله..انسحب بالصافي غالباً بحجة تهيئة مكان نومه وراحته.. اعرض عليه غرفتي وسريري.. " افضل النوم على فراش فوق الارض..". آتية بفراش ووسائد وارتبها في مكان مناسب من الصالة.. "لالا..ضعها في هذه الزاوية..انا لا اطيق ان اكون قريباً من الجدار..". أبدل موقع الفراش..فيقتنع لحين.. " لالا..المكان الاول كان افضل..". اعيد الفراش لموقعه السابق.. " لا تزعل مني يا دكتور..هل لديك مانع ان نضعه قرب باب الشرفة.. هل تعلم يا صفاء انني كنت احملك على كتفيّ صغيراً وادوربك في ازقة باب الطوسي في النجف..". "هل لك ان تفتح النافذة رجاءً..لالا ليست هذه القريبة بل تلك".. "هل يمكنك ان تغلق النافذة يا صفائي احس تيار هواء بارد..". "اتركّ باب الصالة مشرعاً فاننا اختنق في الغرف المغلقة..". "لالا اغلقها رجاءً فلا احس بخصوصية مكاني وهي مشرعة..". كل ليلة من وجوده معنا يتكرر المشهد ذاته.. ولكن بعد ان يخلع غترته وعقاله ويسترخي نصف مستلقٍ ومستند على كوعه بيد

حديث الذكريات الحلوة المطعمة بهذا المقطع الشعري او ذاك.. لا يتمكن منه النوم.. ولا احس انه قريبا سيستلم للنعاس، فاحضر له كأساً من الماء وانسحب بحجة تحضير مواد دراسية للغد.

عبد الرحمن الخميسي الذي اعشق قصصه القصيرة في دارنا.. هو في دمشق في مؤتمر للادباء، وهي مناسبة ان يزور المهدي في داره وان يقدم له مجموعته القصصية الجديدة (رياح النيران)، والتي يشيد فيها بالمهدي الشاعر ويضمنها ابياتا من شعره النضالي.. المهدي اكثر من سعيد ببقياه ويسترجع معه ايام طه حسين والخمسينات و(قاهرة الحمد المهدي).. لا اغادر اللقاء حتى يغادر.

..محمد شفيق غربال الطيب ذو الوجه الباسم المتواضع الذي يرى انه قد انجز شيئاً كبيراً بلقائه المهدي.. يعرض على المهدي مشروع حلمه (الموسوعة العربية)، "سابداها يا استاذنا بـ(الموسوعة المُيسرة) واعقبها بعد حين بـ(الموسوعة العربية الشاملة)..". "هذا هو الذي سيكتب عنك وعن جدك (صاحب العُلَى والحمد) في الموسوعة.. اقرأه! وارجو ان ينال رضاك". .. المهدي يُطري المشروع ويثمنه ويثمن جهد غربال العظيم.. يغادر الرجل شاكراً فرحاً محبباً جميع من في الدار.

الحمد الكبير في طرابلس بدعوة من كبار ضباط الجيش السوري.. في الجلسة الاحتفائية والكل منطلق، والكؤوس تدور. يُطلب منه ان يروي غزلياته.. النسوة المُلهَمات ورائها " وماذا عنك استاذنا الحمد.. وجماليات سورية من حولك؟! " ..ينطلق وهو يروي بمرح بعض غزواته للحسان في دمشق.. الكل منشرح يعلق بظرف واستحسان وطالبا المزيد، إلا ادهم يجلس صموتا، ثم مطرقاً برأسه واخيرا يحتقن وجهه..

– استاذ انت تتحدث عن نسانا السوريات.. هن عنوان الشرف.. هن كراماتنا استاذ!..يقولها الضابط محتقن الوجه مطرقا براسه.
– النساء هن النساء في اي بقعة من الكون.. يجيب الحمد بمرح.

– (ياغريب كن اديب)! يجيب الضابط وهو لا يزال مطرقاً برأسه.

– هل تريد ان تعلمني الادب ايها الغر!..يا قليل الحياء!
– تسكت وإلا (أطخك بالقرْد!) نهض الضابط واخرج مسدسه من قرابه.

قفز (نخله كلاس) واحتضن الحمد مهدئا، ودفع آخرون بالضابط خارج الصالة.

..الحمد يجلس صموتا.. يهز براسه سارحا " اية دُنْيا!.." يطلقها بحسرة، ..ينهض بتصميم " اودعناكم!" يقولها بحزم مودعا الحاضرين هازاً ذراعه المرفوعة ويخرج.

زاد الطين بلة دعوة الرئيس شكري القوتلي للمهدي..

..بعد جلسة ترحيب وحديث في القصر الجمهوري، يشير القوتلي الى أحد المرافقين في قاعة الاستقبال فيحضر مطروفا يأخذه القوتلي ويقدمه الى المهدي. هذه هدية الرئاسة استاذنا العزيز ارجو قبولها.. المهدي يتردد!..القوتلي يكرر العبارة.. ثم: " هدية الرئاسة والهدية لا ترد..".

في غرفة التشريفات يتوقف الشاعر قبل مغادرته..ياخذ ورقة من المظروف من فئة المائة ليرة، ويكتب على ورقة صغير بضعة ابيات راجياً من القوتلي فيها أن يوقع المائة ليرة ليحتفظ علي بها كذكرى عزيزة..يعيد الى التشريفات المظروف الذي يحمل الهدية النقدية شاكراً..

سيدي لا يسوك ضيقي بما أوليت ذرعاً ولايرمك انزعاج

انا والله راكع في ذرى لطفك ما بي إلى سواك احتياج

انا والله ضيف ساحتك الغناء فيها سُراي والإدلاج
غير أني بالمال أضوى وإن أسمنَ غيري، إن النفوس مزاج

تأتي ذكرى المالكي.. ويحتشد الملعب البلدي بالمنصتين الى المهدي
الكبير ويضح بين حين وآخر بالتصفيق والاستحسان.

.. يعود الى الدار بعد القصيدة مبتسماً.. ويقول بصوت مرتفع:

" شدي الرحال يا أم سالم!.. سنعود الى بغداد "

كل من في البيت كان يتوقع هذا القرار ولم يُفاجأ به أحد.

ترنّحت من شكاةٍ بَعْدَكَ الدارُ

وهبَّ بالغضبِ الخلاقِ اعصارُ

وأرعدَ الوطنُ الغالي وقد تَفَلَّتْ

عليه مما جنى الجانونُ أوزارُ

هنا بجلّقَ عملاق على بردى

وثمّ في مصر يحمي النيلَ جبارُ

إسلمَ جمال لنا نسلمَ فقد عرفتُ

بك الكرامةُ في الشرقين أمصارُ

جُزيتَ عن أمةٍ أنعشتْ ثريتها

خيراً كما جُزيت سَمحاء مدرارُ

حتى اذا الغيبُ أبدى حُرّ صفحته

وحانَ للأجلِ المضروبِ مقدارُ

تنفس الصبح عن مصريةٍ ولها
في المهدِ شبلٌ قُبيلَ الزارِ زارُ
دمشقُ: لم يأتِ بي عيشٌ أضيقُ به
فصرغُ دجلةَ لو مسحتِ درارُ
لو شئتُ كافاً متقالاً أصرّفه
شِعراً من الذهبِ الإبريزِ قنطارُ
يا سادتي إن بعضَ العتبِ منبهةٌ
لغافلينَ وبعضَ الشعرِ إشعارُ
أنا العراقِ لساني قلبه ودمي
فُراته وكياني منه أشطارُ

كان المهدي وشلة العجر المتنقل -اهلي، قد غادروا الشام قبل قرابة العام عائدين الى مرابعهم في العراق.. المهدي عاد.. هو مع صديق الروح حمد تحت سقف خيمة (أم عوف) في (علي الغربي)، وبقيّة الشلة استقرت في اعظمية بغداد..

أنا في عربة العجر التي انفصلت عن الركب، في حارة (دق الباب) بدمشق..

غرفة صغيرة ظريفة بايجار عشرين ليرة شهريا نتقاسمها وعبد الكريم البوريني طالب الحقوق (وسفير الامم المتحدة لشؤون الحركة السكانية لاحقا) كنا نقتسم كل شيء من علبه النقود التي نضع فيها ايراداتنا، انا من دروس معهد النجاح الدراسي للبنات وهو مخصصاته التي يبعثها اليه الاهل في عمان مع خايبات الزيتون والمكدوس والجبن المضفور.. حتى القمصان والاحذية وهي بمقاس واحد نقتسمها..

وفي الطرف الآخر من حوش الدار المكشوف، (فؤاد)، النحات المصري الذي يعيش مع الحصان في اسطبله اكثر مما يعيش معنا في الدار، ذلك الحصان العربي الاصيل الذي اراده إنموذجا لتمثاله القادم.. كان يعود بعد اربعة ايام او ثلاثة فتعقب الدار برائحة الإسطبل زماً غير قليل، وحين يحضر لتناول الشاي معنا بعد ان يغتسل ويبدل ثيابه، تنتشر في ارجاء الغرفة عطوره المصنّنة، ورماد سكائره، المعلقة ابدأ على زاوية فمه.

..الغرفة ورغم الخايبات العديدة والالبسة المعلقة بمسامير على الحائط والكتب الكثيرة وعلب الالوان ومذيبتها وحزم ورق الرسم وقماشه، تحظى بشيء متواضع من الترتيب، وهي مهمة البوريني الذي يقوم بها بصبر كبير ودون تدمير.

الزيارات النسوية محذورة، فربة البيت تطل على الباحة المكشوفة ببرقعها من حين الى آخر، وكأنه شيء عفوي حين ترتب وتسقي اصص الزهور على افريز نافذة غرفتها في الدور العلوي وهذا السقي

والترتيب يتكرر اكثر من عشرين مرة في اليوم، اصف الى ذلك انني
غريق الغرام حتى ذقني، والبوريني الهاديءالرزين منشغل بقوانينه
وشرائعه واحكامه، وفؤاد النحات لا يغادر عش غرامه في الاسطبل
الا نادرا.. هنالك معشوقة الحصان العربي المترفع.

تهتز دمشق بزلزال المظاهرات الصاخبة في شوارعها وجامعتها والمدن السورية كلها "وحدة!، وحدة!".. "جمهورية عربية متحدة".." عاشت الوحدة بين البلدين" "عبد الناصر زعيمنا".." ناصر ناصر هو الناصر".." "سوريا ومصر بلد واحد شعب واحد".." عاش! عاش!..

نخرج من الجامعة بتظاهرات وشعارات واعلام..انشراح تهتف مع رفاقها الحزبيين "ديمقراطية، اشتراكية، اتحاد فيدرالي".." انا اهتف بالقرب منها مع الحشد الاكبر "وحدة وحدة"، "جمهورية عربية متحدة"، "سورية ومصر بلد واحد"، "عاش جمال، عاش جمال!".." ..تسخن النقاشات بين حملة الافكار اليسارية والقومية والدينية في اروقة الجامعة

.. لم تسجل حالة اشتباك او اعتداء واحدة.. البعض يشارك في النقاش بحماس في هذا التجمع،.. لينتقل بعدها ويشترك بحماس اكبر في تجمع طلابي قريب آخر.

..نهرع من قاعات المحاضرات مجنونين، محمومين، مختنقين بعبر اتنا ونحن ننطلق، تاركين كتبنا وكراريسنا، متنادين فلعل هنالك أصم لم يصله الخبر "عبد الناصر في دمشق..عبد الناصر هنا معنا..عبد الناصر.."

..من تحت الشرفة أفق مع انشراح يداً بيد ننظر باحداق دامعة غير مصدقين الى هذا الرجل الاسمر الجميل المشرق الوجه، الذي يُحيي الحشود الصاخبة التي سدّت كل شارع وزقاق واكتضت بها سطوح البنايات والشرفات في المنطقة الوسيعة التي امام الشرفة وامتدت الى اجزاء قصية منها في العاصمة.

.. لم تنفع اصوات مكبرات الصوت المطالبة بالهدوء والصمت لكي يستطيع عبد الناصر ان يوصل كلماته الى الحشود المكتضة الصاخبة وفرح وجنون بهتافات وشعاراتها..تكررت النداءات مرات عدة قبل ان

يتخافت الصخب ثم يعقبه سكون في انتظار الكلمة..

- ياشعب سوريا المناضل!..

..ما أن انطلقت كلمات عبد الناصر الاولى هذه، حتى اهتز الكون من جديد بالهتافات والشعارات وتدافعت الحشود وكأنها تريد ان تصل الى جواره على الشرفة..

رئيس الجمهورية شكري القوتلي واقطاب القيادة العسكرية السورية عفيف البزري وعبد الحميد السراج وهشام العظم وآخرون.. يتوجهون الى القاهرة ويسلمون عبد الناصر العلم السوري وشعار الدولة.. عبد الناصر يعلن وحدة مصر وسورية ويصبح القوتلي (المواطن الاول في الجمهورية العربية المتحدة).

.. اقترب موعد الامتحانات.. أنا وانسراح نقضي كل الاماسي، حتى ساعات متأخرة من الليل في مكتبة الجامعة.. عشاءنا وفنجان قهوتنا في مطعم ونادي الجامعة.. استراحاتنا بين اوقات المطالعة نقضيها في التمشي والحديث في ممرات الجامعة المزدانة باشجار الحور والصفاف ومشبكات الورود او الجلوس فوق احدى المصاطب المشرفة على مدرج الجامعة وبردى من تحتنا..

-.. اسمعني جيدا يا صفاء وفكر قبل ان تجيب.. لو حصلت على زمالة دراسية على حساب الحكومة السوفياتية لاكمال تعليمك الطبي في موسكو فهل تذهب؟.. المهدي يتحدث على الطرف الثاني للهاتف من بغداد.

- وهل هنالك اي مجال للتفكير.. سأكون مجنوننا لو رفضت.. انه خبر هائل.. بالطبع اذهب، بالطبع.. اشكرك.. اشكرك كثيرا.. اشكرك!!
- اذاً هَيء حقيبتك!!.. راجع السفارة السوفياتية للحصول على تأشيرة الدخول!

والترتيبات الاخرى، فهم الآن على علم بذلك.. إنها زمالة المهدي الحمد الكبير.

إنسراح تبكي لقراري.. تطميناتي لها لا تجد نفعا في البداية، ولكن لاني سأذهب الى الاتحاد السوفياتي، وهي رقيقة حزبية، فقد خفف ذلك من اثر الصدمة في صبيحة اليوم السابق لسفري اصحبها الى احد الصاغة في سوق الحميدية.. نختار حلقتين ذهبيتين.. يخط الصانع اسمينا عليهما.. أضع خاتم الخطوبة في إصبعها.. اقبلها.. تلبسني خاتمي.. نرتاد الاماكن التي كنا نعشقها والتي كان لنا بها ذكريات عزيزة علينا، مصاطب الجامعة المطلة على المدرج وعلى بردى، غابة الحور في ضاحية قريبة.. نجلس دقائق متقاربين في

قاعة المكتبة.. فنجان قهوة في نادي الجامعة حيث لقاءنا الاول.. نهبط
المسار الذي كنا نأخذه سوية في طريقنا الى الجامعة كل صباح
.. نأخذ المصعد في وزارة الزراعة واقبلها كما المرة الاولى ونحن
نزور بهاء ليشاركنا فرحة ثورة العراق.. ها نحن على سطح العمارة
ذاتها لنقترب كما اقتربنا من قبل ونحن نطل على الشارع حيث
كانت مظاهرات الاحتفاء بثورة العراق تحتشد من تحتنا.. أوصلها
دارها مودعا.. تمسح دموعها.. تخلع الحلقة الذهبية قبل ان تدفع باب
الدار وتتنظر الي وهي شاردة الذهن قبل ان تغلق الباب ورائها..
في المساء وانا منشغل باعداد حقيبتني اسمع طرقا على الباب.. اجد
إنشراح واقفة مطرقة الراس شاحبة الوجه.. رفيفتها تمسك
بذراعها.. تدخلان.. تجلسان على حافة السرير.. دموعها تنهمر
بصمت.. تنظر الى اصبعي فتجد انه لا يزال يحمل الحلقة الذهبية.. تبكي
بحرقة اكبر.

اخرج بصحبتها نهيم في الشوارع والازقة دون هدف.. ها نحن ومن
حيث لا ندري في الزقاق الذي كنت اسكن فيه مع المهدي
والاهل.. إنشراح تعرف البيت جيدا.. نرفع اعيننا حيث نافذة غرفتي
الصغيرة ثم الى نوافذ صالة الاسقبال ..

جهدُ ظهورنا بالسياطُ

الحمد والمهدي يجلسان في نفس مقعدهما قرب نافذة مقهى سلافيا..
احزمة الضباب واوشحته تنهادى فوق نهر (فالتافا) وتندس بين ظلال
الغابة المنحدرة من السفح.

_ تتحاشى يا صاحبي حمد، المرور بذاكرة احاديثنا، عن تفاصيل
انقلاب او ثورة او فوضى ١٤ تموز او سمّ ذلك ما شئت من التسميات.

_ لقد عانيت منها ما عانيت!! اجاب الحمد.

_ وعبثت ما عبثت مع غيرك فيها ايضاً.

_ كأن لسان صفاء قد أخذ قطعة من لسانك!

..بماذا تريد أن تتهمني وانت معي في كل خطوة ومسار؟؟!!

.. ردّ الحمد بغضب وعتاب واوشك أن ينهض من مقعده، حاله كلما
غضب.

_ دائماً معك.. لا تنس أنك انت وانا واحد.. تنفصل عني وتأخذ مسارا
آخر بعيدا احياناً.. انت دائماً هو نصفي الآخر، الفوضوي، المغامر،
العابث، المندفع .

_ سأكتب عن هذه المرحلة يا مهدي يوماً ما.. ربما غداً او بعد عشرات
من السنين.. قد أكتب مذكراتي.

_ اعرف أنك ستفعل ذلك يوماً، وبالطبع وقفت معه ومع الخيرين في
البلد، ولكن ستبرء نفسك من كل انفلاتاتها ورغباتها ومطامحها، تلك
التي كان حصار القوانين الواضحة، فيما يسمى بـ(العهد المباد)، يحدُّ

بعضاً منها، ليس هذا الانقلاب والانفلات في الذات عندك فقط.. بل لقد كان عند كل الطامحين، الصالحين منهم والطالحين... كل اولئك الذين رأوا في الرجل الجاهل بالسياسة ومستنقعها، ذلك الرجل، الحالم بأن يُباد فيه الاقطاع والجوع والجهل معا بقفزة من دبابته، التي لا يعرف ادارة غيرها، قفزة الى وسط الرمال المتحركة لكل الرغبات الخيرة، والشريرة المنفلتة.. القفز الى غابة أُخليت من حراسها، فاكلته ضباها وذئابها ومزقت معه، كل ما ضمته جيوبه، من خرائط بدائية لـ(المستقبل المشرق السعيد)، أما أحلام قلبه فقد علقت منها مزق دامية فوق الأنياب التي نهشته.

_ لا تجعل منه مسيحاً مصلوباً!.. لقد إلتف حوله الناس، او ما تدعوهم بالجماهير، ورجال الفكر، وقادة السياسة المضطهدين في العهد الذي قبله.. كلهم تسارعوا لحمايته، وانا منهم، فرفضها.

_ تسارع ايضاً، القادة الذين لم يتذوقوا طعم ولذة ومطامح وأطماع القيادة العنن..

..أما رجال الفكر (المضطهدين؟!) الذي ذكرتهم وفق مقولتك، فقد كانوا الأسرع لياخذوا حصتهم من حقل الغنيمة وراعيه.

واي (اضطهاد) لعين ياحمد يستحق غنيمة دسمة؟!..

.. لوكان هنالك اضطهاد حقاً

لقد سارع انتهازيو (الاضطهاد المزعوم) هؤلاء، لأن يكونوا اول من تدفع بهم قوى اليسار ليحتلوا أبرز المناصب.. لا في العراق المضطرب، بل ليختاروا لانفسهم اجمل وأهم بلدان العالم ..

لقد كان هؤلاء أول من انقلب على حلم الثورة وزعيمها.. لم يمض زمن طويل حتى كانت كانت اقلامهم تسطر مناقب زعيم المافيا المستحدث،

وواصواتهم ووجوههم المشرقة بالحماس تمجد من على شاشات التلفزيون مجازر حروبه: " الحروب التي ستوحد جماهير الشعب خلف القائد " القائد التاريخي- الجغرافي!!

.. توحد الاحياء الباقين المنتظرين دورهم في المجزرة..

.. " توحدهم " - احياء وأموات - وراء قائد المافيا الجديدة .

فيكافئهم (القائد)- حفظه الله- الذي "لولاه ما هطل المطر"، ولا " أخضر الشجر " وكانت لياليها لولاه، سوداء حالكة، " ما طلع فيها القمر "، ولا " اكتحلت أجفاننا وأرواحنا بنور ضوئه " .. يكافئهم بالإحتفاء بهم في مخاضة الدم، ويجزل لهم عطاءته السخية الكريمة، ويعيد مناصبهم المرموقة، المثيلة لتلك التي اغتصبوها من (الزعيم الذبيح الغر الحالم).

في الوقت الذي وقفت معه ومع حلمه الجميل تلك النخبة الأبيّة الناكرة للذات، وقدمت نتاجها الثر بصمت القديسين، دون أن تطالب بجزء على عطاءها للبلد والناس وللحلم الذي كان يدعو اليه..وقفت معه كجندي صامد مجهول لتقدم عذاباتها وصبرها..دمها وحياتها حتى الرمق الاخير منه..وقفت معه ومن ورائها مكبرات صوت الجزائرين، وصوت اذاعتهم تلعلع في كل مكان:

" اقتلوهم حيث ثقتموهم!!.. اقتلوهم حيث ثقتموهم!! "

.. ووراء نداءاتهم بالذبح، تداع فتاوى عمائم سوداء كبيرة ممجدة المذبحة:

" قتل الكافر حلال!!.. قتل الكافر حلال " أي نعم!.. قتل حلال!!

.. وكل الخيرين كفره!..كلنا كنا كفره في عيونهم، حتى أنت ايها الحمد
وانا صنوك المهدي ورافد وصفاء، بل كل بيتنا ومن له صلة بقناعاتنا
وكل من لم يأت به " القطار الامريكي " .

_ وأنا ألم أكن ضحية؟!.. ألم أطلب وأطارد واشردّ انا ومن معي والى
يومنا هذا، والذي بعده.. والى يوم الدين؟!!

_ يقطع لساني ياخلي الحمد، لو لم أقل هذا.. ألسنت معك كما تراني
الآن وغدا والى يوم يبعثون..لكن!! إن علينا أن نقر، أننا افترسنا راعينا
واغنامنا معاً.

لقد قلتها فيما بعد في عبد الناصر وإنها والله لتليق به ايضا:

" قد كان حولك ألف جارٍ يبتغي .. هدماً، ووحداً من يُريد بناء "

لقد أضاعوا، واضعنا فرصة لن يكررها التاريخ لنا.. ودعك من اي
حلم غير ذلك!.. لا يكفي أن نقر بأخطائنا حسب!!..وكم مرة أقرناها!

إن ضرب الظهور بالسلاسل ندماً، لم يأت به شاه عباس، ولا (روح
الله) الخميني أو غيره من أرواحه وآياته، إنه تقليد آتٍ من عهود الكنيسة
البيزنطية الاولى!!..يخرج القسيسة والرهبان، ليضربوا ظهورهم
بالسلاسل، ندماً على حُلم المسيح الذي اضاعوه..

علينا يا شقّي الاخر الحمد، أن نقوم – وكل الخيرين – بذلك، في
(سبايات) كبيرة في يوم ذبح حلم تموز وراعيه، والأبطال الذين دافعوا
عنها وعنه حتى النفس الاخير.. علينا أن نجلد ظهورنا لنتذكر!

_ دعنا من حديث الشؤم هذا ارجوك.. اما ترى اننا كلما غانت وادلهمت
افكارنا، غام واطلمّ معها الجو الذي حولنا.. لقد بدأت سحب عاتمة
تتكاثف واهتزت الغابة السوداء امامنا، من عصف رياح هوجاء.

رسالة لم ولن تصل

عاد المهدي من منتجات البحر الاسود تصحبه مرافقته سفتلانا..
رشيقة مليحة الوجه بتعبيره المحافظ..كنت قد تعرفت عليها في لقاءات
عابرة أثناء عملي الليلي في اذاعة موسكو العربية..هي في قسم الندوات
الاذاعية..

يبدو من طبيعة التعامل بين المهدي وسفتلانا انه لم يحقق معها انتصارا
حاسماً تحت سماء ليلي الجنوب المزدانة بجواهر السماء البارقة
المتللمعة.

..يجلس حمد مع الرفقة المحببة من الوفد السوري، مع الشاعر شوقي
بغدادى والشاعر محمد الحريري (فيل الوفد كما يدعوه شوقي)..تدخل
(نعمة) الجميلة الباسقة بامتلاءاتها (الكافرة) متأبطة ذراع اسماعيل
بحرارة (اسماعيل لا مكان له في المؤتمر الا كونه أماً لقائد
الحزب)..يسير الزوج السمين المترهل خلفهما لاهناً متعرقاً محملاً
بعلب المشتريات الانيقة من اسواق موسكو (غوم) و(سوم) الضخمة..
حين تلمح نعمة المهدي وهي تجتاز مدخل فندق موسكو، جالسا مع
رفقته السورية، تنضم الى حلقتهم..تحتضن المهدي مازحة من الخلف،
قبل أن تجلس امامه بمرح وحيوية هازة شعرها العاتم وتخرج علبة
سكائرها الذهبية..يسارع حمد بولاعة ليوقد سيجارتها..تضع ساقا فوق
ساق..ينظر بمرح الى الفخذين الممتلئين، هازا رأسه بحركة تنبيه
ممازحة، ضاربا كفه على فخذة مرددا " حسبي الله ونعمة الوكيل،
حسبي الله ونعمة الوكيل " ..نعمة لا تبدل وضعيتها جلوسها، مخاطبة
اياها " اكعد راحة ابو رافد..تاليها وبياك! "

.. من مكان جلوسي معه المح (سفتلانا) من بعيد وهي تسير بجانب
يوسف العاني متجهين الى المصعد..غرفة العاني غير بعيدة عن غرفة

المهدي في الطابق العاشر.. المحها مرة وانا متجه في الممر الى غرفة نوم والدي وهي تتسلل الى غرفة العاني.
..بضع فتيات جميلات يتجولن بين مجالس الوفود، حاملات اوتوغرفات صغيرة..يقفن بقرب (فيل المؤتمر) محمد الحريري..
- ما هو دورك في المهرجان يا استاذ؟
..يبرز اليهن ذراعه الضخمة، مشيرا الى ان يلمس عضلاته ويحيب:
- أنا مصارع ياباني قادم للمشاركة في عروض مباريات اثناء المؤتمر.
يبدو ان المهدي كان قد رأى نفس مشهد تسلل سفيتلانا في يوم آخر، أو أن قوة حدسه قد قادتة الى معرفة العلاقة بين الاثنين..
..يطلب إبدال المرافقة بحجة صعوبة فهم نطقها للعربية..
..(سالافي-) (البلبل) يصبح مرافق الحمد البديل..سالافي شاعر مجدد متقن للعربية في الثلاثينات من عمره..
..يبدأ المهدي باظهار انزعاجه بشكل اكبر من تواجد "هذا المدعو..أفندي سعيد؟!..سعيد افندي؟! افندي يوسف؟!.. او يوسف افندي؟! " يرددها في مجالسه.
..يوسف العاني ولسبب لا اعرفه (ليس في جبتي)..او لم استطع هضمه في حينه...لاحقا أدرك وانا استعيد شريط الذاكرة أن السبب كان انزعاج المهدي منه والذي انتقلت عدواه اليّ وليس لاي سبب منطقي آخر.

نغادر أنا ومحمد مجلس الكبار-المهدي وصحبه- ونتجه الى قاعة الوفود.
..في المصعد بين زحمة الواقفين نرى سارتر بوجهه المدور وعينيّه المحوّلتين المتقافزتين في الاتجاهات الاربعة بقامته القصيرة وبالسترة المهلهلة والبنطال الفضفاض..يلق محمد هامسا في اذني " بريك لو رايتة في احياء بغداد العتيقة أن تقول أن هذا (المهتلف) عربي من باب الشيخ".

..ننطلق انا ومحمد بين مجالس الشباب، حيث نجيب سرور، زميلي في السكن بجامعة موسكو، والحيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن..نلتصق بيوسف ادريس حين نراه وندعوه الى مقهانا-مقهى الشباب في شارع غوركي..

في ركننا المعهود من المقهى..يوسف سيد الجلسة يتحدث بحماس عن الحركة الناهضة الجديدة في مصر.. عن حركة السلام بين الشباب هناك (كان يوسف ادريس احد نشطائها البارزين).

حين يتحدث، كل شيء ينطق في وجهه الاسمر الباسم، بالعينين العسليتين التي تنفذ في مستمعها الى الاعماق، يده التي تتحدث باناملها، جسده الضخم حين يميل بوجهه نحوك بين حين وآخر..يمغظك..بقوة جاذبية تفوق كل ما نعرفه، وفوق كل هذا يُخجلك بتواضعه حين يضعك مقام الند للند بالحديث والحوار..

كم ستنزل بك الخيبة والاحباط الى الحضيض بعد خمسة وعشرين عاما ويغمرك الحزن حتى الاختناق بالعبيرات وانت ترى هذا المارد الادبي الجميل، عملاق القصة القصيرة، يتحدث في لقاء تلفزيوني ببغداد عن مزايا الحرب العراقية الايرانية الايجابية والعراق كله تغمره مخاضة الدم الرهيبة، وكيف انها " توحد الامة وراء اهدافها وقائدها " ..العبارة المعادة!!.. كان يوسف ادريس -ويا للأسف- واحدا من عشرات من ادباء الارتزاق المحليين والذين قدموا ليستجدوا البطل التاريخي - الجغرافي، بطل الحُفر الأسطوري. لقد لَطَّح هولاء اسمها هم الادبية بدماء مئات الالوف الابرياء المساقين الى الموت.

..هأنذا اعيد المشهد واره اليوم امامي كما البارحة، وكما يقول المهدي عني مستغربا ومعنفا في كثير من الاحيان " أنت محامي البشرية كلها؟! " ..اجد لهذاالاديب العظيم، الخالد، الذي اعشقه عذر المحب المعجب، انه كان نزيل مستشفى الامراض العقلية قبل قدومه بمدة (او مثلما كان هو يناشد الآخرين ليسندوه أنه ادخل اليها قسرا)..اضف الى

ذلك، تصوري خيبة امله الممضة وضياع كل القيم بعد نكبة حزيران
وتضحيات الشعب المصري المكافح، وبطولة الجندي المصري الفريدة
في العبور العظيم ومن ثم نهاية القيادة الأساوية بـ(اتفاقيه الكيلو ١٠١).
..ولكن ماذا عن مئات الآخرين الذين مجدوا (بطل الحفر) المنتصر ابدأ
رغم هزائمه، أكانو كلهم قد أودعوا مستشفيات المجانين ليروا بعدها
الشمس والقمر والهواء والشجر وحتى الله سبحانه في وجه القائد
الضرورة.

كنت منشغلا في تحضير بعض المواد الاذاعية وترتيب الاوراق،
واضعاً اشارات وخطوطا لمواقع التوقف اثناء قراءة السطور امام
المايكروفون وكان الى جوارى مسرور كنانة ومشتاق طالب وكوزيتا
(عانس الاذاعة الاوزبيكية).

..نهضت كوزيتا مرحة بسفتلانا المتوجهة نحونا.

..لم اعرها اهتماما كبيرا، غير انها انحنى هامسة في اذني:

- اريدك في كلمة سريعة!

- بكل ترحاب ولكن بعد ان اكمل قراءة النص الاذاعي لوسمحت..لن
يستغرق ذلك اكثر من ثلث ساعة.

..حين خرجت من غرفة البث الاذاعي المصمتة بادرنتي:

- هل لي ان ادعوك الى فنجان قهوة في مقهى الاذاعة؟

- بل ساكون شاكرا خصوصا بعد صدام غرفة الصمت المطلق تلك.

اختارت مكانا منزويا من المقهى..صممت قليلا وبصوت مرتجف
خافت حزين وقد ابتلت عيناها بالدمع:

- لقد تركني!..تركني بعد وعود كثيرة..كنت احسب اني سأرحل معه
الى العراق..تعرف من أعني!؟

- لا ابدأ!!..قلت ذلك متظاهرا بجهلي مَن المقصود.
- ومَن غير يوسف العاني..لا اتصورك تجهل ذلك، لقد كنت احس من ايام فندق موسكو، بأن الامر لم يفتك فانت ابن ابيك.
- شيء مؤسف يا سفيثا..مؤسف حقاً!
- لكني اقصدك الآن بطلب غير صعب لكنه مهم عندي.
- من عيني هذه لعيني تلك واشرت الى الواحدة بعد الاخرى.
- لقد علمت من كوزيتا انك طلبت اجازة من عمك المسائي وانك متوجه بعد غد الى فيينا لحضور مهرجان الشبيبة.
- هذا صحيح.. لعشرة ايام فقط.
- لقد عرفت من مصادر موثوقة ان يوسف العاني سيكون ضمن الوفد العراقي القادم الى المهرجان..رجاء ان توصل اليه هذه الرسالة..سلمتني الرسالة واخرجت مندبلا من حقيبتها الصغيرة لتجفف عينيها الدامعتين.
- سابدل جهدي كي اوصلها اليه..هذا فيما لوكان قادما فعلا الى فيينا.

كان مقعدي وسريري، في القطار الفخم المتجه الى فيينا عبر دول اوربية، مع الوفد الفنلندي..رففتي كانت في معظم الوقت مع فتاة حمراء، حمراء الشعر، حمراء الخدين، حمراء القميص، حمراء الحذاء، حمراء الانتماء وحمراء الليالي بعد ان تكرر نبيذها الاحمر في مطعم القطار. يقف القطار في مدن صغيرة.. نجد مهرجانات صغيرة بانتظارنا على الرصيف بموائد عامرة بالاطعمة المحلية والنبيذ والجمعة ويفرق الموسيقى والرقص الشعبي.. بضع صبايا في المدينة المجرية الصغيرة يتقدمن بوجوه خجلة مرحة حمرة صوب الشاب السنغالي المرافق لنا في العربة..تطلب احدهن ان تتلمس فرشاة الشعر المجعد المعتل الخشن..تمرر كفها الصغيرة فوق رأسه الذي قام باحنائه قليلاً وتقفز

بعدها بفرحة المنتصر الذي حقق أمنية عزيزة بفوزه.. الاخرى تسأله
بخجل عن امكانية تقبيله من خده.. يدير لها وجهه المبتسم.. تستدير بعد
القبلة لتحتضن احدى رفيقاتها بفرح.

ها نحن قد وصلنا الى فيينا.. أجد مكاناً في سرادقات النوم غير بعيد عن
الوفد العراقي واقرب الى الفنلندي، حيث الحمراء.

في سماء المدينة الجميلة ترفرف فوقنا في كثير من الاحيان، لافقات
طويلة تمتد وراء طائرات التدريب الصغيرة وقد خط عليها " تذکر
إنتفاضة المجر عام ٥٦!! .. " تذکر مذابح بودابست!! .. " تذکر من
نبحهم الشيوعيون في كاتين! "

.. يقف فوق رصيف الشارع المؤدي الى معسكر سكن الوفود ستة من
الرجال الضخام.. اثنان يحملان لافتة مكتوب عليها " لانريد الشيوعيين
في بلادنا " والبقية تحمل رزم كتب ومنشورات مناهضة للمهرجان..

احاول تجاوزهم والوصول الى باب المعسكر.. يتصدون لي ويعرض
أحدهم باستفزاز أخذ منشور وأحد الكتب.. أرفض.. يحيطني ثلاثة منهم
غاضبين مهددين.. قبل ان يبادروا بالاعتداء علي اسمع صوت امرأة
عجوز تصرخ بغضب والمحها تركض حاملة مظلتها عالياً مهوّشة بها
صوب المجموعة.. اميز كلمة " فاشست " بين بقية الكلمات الالمانية..

تنفضّ عني المجموعة التي تحوطني.. تقف السيدة العجوز بمظلتها
واناقتها المميزة الى جانبي واقدرّ أنها لا تقل عمراً عن الثمانين.. تتحدث
معي بانكليزية طليقة " لا عليك من هذه الحثالة.. للأسف لا يزال عندنا
الكثير منهم في مدينتنا الجميلة.. هل شاهدت نصب شتراوس وتمثال
بتهوفن؟!.. هل زرت المتحف حيث كليمت ويوجين شيل، والكاتدرائية
العريقة؟!.. فيينا مدينة جميلة وفيها الكثرة من الناس الطيبين.. ارجوك
اقبل اعتذاري ومرحبا بك في مدينتنا " .. ارفع كفها المعروقة وانحني
فأقبل اناملها.. تقف منتظرة حتى ابتعد قليلا عن المجموعة في طريقي
الى بوابة المعسكر.. أستدير وانحني تحية لها واواصل سير

تبدأ عروض افتتاح المهرجان باستعراضات الوفود في شوارع فيينا
المزدانة التي لا تزال رسمياً تحت الهيمنة الامريكية والروسية.. لا تُلاحظ
هذه الهيمنة على حياة المدينة الفخمة.

كل الوفود قاطبة من كل ارجاء المعمورة تتقدمهم الموسيقى
والراقصون والمهرجون وحشود السائرين التي تصخب بالابواق
والمزامير والطبول والاعاني المرححة والبدلات الشعبية الزاهية
الالوان.

.. إلا الوفد العراقي فهو يسير بوقار تتقدمه نخبة من الرفاق القياديين
بالوجوه الرسمية وفي الطليعة يمشي المناضل (أبو الهُب) اخطر شقاة
بغداد العتاة المرهوبين، لقد فاق صيته المرعب في ظلمة ازقة بغداد
العتيقة، صيت الشقي الشهير (ابن عَبدكهِ) والشقي الآخر (ابن
الحجبة).. أبو الهُب يسير بوقار السلاطين، بكرشه الضخم و(دشداشته)
الطويلة وسترة الجوخ السوداء فوقها.. سبحة الكهرب الطويلة تتدلى من
اصابع يديه، وهوصامت مبتسم بهيبة ووراه حشد شباب الوفد يرددون
بصوت رتيب ممل:

" هَلْهَ بيها!.. هَلْهَ بيها آآه.. آآه! جمهورية، جمهورية آآه.. ديمقراطية
شعبية.. إيه شعبية.. إيه شعبية آآه.. "

كاكه فاضل القادم معي من موسكويخزني بكوعه كي نبتعد عن
مجموعة (هلا بيها).

..أنطلق انا ومصورة المانية بينطالها الكشفي القصير.. تعلق فوق رقبتنا
كاميرتين وبضع مرشحات للضوء.. نجوب الازقة العتيقة في مدينة
الخمور القريبة وضافا الدانوب.. احاول مغازلتها هنا، فأجد نفسي
سخيفا، فهي منشغلة عني بعالمها الخاص.. بالطحلب الاخضر فوق
جذع شجرة عملاقة، بإعواد مكسرة وقش واوراق اشجار عتيقة،
ازاحها التيار فوق كومة من احجار الضفة.. يحزم الضوء المهتم،
وهو ينفذ من خلال اغصان كثيفة متراقصة.. اترك محاولات التقرب
الصبيانية وابدء بمصاحبتنا بصمت مستمتعا بمراقبتها وهي تقفز
كالطفل فرحا وتسير مسرعة منبهرة صوب اكتشاف جديد.

على سطح قاعدة عالية لاحد التماثيل الرائعة في اكبر ساحات فينا يقف
العملاق الاسود بشموخ.. تخفت الاصوات ويسود الصمت فوق رؤوس
عشرات الآف من شباب العالم ونصف قاطني فيينا ومعهم القادمون من
التيروول أو جنيف او من المانيا ليستمعوا وليروا عن كئيب اسطورة
الغناء بول روبسون..
..(جماعة هله بيها تختار مكانا آخر لترديد اهزوجتها الفريدة).

.. . . .

حين انطلق الصوت الجهوري العميق الدافئ:

I dreamed I saw Joe Hill last night,

Alive as you and me

هلل الحشد والارض والسماء وكل مافي الساحة، فرحاً واستحسانا
للأغنية المختارة، ورأيت هذا العملاق الاسود يتناول ليقارب رأسه
السحاب العابر فوقه.

..صمت الحشد بسرعة ليوصل المغني الاسطوري سمفونيته.

أجد المهدي اخيرا في الطابق الثالث من فندق صغير.
..أسلمه رسالة سفتلانا المعنونة الى يوسف العاني كي يوصلها اليه..
..كنت واثقا حين غادرته بعد حين، أن مصيرها سيكون اقرب سلة
للزابال.

العشق والارق والضياء

قاربت حالتي، حال والدي الحمد المهدي، فمن هروب الى هروب،
ومن عصيان الى عصيان، ومن زيجة الى أخرى.. ومن بلد الى بلد..
وها أنا مع الحمد المهدي من جديد..

قدم ماهود احمد الى براغ وحمل معه من موسكو بعضاً من مكتبتي
الطبية وبضعة من اعز لوحاتي التي تركتها هناك قبل رحلتي الى
السودان..

أعلق صورتني الشخصية، ولوحة (أحبك) في الصالة..
أتملى اللوحة من جديد.. فتاة ممشوقة عارية حتى اسفل الخصر.. وجه
اوكراني-سلافي.. عينان زرقاوان تنظران اليّ بتساءل مع طيف
ابتسامة على الشعر المتورد.. الشعر الذهبي، خصلاته الذهبية تسرح
لفائف منه على طرف كتفها وجانب من الثدي المكور الصغير، في
حين يضع البعض الاخر منه في خلفية الصورة الحنائية بالوان تقادمها
المختلف.. بني عاتم.. اخضرار باصفرار (موغري).. صفرة مذهبة
مبقعة بالحناء.. تلتف ذوائب من الخصلات على حروف كلمات العشق
بالوان الذهب والفضة والمرجان بمختلف اللغات (احبك، جي تيم، يا
تيا لوبلو، ..،..)

اقف منفعلا امامها.. تلقي عبائتها الحنائية المطرزة بكلمات العشق
الذهبية، الفضية المرجانية وتخرج صوبي، وهي تواصل تحديقها بي
بابتسامة مشاكسة: "لن أتعز أكثر امامك، رغم محاولاتك الكثيرة
المتواصلة وتوسلاتك.. لو نضوتُ عني كل ما علي، فلن يصمد جسدي
امام شبكك، وإن نلتني فستخبو جذوتك الفنية المستعرة وتخبو ومضة
الحياة في اللوحة!"

.. أمرٌ بيدي متمسكا تفاصيل البدن العاري امامي، المعلق فوق جدار الصالة.

حين دخل المهدي في اليوم التالي الى غرفتي في شقته، نظر الى عشرات المراجع المكدسة وسأل بين الجد والممازحة الساخرة..

- اتحمل كل هذا في دماغك!؟

- بعضاً يسيرا منه، إنه عشر معشار ما يحمله دماغك من شعرك، ومن تراث الاولين والآخرين الادبي.

اشارك ماهود وهو - في ضيافتي- كل ما تحمله جيوب بدلته المهلهلة من شحيح النقود الذي يحمله لسياحته (المترفة) الموعودة في براغ.. أنا (على الحديد) تماما.

بدأت البحث عن عمل.. طرقت الابواب النظامية وأبواباً اخرى، وزرت اناسا مهمين لعل كلمتهم تشفع لي عند الحيك.. لا أمل يلوح في الافق القريب او البعيد.

لم يأتي الفرج من هناك.. لقد أتى من مكان آخر يصعب تصديقه..

.. بعد اسبوعين على هذا اللقاء، سألني ابن عمتي (رجاء):

-هل من نتيجة لمساعدتك؟

فاجبته بالنفي..

..قال إنه سيحاول وسيبذل ما باستطاعته.

.. لا ينتمي رجاء إلى أي حزب أو تجمع أو فئة سياسية.. ينظر الى كل هذه القضايا باستخفاف.. أنا بدوري نظرتُ الى عرضه-مع نفسي- وأنا اشكره، باستخفاف ايضا.

.. ماجستير اقتصاد.. زير نساء (أكشر) لا يُجارى ولا تعصى عليه حتى (ديانا الأقدمين او ارتميس).. ربيب مجالس الطرب والانشراح والفرقة.. نديم لصفوة الشاربيين.. غارق حتى اذنيه بدوامة القمار، ينفق مايربح بسخاء ويستدين.. ويستدين ليخسر.

بعد ايام طلب ان نتلاقى في خمارة (اوفليكو) العريقة الشهيرة.. هنا
جلس نابليون بونابرت وجوزفين، ليستجم قبل معركة (اوسترليتز) مع
قدح من جعتها الشهيرة السوداء..

.. قدم وبصحبته رجل ضخم في الاربعينات وقور أنيق..
.. جلسنا وراء طاولة وطلب الرجل الوقور ثلاثة اقداح من الجعة
السوداء.. يوجه حديثه معي بالجيكية.. رجاء يترجم..

سألني عن سنة تخرجي، عن اهتماماتي، ثم دار بعدها حديث بعيد عن
الشكليات.. ينكت رجاء فيضحكان.. يروي الجيكي حادثة طريفة
فيترجمها ونضحك نحن الثلاثة..

..أتينا على القدح الكبير الاول، فالثاني.. اشار الى النادلة باصابعه
الثلاثة مرة اخرى.. حاولت الاعتذار عن مزيد الشراب..
.. التفت الرجل الوقور الى رجاء وتحدث وهو يبتسم..

_ يقول فلاديش، اذا لم تشرب الكأس الثالثة المقدمة، فلن يتم تعيينك!
.. شربت قدح الجعة واستلمت أمر التعيين على عنوان المسكن بعد
اربعة أيام (..طبيب تحت التدريب في قسم الاشعة لمدة سنة واحدة،
أتعلمُ خلالها اللغة الجيكية وأقدم امتحان التعادل).. لي حق الاختيار بين
مكانيين، احدهما مستشفى في مدينة (بلزن)، والثانية مدينة (ملادا
بولوسلاف) التي تكاد أن تكون ضاحية من ضواحي براغ..
.. إخترت ملادا بولوسلاف..

عدت في المساء الى الشقة بعد يومي الاول من العمل، لم يكن المهدي
موجودا، فهذا وقته في مشرب (سلوفينسكي دوم).

دخلت المطبخ لاعد وجبة عشاء سريعة.
..على الطباخ كان هنالك قدر صغير قد غُطي بمنشفة يد صغيرة وفوقها
ورقة قد خط عليها (دجاجة محشوة للدكتور)!
.. المهدي طباخ ماهر.

بعد أن تلذذت بالدجاجة المحشوة بالزبيب والبصل واللوز المقلي والرز، غادرت الدار لالتحق به في مكانه المعهود في المشرب الضاج بالشباب وسط المدينة.

..يختار دوما مكانا يسيطر من موقع طاولته فيه على حسنات براغ، على مناجات العشاق في الاركان نصف العاتمة، على النادلات المارات بارديتهن القصيرة المثيرة.. يداعبن احيانا بكلمة وابتسامة وهن يتخاطفن بالقرب منه حاملات اقداح الجعة.. ينظرن احيانا بدهشة وابتسامة الى الكهل الانيق ذو الطاقة المزخرفة الغربية الذي غزت مسارات الثلج فوديه.

.. جلست في مكان امامه، لا احجب عنه الاجزاء المثيرة التي يراقبها بامعان.... يدندن مع نفسه بكلمات لا أُمَيِّرُ الا القليل منها، لكني اعرف ان بعضا منها سيكون مشروع ابيات جديدة.

جاوزنا منتصف الليل حين غادرنا المشرب.. لمح الترام يمر غير بعيد.. لم أصدق ما رأيت.. صرخت محذراً وهو يهرول وراء الترام الذي غادر محطة وقوفه .. ركضتُ ورائه فلم استطع مجاراته إلا بانقطاع الانفاس.. أمسك بعمود سلم الترام المتسارع وقفز اليه.. عدل من طاقبته ونظر الي بتحدٍ ساخر باسم، وانا احاول ان اجاربه وأصل، الى سلم الترام.

.. حين قفزت الى جانبه، كان يقف منتصباً هادئاً مزهواً، في الوقت الذي كنت فيه ألهثُ وأحشرج بانفاسي فترة غير قصيرة وانا انحني اعياءاً.

.. من بريق عينيه الساخرة المرحة قرأت " انظر انت يا هذا واحكم! من هو الشاب فينا؟! "

..زار خالد الجادر، المهدي، قادما من المانيا الشرقية،.. ومعه علبة
كارتونية كبيرة قدمها هدية اليه.. أخرج منها تخطيطا تلو الاخر لقصائد
ديوانه الشامل القادم .

..ثلاثين عملا لم أر في حياتي شيئا بهذا الجمال ودقة التعبير والفهم
العميق للقصائد.. شيء فريد لا يتكرر.

كان صموتا اكثر منه متحدثا.. ينصت الى حديث المهدي، لا باذنيه
وحسب، بل بوجهه الواضع ذو المسحة الطفولية وعينيه العسليتين.

.. حين ذهب الى المطبخ لاعداد فنجان القهوة لضييفه.. انتبه الجادر الى
اللوحه الحثائية نصف العارية.. تملأها طويلا وهو يبتسم.

.. حين عاد المهدي بالدلة وفناجين القهوة الثلاثة، بادره وهو لايزال
يقف امام اللوحه:

-ولذلك رسام بديع.. لوحه تكاد تكون فريدة.

شكرته على لطفه، معبرا عن فخري بأن هذه الكلمة اتت من رسام
عظيم اعشقه واتابع اعماله.. هز المهدي رأسه، وكأنه يتساءل بشك: "
ربما ما تقوله يحمل شيئا من الحقيقة.. ربما؟! "دعاه خالد قبل مغادرته
الى برلين.. لبي الشاعر الدعوة بعد حين...

لم يطل الامر!.. غرقت والى اعماق الاعماق في عشق طالبة تدرس في
جيكوسلوفاكيا.

..صبية رشيقة حسناء الوجه، ذات ذوق رفيع في ملابسها
وزينتها.. عجزية الطباع حيناً.. محافظة صارمة حيناً آخر.. مفرطة
السخاء، مثقلة بالديون.. ابواب اسوار عالمها السحري مشرعة لمن
تحب، حصينة محكمة الإيصاد منيعة أمام الاخرين.. كنت في ضيافة
سخاءها وعوالمها.

يا لروعة أماسي براغ!!

نبدء بـ(أوفليكو).. احلس في نفس الزاوية التي جلست فيها (جوزفين)..
تقول:

__ تمسك انت بيدي كما فعل نابليون قبل مئة وسبعين عاما، وتخبرني بأن ما ان يحل نصر معركة اوسترليتز صبيحة اليوم التالي، حتى تعلن للملأ خبر زواجنا.. لست اعني زواج نابليون من جوزفين، بل زواجك مني أخيرا.. نعم، ويا لسعادتي أخيرا.. .. وتجلبُ اقداح البيرة السوداء وخبز الثوم المقدم المحمص. .. نخرج بعد ساعتين نستنشق عطر البيرة يضمخ أنسام اماسي براغ. .. نجلس في مقهى(سلافيا)، المطل على النهر الموشح باحزمة الضباب.. ومن خلال كوى الضباب السابح تتلامع، تنكسر، تشحب، وتخبو فوق صفحة النهر، فوانيس المدينة القديمة السابحة في عتمة السماء..

ننتظر في (سلافيا) حتى موعد الحفلة الموسيقية ل(سميتانا) و(دفورجاك) في دار الموسيقى الوطنية المجاورة، وحين نخرج قرب منتصف الليل اختضنها ونحن نسير باسترخاء حالم على رصيف النهر.

حين نصل الى جسر كارلوف، وعند منتصفه، نتكئ على سياجه الحجري قرب احد تماثيله العديدة ونطل على النهر المتلامع بنجوم واقمار (الهاجاني) المنسرحة من تلال القرون العتيقة المجاورة والسابحة في النهر.. ترنّ في سمعي أنذاك مقطوعة(فالتافا)الموسيقية من جديد.

نصعد (الهاجاني)، نعبّر ازفته الحجرية باضواء فوانيسها التي عمّرت مئات السنين وما زالت تلقي بنور عصور هرمت وما فتئت تبعث اريج الشباب والحياة في السابحين في ظلالها. حين نصل في مرتقانا لقمة النجوم والاقمار، تعزف لنا الابراج الذهبية نشيد دقائقها بالف نغم ناقوس متنوع متداخل.

.. ترقص المدينة العريقة من تحتنا.. وحين يتلاشى صدى آخر ناقوس معلنا إنتصاف الليل، نسبح في قدسية الصمت.

.. تقفز فرحاً وتصرخ (هورا، هورا هورا)، وتسحبني من سرحاني فوق القمة لتهبط بي الى رحم براغ.. الى باطن الارض. ننقل من حانة الى حانة ومن قبو مرقص الى آخر. نرقص (الجارلستون) وال (هبي هبي) و(الجيرك) وال (الصالسا)...

.. نخرج من أقبيننا لنركض في الأزقة الحجرية نصغي لصدى ضحكاتنا وفوضى صرخاتنا المخمورة النشوى.

نطرق ابواب كنائس قوطية عتيقة لنفتح لنا كوى صغيرة في الابواب الضخمة نُسأل عن كلمة.. نتمتم بالسر.. تصرّ البوابة الاثرية.. يفتحها شبح مقنّع..

..نسير طويلاً منحدرين في ممرات عميقة منارة بالمشاعل، مرصوفة جوانبها ببراميل الخمور المعتقة المعتكلة بالغبار وانسجة العناكب. نعب، خمرأ،..وعشقا ونغم.

نخرج من أعماق العصور الوسطى، نُطلّ على المدينة الساهرة.. ازواج عشاقها يمشون بخدرمتبعين ظلالهم من الفوانيس الشاخصة فوق الازقة الحجرية.. نتبع ظلنا حتى يغيب في توهج الفجر...نتراكض صاخبين.

.. نتسكع سوية فوق جسور براغ الحجرية المتفادمة.. نستجم بين زوايا كنائسها وبوابات قلاعها.. على ذروة تلال (الهاجاني) من جديد ننصت الى سيمفونية عشرات الساعات من الابراج الذهبية، وهي تتفاوت لحظات فيما بينها بدقاتها، معلنة انتصاف الليل.. نشرف عند السحر، على لآليء اضواء المدينة تحتنا ملضومة بشريط مياه(الفالتافا) المتلامع.. تتوهج (فحمة الديجور) المحترقة ونحن ننحدر فوق الازقة الحجرية، سكارى بنشوى الفجر المتصاعد في الافق .. عند حلول ليل آخر نطرق باب كنيسة بالغة القدم.. تفتح كوة ليطل من وراءها وجه في العتمة ويسأل عن كلمة السر.. نمشي في بقع الظلمة والضوء في

دهليزها .. هنالك مشاعل نفطية دخانها الاسود المتصاعد يعطي اشكال
ساحرات متراقصات .. على جانبيها تصطف عشرات براميل النيبيذ
الضخمة تحكي قصصا عجيبة عن شاربها قبل الف عام .. تصلنا أنات
كمان يصاحبه غناء عجري .. تفتتح امامنا فسحة كهف كبيرة بموائد
وكراسي خشبية غطتها القرون بالوانها القاتمة، فوقها شموع تكاد لا
تكفي لحسر امواج الظلمة المتدافعة.

.. نسافر الى بحيرات جبلية .. نركب قواربها .. نغور ببصرنا الى الاعماق
التي تحتنا .. صخور مزرقّة مخضرة بلمعات خطوط بنفسجية مقطعة
تتلاعب فوقها .. نتسلق التلال .. نستلقي على اعشابها الرطبة في فسحات
غابات الصنوبر والسدر الباسقة حولنا .. نتدحرج على السفوح .. نصرخ
باعلى اصواتنا ونسمع رجع الصدى من الصخور الجبلية السوداء
المحيطة ..

.. نتقافز راقصين ونسقط اعياءً ضاحكين من اعماقنا بجذل ..
حين نقدم الى الشقة يلاطفها المهدي الكبير، تقفز بمرح عليه .. تحيط
عنقه بذراعيها من الخلف .. تغمر وجنتيه بالقبلات وهي ضاحكة ..
يتساءل الكبير مبتسما:

- هل هذه القبلات حقاً لي، أم أن فيّ رائحة الحبيب؟!
- ابدأ، انت حبي الاعظم، الاول والاخير .. لا أحد يمكنه أخذ مكانك
عندي!!

.. تستدير صوبي ضاحكة وهي لا تزال متعلقة بعنقه ..

.. تصلني رسالة من اخيها وصديقي الحميم في موسكو:
" اباركما من الاعماق، وانت تعرف صدقي في ذلك. لقد تمنيت ذلك
منذ زمن، ولكني في الوقت ذاته، اعرف مرحلة الضياع الذي انت فيه،
واخشى انك تتعلق كالغريق بقشة ستسحبها معك الى الاعماق، وليست
هذه القشة إلا سميرة "

(اذا اردت أن تنسى الاولى، فأقفز الى سرير عشيقتك الثانية!!)
لم ينفع هذا المثل مع الشاعر، فقد ظل ملوّعاً بغياب ماروشكا، التي
كانت تجيد التلاعب بعواطفه. لقد أختفت منذ حين..
لا صدى هاتفٍ يرُنُ ولا الجرسُ مُعلِنَا
لا أثر لها لا في مسكنها، ولا في المقاهي والحانات التي كان يرتادها
معها..
الهدايا الكثيرة التي جلبها لها من زيارته لالمانيا تنتظرها باشرطتها
الوردية على أحد رفوف غرفة النوم..
.. يأرق كثيراً.. فيردد ابياتا قديمة ليضيف أخرى..

مرحباً يا ايها الارقُ والنجومُ الزهرُ تفترقُ
فحمّة الديجور تحترقُ فيجرّ السابحُ العرقُ

مرحباً يا ايها الارقُ لك من عينيّ منطلقُ
فُرشتُ أنساً لك الحدقُ إذ عيونُ الناس تنطبقُ

لك زادُ عنديّ القلقُ ورؤى في حانةِ القدرِ
والبراغُ النضوُ والورقُ عتقتُ خمراً لمعتصرِ

فرّ ليلى من يد الظلمِ وتخطاني ولم أنمِ

كلما او غلثُ في حُلْمِي خلّنتي اهوى على صنم
يستمدُّ الوحي من ألمي ويبثُّ الروحَ في قلّمي

أنا عندي من الأسي جبلُ يتمشّي معي وينتقلُ
أنا عندي وإن خبا أملُ جذوةٌ في الفؤاد تشتعلُ
إنما الفكرُ، عارماً، بطلُ أبد الأبدین يقتتلُ
قائدٌ ملهّمٌ بلا نَفَرٍ حُسِرَتْ عنه رايةُ الظَفَرِ

اسمغ فاتسلل لاقف وأتلصص من زاويتي في عتمة الممر..
الحمد المهدي يتكأ على ظهر التخت وهو يضع كفه اليسرى، وقد افرد
اصابعها، على خذه حاديا الابيات بلحن جميل، ساهما في الظلمة الفارة
من الافق البعيد وتتخطاه وهي تنزلق عبر النافذة الوسيعة.

تحوم حول الحمد، ومنذ زمن، فنانة شرقية رشيقة جميلة في منتصف
الثلاثينات.. تنقد عيناها وكل منافذ جسدها شبقا..
كانت قد خلعت زوجها، خرتيتي الضخامة والشحوم، قبل بضعة
اسابيع..

.. كان الزوج الذي يكبرها كثيرا، يعمل في مؤسسة ذات طابع تجاري،
عمله الحقيقي في زوايا المطار والحانات والمقاهي، يبحث عن طالب
او سائح ليركض وراءه وكرشه الضخم يتمايل يمينا وشمالا، ووجهه
المنتفخ يقطر دهونا وعرقا..

.. يقترب من السائح ويهمس باذنه " لذي سعّر مغرٍ لتصريف
الدولارات التي تحملها "

لا يحتاج الشاعر الى وقدها، حتى ولا شرارة ليلتهب، فهو دائم الإقناد
يلهب الاخرين من حوله..أضف الى أنه يريد نسيان حبيبته المبتعدة
بأحضان الاخريات.

.. راح ضحية الاتقاد واللهب بينهما، تخطيطات خالد الرائعة ولوحتي الحنائية الذهبية نصف العارية.. لقد أهداها الى الفنانة الشرقية الشبية.

لا ينفع لاطفاء لهيب لوعته، قدوم كاترينا، الشاعرة والممثلة المسرحية، في الليالي بين الحين والآخر..

إمرأة في مطلع الثلاثينات، بجسد (كافر) الامتلاء ووجه اقرب الى الاستدارة وعيون غجرية سوداء وشعر اسود قد قص وفق تسريحة كليوباترة..

تأتيه مطلع الليل وتغادر مطلع الصباح..

حين تغزوه إحداهن او أعلم - عرضا - بذلك الغزوة، أغادر الى غرفتي الكنيية الموحشة في المستشفى في ضاحية ملادا بولوسلاف.

في الصباح ادخل القسم، واحشر نفسي بين بعض الاطباء المنشغلين بواجباتهم، احاول أن اتعلم شيئاً جديداً.. لا اعرف من الجيكية إلا بضع كلمات لا مكان لها في اللغة الطيبة او حوارات عاملها.. بعضهم يجاملني فيشرح لي بالروسية، او بانكليزية مكسرة لبضع دقائق ليعود فينشغل برقوقه المعلقة فوق فوانيسها او بالحوار مع زميله حول الاحتمالات التشخيصية.. أنتقل من غرفة الفحوص هذه الى غرفة أخرى.. الحال لا يتغير..

.. اسمع تلميحات من رئيس القسم بأني غير ملزم بدوام نظامي، وان هذه السنة هي لتعلم اللغة.. التلميحات تتحول بعد ايام الى كلام واضح " لا ضرورة للالتزام بالبقاء في القسم..حتى لوتغيبت اياما خلال الاسبوع، فالراتب جارٍ.. بالطبع اذا اردت القدوم فأهلا بك متى ماشئت " ..دفع يكاد يكون مهذباً للزميل الثقيل المفروض على القسم من جهات عليا!..

.. بطالة مدفوعة الأجر!..

الجأ الى مكتبة القسم.. لا اجد مصدرا باللغة الروسية او الانكليزية.. في مكتبة المستشفى الاكبر لا أجد إلا كتابا عن الصحة العامة بالروسية.. اجلس ساعات بارهاق وملل، وانا احاول ان انهي وقت دوامي في المستشفى عبر المطالعة..

.. بضعة ايام (وزهقت روحي).

بدأت بالتسكع في ازقة براغ ومقاهيها وجسورها.. لم تستطع سميرة أن تبعد عني مللي ووحشتي وقرفي من نفسي فقد غادرت عائدة لدراستها في مدينة أخرى.

.. لايمكنني العودة مبكرا الى الشقة، كي لا اوحى للمهدي، اني متسكع (عطال بطال).. اريد أن أبقى الصورة في ذهنه، باني أجهد في مهنتي الانسانية واستلم رواتبي بعرق جبينى.

أعود في المساء أجد، غالبا، أن المهدي قد أعد وجبة عشائي..

.. حين اجده في الشقة بعض الاحايين، وعندما لا استشف قدوم أنيس الطف منى أدعوه الى مطعم او مكان يحبه.

عدت في احدى الليالي فوجدته جالسا يقرأ في كتاب وهو يتكأ على ظهر التخت.. حين ايقنت أن لا وجود لتحفز الانتظار واللهفة على وجهه وأنه لم يبدأ بتحضير مائدة المشروبات وبعض الاطعمة الخفيفة، ولم يقم بتعديل الصالة وغرفة نومه مرات عديدة وأن كاترين غير حاضرة، فهي تقد اليه عادة قبل هذا الوقت، قررت المبيت عنده.

.. امسكت كتابا بدوري وجلست معه في الصالة.

في ساعة متأخرة سمعنا نقرا خفيفا على الباب، نهض.

.. سمعته يرحب ترحيبا حارا وصوت نسوي يجيبه.

..كان القادم كاترينا، على غير عاداتها في مثل هذه الساعة .

..كان الوقت متأخرا، ولا وسيلة نقل تتوفر لايصالي الى مدينتي الصغيرة.

.. بعد دقائق من حديث المجاملة معها، كاترينا تجيد اللغتين الانكليزية والروسية، غادرت الصالة وانسحبت الى غرفتي.
.. اغلقت الباب وتناولت مرجعا طبيا وجلست فوق السرير، متكئا على خلفيته.

.. يبدو أن الأرق عندي ظاهرة موروثية، فقد ظللت ممسكا بالكتاب الثقيل وكأني استنجد به، لا من الأرق وحده، ولا من خزي بطالتي، ولكن من خوفاي أن أفقد كل ما جهدت في تعلمه.
.. بعد منتصف الليل بساعة تقريبا، سمعت، ثم رايت أكرة الباب تدور بحذر..

..فُتحتُ الباب ببطء شديد..أطلتُ كاترينا براسها اولا، ثم دخلت وعليها ثوب نوم قصير.. اغلقتُ الباب خلفها دون أن تصدر صوتا.. إنكأْتُ بظهرها على الباب فترة قصيرة وهي تتفحصني بامعان وطيّف ابتسامة يلوح فوق شفثيها..

.. عدت الى قراءتي وكأن الامر لا يعنيني.
..دارت بخطوات قصيرة بطيئة بين الكتب المرصوفة والمرمية على الارض.. نظرتُ الى بضع لوحات معلقة.. قلبتُ البعض الآخر من اسفل الجدار وتملت كل واحدة منها.. اقتربتُ من حاملة الرسم.. رفعتُ من على طاولة قربها فرشاة جافة.. مررتها فوق القماش الابيض فوق الحاملة.. تراجعْتُ قليلا ونظرت مميلة رأسها وكأنها تدرس ضربات الفرشاة التي قامت بها..

..حين وجدتها تستدير صوبي، عدت الى قراءتي دون أن يتزحزح وضعي فوق الفراش.

.. ترَبعتُ على الارض قرب السرير.. وضعتُ رأسها على حافة الغطاء المرمي على قدميِّ وكأنها تستجم..
.. واصلتُ قراءتي.

.. رفعتُ كفها بعد لحظات ووضعتها تحت رأسها فوق حافة السرير.

.. زحفتُ بكفها ببطءٍ وحذرٍ.. لامستني.. زحفتُ بكفها أكثر لتضعها بين فخذِي.. امسكتُ كفها الممدودة برفقٍ وأعدتها الى مكانها على حافة السرير..

.. امتدتُ كفها مرة أخرى.. امسكتُ بها ودفعتها خارج السرير بشدة. عند المرة الثالثة رميت يدها بعنف خارجا ونهضتُ..
.. امسكتُ بها من تحت ابطيتها ورفعتها عن جلستها على الارض.. دفعتها بصمتٍ وبطءٍ صوب الباب.. فتحته ودفعتها خارجه بهدوء.
.. عدت الى سريري.. وضعت كفيّ خلف رأسي ورحت في سرحان لم يدم طويلا.. اخذت الكتاب من جديد وبدأت اقرء.. تماوجت بعض الاسطر وتضيبت كلماتها.. حاولت التركيز أكثر..
.. سمعت أكرة الباب تدور من جديد.

.. دخلتُ.. اتكأتُ بظهرها على الباب.. نظرتُ اليّ بتحدٍ.. مدت اناملها الى حمالتيّ قميص النوم فوق كتفها.. أسقطته..
.. شعّ نهار الجسد الابيض على مثلث الليل الصغير المتلامع..
.. تقدمت صوبي بخطوات ثابتة وعيناها تشعان تحديا واصراراً..

.....

.. نهضتُ وصفعتها بشدة بحركة لا ارادية..
-برؤج!!؟..برؤج!!؟..(لماذا!!؟!!.. لماذا!!؟!!) صرختُ بانفعال.
.. أقفز واضع كفي بإحكام فوق فمها.
.. أظل واضعا كفي لحظات حتى هدأت.. تركتها لاجلس على كرسي قرب حاملة الرسم..

اسمعها تتحرك صوب الباب فانظر..
وضعتُ قميص نومها المرمي قرب الباب فوق جسدها بشكل حزين ذليل.. فتحتُ الباب واغلقتة خلفها بهدوء.
لم استطع الاغفاء حتى مطلع النهار.. سمعت صوت اقدامها وهي تغادر الشقة.

غلبني النوم لساعة او ساعتين، نهضتُ بعدها وتوجهت الى الصلاة.
.. المهدي يجلس في مكانه المعتاد من التخت وامامه الصينية الصغيرة
ودلة القهوة والفنجان وقدر الماء.
حييته فابتسم مجيباً.

بعد اقل من ساعة كنا نتناول افطارنا في مقهى قريب من البيت، يشرف
على وديان تلال (بجيني).. كان بادي النشاط والمرح في جلستنا تلك.
بعد الإفطار انحدرنا نمشي قرابة الساعة قاطعين المسافة بين الهضبة
في الضاحية وقلب المدينة.

استمر اختناقي وانا ارغم نفسي بين الحين والآخر في التواجد، الثقيل
عليّ وعلى الآخرين، في قسم الاشعة، رغم علمي بانني غير ملزم بهذا
الامر..

استمر تسكعي في احياء براغ القديمة ومقاهيها وحاناتها اثناء النهار
.. بدأت اكره المدينة التي تعد أجمل مدن العالم.
.. كرهت نفسي اكثر.

..في إحدى ليالي ديسمبر الباردة، كنت احدق سارحا في لهب المدفأة
الحجرية في غرفتي الموحشة وانصت الى الصمت داخلها وخارجها،
والذي لا يقطعه غير هسهسة الفحم المتقد.. هجم علي تساول مرير "
ما الذي تهدف اليه ايها المتبطل من حياة التسكع هذه.. أهذه نهاية
احلامك العظيمة في أن تصبح دكتور (سفارتس) الثاني، تضع مهنتك
الانسانية وتهب نفسك للمحرومين والفقراء وللعراة في ادغال المجاهل
الافريقية.. أينتهي بك الامر الى عاطل متبلد، يدور نهاره وليله دون
هدف او متعة بين المقاهي والحانات
.. مثلما لمعت تلك الخاطرة البارقة في بالي في آخر ليلة من ضياعي
في الخرطوم.. التمتع وميض مماثل جديد..

حزمت ما لدي في الغرفة على عجل.. ركضت بحقيبتني في ظلام حديقة
المستشفى صوب بوابتها لعلي الحق بأخر حافلة للركاب متجهة الى
براغ..

.. يفتح لي حارس البوابة مستغربا استعجالي هذا ويسأل:

-كدا بانُ دوكتورِي (الى اين ايها-المحترم- الطبيب؟).

-نسخيدانو فاخترا (وداعا ايها الحارس).. نسخيدانو.

اصل في الدقائق الاخيرة لإنطلاق الحافلة.. أجلس على احد المقاعد
الشاغرة قرب النافذة.. اتنفس الصعداء وأطلق آهة ارتياح.. أبتسم ثم
اضحك وانا اراقب المعالم الاخيرة من المدينة الصغيرة تمر عابرة الى
الوراء.

المهدي يسترخي مع قدح شراب صغير مستلقيا على التخت، متكئا بظهره على وسادة عالية سارحا ببصره عبر النافذة الى عوالمه في الظلام..

.. انحني واقبل خده:

لقد قررت العودة!..

يبدل وضعه على التخت ويجلس ليواجهني متسائلا بدهشة واستغراب..

- تعود الى السودان؟!!

- بل اعود الى الوطن.

- الوطن؟!!!.. وفي مثل هذه الظروف؟!.. شيء جيد لو كانت الامور

غير ما عليه هناك.. ليس من العقل أن تعود الآن.. لِمَ هذا القرار ولديك

عمل انساني يقدم في اي مكان، وانت معي هنا وفي أجمل مدن العالم

ولك خطيبة جميلة يتمناها خير الناس وبينكما تفاهم عميق ومحبة..

اطرقت برأسي وانا انصت الى حديثه.. انتظرت فرصة بين كلامه

لاكرر من جديد:

- أنا عائد يا والدي.

- هل نسيت انك ولدي .. ابن المهدي الكبير الذي قال مايردده الناس

الى الآن في العراق:

" يا عبدَ حربٍ وعدو السلامِ ياخزيّ من صلى وزكى وصام "

" يا سُبَّةَ الحجيجِ في قَصدهِ يا ابن الخنا أم أنتَ عبدُ السلامِ "

ينظر اليّ باستغراب ويواصل اقناعه وردعي هازا رأسه بانزعاج:

- (ابن الخنا) هذا، هو رئيس الجمهورية هناك الآن!، وانا وانت ورافد

شبه مطلوبين، وقد حُجزت (اموالكما- اموالنا)- المنقولة وغير

المنقولة، التي ليس لها وجود لتُحجز..

- ساعود يا والدي!..كررتها برقة وتوسل.

صمتَ لحظة وكأنه يعيد صورا في ذهنه..

- قد ينتهي بك المطاف في سجن نقرة السلطان!!

- نقرة السلطان عندي أجمل من كل اوربا..
.. أسقط بيده وهو يواصل النظر اليّ باستغراب وكأنه يراني لأول مرة..
.. هز رأسه.. نهض وذرع الصالة ذهابا وايابا بخطوات كبيرة.
.. على وجهه المقطب معالم افكار تدور.
..توقف امامي فجأة ونظر أليّ بامعان وبانت على وجهه معالم دلّت
على بعض إنفراج الأزمة.
- سأزودك برسالة الى عبد الرحمن البزاز، لي بقايا من صداقة قديمة
معه، وقد ترأس الوزارة الجديدة قبل أيام.
..احتضنته طويلا وقبلت وجنته..
-اشكرك ياوالدي.. اشكرك ايها الحبيب.. وارجو المعذرة!.. لن ادخل
وبيدي عكاز أتوكأ عليه، اني عائد لبلادي وسادخلها وقامتي مرفوعة

عصيانٌ في كليةِ الاحتياط

بعد تلك العودة الساحرة لبغداد و(حيثُ سفحكِ عن قربِ)، ومن ثم غابات نخيل ومغاني وشطوط (جمهورية البصرة)، حان الآن موعد الخدمة العسكرية.. كلية الاحتياط الدورة واحد وعشرون.. كانت الدورة خاصةً بالطباء والمهندسين وحملة الماجستير والدكتوراه..

صخب وضحك واحتضانات لقاءات بين العديدين..

.. صافرة يلعغ صوتها منبها محذراً..

.. يخرج ضابط برتبة (نقيب) بوجه غاضب مكفهر..

_ انا النقيب غازي.. (يهمس د. ضياء الحيدري باذن جاره معلقاً على النجيمات الثلاث فوق كتفي النقيب: " غازي سخاظة! ") كنايةً عن علبة الثقاب في الاسواق والتي تحمل علامة ثلاث نجوم ذهبية.. يسري ضحك خافت في الصف الواقف.

_ هي! هي! انتوهناكّ اللي تتضحكون.. إنجّبوا وسكّتوا.. كل هل الجرويق اللي كدّامي.. عندي لا مهندسين ولا دكاترة ولا شهادات عالية.. انتو هسه حتى ولا خلّك جنود.. أني مراقب الدورة عليكم بتوجيه من سيادة الأمر اللواء الركن سعدون حسين.. من راح تلبسون البدلات اللي تتوزع عليكم وكتة تصيرون جنود.. اول شي لازم اعلمكم.. واعرف شلون اعلمكم! الطاعة! الطاعة بكل شي حتى بلبسكم واكلكم ونومتكم..

.. استمر النقيب (غازي سخاظة) في خطاب تهديداته بينها بعض جوانب التعليمات.

ارتدى الجميع قيافتهم العسكرية.. وتم التوزيع على الفصائل ومهاجع كل فصيل.

.. على اليمين من سريري، د.سالم منصور وكوابيسه وصرخاته في منتصف الليالي.

.. على اليسار د.ضياء الحيدري وتفاصيل لقاءاته الغرامية مع خطيبته في عطل الجمع والاجازات.

.. السرير الذي يلي ضياء، للمهندس الطيار عز الدين الاعظمي، الذي يتقدم صفوفنا الى حمامات المهجع كل صباح، حاملا منشفته فوق قضيبه المتوتر.

الاسبوع الاول أخضعنا- تقريبا- للطاعة الكاملة بعد التدريبات الجسدية التي تكاد لا تنقطع خلال النهار.. وعند اية مخالفة فردية، يخضع الفصيل كاملا الى تدريبات عقاب وتطويع حتى في منتصف الليل احيانا، حيث يسقط البعض مغمي عليه انهاكا.
.. كان المعاقب في الغالب (غازي شخاطة).

مرّت الايام تحسنت فيها صحة الجميع ونشاطهم داخل وخارج المعسكر.

.. قرب نهاية الدورة.. في الاسبوع الاخيرة منها جاء بعض الفرج من التدريبات العنيفة اليومية المنهكة المملة، فهذا موعد (المناورات).. التطبيقات العسكرية للهجوم والدفاع (المناورات).. في المكان التقليدي لها في (منصورية الجبل).

تدريبات بسيطة في التعرف على المواقع، وخرائط المنطقة، والاستدلال بالنجوم والبوصلة للوصول الى الموقع المطلوب.. تعقبها المناورات بالسلاح الخلب.

كنا قد خلصنا من عذابات وسادية الرقيب (غازي شخاطة)، ومن رقابة الضباط المدربين في معسكر الكلية، الذين كانوا يرهبون اللواء سعدون حسين (صديق الرئيس عبد السلام عارف المقرب.. كثيرا ما كنا نرى عبد السلام وهو يأتي للترويح عن همومه عند صاحبه في المعسكر).

..يعود الجميع في المساء الى مضاجعهم بعد التدريبات.. إلا أنا.
.. كنت أتأبط محفظة اوراق الرسم وممسكا بالفرش وعلبة الالوان
المائية و(الزمزية) واخرج لاصطياد موقع او لقطة من المعالم المثيرة
حولنا.

اليوم يوم جمعة.. لا تدريب ولا اوامر.
.. الجو مشرق ونسائم هضاب الشمال الباردة المنعشة تبعث النشاط
والرغبة في استكشاف جديد.
اخذت حافظة اوراقي وعدة الرسم وملأت الزمزية بالماء لابلال الفرش
والورق والصباغ.. (بعد ان أفرغنا عرقها الزحلاوي في الليلة الماضية
في افواهنا).

وجدت ما اريد في قرية المنصورية ذاتها.. في جدولها الصغير الذي
يتلامع فيه الحصى تحت زبد مياه الهضاب المتحدرة.. في منحوتات
الاشجار العارية على جانبية، في ظلال بيوتات طينية، وفي اتربة
أزقتها الباهرة بضياء الشمس، باحجارها واكوام الحطب قرب
الدور.. بالصيبة اللاعبين، الذين التموا حولي حين تربعت بقيافتي
العسكرية على تراب الزقاق..

.. تخطيطات سريعة أولية.. اوراق ترطب بماء الزمزية، الذي تفوح
منه رائحة بقايا قطرات العرق العالقة، وفرش منقعة بالصباغ، تسيح
فوق الورق وتكثفه وتشقه في حركات سريعة ممسوسة..

..منشغل عن اي شيء في الكون غير ما اتابعه امامي، غير مدرك
للزمن الذي يتجاوزني وغير آبه، بل ومستمتع بعث الصيبة الصغار
بشعر رأسي بأعوادهم او باصابعهم.

_ " عُوفوه خطيئة.. مخبل، ما عليكم بيه ! " .. كانت ترد الى مسامعي
اقوال بعض المارة.

غمرت الظلال معظم معالم الزقاق وتبدل لون تربته الى خردلي غامق..

لممت أوراقي.. نشوتي كانت عظيمة، ها قد انجزت اربع لوحات مائة هذا اليوم.

.. نفضت الغبار عن ملايسي وعدلت ما عبث به الاطفال من شعري، وتوجهت صوب الهضبة المشرفة على وادي (المنصورية) الفسيح، المحاط بالهضاب وبعض الجبال الصخرية الملونة.

كنت امشي كالمأخوذ في هذه الأمسية الرائعة سارحا بما حولي من هبات الطبيعة ومن الرضى والنشوة بما انجزت، واذا بي اسمع صوتا يمزق السكون حولي.... عدة صافرات تنطلق مرة واحدة.

.. ادير رأسي صوب الوادي الفسيح الذي اتى منه الصوت.. فيا لهول ما أجد!

..كل الفصائل العسكرية في كليتنا تقف متراصة بوضع الاستعداد، بكامل قيافتها العسكرية المهندمة.. يقفون برهبة امام اعلى مراتب الكلية العسكرية، التي تقف بدورها صفاً وراء نائب أمرها العميد الركن (المشهداني).

.. يشير عليّ الانضباط العسكري بعصاه، للنزول من اعلى الهضبة فوراً..

انحدر راكضاً، وانا اتأبط بحرص ملف لوحاتي وعدة الرسم بيدي.

.. اسمع همهمة من العميد المشهداني الى الانضباط..

__ إحضر فوراً امام سيدنا العميد الركن!.. يصرخ عليّ الانضباط

أتي مسرعاً لأقف بوضع الاستعداد امام القامة الضخمة بوقارها ونياشينها وانجمها الكثيرة.

.. أودي التحية العسكرية له بحماس.

__ ما تعلمت لهسه أنك ما تأدي التحية العسكرية للأعلى منك دون

سدارة او بيريه؟! شنو ها الوضعية المخربطة؟! بعد يومين تُصيرُ

ضابطاً! .. قيافة متربة مجعدة.. بدون سدارة.. وبين جنت تتمرغل

بالتراب؟!.. وبينَ جِنْتٍ عن اعلان انذار من الصبح بمجيء القيادة
للتوجيهات الجديدة قبل التطبيق العسكري.. وبينَ جِنْتٍ!
.. اعتمُرُ السدارة وأوَدِّي التحية العسكرية من جديد وانا بوضع
الاستعداد، وبصوت عسكري:

_ جنت دَا أرسم سيدي.

صمت العميد المشهداني برهة بحيرة ثم سأل:

_ شَجِنْتُ ترسم؟

_ الطبيعةُ.. القريةُ والناس سيدي.

أرخی المشهداني وقفته العسكرية قليلا ..

_ شو راوينهُ شِرْسِمْتُ!

وضعت حافظة الاوراق الكبيرة على الارض وبدأت باخراج لوحة
وراء اخرى ولاضطرابي كي اعرضها أمامه بشكل جيد، كنت اقف
الى جانبه بعض الشيء.

.. كان يتأملها باهتمام ويبتسم.. حين وصلت الى الرابعة..توقف!..

استعاد وضعيته العسكرية وأشار الي:

_ طيب ابني روح التحق بجماعتك!.

_ كتائب كلية الاحتياط!!.. إسترخ!!

أوعز الرائد ياسين بالامر، وبدأ العميد المشهداني شرح الموقف
العسكري للمناورات وخطة الجانب المهاجم، والأخر المدافع ومواقعها
الجديدة المقترحة، التي ستوضح لاحقاً للفصائل وفق خرائط جديدة.

بعد يومين على انتهاء التطبيقات الميدانية، وعودة الكتائب الى كلية
الاحتياط، تمَّ استدعائي للمثول امام مساعد الامر العميد المشهداني..

.. توجهت مع مرافق مكتبه.

.. لا بد انها العقوبة على " الخربطة والقيافة المتربنة المبهذلة! " .. ليكنُ
ما يكنُ!!

أدخلتُ الى المكتب الفخم.. كنت في احسن قيافتي العسكرية..
أديت التحية العسكرية بشكلها الماهر ووقفت بوضع الاستعداد امام
العميد ومكتبه الضخم.

_ استرح صفاء!.. اسمك صفاء صحيح؟!!

_ نعم سيدي! واخذت وضعية الاستراحة.

_ عندي إلك مهمة:

.. طُلبتُ مدرسة الجغرافيا من بنتي خرائط ملونة لطوبغرافية العراق،
ووحده ثانية لمواقعه الأثرية.. وصورة رمزية عن الوطن -العراق..
تُكدرُ تسوية؟!!

_ نعم سيدي! قلتها على عجل وبحماس، بعد ان انزاح عن كاهلي همٌّ
ثقيل.

(بيدو ان ابنته قد سمعت قصة الطبيب العسكري، الرسام(المخربط)
المعفر بالتراب)

اليوم هو الخميس موعد الاستراحة الاسبوعية بعد الظهر، وبعدها عطلة الجمعة، وفي صبيحة السبت ستبدأ امتحانات الكلية النهائية، ولعدة ايام في العلوم العسكرية، وفي خرائط الميدان، والقوانين العسكرية، وغيرها من مواضيع الهجوم والتفكير والدفاع.

.. لا مجال فيها للرسوب في أي درس.

.. الرسوب يعني اكبر اهانة عسكرية، إذ سيحمل الطبيب او المهندس او حامل الدكتوراه (المؤس) على كتفيه، بدلاً عن النجمة الذهبية وسيصبح فرصة سانحة لسخرية المراتب الاعلى حين يتم توزيع الخريجين على القطاعات العسكرية في القطر..

.. لم يحصل ذلك الا بين سنين عديدة لواحد بين آلاف من خريجي كلية الاحتياط.

.. (المؤس) هو التمثيل الساخر للصفحة الصغيرة المكتوب عليها (نائب ضابط)، المشدودة على كتفي العسكري.

كان الجميع- تقريباً، قد انشغل قبلها بايام بالكتب والمراجع وسهر الليالي حرصاً على عدم التعرض لمهانة (الموس) عند الرسوب.

اثناء حصة خرائط الميدان، وفي الساعة الثامنة والنصف توقفت سيارة جيب عسكرية ترجل منها، اثنان من الانضباط العسكري.

ادوا التحية العسكرية.. طلبوا الاذن من المدرس (الرائد العبودي) الدخول واطلاعه على ورقة يحملها احدهما..

_ الآن؟! .. تساءل الرائد العبودي بتعجب.

_ نعم سيدي!.. اجاب الانضباط.

نظر المدرس اليّ وقد علت وجهه بعض معالم الحزن والاستياء:

_ صفاء! يمكنك الانصراف مع الانضباط.

_ لأي أمر سيدي استاذي الرائد؟

_ المحكمة العسكرية تطلبك لمحاكمتك على التخلف في اداء الخدمة.

_ لكني كنتُ من اول الملتحقين بدورة الكلية ونحن الآن موشكين على
انهاؤها!..

_ لايد ان هنالك بعض الالتباس، لكن هذا امر عسكري علينا إطاعته..
تركت كتبي واوراقي لدى زميلي المجاور عز الدين الاعظمي،
واعتمرت سدارتي واديت التحية العسكرية للرائد العبودي وغادرت
مخفورا من جانبي بالانضباط العسكري.

لم يطل انتظاري في الصالة المجاورة لغرفة المحكمة.
كانوا ثلاثة عسكريين برتبة رائد ونقيبين وراء منصة عالية.
اوقفني الانضباط وراء مساحة نصف دائرية بقضبان حديدية.

_ الاسم؟! .. سأل احدهم

_ صفاء الحمد المهدي.

_ العمر؟! ..

_ ثمانية وعشرين.

_ المهنة؟! ..

_ طبيب.

_ لماذا لم تلتحق بعد تخرجك بالدورة العسكرية.. سأل الرائد-الحاكم.

_ ولكنكم سيدي! أتيتم بي من كلية الاحتياط الآن.

_ كان عليك ان تلتحق بالدورة التي سبقتها!

_ .. تذكرت في الحال!!

_ .. " بعد ان اكملت معادلة شهادتي التي استغرقت بضع اسابيع بين
اروقة وزارة المعارف والدوائر الصحية، بعد وصولي الى بغداد قادما
من براغ، توجهت الى وزارة الدفاع لاسجل اسمي في الملتحقين بدورة
كلية الاحتياط..

اسمي!! إنه النعمة والنعمة!!.. النعمة فيه اكبر بكثير!

.. انا الآن في مقر الشهيد (الزعيم قاسم)، صديق وحبيب الحمد المهدي لفترة (طربة عرس!)، ولعيته بعد حين.
.. انا ابن من قال برئيس العاملين هنا، برئيس دولتهم الآن، يا عبد حرب وعدو السلام.. يا ابن الحنا!
لا خوف من الكبار، فقد رحبوا بقدمك بالمطار بعد تشاور قصير.. سلمني ضابط المطار، بعد ان اتصل باعلى السلطات بشأني، جواز سفري مع "مرحبا بك دكتور!" ..
الخوف من الصغار دائما!

وكان تخوفي في محله ولو اني لم احس بلسعة الايذاء الا بعد حين.. في وقفتي الآن كمتهم في محكمة عسكرية..
.. تذكرت ان الرائد (.... بطي) مسؤول تسجيل دورات الاحتياط، نظر الي لفترة واحمر وجهه وانا اقف امامه من وراء الطاولة الضخمة في غرفة وزارة الدفاع.. (لعلها كانت غرفة وصفي طاهر قبل مصرعه فيها؟!).

.. نظر الى اوراقى وختم عليها بختم احمر (متخلف).
لم أعز للامر اهتماما في حينه، إذ كان جلّه منصبًا على تعييني مقيما في احدى المستشفيات، كانت تمضني رغبة العمل بين ناسي واهلي!
اجبت الحاكم:

_ المهم سيدي الحاكم، انا في الخدمة الآن وبعد ايام سانهي كلية الاحتياط.

_ المهم! المهم! انت ما تعرف شنو المهم.. المهم انت متخلف!..
شتكول بدفاعك!

(عرفت أن الامر قد رُتب في موعده المطلوب.. اي قبل ساعات فعليا من امتحانات الكلية.)

_ اقول سيدي لم اتخلف ابداً، وايام مراجعة معاملات الوزارات
والمعادلة مدونة كلها في اضبارتي.. اني قد تركت بلاد الله الواسعة
الجميلة.. تركت اهل واحبة لاعود فاخدم في بلدي، بين اهلي وناسي.
_ هل لديك شئ آخر في دفاعك إ
_ كلا سيادة الحكام.
_ لم يدم تشاور رئيس المحكمة مع مساعديه إلا ثوان..
_ حكمت المحكمة وفق المادة..... بغرامة مائة دينار او الحبس ستة
اشهر في حالة عدم دفعها الى الجهات المعنية.

للهولة الاولى بدى وكان الحكم لم يكن قاسيا.. لكن!
اللعبة اللئيمة واضحة ومدبرة..

حين التحقت بالدورة، كنت اعرف حساسية موقفي، فانا ابن الحمد المهدي الكبير، وانا اكاد اكون بين شذقي الاسد في عرينه.. في كلية الاحتياط العسكرية، ثاني اهم مؤسسة عسكرية بعد الكلية العسكرية، وأمرها اللواء سعدون حسين الصديق الاعز لعبد السلام (عبد حرب وابن الخنا بمقولة الحمد).

اخذت كامل حذري في ان لا اسهو في اي تصرف او حركة داخل المعسكر، بل كنت مثالا للمتدرب المواظب الحريص على تنفيذ ادق الواجبات.. ساعدني في ذلك طبعي في الحرص على اتقان ما امامي من مهام - قدر كفاءاتي- خصوصا حين يتعلق الواجب بالآخرين.
لكن نقمة الاسم عليّ، وكم عانيت منها! (الحمد المهدي الكبير) اجدها دائما عند صغار النفوس، مهما علت رتبهم ومناصبهم.. كان الامر هذا مع اللواء سعدون حسين.

انا الآن، وقد عادوا بي مخفورا، في زنزانة التوقيف.
الساعة هي العاشرة والنصف.

.. لا احمل في جيبي الا دينارين ونصف، فنحن قرب نهاية الشهر.
الدوام الرسمي للدوائر ينتهي في الساعة الواحدة ظهراً.. لا هاتف في توقيف الكلية، وحتى لو سمحوا لي بالنداء، فمليكة اختي، وزوجها واولادها، وانا في ضيافتهم.. الكل (على الحديد)..
.. الغداء والعشاء تريد الباقلاء، لايام آخر الشهر كلها. وحتى لو سألوا ابا قصي جارهم الشهم ودبر المبلغ، فلن يوصلوه اليّ قبل الواحدة ظهراً..

.. سأكون أنا في الزنزانة صبيحة السبت، والجميع فيما عداي يؤدي امتحان الكلية.

.. وضعوك يا صاحبي على حافة الموسيقى.. سيضعون (الموس) بدلا من النجمة الذهبية على كتفيك.. ستكون مسخرة المراتب في القطاعات العسكرية التي ستنسب اليها.. المتشمتون والحاقدون على المهدي الكبير وهم كثر، سيجدوها احسن فرصة كي (يلعبون بخلفتك).. وقعت بالمصيدة كفأر مسكين!

بين هذه الحسابات والافكار واللعبة اللئيمة التي انا واقع فيها وراء قضبان الزنزانة، إذا برئيس العرفاء (هادي)، مدرب مجموعتنا في الفصيل، ينسل الى داخل الموقف..

لم ار في حياتي قط مثالا للجندي (الاسبارطي) مثله، في الهيكل الصلب والوجه العسكري المتزن السمح، بالقدرة في التدريب وحمل السلاح، مع فرض الاحترام والطاعة العسكرية، الطوعية من كل افراد مجموعتنا ومن كل الفصائل الاخرى.. لقد كان محط احترام ومحبة الكلية بكل كوادرها وطلبتها.

_ دكتور صفاء! (وهذه اول مخاطبة باللقب.. فهو غير جائز لحين التخرج).. بدأ هادي حديثه معي بصوت خافت غير هيباب، من وراء القضبان..

_ نحن ندرك لعبة التوقيف قبل الامتحانات، وغرامة المائة دينار التي يعرفون تماما استحالة قدرتك على دفعها قبل انتهاء الدوام الرسمي.. معناها انهم يسعون الى أن يضعوا (الموس) على كتفيك، وانت الطبيب، والاهم عندهم ابن الحمد المهدي الكبير.. لقد اتفقت مع بعض رفاق المراتب، بأن نجتمع المبلغ منا ومن آخرين نثق بهم.. خلال ساعة سيكون المبلغ المطلوب لديك.

اقشعر بدني كله واخذتني هزه اوشكت فيها على البكاء.. يا لهذه المحبة الاصيلة العميقة المتجردة من أي غرض، يا لفخرك وفخري ايها الحمد المهدي الكبير.. يا لطيبة بسطاء الناس وروعة نكرانهم للذات.

_ لو تعلم يا رئيس عرفاء هادي كم هو فخري بك وبموقفك الشهم الشجاع، وبمحبتي لك الآن وقبل ذلك ايضا.. لكنك لو أقدمت على ذلك فستعرض نفسك، وربما الاخرين من العسكريين معك، الى عقاب قد يرقون باسبابه الى حد الخيانة.. سوف تدخل السجن ولا يعلم الله متى ستخرج منه.. اشكرك سيدي ورئيس عرفائي الحبيب.. اشكرك ايها العزيز.

تمهلت لحظة في التفكير ثم واصلت هل يمكنك تدبير زيارة سالم منصور لي رجاءً.. ساكفه بهذه المهمة ولي حسابات في هذا الموقف..
_ من حقك ذلك!.. زيارة واحدة في اليوم!.. سأبلغه بطلبك مقابلته.

سالم منصور جاري في المهجع.. جاري الذي يصرخ بين حين وآخر في نومه من كوابيسه الرهيبة، فاكون الى جانبه موقظا اياه من محناته الليلية.. يرفع راسه المفزوع السابح بالعرق.. اقدم له قدح الماء ويعود الى رقاد شاكرا.

.. تدور بين رفقة الفصيل عنه حكايات كثيرة، عن ترأسه لقطاع من الحرس القومي بعد انقلاب عام ثلاثة وستين.. ثم هروبه في انقلاب عبد السلام عليهم بعد اشهر، عن اعتقاله وتعذيبه، وعن همس بالاعتداء الجسدي عليه.. ثم العفو عنه بعد حين ليعود فيكمل دراسته الطبية.

في صحوه وفي ميدان التدريب والمهجع، بشر الوجه، صاحب نكتة ظريفة، قادته مرارا الى عقاب التدريب الاضافي، اما نكته التي رواها ونحن في ظلمة المهجع، بعد صافرة ساعة النوم، فكانت اشدها وقعاً:

_.. " وبعد ان اكمل الجراح العملية، وكان قد وضع كثيرا من اعضاء خارج اماكنها، بدأ اعادتها الى اماكنها من الصدر والبطن.. قام بخياطة كل اماكن المبضع في الجسد.. نزع عنه كفيه المطاطيين وقناع الجراحة، وتنفس الصعداء على نجاح العملية وسلامة المريض.. استفسرت منه الممرضة المساعدة:

_ " ولكنك يا دكتور نسيت ان تعيد الدماغ الى جمجمة المريض " فاجاب الجراح مُطمئناً:

_ " المريض ضابط يا عزيزتي الممرضة.. والضباط لا يحتاجون الى دماغ! .."

مع صخب الفصيل بالضحك في الظلام سمعنا صوتاً من مدخل المهجع..

_ ولك سالم! شيل اليطغ مألُك واتبعني الى الموقف!!
كان الصوت الأمر بغضب لـ(غازي شخاطة)، الذي كان يتنصت الى الحكاية في الظلام.

قديم سالم الى الموقف وبعد أن انزل لعناته على اللؤماء.. أطلعتهُ على الموقف، الذي كان مُدركاً له اصلاً..

_ تكدر تدبر لي مبلغ مية دينار الغرامة من زملائنا بالفصيل؟!
_ احسن فكرة!.. لا احد يحمل وحده معه هذا المبلغ الضخم (الضخم في تلك الايام).. ولا احد يمكنه مغادرة المعسكر لجلبه قبل انتهاء الدوام.
(اجاب سالم بحماس صافقاً كفيه).. لا تشغل بالك المبلغ راح يدبر.. آني هسه رايح! الوقت كدامنه قليل.. إطمئن!..

اوصل سالم الخبر لكل الفصائل وناشدهم جمع المبلغ المطلوب باسم الشيمة، و حرص الحفاظ على الصداقة والرفقة وزمالة السلاح. تجمعت الفصائل في المهاجع.. اغلقت ابوابها من الداخل. لم يحضر طلاب الكلية درس القانون العسكري في الساعة الحادية عشر!!..

..كان ذلك مطلع العصيان الأول في تأريخ كلية عسكرية..
.. أفرغت جيوب الموجودين إلا من اجرة الطريق الى بيوتهم كل ظهر خميس.

جاوز المبلغ المجموع من الطلبة المائة وعشرين ديناراً.
غلث صافرات الانضباط العسكري اثناء ذلك في ساحات الكلية.
تمّ اختيار ممثل عن الفصائل الاثني عشرة..
.. اختير اربعة منهم ترأسهم سالم.
.. توجهوا صوب غرفة الامر، الذي لا يُطل على حشود الكلية الا في المناسبات الهامة..

وقف الاخرون منتشرين بترقب في ساحة الكلية، رغم صافرات الانضباط العسكري.. كان الجو مشحوناً، فاعطيت الاوامر للانضباط العسكري بعدم استخدام اية وسيلة غير الصافرات للضغط، وهذه بدورها صمتتْ- بايعاز- بعد حين.

حين اقترب سالم والثلاث الاخرين من غرفة الامر تصدى اربعة من الانضباط الذين وقفوا سداً امام باب سعدون حسين، الأمر المرهوب.
.. خرج العميد المشهداني من غرفته المجاورة:

_ مكانك قف! صرخ أمراً الأربعة التي تطلب مقابلة الأمر.. ثم بغضب
_ انكم ترتكبون عصياناً عسكرياً خطيراً له عواقبه الكبيرة!.. عودوا الى المهاجع فوراً!!

لم تؤدي مجموعة الاربعة التحية العسكرية.. فقد تَعمدوا عدم اعتمار سداراتهم..

_ سيدي نحن لا نريد إلا دفع مبلغ كفالة صفاء الحمد المهدي لا غير.
_ الوقت قد تأخر لا يصلح المبلغ الى المحكمة حتى لو وافقنا على قبوله
بهذا الشكل اللانظامي.. انها الثانية عشرة.

_ سيدي اللواء لقد إطلعنا على قرار المحكمة الذي ينص على " اطلاق
سراح المحكوم حال استلام المبلغ من الجهات المعنية "، وانتم سيدي
الجهة المعنية قبل غيرها.. والامتحانات يوم السبت سيدي وهو رجاء
من طلبة الكلية كلها!.. ارجوك سيدي اللواء.. ختم سالم حديثه مع
المشهداني بلهجة رجاء عميقة ورقيقة.

انفرت معالم الوجه الغاضب الجاد للمشهداني بعض الشيء.

_ دعوني أتشاور مع سيادة الفريق الأمر.. بس انتو إرجعوا الى اماكنكم
_ سيدي اللواء نحن هنا ولا ضير من انتظارنا، حتى نسلم المبلغ ويطلق
سراح زميلنا صفاء.

اصر سالم على البقاء وهو يتحدث بلهجة أنعم من السابق، هزّ الثلاثة
الآخرون قربه رؤوسهم بتأكيد وبنظرة رجاء الى مساعد الأمر.

_ لم يطل اللواء المشهداني بقاءه في غرفة الفريق سعدون حسين..
خرج بوجه حاول ان يعطيه طابعا صارما، لم يفلح فيه، اذ كان من
السهل ان تقرأ فيه علائم الارتياح.

_ لن تدخلوا جميعا الى غرفتي، فهذا مخالف للتعليمات التي انتم على
اطلاع عليها في الدورة.. واحد فقط هو الذي يسلم المبلغ.

دخل سالم وظلّ الآخرون خارجا في الانتظار.

..خرج سالم بعد دقائق ضاحكاً ملوّحاً بورقتين..

كانت الاولى وصلاً باستلام المبلغ، والثانية أمراً بالافراج عن المحبوس
في الموقف.

علتُ صرخات الفرح والترحيب والهرج من مهاجع الفصائل
والساحات القريبة منها..

.. لعلت صافرات الانضباط العسكري محدّرةً فترةً طويلة، قبل ان يُقرأ على الجميع بيان الأمر بعقوبة طلبة الكلية كلها..
.. كان العقاب حرمانهم من تخطي بوابات المعسكر ليومي الخميس والجمعة.

.. لا اعرف كيف تسربت زمميات العرق الى صفوف الطلبة الساهرين على كتب الامتحانات والمحتفلين بأول نصر ميداني منجز، وبأول حبس جماعي داخل اسوار كلية الاحتياط العسكرية .

بذلت كل ما عندي من حشد لذاكرتي، في قراءاتي ومطالعاتي السابقة، وتتبعي الميداني التدريبي مسجلا ملاحظات كثيرة على اوراق نثرتها حولي فوق سريري.

كنت ضمن العشرة الاوائل بين اربعمائة وخمسون طالبا.
تظل هي الكثرة الشريفة الطيبة في الجيش - وإن تحت إمرة عصابة محدودة متسلطة النفوذ.

.. الاساتذة الممتحنون كانوا ضمن هذه العينة المشرّفة منها.
قبل منح الرتب والتوزيع على القطاعات بيومين، وفي استعراض القطاعات النهائي بعد النتائج امام وزير الدفاع، في ساحة العروض الكبرى، مر سعدون حسين يستعرض قيافة ووقفه الصفوف واستعدادها، قبل مسيرتها، وقف امامي دون افراد صفوف الفصائل الاثني عشرة.

..تفحصني بازدرء من الاعلى الى الاسفل بوجه احمر وتجهم من الغيظ والحقد..

.. فجأة وامام حشد الصفوف والضيوف المشاهدين صرخ:
_ اوكف عدلُ ابو شوارب! ثم أهوى بقبضته الضخمة المشدودة بضربة على منصف الصدر مني، كادت تكسره واسقط انا منها الى الخلف،

وكان الحاسة السادسة قد شدت مني ومن وقتي لاثماسك من صدمتها
التي اوجعت صدري وكرامتي.
.. نظرتُ إليه عيناً بعين بثبات، دون ان ترمش، مُدركاً أن اي حركة
مني او صوتاً يستنكر، معناه خسارة كل جهدي في الأشهر التي
انقضت، بل وضياع همة وجهد وموقف الاخرين معي، موقفهم الشهم
الشجاع الشريف..
ظل يحدق بوجهي بغضب ثم واصل استعراض صفوف القطاعات
الاخرى.

ها قد انتهت دورة الاحتياط الحادية والعشرين.

.. الجميع بملابسهم المدنية.

.. حالة من النشوة والفرح وتبادل العنوانين ومواعيد اللقاءات المقبلة، ومعها التطلعات والأمال بالمرحلة الجديدة المقبلة، لا لانها ستمنحهم نجمة الاكتاف الذهبية، ولقب الضابط الذي يقود فصيلا او حتى فصائل، بل لانها اول مجال تطبيقي مهني لهم تحت مظلة عسكرية، قد تكون مستشفى عسكريا او مستشفى ميدان، او حتى وحدة طبابة عسكرية متقدمة، او وحدات هندسية في المدينة، او في مركز تخطيط الدفاعات او بناء الجسور، والإشكالات الهندسية العسكرية اثناء تحرك الجحافل.. اول تجربة واختبار في القدرة الذاتية على الاداء المهني.. على العطاء والمساهمة الفعالة.

كانت قيادات القطاعات العسكرية في ارجاء مختلفة من الوطن ممثلة بموفديها، الجالسين على منصة واسعة مع بعض ضباط كلية الاحتياط.. كان الحديث بينهم جارياً بحماس وبجوه باسمة لا تختلف الا قليلا عن جمهرة الشباب المرح اللاغظ تحتهم في الصالة الوسيعة.. دخل سعدون حسين وراهه ثلة من ضباط الكلية بوجه جاد صارم متجهم..

.. صعد المنصة ووقف وراء ميكرفون معد له، ووراه ممثلي قيادات البلد العسكرية كلها.

.. اخذ اللغظ يخف تدريجيا حتى لم تبق في الصالة الكبيرة الا بضع اصوات هنا وهناك..

لم تطل وقفته صامتا منتظرا إلا ثوان لا غير، حين بدأ يتصلب في وقفته.. يرفع رأسه عاليا وينطلق صارخا بصوت غاضب متشنج:

_ انتو يا غنم!.. يا حمير! يا اولاد الشوارع! يا هتليه.. ما تعرفون
الادب وتسمعون كلمة الأمر اللي يريد يوجهكم يراويكم الدرب
الصحيح، مو نزيزة الوسخ ودرّب العميان اللي إنتو ماشين بيه.
كانت هذه كلمات بداية تهنئة الأمر الفريق الركن سعدون حسين
لخريجه.

استمرت الشتائم المقذعة تنهال على الحشد الصامت المنذهل.. وصل
اخيرا الى عقده الكامنة.. الى حرقته!!..

_..آني لو تعرفون وقبل دخولي الى الكلية العسكرية شكذ جنّت اريد
أصير بمركز واحد منكم طبيب، لو مهندس، لو باحث علمي.. بس الدنيا
حظوظ!.. هسه من شفتكم، من يا زباله إنتو جايبين، ويا خُلف نكسه
مُخلفه، بطلت اتندم على إني ما صرت مثلكم.. جنّت ناوي انطيكم
نصايح وادليكم الدرب الجديد، بس وياكم يبين ما راح يفيد اي حجي.
التفت وغادر المنصة والقاعة وتبعه الضباط المرافقون وسط صمت
القاعة ومن على المنصة وذهولهم.

بدأ الرائد ياسين، احد قواد كتائب الكلية، قراءة الاسماء ومناطق
توزيعها على القطاعات، طالبا من المورّعين.. البقاء في الصالة لحين
الانتهاء من كل الاسماء ثم تسجيل اسمائهم لدى مؤفدي قطاعات القطر
العسكرية الجالسين على المنصة.

.. . . .

كنت متلهفاً على معرفة أي قاطع سأكون في طبابته .. لكن اسمي كان
اوسطيا فكان علي الانتظار إذ كانت الاسماء مرتبة وفق الحروف
الابجدية.

.. تم تسريح حملة الشهادات العليا في العلوم الانسانية، وبعبارة (تم
تسريحه لعدم الحاجة اليهم في الوقت الراهن)..

.. ها قد اقترب اسمي في القائمة، بدأت أفرك راحتِي واتململ فوق كرسيي.... أخيراً!

_ الدكتور صفاء الحمد المهدي!

.. يسرح من الخدمة وفق المادة (ج) لكونه من ذوي الميول الهدامة، والخطر على أمن الدولة.

لم استوعب بالتحديد ما قرأه الرائد ياسين لشدة ذهولي، وسرت في القاعة همهمة شوّشت على الاسماء التالية مما اضطر الرائد الى أن ينبه في الميكرفون بصوت عالٍ ثم استمر..

_ انتباه رجاء!!.. الدكتور ضياء الحيدري.. الطبابة العسكرية في..
واصل قراءة الاسماء ومواقعهم.

لم تدم حالة الذهول طويلاً، إذ غمرتني بعد قليل موجة من الانطلاق والتحدي..

".. همّ لم يسحبوا مهنتي مني.. أنا لا أزال طبيباً.. سأرجع لامارس مهنتي في مستشفى.. في جمهوريتي.. في البصرة التي أعشق.."
نهضت بآباء وتوجهت في مشية متهادية مرحة، صوب بوابة الصالة المشرعة العاجّة بالضياء..

.. حين وصلت تحت مكان الرائد ياسين (وهو انسان كبير القلب والكرش) احترمه واحبه.. حبيته ملوحاً له بمجلة الف باء التي كانت بيدي.. استدرت.. انحنيت لرففتي في الصالة بحركة مسرحية، ورميتُ عاليًا في الهواء المجلة قبل ان اصل الى الباب المشرع..

.. لا عقاب ينتظرني فانا خارج الخدمة العسكرية.. واول طبيب في تأريخها، وربما آخرهم، يُسرح قبل ادائه الخدمة فيها.

(العاصفة) وعصام السّرطاوي

الرسم شاغلي اكثر من الطب ومهنته، من زمن هروبي الاول من كلية الطب لأحقق ذلك الهاجس، في مغامرة فاشلة في انكلترا.

.. تركت عملي المسائي في عيادة زميل، اولها في عهدي حتى يُكمل دراسة اختصاصه في الخارج، بعد أن سارع طبيب آخر لأن يتولى هذا العمل بدلا عني، لاتفرغ كليا لاعداد معرضي القادم.

أنعزلُ في غرفة جعلتها مرسمي ومطعمي ومنامي، مبتعدا قدر المستطاع عن بقية الدار الواسعة المستأجرة في حي شعبي وشبه الفارغة، إلا من بضعة كراسٍ وافرشة وحصران، أطلق على البيت صديقي العزيز وزائري حسب الشيخ جعفر اسم (الجامع).

.. الدار واثاث (الجامع).. الققط والكلاب السائبة، ترتاده من بابه المخلوعة.

هذا الخليط اللامتجانس.. الدار والحيوانات السائبة، والبيت الكبير الفارغ الموحش، لم يكن إلا حصيلة حماقة فريدة من نوعها الحققتها بنفسي!

..حماقة عقاب الذات!..ذاتي أنا!

عقاب على حماقة اخرى.

.. تزوجت لأعاقب نفسي على خذلان حب كنت قد غرقت فيه وفشلت.

شيء سحيق حقاً!.. أليس كذلك؟

لعل الخيبة الجماعية، التي سحقت الناس في تلك الايام المريرة لها دورها الكبير ايضاً.

شيء وحيد كان إيجابيا في الحماقات، أن غيضي وسأمي وضيفي فتح

باب رحمة كنت أنتظرها طويلا!!:

..الانشغال بالرسم!!

باب فُتِحَ على مصراعيه.

لم تكن هنالك حاجة للسرхан والتأمل واقناص المشهد وتكوينه،
فمواضيع اللوحات المُزمعة تصخب في رأسي من أشهر..بل وقد
يصخب بها رأس كل من عاصر تلك الأيام العاصفة العنيفة المدمرة
المريرة،.. كل من عانى الليالي بسهاد ممض، واعين دامية حرّاقة
دامعة،..تلك الايام التي سقطت فيها آمال واحلام واصنام كبيرة في
معابد الغفلة المُشرعة الابواب..

لقد سقطت معها قطع مما نعيش ونمشي عليه، ونقتات منه، ونتيه في
محاسنه،..سقطت وضاعت الى غير رجعة اجزاء من اوطاننا.. سُملت
عين من رآها وعاش محاسنها مثلي.

..سقطت.. وسقط مع ذلك كله، رجال اشداء، ورعاة، وعازقوا ارض
بسطاء، وجمهرة حاملة واخرى غافلة .

إنها النكسة.. واية نكسة!!

كيف تُنسى تلك الليلة السوداء في أعمارنا جميعا.. أعمار من بقي حياً..

ليلة رانقة.. ثلاثة اطباء يسترخون في حديقة دار المقيمين في مستشفى
البصره بعد موجات من التراكض، بين ردهات الراقدين، وصالة
الاسعاف الفوري، والعيادة الخارجية..منتظرين موجة أخرى من
استدعاءات عاجلة للتراكض من جديد..

نعمان السامرائي خافر الحالات الحرجة الذي لا يفارقه الراديو الضخم
النقل، والذي يغفو على سريره والجهاز الثقيل فوق صدره.. نافع
جنو، رجل الملمات في الردهات النسائية وصالة عملياتها، وصفاء
المولع بشيوخه من أهوار الجنوب وفلاحى بساتين البصره واطفالهم
في الردهات

.. أناشيد وبيانات انتصاراتنا المتتالية على كل الجبهات.. نتفاخر فرحين
كلما صدر بيان عن اعداد الطائرات التي اسقطناها كالذبات في الفيافي
والوديان،.. بالقطاعات من الدروع والمشاة الذين استعادوا اجزاء عديدة
مهمة من الوطن السليب.

.. فترة(استراحة) لبيانات الانتصارات، اعقبها اناشيد وطنية وثورية.
.. المذيع ينبّه المستمعين لانتظار خطاب الرئيس جمال عبد الناصر..
يكرر النداء مرات عديدة..

.. يلقي الرئيس خطاب استقالته وتحمله كامل المسؤولية.. مسؤولية
الهزيمة!..الهزيمة!!

نعمان ينكس راسه ويكاد يغرق جسمه المنطوي في المقعد، ويجهد
بكاء عال وشهيق مختنق..

نافع يقفز.. يدور كالمجنون في الحديقة الصغيرة:

_ انطونه سلاح!!..خلي نروح نحارب.. وبين نروح؟!.. ما
يصير؟!..شلون؟!.. ما يصير!!.. يناشد اشباحا وفضاء.. يناشد ذاته.

صفاء يحاول تحويل المذياع بشكل هستيري الى محطات عالمية فلا
يفلح.. يدفع الراديو الضخم جانبا.. يركض الى بوابة المستشفى.. يستقل
سيارة اجرة الى البريد المركزي يرسل برقية عاجلة:

" Father! Wher is your voice .. اين صوتك يا ابي؟" .. باللغتين
خوفا من عدم تلقيها في براغ.

بعد منتصف الليل ياتي معين الدار بالبرقية الى صفاء وهو في ردهة
الاطفال:

" أرسلتها!!.. المنار! "

دَع الطوارق كالأتون تحتدُم .. وِخلها كحبيكِ النَّسج تلتحمُ
وخذ مكانك منها غيرَ مكترثٍ .. دَهدي بكِ الموجُ او علَّتْ بكِ القمُ
خُض الكوارثُ لا نِكساً ولا جَزَعاً.. وأتركُ الى الغيبِ ما يجري به
القلمُ

لو كان يُضمنُ نصرٌ قبلَ مَوعدهِ .. لكانَ أرخصُ ما في الأنفسِ الهِمُّ

كانت القصيدة قد نُشرت قبل أيام من الكارثة يحث فيها المهدي الرئيس
على بدء المعركة، المعركة التي لعب العالم شرقه وغربه دورا في
تأخيرها وفي الانسحاق العربي.. الهزيمة!
كنت اتابع الاخبار يوما بيوم!

الأول من حزيران.. هيئة الاذاعة البريطانية:

" اختفت في سيناء سيارة جيب للاستكشاف تحمل عقيدا في الجيش
المصري مع ضابطين مع خرائط ومعدات رصد ولم يعثر عليها بعد
سا عات عديدة من البحث " ..

(سيارات الاستكشاف لا تحمل ضابطا برتبة عالية!!)

.. في الثاني من حزيران .. هيئة الاذاعة البريطانية:
" اجتمع السفير السوفياتي بالرئيس جمال عبد الناصر طالبا منه عدم
البدء بالهجوم.."

ثم حفلة ضباط الطيران الساهرة الشهيرة ليلة الخامس من حزيران ..
هزيمة في الميدان والفكر والعقيدة ورؤى المستقبل،.. باننت بعده
تباشير فجره الاسود العابس.
.. ومن نكسةٍ الى نكسةٍ الى نكسةٍ أنكسْ وأنجسْ!!

المواضيع الجاهزة، بدأت تجد طريقها الى قماش والواح ماسونيات اللوحات المنتظرة على جوانب جدران الغرفة..

حين دخل صديقي العزيز حسب الشيخ جعفر الى الغرفة.. جلس بعين متأسية دامعة على حصيرة مُدت، وهو ينظر الى (مشردون حتى عن خيامهم) التي كانت موضوعة على حاملة الرسم، تبادلته النظر بتفاصيل وجوها الهلعة، وعيون جثتها المبعثرة الدامية، وخلفيتها من الظلمة والنار.

حين جلست فالأ - الرسامة الرائعة وزوجة الصديق ماهود احمد، في نفس مكان حسب وقد اكتملت اللوحة الاقرب الى الجدارية باحجامها وتفاصيلها:

_ لم تبكين يا فالأ؟!.. سألت وانا ارى دموعها الصامتة تنحدر على خديها المنمشين.

_ إنها جميلة ومؤثرة يا صفاء.

كانت تلك لوحة (صَلْبوك ألف مرة)..

حين اعيد عرضها في (معرض المعركة) عام ١٩٧٠ قال عنها رسام جيله الرائع (محمد مهر الدين) في تعليقه المنشور في صحف عديدة: " أما عن لوحة (صفاء الحمد المهدي)، (صَلْبوك ألف مرة) فلا يمكن وصفها إلا بانها (حَمْدِيَّةٌ مَهْدِيَّةٌ عظيمة مثله) حقاً".

فكرة اللوحة مستوحاة من بيت شعري للحمد المهدي في رائعته (ابو العلاء المعري)

" لثورة الفكر تأريخٌ يُحدثنا

بأن ألف مَسِيحٍ دُونَهَا صُلْبًا "

إكتملت اللوحات.

تمّ حجز قاعة المعارض في نادي ونقابة الاطباء في المنصور.
للمعرض غرض غير فنون الرسم والرسام،.. إنه (المعركة)، المعركة
التي تُعد لها لنستعيد، لا أوطان ضاعت، بل بعضا من كِسْرِ من
كرامتنا المهشمة المهذورة.

المعرض وما فيه، مخصص لمن بقي في المعركة (آنذاك)، هو
ل(فتح).. لا لفتح الفكر والشعارات، بل لجناحها العسكري المحارب
(العاصفة).

لكن!!؟!.. اين هي فتح؟؟.. اين مكتبها او ممثليتها في بغداد، لأسلمهم
زام التصرف بالمعرض لا ريعه، بل كل ما فيه من لوحات وما يأتي
به ماديا وإعلاميا وسياسياً.

لا اجد مكتباً ولا ممثلية للمنظمة في العراق!!؟!!

حيرة!!

ليس عليّ إلا أن استرشد ببعض من يخوضون ميدان السياسة في السر،
او في العلن.

_ هنالك شخص وحيد يمثل فتح، وهو عضو ارتباط مع العراق، (لم
يعترف بعد بالمنظمة).. إنه الاستاذ المساعد في الكلية الطبية الدكتور
عصام السرطاوي.

لم يكن مكان القسم الذي يُدرّس فيه بعيداً عن محل عملي في (معهد
الاشعة) الواقع ضمن أبنية الكلية.

وجدته في قاعة التشريح مع مجموعة من طلبته.

.. شاب في منتصف الثلاثينات فارغ القامة مشدودها، بوجه جميل
صباح..

اقتربت منه مستأذناً، بعد تعريفه بنفسي.. رجوته أن نلتقي في نادي الكلية
المجاور، لحديث خاص معه.

على فنجان قهوة في النادي أطلعتة على نواياي من المعرض الذي حدد موعد إقامته.

شكرني وعانقني مقبلاً وطلب مني موافاته في نفس مكاننا من النادي اليوم التالي، لانشغاله ببعض المهام التدريسية لليوم الذي نحن فيه. " أنا اسير في الطريق الذي خططته بشكل سليم.. انها الخطوة الاولى.. صوتي وغرضي وصل الى الجهة المعنية ! "

_ اتصلت امس هاتفيا برئاسة المنظمة.. هم يقدمون تحيتهم وشكرهم للموقف المساند النبيل.

.. لقد خطرت لي فكرة بعد اتصالي هذا!
لي عندك رجاء يا حبيبي د. صفاء " طربت لسماع (حبيبي) من شفطي عصام".. رجاء نشترك كلانا في هدفه.
واصل السرطاوي حديثه:

_ الا تريد أن تُحقق عن طريق المعرض المساعدة.. المساهمة في دعم المنظمة وكفاحها.

_ انت تعرف جوابي يا اخي العزيز!
_ ليس هنالك اعتراف رسمي بالمنظمة حتى هذه الساعة هنا في بلدنا العزيز العراق، لا اعتراف، ولا مكتب، ولا ممثلية رسمية.. أنا عضو ارتباط هنا يسمح لي ببعض النشاط المحدود علنا.

أنا اعرف جيدا من أنت، وانك ابن الحمد المهدي المنفي، والذي كان يقود حركة الدفاع عن الشعب العراقي ضد حكامه، ولا زال البعض منهم في حكمه الآن.. عن اتجاهي في هذا الامر واتجاهك قد يكون هنالك بعض الاختلاف في الرأي، ولكننا الآن نتفق على هدف واحد، سلاح المعركة، ولا أحد يحمله غير فتح عبر جناحها العسكري (العاصفة)

اعرف جيدا موقفهم من ابيك وحتى منك، حدثني زميل لك كان معك في كلية الاحتياط واطلعتني على تفاصيل (العصيان) واسبابه.. أعرف أنك انت واخيك الاكبر وابيك، قد اعيدت اليكم الجنسية العراقية قبل اشهر قليلة مع(اموالكم) المنقولة وغير المنقولة والتي، لا وجود لها في الاصل..

اعرف ولهذا فاننا ارجوك أن تجعل افتتاح المعرض بـ(رعاية) طاهر يحيى، رئيس الوزراء.

.. اعرف موقفك منه ومنهم، ولكن ستستفيد المنظمة و(العاصفة) من ذلك، باهم نقطة.. اولاً، وهي رعايته وحضوره سيكون اعترافا رسميا بهما،.. الشيء الثاني سنقود حملة تبرعات رسمية وشخصية من رئيس الحكومة ومن معه من الوزراء والمسؤولين، ونعممها بعد ذلك كحملة جماهيرية واسعة.

لم يَطل تفكيري بالامر طويلا في جلستنا في النادي

_ موافق د. عصام، بل وساترك صيغة بطاقات الدعوة عليك، وعلى المنظمة في الصياغة الأنسب التي تجدونها.

وُزعت بطاقات الدعوة لافتتاح المعرض، بالرعاية المتفق عليها " السيد رئيس الوزراء، العقيد الركن طاهر يحيى.. الخ ".

عُلقت لافتات ضخمة على واجهة نادي ونقابة الاطباء في شارع المنصور وفي أماكن أخرى من الشارع :

(معرض فتح وجناحها العسكري العاصفة للفنان الدكتور صفاء الحمد المهدي)

لم افكر كثيرا في طريقة نقل مأمونة.
حضر ماهود لمساعدتي في جمع ورزم اللوحات في صندوق سيارة
الاجرة وفي اماكن من مقاعدها الخلفية وفي الاحضان في المقاعد
الامامية.
حرنا في اللوحات الكبيرة و(الجدارية) الضخمة رمز المعرض
(صليبوك الف مرة)..

لم يكن منا إلا أن نشدها بحبال فوق حمالة سقف السيارة .
طلبت من سائق التاكسي أن يُسرِع، لبقاء عدة ساعات فقط على افتتاح
المعرض، وهناك علينا اختيار اماكنها المناسبة وترتيبها على جدران
القاعة ثم تعليقها وما الى ذلك.
أسرع السائق.

..لعب الهواء الذي تزايد زخمه تحت صفيحة (الماسونيات) الكبيرة،
اعز وأهم لوحة في المعرض المنتظر.
.. وكما ترتفع الطائرة تحت زخم الهواء المندفع تحت أجنحتها
العريضة، طارت اللوحة الضخمة لتستقر في منتصف الشارع
العريض الضاح بالسيارات في الاتجاهين..
فتحتُ الباب صارخا بهلع:

_ أوْكَف!! أوْكَف الله يخليك.
اضطر السائق وهو يراني أكاد اقفز من الباب، أن يقف فجأة في وسط
الشارع وأن اقفز بهلع دون حساب لأن أدهس في منتصف الشارع
العاج بسير المركبات السريع..
لم يكن رُعي أن أدهس وأسحق، ولكن أن تُدهس اللوحة الكبيرة فينكسر
اديمها (الماسونيات) فيصبح قطعاً متناثرة.
ادركتها قبل أن تلقى مصيرها البائس.
حملتها واطارها الخشبي الذي شدت فوقه، وقد انترعتُ مساميره
الناعمة..

ركضتُ بحملي العزيز عبر الشارع الذي تجاوزتني فيه بضع سيارات
اطلقت مزاميرها بشدة وانحرفت عن هذا المجنون الذي يحمل (صفحة
خشب مهترية).

وصلتُ الى الرصيف!

.. قبل أن آخذ انفاسي شبه المنقطعة.. نظرت الى (الغالية)..

كدت ابكي فرحا وانا اراها تحمل آثار اضرار قليلة.

بعد أن تمكن سائق التاكسي من الوقوف على مسافة آمنة غير قريبة من
مكاني، هرع هو يسبقه ماهود، حيث أقف.

.. كنا جميعا حائرين، كيف نعيد اللوح الكبير على الاطار الخشبي
تحتة، بعد أن طارت مساميره وتثلمت زاوية سفلى منه الى قطع
صغيرة؟؟..

لم يكن قربنا غير دكان (كبابجي).

حملنا الاقسام المضعضعة ودخلنا.

.. لم يكن هنالك أحد غيره.. موائد فارغة في مكان وسيع.

طلبنا إذنه في مد اللوحة (المصابة) على ارضية محله..

استجاب على الفور لطلب مجانيين ثلاثة، يحملون لوحا مضعضعا،
يولونه عناية كبيرة غير مفهومة.

بالمسامير الناعمة التي وجدها لنا في صناديق معداته، وبمطرقة
صغيرة، عملنا أنا وماهود بصمت وخشوع لنعيد قطع الزاوية المتثلمة
الى اماكنها من لوح الماسونايت ثم وضع اللوح الكبير في موضعه من
مسند الخشبي الضخم تحتة.

طلبتُ حبالاً او أحزمة طويلة قد يمتلكها (الكبابجي)، الذي كان يراقب،
ولا زالت بعض معالم الحيرة على وجهه.

أحضر لنا ما وجده، وكان كافياً.

يا للفرحة العظيمة ونحن نراها جميلة مؤثرة، بل زادها تأثيرا زاويتها
المحطمة التي بدت وكأنها جزءا مقصودا من تفاصيله الفنية المؤثرة.

.. رفض (الكبابجي) ذو الدكان الخالي من الزبائن، قبول المبلغ المالي الذي اخرجته بديلا عن الادوات التي زودنا بها، وعن المساعدة، والوقت الذي هَدَره معنا.. لم يقبلها إلا بعد أن اعطيته بطاقة دعوة لحضور الافتتاح بعد بضع ساعات، وأن يكون المبلغ لقاء العشاء الذي سنتناوله عنده بعد انتهاء المعرض هذه الليلة.

كان(السّرطاويان)، عصام واخوه عمر، في انتظارنا في قاعة العرض الكبيرة من الطابق الثاني للنقابة.
رتّبنا اللوحات وفق اماكنها المناسبة..
(اللوحة الطائرة) كان مكانها صدر القاعة.
في الساعة السابعة اخبرونا عن وصول الركب الوزاري وبعض كبار المسؤولين الاخرين معه.
هرع عصام وعمر وممثل النقابة هابطين الى الساحة الكبيرة.
تشاغلْتُ بتعليق لوحة (حسبتها) مائلة في موقعها الصحيح.
(الآن وانا أكتب هذه السطور يُحرقني الندم والخجل من نفسي، على ذلك الموقف الذي اعتقده الآن غير لائق ومنزمت).
كان في مقدمة الصاعدين الى مدخل قاعة العرض رئيس الوزراء طاهر يحيى.

استقبلته بترحاب عند المدخل.
هنأني بالمعرض فشكرته..
كذلك كان الامر مع بقية الوزراء والمسؤولين بصحبته.
رجل في الخمسينات، ممثليء الجسم قصير القامة – قليلا – بعوينات قاتمة، صاحب نكتة ومرح في حديثه مع وزرائه الذين كانوا بصحبته..
وقف عند العديد من اللوحات متأملاً ومحاوراً لي عند بعضها.
تحاشى وأعرض عن التقرب او الحديث عن لوحة المسيح، الذي سقط مهشما مع صليبه الذي إنفرجت ذراعاها الداميتين، على عرض اسفل اللوحة، وكاد رأسه بحدقتيه اللتين اخترقتنا بمسامير هائلة، من نجمة داود السداسية..
.. كاد رأسه أن يخرج عن حاشية اللوحة السفلى.. مُتِهماً كل ناظر اليها بدوره في عذابه، يتكرر المشهد نفسه في عمق (المنظور)، في خلفية اللوحة، بعددٍ لا يحصى من (مسيحين) وصلبان ساقطة، ومسامير داودية نجمية تخترق احداقهم.

دار عصام وعمر حاملين دفترتي صكوك كانا قد اعداها للمناسبة، وكتبوا شيكات بالمبالغ المجزية حقا، التي قام طاهر يحيى ورفقته بالتبرع بها..حصيله عمر كانت اكبر من اخيه عصام، إذ كان كان لمرحه الذي طبع عليه ونكاته، اثر كبير في سخاء تبرعات اكبر.

..واصلا ذلك مع الحضور الآخرين الموجودين في القاعة. حين غادر الرجل الكبير وصحبه، اقترفت نفس ذلك الموقف المنافي للخلق السمع، فودعته ومن معه عند باب القاعة دون أن أنزل معهم الى ساحة وقوف سياراتهم.

..نزل معهم عصام وعمر وممثل النقابة لتوديعهم قبل المغادرة. لقد كنت ايها الرجل الكبير أكثر فهما وخالقا وتسامحا عظيما، إذ طلعت في اليوم التالي، ولا بد أن ذلك كان بإشارة منك- معظم الصحف بما فيه جريدتهم الرسمية، بتغطية واسعة عن المعرض، بل وضعوا لوحة (صَلْبُوك الف مرة) في ابرز مكان، بعد الصفحة الاولى، اي الاخيرة فيها .

شاركت صحيفتنا (فنون) التي اصدرناها: أنا وحسب الشيخ جعفر، وماهود احمد ومؤيد البصام وعبد الامير الحصري. وكان ذلك في آخر عدد منها، إذ اختفى الحصري -مدير مالية الجريدة - قبل دفع اجور طباعة العدد الذي يليه، ولم نعثر عليه إلا في اليوم التالي غير بعيد عن مقر الجريدة (في مقهى الزهاوي)،..كان ممدا في سُكْرَةٍ وغيبوبة لا مثيل لها، قرب خارور مياه قذرة في زقاق من أزقة (جديد حسن باشا) خلف مقهى البرلمان والى جانبه قنينة عرق (هَبْ هَبْ).. لقد شرب الشاعر الحصري الجريدة وميزانيتها.

افتتح مكتب رسمي لمنظمة(فتح) في الكرادة، وانتقلت معظم لوحاتي - غير التي بيعت - المهداة اليه، فيما عدا لوحة (صلبوك الف مرة) لكبير حجمها الذي لا تسعه مخازن مكاتبها.

حضر مبعوث من نقيب الصحفيين ورئيس تحرير جريدة المنار،
الاستاذ عبد العزيز بركات، الى موقع عملي في معهد الاشعة، طالبا
مني مقابلته في جريدة المنار عند المساء لو لم أكن مشغولا بشيء آخر.

صعدت الى مكتبه في الدور الثاني من بناية الجريدة.
..نهض رجل في الخمسينات من العمر بوجه حنطي باسم، من وراء
مكتبه مرحبا.
كان كل ما في الغرفة متواضعا، الرجل بوجهه البشوش، ملبسه، مكتبه،
والاثاث البسيط الذي تحويه.
كان اول شيء في حديثه:

_ خَبرني كيف حال استاذنا شاعرنا الكبير الحمد المهدي؟
_ بخير والحمد لله، وبشوق الى البلد واهله الطيبين من امثالك.
_ هذا بالتحديد، - عدا رغبتني في رؤيتك- ما كنت اريد أن افاتحك به،
حين أرسلتُ دعوتي اليك..إنه الشوق الذي تتحدث انت عنه..شوقنا نحن
الى عودته، الى رؤيته بيننا، سأنهض حال قدومه من مكاني ليجلس فيه
بدلا مني.
إلتفتَ وأشار الى مكتبه الشاعر..واصل حديثه الوداع وهو يجلس الى
جانبي.

_ انا بصدد تنظيم حملة صحفية، ندعوا فيها الحمد المهدي للعودة الينا،
الى محبيه الذين ينتظرونه بشوق.
ما ارجوه منك، أن تزودني بما لديك من صور حديثة، عنه لتكون في
المقالات التي ستنتشر عنه.
شكرته على المقابلة الحلوة وعلى النية الاحلى في دعوة المهدي
صحفيا، واعداءه اياه بتزويده بالصور المطلوبة في اقرب فرصة.
لم يكن هنالك غير متحف الحمد المهدي للوثائق والصور، المحفوظ
لدى اختي الاكبر مليكة وزوجها (أبو العيس).

قصدتهما.. حدثتهما عن مقابلة الرجل الذي وقع من قلبي وخاطري
اجمل موقع.

عقب (ابو العيس):

_ إنه رجل رائع، متواضع ونزيه في قلمه وعلاقاته.. وهو صديق
مقرب من طاهر يحيى.. سينتقل رأيه قريباً لصديقه هذا، لو لم يكن قد
طرحه عليه قبل حضورك.

بعد يومين كنت في مكتب الرجل الشهم.. وضعت أمامه مظروفاً بصور
عديدة للمهدي الحمد.. اعتذرت عن دعوته بالجلوس، لأتركه الى اوراق
وقصاصات صحف و اقلام فوق مكتبه.

لم يلحق الصحفي، الانسان المتواضع، إتمام حملته..

.. تسارعت الاحداث..

.. وقع انقلاب عبد الرزاق النايف..

انقلب عليه بعثيو صدام المشاركون معه وقلبوه بدورهم.

أقتيد الرجل الوداع في ليلة سوداء من داره، الى جهة غير معلومة (كان
الحمد المهدي قد عاد)..

.. هَرَعَت زوجته (أم سعود) الى الحمد المهدي في الليلة التي تلت

اعتقاله.. إتصل المهدي بصديقه الجديد صالح عمّاش، و(أم سعود) تقف

ملهوفة بعينين دامعتين، الى جانب أهل بيتنا، الذين يقفون كلهم حولها

مساندين لها في محنتها.

.. فتح عمّاش خطاً تليفونياً، تحدثت فيه (أم سعود) فطمأنها الزوج

المُخْتَطَف، الى أنه بخير ويحتاج بعض الالبسة الداخلية وغيرها من

الاشياء الخفيفة اليومية الضرورية.

.. لم تنفع وساطة الحمد المهدي في مصير الرجل الطيب..

اغتيل بعد تعذيب رهيب في اقبية المافيا الجديدة.

ذوّب جسده بحوض (الأسيد) الصدامي الشهير.

استشهد مهندس الطيران، ضابط فتح القيادي، الصديق عمر السرطاوي، ذو الوجه الطفولي البشوش، والنكته التي لا تنقطع على شفاهه مع صحبه، بعد أن قصفت الطائرات موقعه القتالي المستهدف مع شلة من رفاقه المحاربين في مدينة السلط.
أغتيل الصديق الشهم الرائع عصام السرطاوي بعد سنين، بمسدس كاتم للصوت في

برشلونه وهو يحارب برأيه في قضية شعبه.
.. اغتيل بيد قاتل-(مناضل؟!)- سفاح ماجور احتضنته وكالات وجهات ومافيات ومنها المافية الصدامية لتصفيات تخدم اغراضها.. والتي صفته بدورها عام ٢٠٠٢ .
..حامت بعدها الشبهات عن وراء اغتيال السرطاوي وعن عملية تصفيات قيادية، شبيهة بالتصفيات (الصدامية) لرفاق الدرب .

بعد عودة المهدي الحمد، بفترة وجيزة اعلن عصام عن تشكيل جبهته (الهيئة العامة لتحرير فلسطين).

تخلى عن وجوده في مكتب (فتح) الرئيسي، وهياً مكتباً خاصاً بـ (الهيئة العامة).. الجديدة برئاسته، في الطابق الثاني من عمارة في شارع الجمهورية غير بعيد عن نصب جواد سليم للحرية. ارتقيت السلم الضيق الى الشقة الصغيرة. سارع لاستقبالي محتضناً بحرارة.

_ ما هذا يا عصام؟! إنها حركة إنشفاق اذا!!
_ ابدأ.. إنه عمل ضمن جبهة فتح الواسعة.
_ جبهة واحدة.. عمل واحد.. كفاح واحد.. تنظيم عسكري واحد هذا هو مفهومي عن المعركة في ظروف هزيمتنا التعسة المنكرة.
_ في منظمة فتح اراء عديدة عن طرق المعركة التي سنسلكها.. وهذا شيء صحي في أية جبهة او تنظيم ما دام الهدف مشتركاً..
لم اطل النقاش معه فقد كان يتحدث بحماس وقناعة كبيرين.
غادرته وانا غير مقتنع.

زارني بعد ايام في معهد الاشعة.
رحبت به كثيراً.. استأذنت من الدكتور أكرم زميلي واستاذي في نفس الغرفة واصطحبت عصام الى نادي الكلية اللصيق.

_ اسمع يا صفاء.. جنئك بطلب!
_ من العين هذه.. للعين الأخرى هذه!
_ اريد لقاءً مع الحمد المهدي الكبير. الموضوع هو الاحتفال المقام للشهيد (صبحي ياسين) احد قيادي فتح.

_ تدلل!.. في اي يوم تشاء.. اليوم لو اردت!.. في البيت الذي استأجرته للمهدي الحمد استعداداً لعودته، في (داودي المنصور) التي تعرفها

جيدا.. هذا هو العنوان!،.. شرط أن لا تخترق في قدمك قيلولته المقدسة.

_ السابعة مساء.. او الثامنة؟ تساءل عصام
_ فلتكن الثامنة.

حضر عصام في الموعد.
استقبلته ودخلنا على المهدي الحمد، الذي كان بانتظاره في غرفة الاستقبال.

..هرع عصام واحتضن المهدي طويلا وقبله من وجنتيه.
_ من اعظم ايام حياتي أن ارى راعي قضية شعبنا الرائد.. ملهم نضال
مشردينا في الارض المغتصبة.. صوت شهدائنا!!.

_ اهلا بك ابني يا اخا الشهيد العزيز عمر (كنت قد رويت له تفاصيل
عن الشاب الجميل المرح الذي ترك كل شيء ليحمل السلاح وليستشهد
قبل اشهر).. اعزيك يا ابني لقد فقدت وعلى نفس هذا الدرب، وفي نفس
عمرك تقريبا، اخا شهيدا مثل اخيك.. عمر وجعفر شهيدا درب مشرف
واحد.

دمعت عينا عصام.

مع فنجان القهوة

_ لي طلب ورجاء.. رجاء من منظمة فتح.. رجاء كل مناظلي ارضنا،
مع رجاءي كمحب للحمد المهدي الكبير لحد التقديس ولصفاء صديقي
العزيز.. أن يُسمع صوتك الهادر في احتفال الشهيد (صبحي ياسين)..
لا بد أن صفاء حدثك عنه.. سيكون حضورك فخراً ومباركة لنا جميعاً.
_ وانا جاهز إبني دكتور عصام، ودون دعوة .

كان الحضور في قاعة الشعب التي اقيم فيها الاحتفال، حاشدا والترحيب
بالحمد المهدي حارا وصاخبا:

جَلَّ الفداءُ وجَلَّ الخُلْدُ صاحبهُ
ضاقَ الفضاءُ وما ضاقتْ مَذاهبهُ
جَلَّ الفداءُ وإن ضجَّتْ مآتمهُ
على الشهيد وإن رنَّتْ مَناديهُ
إن الزمازمَ في الدنيا لمصرعهِ
صدى الزمازم صببَّها كتائبهُ
وفى لأمتِه نذراً، مُفجَّرةً
نُحوره ، وخضيباتٍ ترائبهُ

لقطاتٍ من عودة المهدي

. أتى البعث (الجديد).. مهدوا طريقهم المخطط له، بحوارات مع قوى وفئات وأشخاص..

توالت النداءات على الحمد المهدي للعودة.

.. في إتصال هاتفي حثثته على العودة بالسرعة الممكنة.

أبرقَ بموعد عودته.. جعلها بعد منتصف الليل، كي لا تكون هنالك تظاهرة جماهيرية كبيرة في استقباله.. لم يرغب في استفزاز جديد.

.. رغم هذا كانت هنالك تظاهرة غير صغيرة في استقباله حين حطّت الطائرة بعد منتصف الليل في مطار المثنى.. كان الإعلام وممثلوه ضمن المستقبلين ومندوب الإذاعة في مقدمتهم.

أحاطت الجماهرة الكبيرة بالمهدي في صالة المطار التي اكتضت بهم وعلت هتافات ورفعت شعارات..

لقى محمد صالح بحر العلوم قصيدة كان مطلعها:

حملتك طائرة من براغ ولم تدر ما تحمل الطائرة

فقد حملت عزة الرافدين وشطيه والنخلة الساحرة

اعتذر المهدي عن الصعود الى بعض سيارات المرحبين وتوجه معنا الى سيارة الأجرة التي كانت بانتظارنا معه، أنا ومليكة و(ابو العيس) زوجها.

البيت الذي اعدته له بأثاث متواضع كان في حي (داودي المنصور).. بيت جميل في منطقة خضراء هادئة، ومسافة خطوات عن بيت أخته العزيزة أم كاظم.

كان فرحاً بالعودة لا يوصف.. طفل عاد الى ملاعبه.

بدأت زيارات الاقارب وقلة من الاصدقاء القدامى.. لا يزال مكان المهدي الحمد يُخشى الاتهام بارتياده فلم تعلن الجهات الحكومية ترحيبها الرسمي به بعد.

بدأت تظهر للعلن مفاوضات (الجبهة) الموعودة، التي سرعان ما سماها الحمد المهدي متهمًا (جبهة الحلّي)..

كنت اعرف (جبهة الحلّي) هذه، من احدى ملاح روايات الحمد المهدي، والتي يعرفها كثير ممن عاصروه في النجف:

" كان (.. الحلّي) أحد اصدقاء شلة الحمد المهدي في النجف، قد أسمى ابنته التي رزق بها (جبهة).

سارع اصدقائه الى تأريخ ولادتها .. تقليد شائع عند النجفيين في التكريم بتأريخ الولادة والوفاة ببيت شعري تحسب فيه ارقام كل حرف فيه فكان تكريمهم للوليدة (جبهة):

" وأنتضى القوم أيورَهم حين أرختَ

جِبهُةَ الحلّيِّ - أرَّخُ! - زُنارها "

كلما ذُكرت الجبهة - الوليدة الجديدة -، علّق الحمد المهدي ساخرًا:

_ يا جماعة تقصدون، (جبهة الحلّي) بالطبع!!

اكثر زائري تلك الفترة حميد سعيد، الذي كان سكنه قريبًا..

.. كنت قد التقيت به اول مرة ايام كان شبه متخفٍ في غرفة يسكنها معه صديقي العزيز حسب الشيخ جعفر في أحد ازقة الحيدرخانة..

.. تأخر الترحاب الرسمي قليلاً.. لم أرَ كثيرًا آخرين من الشخصوس الذين كنت بعدها اراهم مرارا يملئون صالة الجلوس في سبعينات الحفاوة.

..في نهاياتها خلت منهم تماما، لا تقريبا نفس الصالة وبوجود المهدي الحمد ذاته، بعد أن ادارت السلطات وجهها عنه مرة أخرى لا حضور لشعرائها، ولا نُقَّادها، شيوخهم او شبابهم،.. اقفرت الصالة تماما..

لقطة كوميدية سابقة ولاحقة كانت ستصلح لملكها شابان:
(المهدي الحمد وقد انقلب عليه من في السلطة، لانه لم ير المعجزة التي
" هطل المطر، اخضر لها الشجر " ولا الاخرى التي " تكتحل بنوره
العيون والروح "
الحمد المهدي مستوحش في عزلته!..

لقد انقلبت عليه السلطة ومسؤوليها، ففزح جميع من كان حوله!
..كلهم اجمعين!!

.. احتفى عن مجالسه كل شعرائه وكتابه، وثقافته، ممن كانوا يحيطونه
إحاطة السوار بالمعصم.. إن لم نقل إحاطة القيد الذي لا ينتزع.
.. يخنق المهدي في عزلته فيهرب.. يَهْجُ!!.. لجأ خارج وطنه.

.. تذكر الدارسون واساتذتهم الخيرون في جامعة الموصل مكانة
المهدي الحمد الكبير فتقرر رئاسة الجامعة إقامة مهرجان احتفاءً به..
ثوجه الجامعة دعوات للشعراء والاعلاميين والنقاد.
..وجهت دعوة له في مكان اقامته خارج الوطن، فلي دعوة محبيه.

.. ما أن وصل المهدي الحمد من مكان هروبه، هجيجه، ملجأه، (وكننت
في استقباله في المطار بعد غيبة قاربت سنتين، ومعني نسيبي محمد)،
حتى تزدحم، صالة الضيوف، التي هرب من عزلتها ومن تخلي ضيوفه
عنها، واخذت تصخب مرة اخرى بالحفاوة والترحاب
..تنازع الكثيرون - لحد الإختصام - على من سيتشرف باصطحاب
المهدي معه في سيارته لموقع الاحتفال الجامعي في الموصل..

.. هناك تنطلق من نفس هؤلاء، الذين سكتوا عن ذكر اي شيء عن
الحمد المهدي الكبير في مقالاتهم، حتى أن أحد (كبار) نقادهم(الذي أتخم
المهدي بمدح زمن احتفاء السلطة به)..، أجرى مسحاً وافياً في زمن
هروب المهدي، مقالاً (انتولوجيا (بالغ الأمانة)) لشعراء القرن في

العراق، من الزهاوي وحتى ذلك اليوم، عام ٧٩، ولم يكن للحمد المهدي اي ذكر او وجود فيه.

.. امانة للقول، فاني لا اذكر تماما، إن كان قد وضع (عبد الله الجبوري ورعد بندر) مكانه أم لا..

سيشكره التاريخ والآخرين ولا بد انهم سيضعون اسمه في المقدمة من اسماء اخرى، في أنه كتب وكتبوا عن الحمد المهدي ما كُتِبَ.. وقدّم ما قدّم، من دراسات ومقدمات، خلال فترة احتفاء السلطة به، هذا غير حضوره وحضورهم الذي لم ينقطع عن جلسات صالة جلوس المهدي وضيافة أم سالم لهم التي لا تنقطع ولا تكل.

.. هناك في الموصل ألقى نفس هؤلاء الخُرس، كلمات رنانة ودراسات فيه، وجلسوا معه ولصقه في الواجهة على منصة الاحتفال!!)

.. معذرة ايها السادة.. لعلها لقطة كوميدية (شابلية) قد يقاضيني عليها يوماً ما أحد مخرجي هوليوود الكبار..

.. او لعلها صورة يوسف وهبي الدرامية وهو يلقيها بصوته الاجش المضخّم:

" ما الحياة إلا مسرحٌ كبيرٌ!! "

ولكنها الصورة الي شاهدتها دون اية اضافة او تحريف..

.. الصدق مؤذٍ ليس كذلك!!

.. إنه وذكراه أكثر اذئ وأسى على ناطقه أحيانا!!

..إلا ذلك الوفي الطيب الوداع الاصيل الذي لا يُنسى، ابو نوال، الاستاذ مهدي المخزومي، عالم النحو الفذ-المتواضع.. (اغتاله الموت وهوفي حسرة لغيباب صديقه)..

..وحتى في غيابات وهرويات الحمد المهدي، يتملكه نفس ذلك الشوق العارم الدائم، فيزور المكان ذاته، ويجلس في نفس موقعه القريب من مقعد المهدي الشاغر، ولولا خجله الذي عرف به، لقام وقبّل مكانه الشاغر وشمّ عطره .

تُلي قرار مجلس قيادة الثورة في الاذاعة والتلفزيون بتخصيص راتب
للحمد المهدي مدى الحياة قدره ١٥٠ ديناراً.
أقيم احتفال رسمي كبير في (كازينو صدر القناة)، تكريماً له حضره
معظم اعضاء مجلس قيادة الثورة والوزراء وعدد كبير من الاعلاميين.
المهدي في احسن اوضاعه ومزاجاته وقيافته
رغم طابع الجو الرسمي في الاحتفال، فقد اهتزت القاعة بالتصفيق
العاصف حين اعتلى المنصة، وحين ألقى الشطر الاول:
أرْخ رِكابِكْ من أينِ ومنْ عَثْرِ..
سرت همهمة بعدها
.. بدى لي المهدي الحمد، في قامته المنتصبه الفارعة، كجني رائع،
مختلط بأوشحة الغيوم والأبخرة السحرية القادمة من الف ليلة وليلة..
..خَلَّتْ القاعة فجأة إلا من كيانه الضبابي، ومن همهمة ولغظ موشوش
يكمل الصورة المسحورة امامي.. وصوته الذي يأتي لي وحدي من
الاعالي:

أرْخ رِكابِكْ من أينِ ومنْ عَثْرِ
كفالكِ جيلانِ محمولاً على خطرِ
كفالكِ موجشُ دربِ رحمتِ تقطعهُ
كأن مغبره ليلٌ بلا سحرِ
ويا أبا الطير في وردٍ وفي صدرِ
في كل يومٍ له عَشْرُ على شجرِ
عريان يحملُ منقاراً وأجنحةً
أخفَّ ما لَمَّ من زادٍ أخو سفرِ
أناشدُ أنتَ حتماً صنعَ مُنحَرِ
أم شايكُ أنتَ، مُغترّاً يدُ القدرِ
أم راكبُ متنَّ نكباءِ مطوَّحةِ

ترى بديلاً بها عن ناعم السرير
خفّض جناحيك لا تهزأ بعاصفة
طوى لها النسر كشحيه فلم يطير
ألفى له عبرةً في جوججٍ خضب
من غيرهِ وجناحٍ منه منكسر

يا سامرَ الحيّ بي شوقٍ يرّمّضني
إلى اللذاتِ، إلى النجوى، إلى السمرِ
يا سامرَ الحيّ بي دأءٌ من الضجرِ
عاصاهُ حتى رنينِ الكاسِ والوترِ
لا أدعي سهرَ العُشاق يُشبعهم
يا سامرَ الحيّ بي جوعٌ الى السهرِ
يا سامرَ الحيّ إن الدهرَ ذو عجبٍ
أعيثْ مذهبهُ الجلى على الفكرِ
كأن نعماءهُ حُبلى بأبؤسه
من ساعةِ الصّفو تأتي ساعةُ الكدرِ
سبعٌ توهمتها سبعون لا كدرأً
لكن لحاجتها القصوى الى الكدرِ
هل عندكم خبرٌ عن قربٍ مُلنحِمٍ
أو وشكٍ مُعترِكٍ أو قُربٍ مُشتجِرِ
فذاك والله عندي أصدقُ الخبرِ
إنّي أفايضُ فيه النفعَ بالضررِ

وأنتَ يامارداً يلقى بهامتهِ
هُوجَ الرياحِ ورجلاه لظى سقرِ
يا ساحرَ النفسِ كالشيطانِ ياوطناً

يُهوى ويُصفي على الويلاتِ والغيرِ
ويا حَفِيظاً على الزَّلَّاتِ يَرصُدها
وبالذي يَتَجَنَّى جَدَّ مُغْتَفِرِ
حَمَلْتُ هَمَّكَ في جنبي أَصْهَرُهُ
في لاجعٍ بوقيدِ الشوقِ منصهرِ

وكنتَ نُوريَ في ليليِ وغربتهِ
حتى كأنَّ النجومَ الزُّرُقَ لم تُبِرِ
عودُ اليكِ بأقدامِ مُوطَّأَةٍ
على دروبِ جِراحي فوقها أثري
يا دجلةَ الخيرِ نحنُ المُمتلينَ غِنَى
بنا انعطافُ على مَلانٍ مَفْتَقِرِ
والله لو أوهب الدنيا بأجمعها
ما بعثتُ عِزي بَدلِ المُتَرَفِ البَطْرِ

في أعضان (أم الدنيا) من حديد

أكبرتُ يومك أن يكون رثاء
الخالدون عهدتهم أحياء

لم يطق الحمد صبيرا على سكونه وهدوء اوضاعه البيئية والمالية، بعد
الحفاوة الكبيرة.. ضاق نفسه!!، من استكانة وقتية قصيرة..
.. هرب الحمد!!

.. . . .

صعبة مهمتك ياصفاء!

.. أيام وانا أضع خططاً وادبج حوارات وأرتب طرقاً للمجابهة واخرى
للدفاع، ثم خططاً للانسحاب الآمن اوبأقل الخسائر المعنوية المعقولة.
.. لا عليك حتى وإن كانت النهاية هزيمة شنيعة تنتهي بالفرار من موقع
المعركة والاحتماء الى حين بموقعك المنعزل.. لن يكون هنالك بُعد
آمن، حتى مسافة بلدان فاصلة لن تكون آمنة تماما من حبيبيك الحمد.

- يابيه.. أهو دا العنوان في جاردن ستي.. أنزل الشنطة يابيه؟

اصعد السلالم المرمرية العريضة الى الطابق الاول في العمارة
الفخمة.. أطرق الباب بهدوء، اعرف ان رنة جرس الباب غالبا ما كانت
تفزع، خصوصا وان الوقت قد يكون مبكرا لصحوته.

تُفتح احدى درفتي الباب الضخم قليلا.

.. يطل وجهه بابتسامة مرحة، سرعان ما تخبو، ليحل مكانها تعبير
دهشة وملامح استياء مفتعل.

- نعم؟.. ما الذي اتى بك؟!.. شكو عندك؟

- اولاً صباح الخير استاذ، سعيد انني لم اوقظك من غفوة صباحية،
سعيد بروياك..

- قل! هيا قل!! ما الذي أتى بك..

- ألن تدعوني للدخل لأستريح قليلا من سفر طويل؟!
- تفضل افندي، هلا بيك..
تعمدت ان أطيل الوقوف في القاعة الوسيعة الفخمة التاثير وانا احمل
في يميناي حقيبة السفر قبل ان اسأل:
- في اي من الغرف سأضع هذه الحقيبة.
- قبل ان تضعها، خبرني ما الذي اتى بك؟..
- اضعها في احدى الغرف اولاً، وأستحم من وعشاء السفر، بعدها
سأدخل الى المطبخ لاحضّر شايًا، ومع قده الشاي يحلو الحديث
اكثر.. مشتاق لك والله استاذ الحمد.
بصعوبة كان يداري ابتسامته في محاولة يائسة لاختفاءها.
حين خرجت من الحمام، كان ابريق الشاي واكواب وصحون وعدة
افطار منوعة تحتل مائدة جانبية قريبة من نافذة وسيعة مطلة على حديقة
غناء.. يجلس هو باسترخاء وسهوم.
- لِمَ اتعبت نفسك يا والدي، لقد كنت اريد ان اهيء انا افطارك..كنتُ
على يقين ان هناك من يقوم على خدمتك.
- حين فتحت الباب كنت انتظر ان تكون بهية هي القادمة.. الشغالة التي
تساعد في امور البيت
- أسف ان اكون قد خيبت املك!
" كان الوجه البشوش والابتسامة الريانة عند اول فتح الباب لها اذاً! " -
هل اعد لك بيضا مقليا؟
- حسبي كرم ضيافة الاستقبال الفخم المعد.. هذا هو الحمد الذي اعرفه،
دعني اقبلك يا والدي... انحنيت عليه، ودون ان يقدم لي خده قبلته.
تعمّد ان يضع ابتسامة تهكم مَرحة على وجهه، وهزّ كفه اليمنى علامة
تعجب مفتعلة.
رنّ جرس الباب فسارع الى النهوض معدّلاً الروب الحريري الذي
يرتديه، ونصب قامته وهامته قبل ان يفتح الباب.

- صباح الخير يا بيه.

- صباح الخير بهية..

- حقك عليّ، الاتوبيس جِه متأخّر..

أنتي في الثلاثينات، قمحية اللون، في فستان مؤرد، يشدّ قامة ممتلئة، بفتحة صدر تكفي لأن تطل منها ربوتان صغيرتان تنفرجان عن بعضهما بأخدود ضيق لا مرأى بين لقراره.. شعرٌ داكن معقوص الى الخلف على هيئة كعكة مرصوصة ينغرز فيها مَشط وردي صغير انيق.

انتبهت الى وجودي في ركن من اركان الصالة، فأضطربت قليلا قبل ان تبدل اسلوبها في الحركة والحديث:

- العفو يا سيدي، مَخذتشن بالي.. فية عندك ضيوف يا سيدي..

- هذا ابني صفاء!.. دكتور صفاء!.

- عوافي يا سيدينا الدكتور.. د حنا زارنا النبي، لمة اروخ احضركو الفطار.. يا خبيبتك يا نعيمة، دا انتو عملتو الفطار بأيديكو كمان.. يا عيب العيب، مكسوفه منك والله ياسيدي!

كرر الحمد سؤاله وبصيغ مختلفة اثناء الافطار وبعده..

- " مالذي اتى بك؟!.. ما الذي ورايك؟! " "

ولم يتعد الجواب بصيغه المختلفة ومعناه " شوق اليك ولهفتي

لرؤياك.. وهل غريب ان اشتاق الى الحمد - أبي!! " "

في المساء حضر غالي شكري، ويبدو أنه كان معتاداً على الحضور المتكرر، فقد كانت الكلفة شبه مرفوعة مع الحمد..

بعد أن احتسى فنجان قهوته التي اعدتها له:

_ وانشاء الله ستبقى هنا مع الحمد الكبير مثلما رحبت بكم مصر مع

اخوتك ايام الفقيد طه حسين.. مصر بلدكم.. اليس كذلك دكتور صفاء؟

_ بالتأكيد بلدنا الحبيب.. لكن هنالك واجبات علينا تجاه اهلينا هناك في العراق وربما هم احوج لنا هناك مما هنا.
_ انظر هذا المقال العظيم عن والدكم الحمد الكبير، مقالة رائعة ومعها القصيدة الاروع .. بدأ غالي يقرأ بعضاً من ابياتها:

أكبرتُ يومك أن يكون رثاء
الخالدون عهدتهم أحياء
او يرزقون؟ أجل وهذا رزقهم
صنو الخلودِ وجاهةً وعطاء
قالوا: الحياة؟: فقلتُ: دينٌ يقتضى
والموتُ قِيلَ، فقلتُ: كان وفاءً
أكيرتُ يومك أن يكون رثاءً
أجعلتُ منه موعداً ولقاءً؟
أم رُمتَ جَمَعَ الشملِ بعد تفرّقِ
أم أن تُثيرَ كعهدك الشعراء

يا أيها النسْرُ المحلّقُ يتّقي
فيما يَميلُ عواصفاً هوجاءً

لا يعصمُ المجدُ الرجالَ وانما
كان العظيمُ المجدَ والاختفاءً
قد كنتَ شاخصاً أمةً، نسماتها
وهجيرها، والصبحَ والإمساء
أَلقتُ عليك غياضها ومروجها
واستودعتك الرملَ والصحراء
كنتَ ابنَ أرضِكَ من صميمِ ثرابها

تُعطي الثمارا ولم تكن عَنقَاء
وبرمت بالطبقاتِ يَحلُبُ بعضُها
بعضاً كما حَلَبَ الرعاة الشاءَ
وجهدت أن تُمضي قضاءك فيهما
لثُشيدَ مجتمعاً يَفيضُ هُنا
أسفاً عليكِ فلا الفقيرَ كفيته
بؤساً ولا طُلَّت العنِّي كفاء
قد كان حولك الفُ جارٍ يبتغي
هدماً ووحداً من يُريد بناء

لم يحضر شخص آخر طيلة المساء والى ساعة متأخرة من الليل، حين نهض الحمد فجأة وبحماس:

- هيا بنا يا غالي لنطلع الدكتور على روعة حَيِّ سيدنا الحسين في الليالي الرمضانية!

..مهرجان من الاضواء والفضاء مملوء بسمفونية غريبة هي مزيج من مهممات احاديث ونداء باعة ومقاطع مبتورة متداخلة لالغان منبعثة من مذياعات المقاهي واغاني واهازيج وتراتيل قادمة عبر الكواتم الصوتية لانسجة السراقات المبنوثة هنا وهناك في الساحة الوسيعة امام جامع سيدنا الحسين مشعشعة بنشرات خان الخليلي الضوئية المبهرجة الالوان.

كان من الضروري الانحناء والاقتراب باقواها من آذان بعض لنستطيع اسماع تعليق سريع او ملاحظة عابرة وكان غالبا ما ينقطع ذلك بعبارة " ما الذي قلته " او " عفوا لم اسمع ما ذكرت " او ان يكتفي احدنا بقول " اي نعم " دون ان يعرف لمن كانت موجهة او حول ماذا. وفي الغالب كان الحمد بعيدا عن سماع اي تعليق او ملاحظة ناهيك عن بُعد الاجابة، كان منشغلا بمتابعة العالم الصاحب المتلأأ حوله بعينين

يلتمع فيهما بريق الدهشة والفرح وانعكاسات بريق الالوان المنعكس عليها مصحوبا بدمدمة غير مفهومة، قد تقتنص منها عبارة " إش، عجيب.. ذنيــــــــــــا! " او يغيب مع المشاهدة في لجة صمت حذاري ان تنتشله منها وإلا سينظر اليك شزرا للحظة ويعود الى عالمه. كان الضجيج في داخل سرادق معرض الكتاب الوسيط اقل بكثير مما سمح بتبادل بعض التعليقات حول هذا الكتاب او ذلك او سرد حكاية يومية عابرة مرت عن فلان الاديب او ليلة صاخبة على احدى العوامات.

- " بالولدُ والمالُ والمعمورُ..

والدم ولو جرتْ عليهُ بحورُ

نفدي ترابُ البُلد

من~ غادرٍ مسعورُ "

كان عازف الربابة يطوّح بصوته الخشن من على منصة السرادق، وشارباه الكئان يهتزان بايقاع سليم مع اللحن البلدي.

- إحنا المصريين أسخياء جدا في التضحيات الضخمة عبر الاغاني والانشيد.

علق غالي شكري وهو يقترب بشفتيه من اذن الحمد.

التفتتُ اليه وبنظرة فيه عتاب و غضب:

- أهو قليل ما جاد به الناس!!.. قليل من الإنصاف يارجل!، لاتزال عظام الالف منهم مبعثرة في الصحاري..

كانت الشقة خالية حين عدت من جولة صباحية على كورنيش النيل
ومن ثم لاتناول افطاري في جزيرة الشاي وسط حديقة الحيوانات، التي
كنت اعشق الجلوس فيها كلما اتحت لي الفرصة قبل عشرين عاما
تقريبا اثناء مرحلة الدراسة الثانوية في القاهرة.

- العوافي يا بيه، دا انا كنتُ باغسلُ الصحون في المطبخ وما خائشُ
بالي لِمَا صوت الباب اتفتح..البية الكبير خرج مع محسن، دا أنته
تعرفه، الجدع من الاردن، اللي في الجامعة، دول راحو في مشوار
لل"القناطر " ومش راجعين لحد الدنيا ما تليئُ..ما رحتش معاهم ليه؟..
ثم تواصل صوت بهية..

.. لسه ست سبع ساعات لحد ما يرجعو من مشوارهم .. " اتى صوتها
هذه المرة من غرفة نومي."

نظرت من مكاني في الصالة.. كانت تتشاغل بتعديل ملاءات سريري..
ستائر غرفة نومي الثقيلة مُسدلة.. الغرفة نصف معتمة..
.. بخطوات بطيئة وبضجيج قلبي المتسارع توجهت نحو الغرفة.

حين عدت من جولتي المسائية حول سور الازبكية والبحث في بسطات الكتب المنثورة حوله، كان الحمد لوحده في شبه العتمة وراء طاولة بابريق للشاي وكوبين فارغين.

- كانت جولة جميلة..إششش!!، الله!! ما اجمل حدائق القناطر!..لم رفضت المجيء معنا؟..لا ادري لم لا ترتاح الى صحبة محسن، انه شاب ذكي ومؤدب وقد ألحّ عليك بالمجيء..إجلب لك كوبا من المطبخ، فقد خرجت بهية، وتعال لاعرف قصتك..

ها، خبرني وبصدق الآن ما السبب الحقيقي لمجيتك..دعنا من قضية الشوق وحديث العواطف وصارحني!

هل ارسلوك اصحاب الشوارب الغليظة التي يربعون بها الاطفال؟! تسائل بسخرية موجّها اليّ طويلا ابتسامة ماكرة وهو يصب الشاي في الكوب الذي امامي.

- هل تسخر يا ابي من شوقي اليك؟! اتشك حقا في صدق محبتي لك..انا صفاء (ابوحسن) حزام ظهرك!!

- ولا ظهر حزامي! وابتسم ساخرا وهو يقرب وجهه من وجهي محدقا، لاتكن لئima واجبني بصدق، ثلاثة ايام وانا احاول معك ايها اللئيم ولا من فائدة!

- ماهذه المدة إلا ثلاثة ايام من ضيافة الاعراب التقليدية، من ثم بعدها يسألون ضيفهم عن حاجته، وما اذنك ستبخل بها علي.

- وها قد انقضت ايام اعرابك الثلاث.

- هم يسألون ضيفهم بعد وليمة فخمة!

- اختر نوع الوليمة وحدد مكانها..ما رايك في سهرة فوق النيل هذا المساء؟

كان المكان الذي اختاره والاجواء المسترخية الحاملة تفك مغاليق اي لسان معقود خصوصا بعد بضعة اقداح من البراندي.

في الطابق الثاني والعشرين من افخم فنادق القاهرة السابحة فوق تلامع صفحة النيل واضواء المدينة، التي تتلاشى بافق بعيد، ثم تتداخل بصحن السماء المقلوب، حيث يتحول غبش الاضواء الضبابي في الحواشي، وتندرج من احزمة تزداد زرقتها البنفسجية لتتحول الى زرقة اعماق محيطية، منثورة بتلامعات صغيرة لا حصر لها وكانها انعكاسات اضواء المدينة التي تحتها.

كان البار الخافت الاضواء المنسرح ببضع درجات الى قاعة المطعم الوسيع البالغ الفخامة يفتح ويسبح عبر نوافذه الكبيرة في سماء القاهرة الليلي.

لم يكرر الحمد سؤاله في الفترة غير القصيرة من صمته وهو يمدّ بصره عبر الليل المتلأمع المنسكب عبر النوافذ الوسيعة.

- صحتك استاذ..وصحة صدق محبتي وشوقي!، وصحة صبرك معي..لم يكن هينا عليّ ابدا التظاهر بالامبالاة تجاه تحرقك الشديد لمعرفة سبب مجيئي.. لقد كان دوراً من اصعب الادوار عليّ .

تساؤلك لوحده يا ابي وبالراح، ورفضك تصديقي، ان الزيارة كانت زيارة ابن مشوق لوالده، وأي والد.. انه الحمد الكبير الذي اعبدته، هذا التساؤل وحده دليل انك كنت تنتظر شيئاً غير شوقي ومحبتي، شيئاً تنتظر ان يظهرمني او من غيري، ولن يكون ذلك مفاجئاً لك ابدا..شيء يردّ على قلقك وتساؤلاتك..

- ارجوك " طيبب " !! لا تتفلسف وهات ما عندك!.. اذا صحّ توقعي فإن اصحاب الشوارب الغليظة هم من ارسلوك ورائي..

- ابدا، بل ولقد وجدت صعوبة في القدوم اليك..منع السفر لم يُلح الا بعد الحاحي لمقابلة عزت مصطفى، وانت تعرف انه محب لك ومخلص لذكرى صداقته وزمالاته الجامعية للشهيد جعفر..

علت وجهه سحابة غَمّ عاتمة وشدّد على الكلمات القصيرة:

- ارجوك صفاء! الله! الله! ما هذا!!..

..بعد عشرات السنين، تظل ذكرى الاسم والحدث الاليم فوق طاقة تحمله.

اشاح بوجهه جانبا وصوّب نظره الى عتمة السماء.

-انا آسف يا ابي!..كانت وساطته لا كوزير صحة، ولكن سلطاته الكبيرة الاخرى هي التي فتحت لي باب الخروج والمجيء اليك.. بالطبع ليسوا هم من ارسلوني!

- ما الذي تريده اذاً؟ قالها بشيء من التوتر.

- حلمك ولطفك عليّ! ان مدة ضيافة الاعراب لم تنته بعد!.. هذه هي دعوتي وجلستي الخاصة؟!

- حقك علي ابو حسن..قالها بمودة كبيرة مبتسما.. وعقب:

"صحتك ابو حسن!" وارتفع كأسه قليلا عن سطح المائدة.

- هل يمكنني ان اسألك دون ان تثور علي؟

- شرط ان لا تكون استفزازيا..تفضل افندينا إسأل!

تعمدت التظاهر بالانشغال بالمشهد الجميل الذي نشرف من مكاننا الشاهق عليه..سرقت نظرة جانبية اليه..كان هو الاخر يتظاهر بالانشغال بافكاره وبالسيكارة التي يُطَرّي تبغها بالدق الرتيب لعقبها على سطح المنضدة.. اطلق تنهيدة مسموعة، اعقبها بصوت تعدى حدود مائدتنا:

- ايه دنيا!!

..نظرتُ اليه بامعان.. " اية مهمة صعبة وضعتها على كتفيك.. هل تظل

احمقا بالتصدي.. ولمن التصدي..!

..اية ثورة عارمة وأي غضب سينزلان عليك من جراه؟!..وهذه الجلسة الرائعة التي لم تحظ قبل بمثلها معه في اي مكان، هل ستحيلها الى غمّ ونكد..انت دائما تبحث عن متاعب تغرق فيها..اترك اي موضوع واستمتع بهذه الصحبة الرقيقة..إقض اسبوعين او ثلاثة في

القاهرة التي تعشقان واترك الباقي للقدر والظروف، فكم من موقف غريب وخرج إجازه وحول نكسته الى انتصار.. دع عنك عنثريات مثالياتك الخائبة.. اسلم بنفسك!.. اسلم!.. " - هل تتصور انه هو الوقت والموقف المناسب لقرار بقاءك في القاهرة؟!

استمرّ في شروده فترة غير قصيرة وبصره يتجه صوب العتمه المتلاّاة.. لم يُدر وجهه الي..

- وهل هنالك وقت وموقف معين كي يعيش الانسان ويستمتع بالدينا.. انا في " أم الدنيا "، القاهرة الحضارة، القاهرة التاريخ، القاهرة الادب، قاهرة الجمال والمتع المثيرة.. ألسّت انت نفسك الآن وفي الايام القليلة الفائته كنت ذلك المنبهر بكل اجوائها.. أنسيت انك احرقت البيت بتمردك قبل حوالي عشرين عاما حين أعدناك منها، من حلوان؟! وانت صبي صغير.. اعدناك خوفا عليك من التظاهرات والمواقف (التخشيبات) ثم من حريق القاهرة ، الم تجعل البيت، ولفترة غير قليلة جحيما وكننت تتهمنا بالقسوة والاضطهاد لاننا أعدناك ..كل ذلك وانت ابن الرابعة عشر، مطالع حياتك، وامامك دروب الحياة، والعمر، والمستقبل.. تأتي الآن لتحاسبني! انا الحمد! انا ابن السبعين؟!.. أنا الهارب من احقاد اصدقاءك الجدد اصحاب النفوس والشوارب الغليظة النتنة.. تحاسبني على اختياري بلداً حضاريا أمنا احبه ويبادل محبتي حفاوة وتكريما.. اخذ انفعاله يتزايد وصوته يرتفع، وكان يتململ في جلسته بغضب ويدير اصابع كفه الايمن الطويلة بشكل متوافق منسجم مع كلماته وهدير صوته ، وكأنه مايسترو ينسق بين حركة عصاه وآلات العزف امامه . - حاشا لله أننا من يحاسب الحمد؟!..ومن له حق حسابك؟!.. لا تسء اليّ يا ابي، لسْتُ على هذا القدر من الحماسة. معذرة يا ابي إن كنت قد تجاوزت حدودي وسيكون عربون اعتذاري انني انا من سيدعوك الآن الى الكأس التالي.. ساتركك الى الاستمتاع برقصة سهير التي ستبدأ بعد لحظات.

ينام هو في الغرفة المجاورة، وانا أتظاهر بالنوم في غرفتي التي تفتح بهية بابها بضجة بين الحين والآخر، بحجة او بأخرى.. اراقبها مرعوبا بعين نصف مغمضة، وهي تلوب كقطة في أوان طمئتها.. حمدا لله.. ها قد صحت ونهض قبلي.

.. اسمع همساً..

اسمع حركته في الصلاة المجاورة، صوت مقاعد تتحرك

- أيه دنياً!

نهضت من رقدتي.

.. كان جالسا وراء الطاولة الصغيرة مع معدات القهوة الصباحية.. انحنيت عليه وقبلت خده دون ان يبدي اية حركة او تتبدل تعابير وجهه كثيرا.

- صباح الخير استاذ

قبلته.

- هل اصب لك فنجان قهوة معي؟

انت بهية بصحف الصباح.

صفحة كاملة من جريدة الاهرام خُصصت للحمد.. كان عنوان المقالة (آخر العمالقة). قرأت الصفحة بإمعان.. كان تقييمي فخما لمسيرته الشعرية الطويلة ومواقفه، اطراءً لا حدود لجماله.. تكريم طرّز بمحبة وبشواهد من شعره ومواقفه.. كان مقالا لم اقرأ لأبي اديب اوناقد عراقي مثيلا له عن الحمد، واعظم ما قاله (شيخ النقاد هناك!) انه " شاعر ذكي، وذكي جداً " .. كانه يقول " صدقوني! اقسم لكم، انه ليس غيبا.. ليس غيبا ابداً! "

نهضت بفرح وطبعت قبلة جديدة اكثر دفئا على خده.. ابتسم ونصّب من رأسه.

- تاليها وياك ابو حسن!!

- هذه قبلة منقولة من صاحب مقالة (آخر العمالقة) الجميلة..

مددت يدي بالصحيفة اليه..
حضر غالي شكري بعد ساعة من افطارنا، ملّوحا بيده بنفس الصحيفة.
ادار مفتاح التلفزيون..
كان هنالك وصفا لمحاكمات (علي صبري) وصحبة آخرين لعبد
الناصر..
تبدل تدريجيا ارتياح وجه الحمد، حلت مكانه غيمة عبوس قاتمة.. أشار
عليّ بأن أطفئ التلفزيون.
..تناول غالي معنا الغداء..
- "الواحد ما بينكرش الحاجات الايجابية اللي بيعملها الرئيس.."

....-

- "وهو اللي شافوه الناس في زمان عبد الناصر الله يرحمه مُشّ قئيل".
.. ..-

استمرت نتف التعليق من غالي على هذه الشاكلة بين حين وآخر لفترة
غير قصيرة، كان الحمد يقابل اكثرها بالصمت او يعلّق نتقاً..
- يعني!.. جائز.. إحتمال!.. ربما.. أهذا ما تراه انت!.. يمكن..

في المساء كانت جولتنا من جديد في حارات الموسكي، واخترنا مقهى
في زاوية زقاق غير بعيد عن ساحة سيدنا الحسين المبهرجة بالاضواء
والزينات والناس.

كان الحمد ساهما وكأن هذا العالم الاحتفالي حوله والذي يعشقه بعيد
عنه، على الرغم من محاولات غالي لتحفيزه للمشاركة في هذا
الموضوع او ذاك.

بعد فترة مشدودة من الصمت:

- استاذنا الحمد، الا ترى ان دكتورنا العزيز لا يبادلني مودتي.. ولنقل
بشكل اكثر صراحة لا يحبني .. " ولّه إيه يا سي صفاء ؟ "
لا اجيب.. قابلت نظراته المتسائلة بمرح وبابتسامة كليلة.

- الست محقا يا استاذنا الحمد؟

عاد من سهومه شبه مر غم وبابتسامه مجاملة ونظرة لا تخلو من سخرية
- لم لا تجيب يا دكتور؟!

- انا احترم الاستاذ غالي كمتقف معروف له مواقفه السابقة في النضال
المصري في زمن الراحل عبد الناصر..
بادر غالي معترضا :

- السابقة!.. وليست الحالية، اهذا ما تعنيه يا صفاء.

- لا اعرف مواقفك الجديدة في الوقت الراهن.. غير تلك التي تتعلق
بتربغيبك المستمر للحمد في البقاء فيما تدعوه بالعهد الجديد، عهد
محاكمات رفاق عبد الناصر وعهد " حلف المخالب والانياب "، وفق
الخطاب الذي مجّدت فيه المشانق المنصوبة في السودان. الا ترى يا
استاذي الفاضل هذه العزلة المضروبة على الحمد.. ولنقل بصراحة
اكثر، هذا النبذ من كل المثقفين والكتاب الديمقراطيين المصريين بما
فيهم اخلص اصدقائه ومحبيه.. انني لم أر في فترة وجودي معه هنا
اطلالة اي واحد منهم.. حتى ولا زيارة مجاملة قصيرة لا غير.

- الله!! الله! ما هذا يا صفاء!.. لعلك تنوي ان تقلب الجلسة الى نكد!

- معذرة، حقك علي.. ثم معقبا بمرح.. الا ترى ان استاذنا (غالي) هو
البادي بهذا النكد. سأعدّل الأمزجة سأدعوكم الى مهلبية فاخرة
بالفستق.

قمنا بالجولة المعهودة في السرادق الكبير لمعرض الكتاب وفي الأزقة
الجانبية حيث يقل الزحام..

..كان الحمد في معظم الجولة يتقدمنا صامتا ساهما.. غالي يحتضن
ذراعي بمودة بين الحين والآخر وكأنه يقول للحمد " والله يا سيدي انا
بحب الراجل ده "

في الشقة وعلى غير عادته آوى الى فراشه مبكرا حتى دون ان يقول
عبارته المعهودة " تصبح على خير دكتورنا العزيز "

في الجولة الصباحية المبكرة التي اعتدتها وسط القاهرة الغافية صباحات رمضان، وقفت مع الحشد الكبير من الناس، وبينهم عد كبير من العجائز والمسنين الانبيقين والمرتدين ملابسهم بعجالة واضحة، وآخرين بالأرواب بل وحتى ببيجامات النوم.

- عملوها الصهاينة اولاد الكلب!

- دا عمل الموساد.. والله دا الموساد!

- دي مصيبة!.. دي نكسة!!

- والله وإحترقت يا حبيبة!!...

..خليط من الهمهمات، نداءات مجوحة، شتائم غاضبة اصوات متعبة شاكية، حشرات باكية، ولولوات مختلطة بمفردات مكسرة غامضة.. كان اللهب الضاري والدخان الاسود الكثيف ورشقات المياه المندفعة من خرطوم سيارات المطافيء، وبقايا جدران منهاره هو كل ما حل مكان دار الاوبرا.. دار الامجاد الفنية العريقة.

على طرف من الحشد اللاعن، الناقم، الصارخ، وقف آخرون، انهكتهم سنون زادهما الحدث، بجمود التماثيل على ارصفت الشوارع المقابلة، تنحدر بين قنوات غضون وجوههم المتعبة الداهلة سيول دمع صامت.

فتحتُ الباب بحذر شديد وحزين .

.. ادري انه يعشق إغفاءة الصباح الخالية من الاشباح والكوابيس..
توجهت الى المطبخ، اشغل نفسي فيه باعداد بطيء لافطارنا
المشترك..كنت قد عرفت ان نعيمة لن تحضر هذا الصباح..ولا اي
صباح آخر..

كان مزاجه حين صحتى رائقاً .. اعرف ذلك من وضعية ومكان جلوسه
رغم صمته وسهومه اثناء ارتشافه فنجان قهوته.
لم اثنأً تعكير جوه الرائق باخبار حريق دار الاوبرا..لن اكون طالع
شؤمه هذا اليوم.. سيعرف ذلك من الصحف الصباحية التي ستصلنا بعد
ساعة.

حضر غالي..اعدت له فنجان قهوته التي يحبها " على الريحة "
..كان موضوع حريق الاوبرا محور الحديث في البداية، تلاه صمت
قصير.

..الحمد ينفصل عن المائدة ليجلس غير بعيد مسترخياً على احدى
الكنبات.

..لم تدم دندنته المنعمة الخافتةطويلاً.. عاد ليجلس معنا..انه مز مع على
شيء.

- أستاذ غالي، دعنا مما قاله صفاء امس، لكن الا ترى ان عدم حضور
اي من الرفقة القديمة شيء مستغرب حقاً؟!!

- انت تعرف هذه الاجواء الجديدة..الناس لم تعتدها بعد.

- يعني لم تعتدُ الاجواء؟ او لم تعتد وجودي في هذه الاجواء؟!..

- يمكن خايفه.. " دا انت بتخوّف يا استاذ "

سارعت الى انتهاز الفرصة..

- هو الخوف اذا.. اهذا هو العهد الجديد الذي تتغنى به بالف مؤال استاذ
غالي امام الحمد؟!..

عجبي لم انت الوحيد الذي لا تتخوف من هذه الاجواء؟! بل واكثر من هذا، فانت المرافق الاوحد هنا في جاردن سيتي، ومعها في جولاته امام الملاء الاعظم في كل احياء القاهرة .. محبتك تفوق المخاطر يا غالي؟! .. ام أنه تكليف خاص من العهد الجديد..؟!!

- " دننت زودت العيار حبتين.. "، ما رأيك يا اخي، انني انا نفسي أعد العدة للمغادرة، هنالك عرض صحفي لي للعمل في لبنان..

قفزت من مكاني وتوجهت بالحديث وبصوت منفعل وعال:

- أنظر! أنظر! استاذنا الحمد! .. يتغني بألف موال امامك بامجاد العهد الجديد ويجعل من اجوائها جناتك المثلى للبقاء في احضانها.. وهو؟! هو يهرب!.. الاستاذ غالي يعد العدة بحذر وخفية للهرب الى لبنان.. يترك جناته الجديدة لك وحدك..

ادار الحمد وجهه الذي بدت عليه نذر عاصفة خطيرة صوبي وقال بلهجة امرأة محذرة.

- الله!! الله! كافي صفاء!..الله!

..تناول علبة سجائره من على المنضدة وهو ينهض.. هز رأسه وهو يزورني ببصره متحاشيا النظر الى غالي، أدار كفه اليمنى المشرعة الاصابع. توجه بخطى واسعة وسريعة صوب الشرفة..

..صمت متوتر في الصالة الوسيعة.

سمعت من على الشرفة حسرة طويلة اعقبتها:

- " ايه دنيا "

بعد ايام قلائل غادر الحمد القاهرة، شاكراً حسن الضيافة وحفاوة الترحيب متوجها الى مقره، شبه الدائم والحبيب انذاك براغ الساحرة، ليعود بعد عدة اسابيع فيرأس الوفد العراقي لاتحاد الادباء المشارك في اعمال اتحاد الادباء العرب المنعقد في دمشق.. يعود بعدها الى دجلته، في انتظار ارغامه من جديد على مغادرة اجبارية اخرى.

" لقد زرتُ أقدسَ مكانٍ في بغداد "

مرّت اعوام اخرى، وغرقت انا في البصرة في مأساة حياتي، في ظل اضطهادين احدهما شخصي اقترفته يداي في زيجة خرقاء، انهيتها بضربة قاطعة بعد ثمانية عشر عاما من عذابات تفاهات خربت اعماق روحي، والاخر اقترفته يد سفاح العراق الكبير واغرقتني والملايين من الناس في بحر دماء حرب شرسة قذرة.. معانات مدينة البصره الوداعة، التي كانت مقري لفترة طويلة، كادت تضاهي معانات مدن وقرى، جريمة الأنفال سيئة الفعل والصيت.. انتقلت الى بغداد

رَنّ صوت الهاتف في غرفتي في مستشفى الكندي، وانا غارق في طلسمات وشفرات ورموز الرقوق الشعاعية أحاول فكّ مغاليقها..
_ وزارة الاعلام معك على الخط دكتور صفاء.. كان ذلك صوت عاملة البدالة.
اخبرتني مسؤولة علاقات الوزارة ان هنالك وفدا مدعواً سودانيا يرغب بلقائي.

كانا في انتظاري في بهو فندق بغداد

.. لقد تَوَجَّ الشيب رأس عملاق السودان الاسمر الجميل، طيب الوجه والقلب.
تعانقنا، وسرى دفء حنانه الى الجسد المتعب والروح المنهكة.. دمعت

اعيننا.

- والله زمان يا راجل.. والله وكان احلى زمان!.. كانت امنية ان اشوف العراق لأجل ان اشوف الحبيب الكثير.. كنت تواقا للزيارة المقدسة هذه، ولو تعلم مدى حزني حين أخبروني ان دجلة الخير تفتقد حاديها، وانه غادرها مغضبا.. هل يعقل ان لا تضم احضان بغداد شاعرها مثلما تضم دجلتها.. عوزي في لقياك انت ايها الحبيب.. دعني اشم رائحته فيك، واحتضني من جديد..

- اخذنا الشوق عن أن اعرفك بصديقي مدير اذاعة وتلفزيون الخرطوم الاستاذ.. استطرد تاج السر.

.. إقترحت عليهما قضاء المساء في ركن هاديء من بغداد..

- هل يمكن لصديق قديم ان يطلب طلبا من صديق الايام العذبة.. ارجو ان لا يتقل طلبي عليك.

قالها تاج الدين، بصوت يقرب الى الاستعطاف.

- انت تأمر وانا اقول شبيك لبيك.

- اريد زيارة بيت المهدي الكبير.. لا بد انك تعيش فيه الآن.

كانت الوحشة تهوم في البيت.

.. أرغم المهدي مرة اخرى واخيرة على مغادرته.. طليقتي قد غادرته، بعد ضيمي المرير الطويل.

عدت أعزبا حرا من جديد..

.. غادرني ابناء ي معها وحسنا فعلوا.. شكرتهم مخلصا على ذلك.. لا اريد شيئا يذكرني بأتعس ايامي.

.. كانت احدى عثراتي الأوجع.

لم يكن في البيت من اثاث، الا المقاعد شبه البالية لغرفة الاستقبال التي كان المهدي الكبير يجلس فيها، مع الوفرة من الصحاب في مرحلة المهادنة.. تلك التي افقرت منهم جميعا، حين انقلبت السلطة عليه (الا

من من ابي نوال- المخزومي.. العالم السمع العظيم) .
.. لا طاهرها، ولا بكداشها، حتى ولا خُلِيها.. جميعهم فزعوا منه وعنه
ايام محنته.

أدخلُ بهدوء وخشوع الى محرابه المقفر، اقبل رأسه وكفيه واضعهما
على رأسي تبركاً، وهو يبتسم مماًزحاً..
أجلس على مقعد مجاور لمقعده.

يضع كتابه وعويناته جانبا.
.. أمامه قذح صغير وقنينة فودكا خفيفة التركيز.
أصمْتُ منتشياً بوداعة قربه..
- الله بالخير دكتورنا!

- الله بالخير!
ينظر اليّ بابتسامة من جديد.
.. ينهض ويحضر من الخزانة الزجاجية القريبة قذحا صغيرا كقدحه
.. يضع القذح امامي.

.. يُعدّل من طاقيته وينظر اليّ بابتسامة أكبر.
.. يهز رأسه ويقول مماًزحاً:
_ ” ومن نعمّره في الارض نُنكسه “!
.. هل اصبُ لكّ معي قذحا؟

ينظر من عليّ متسائلاً بمزاح مشاكس وهو يمسك قنينة الفودكا..
ينحني صوبي مترددا والقنينة بيده، وكأنه يوشك ان يصب في قذحي..
- صُب استاذنا المهدي الكبير !
.. اجيب على ابتسامته بابتسامة..

- والدين؟!.. الدين الذي انت غارق فيه هذه الايام؟!
.. والحلال والحرام شيخنا الدكتور؟
- صُب! الحرام، هوان يعصى أحد كلمة المهدي الكبير، كل ما يقوله
المهدي، كلام منزل ومقدس!

- صحتك شيخنا الدكتور! يرفع كأسه.
غمرتني بعد لحظات معه سعادة قدسية..
ها قد استطعت اخيرا إضفاء بسمة على المنبوذ المحاصر.. المعتكف في
وحشة غريبة بلده.
- تدري إبني؟!.. تدري انت تحيرني مرات عديدة.. سبحان من جمع فيك
كل تلك النقائص، من انطلاقة وعريضة وانفلاته غجرية، الى ديانه
وغيبيات.. ما الذي جمع هذا على ذلك؟، انت والدين كُجا مرحبا؟
- انه تعلق الغريق في القشة!.. اجيبه رافعا كأسه في صحته.

تَرجلّ تاج السر وزميله من السيارة.. سارا في ممشى الحديقة ورائي..
اقتربنا من مدخليّ الدار.. استوقفني تاج السر ممسكا بذراعي برفق قبل
ان ادخل:

- خيرني يا صاحبي اي الغرفتين، وعبر اي المدخلين كان الكبير يدخل
ليجلس معظم الوقت؟

سأل تاج السر وهو يقف في فارندا الدار بين بوابتي غرفة الجلوس
وصالة الاستقبال.

- عبر هذا الباب حيث كَنَبته الفردية، هنا! في صالة الضيوف.
واشرت الى بابها.

- اي ان دخول الزائر له يكون عبر هذا الباب العتيق الحائل اللون؟
هزرت رأسي بالايجاب
تقدمنا الى الباب المُترب..

وقف تاج السر امام الباب خاشعا بصمت، حتى اننا وقفنا ورائه دون
حرك، وقد اخذتنا لحظة خشوعه الصامت المتأمل تلك..
اقترب من الباب اكثر.. تلمّس إطاره الغليظ.. مشى بكفه برفق على
حواشيه ..

.. مسح أجزاء الدرفتين المقفلتين..

.. اقترب اكثر ووسّد خده الايمن على اوسط احداها باسطاً ذراعيه على
وسعيهما ليمسكا بالاطار الجانبي للباب..

كان تاج السر في تلك الصورة مصلوباً على الباب..
.. اخذتني هزة وقشعريرة ..

بقيّ فوق صليبه فترة غير قصيرة.

.. غامت عيناى بالدمع الفياض..

تحرك ليُبدل وجنته اليمنى بيسراها فوق اللوح الخشبي..

.. بقي مصلوبا على الباب فترة اخرى..

.. إبتعد بعد حين عن الباب ووقف مطأطأ الرأس امامه وكأنه، يتمتم في

سره ادعية وآيات..
.. بقي منتظراً لحظات.
أيقنت أن قد حان وقت فتح الباب ..
.. بدا جزء من الصالة نصف المعتمة امامنا..
- تفضل! قلتها وانتظرت
- اشكر ك، ولكن ارجوك، أشرُ على المكان الذي كان يعتاد الجلوس فيه!

أشرتُ الى الكنبه الاحادية التي تواجه الباب.
.. نزع حذائي ووضعتها جانبا خارج عتبة الصالة .
دخل فدلنا خلفه.. وقف بصمت.. وقفنا بصمت خلفه..
.. امسك بمسندي الكنبه الخشبيين، قبلَ الاول واتبعه بتقبيل المسند الاخر برقة..

أشرت عليه بالجلوس على الكنبه ذاتها.. هز راسه بصمت رافضا.
.. اشار اليّ بلطف للجلوس في ذلك المكان ذاته.
- تحملُ انت معالم منه، اريد ان اتخيله فيك، هل تلبى لي هذا الطلب؟!!

اثناء استماعنا بعض الاشرطة الصوتية للمهدي، مع الفودكا، وبتلك الاقداح الصغيرة ذاتها التي كان المهدي يستعملها ويقدمها بيده لضيوفه، كانت عينا تاج السر تزوج لتهوّم في ارجاء المكان..
.. تاج السر يسترجع صدى صوت الشاعر المهدي الكبير الحي في الغرفة.

.. حين خرج تاج السر ونحن من خلفه، مارس الطقوس ذاتها من داخل الباب هذه المرة..

.. ذرع الحديقة جيئة وذهابا مرات عديدة، ذكرتني حركته تلك، بوالدي وهو يذرع الحديقة بخطواته الوسيعة على عجل في حركة مكوكية، حين يشغل باله شيء يقلقه.

قبل ركوبنا السيارة، وحال خروجنا من بوابة الحديقة، طلب مني تاج
السر ان اقف برهة.
.. نزل من السيارة وأخذ يتأمل الدار، ومدخل غرفة الضيوف، ثم صعد
وجلس بجواري ومال عليّ أخذاً رأسي بين يديه وقبّله..
- اشكرك ايها الحبيب!.. الآن فقط ايقنت انني قد زرت بغداد.. لقد زرت
بفضلك اقدس ما فيها.

يبدو ان الحمد قد وقع اخيرا، صريع الارق والمطاردة المضنية، في
غفوة عند مطلع الصباح.

اخذ حمد جرعة من كأس البيرة التي طلبها له المهدي صامتا، وهو
يتابع سهوم صاحبه وسرحانه في ذكريات الماضي البعيد.

استعاد حمد كذلك لقطات سريعة منها، وهو يسرح ببصره عبر
الغيمات الكثيفة التي عتمت اجواء المقهى، فانيرت اثرها ثرياتها
الكرستلية المعلقة ومصابيح فوانيسها فوق الموائد.

_ من زمن وأنا أبعد عنك يا خلي المهدي، اشبahi وهمومي
ومعاناتي.. قال حمد.

_ ما الخبر يا حمد؟.. خير انشاء الله!؟

_ معاناة الليالي.. هنالك من يقضُ علي مضجعي.. لا نوم! وانت اعرف
بالأرق اللعين.

..لقد تغزلت انت ورحبت به، وكأنك بذلك تسترحمه، في مناجاته
بابيات ساحرة، ليفكّ عنك مخالفه وانياه.

.. لن تخذعني يا صاحبي انا كما تحاول خداعه او تستهوي قارئك.. انا
الذي رأى!.. انا الذي لا يخفى عليّ تفرح اجفانك، وظلمات الذكريات
التي تتعقبك مع ليلك المسهد.. نعم يا رفيقي الابدي.. أنا المسحوق مثلك
بسنابك خيوله السوداء..

_ حمد ارجوك لا تبالغ، فلي معايشة مع الأرق ومناورات لا
تنتهي.. عليك ب(الروهيبنول)يا صاحبي، تلك التي استعين بها.. حبة
قدسية منها او حبتان قد تجد فيهما فاصل استراحة لما تعاني.

_ وكانى لم اسمع حديث الدكتور صفاء ولدنا.. حبيبنا، وهو يطلعك قبل
قراية العشرين سنة عن محاذيرها ومضاعفات ادمانها فتجيبه: " لقد
اخبرني المقربون انها ليست كغيرها من المنومات لا ضرر ابادا منها..
يزول اثرها حال انتهاء مفعولها الهاديء المريح".

.. كنت تجيبه مؤكداً له ذلك باصرار، وهو يعيد تحذيره من جديد: "
إن تعاطي اية حبوب منومة لفترة طويلة لها عواقب سيئة".

_ ما عليك بما يقول الاطباء وغيرهم.. عليك بما تفعله لمحاربة الارق
وافكاره.

_ كنت اتناولها مثلك منذ ان بدأت انت بتعاطيها.. الآن اقلل من تناولها
لشحتها.. فقد مُنعت من الصيدليات وأعطيت تحذيرات صحية من
تناولها.

_ اتناولها! كل ليلة!.. لكن هنالك من يطاردي حال إخلادي الى
النوم..كنت اخبرك خلال جلساتنا السابقة، عن (نذل) يلاحقني.

.. (النذل) الذي يختار وقت استراحتي ورقادي. أنا مطاردي يا المهدي،
النذل يطاردي.

_ كلانا مطاردي يا حمد.. كلانا حمل اسماله واسمال من معه، ولاحقته
سياط الغربة اينما حل وفي اية بقعة من هذا العالم الضيق (الكبير)..

هل اعدد لك اسماءاً كانت واجهةً للتعقب والهروب والمنافي.

.. لم تكن الاسماء وحدها هي السبب، كانت هي واجهة الاضطهاد
والاحقاد.

.. لن اکتفي بذكرهم وانت ادرى بما تعرضتُ له واصبتُ به، كانت
عواقبه عليك مثلما هي عليّ، ذرةً بذرة!!

.. نوري السعيد!.. عبد الكريم!.. عبد السلام!.. ومُطارِدك ومطارِدِي
الآن المافِيوي الرهيب صدام وخدمه في الداخل والخارج.. الاصح
كلايه المسعورة.

أنت تعلم بثهنئة ثمانينيتنا، التهاني باقذر الشتائم التي قذفتها فوهات
مستودعات مجاريه.. حركها فانتشر عطنها وريحها الفاسدة، لتعبر
القارة وتصل آثارها الزنخة الينا..

_ كان استنكارك لها الذي يثير ضمائر النائمين.. او الاصح المتناومين،
ممن بقي من اصحابنا في الوطن والذين لم يرفعوا صوتا للرد عليها..
لقد اشترى ذمم الناس هناك.. اوربما خنقها خوفها..

وسواءً، استجابت ضمائرهم لصوتك أم لم تستجب فقد كانت الشتائم
محرَكاً لرأعة جديدة منك و " حَسْبُ الثمانينَ من فخرٍ ومن جَدَلٍ.. " ثم
تلك الاخرى التي تشبّه فيها ذلك (العبد..) الذي نهشك.. اي (عبد
صدام)!!، او تشبيهك له بـ(عبدة الجبورية).

.. كنا تحدثنا حينها، كيف ينسب العجر، (الكاولية) انفسهم الى عشائر
معروفة، حماية لانفسهم وكثر منهم نَسبوا انفسهم الى الجبور، فتسموا
بالجبورين زوراً:

" جبوريُّها كانتْ غِطاءَ السلبِ والجلبِ "

" ابوكِ أبو النقيراتِ يُرَقِّصُ ليلةَ الطربِ "

..وبينه وبينهم وخلفهم وامامهم، يا المهدي! اسماء كثيرة، وملابسات
قطعناها سوياً.

ويكفيك انطلاقتك اثرها برائعتك:

حَسْبُ الثَّمَانِينَ مِنْ فَخْرٍ وَمِنْ جَذَلٍ
غَشِيَانَهَا بَجَنَانٍ يَافِعٍ خَضَلٍ
طَلَّقَ كَمَا انبَلَجَ الإِصْبَاحُ عَنْ سَحَرٍ
نَدِيٍّ وَزَهْرِ الرُّبِيِّ عَنْ عَارِضٍ هَاطِلٍ
يَا لِلثَّمَانِينَ مَا كَلَّتُ مَطَاوِحَهَا
لَكِنْ يَعَاوِدُهَا خَوْفٌ مِنَ الْمَلَلِ
وَإِنَّتِ يَا ابْنَ الثَّمَانِينَ اسْتَرَحْتِ بِهَا
كَمَا تَطَّنْتِ مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ عَذَلٍ
جَاءَتْ تَحْيِيكَ فِي أَعْيَادِهَا قِدْعٌ
نَكَرَاءٌ لَقَنَّهَا السَّادَاتُ لِلْخَوْلِ
يَا ابْنَ الثَّمَانِينَ صَبِرًا أَنْتِ صَاحِبُهُ
فِي مَا تَضَيِّقُ بِهِ أَضْلَاحُ مُحْتَمِلِ
صَبِرًا عَلَى قَلْدَاتِ الْحُرِّ دَامِيَةً
تُهْدِي إِلَى كَفِّ حَشَائِشِ إِلَى نَعْلِ
كَمْ هَزَّ دَوْحَكَ مِنْ قَزَمٍ يَطَاوِلُهُ
فَلَمْ يَبْلُغْ وَلَمْ تَقْصُرْ وَلَمْ يَطَّلِ
وَدَعِ ضَمِيرَكَ يَحْذِرُ مِنْ بَرَاءَتِهِ

ففي البراءاتِ مَدْعَاةٌ الى الزلزلِ
لا تَنَسَ انكَ من أَشلاءِ مجتمَعِ
يَدِينُ بالحقِّ والثاراتِ والدجلِ
حربٌ على كلِّ موهوبٍ وموهبةِ
لديه مُسرِجة الأضواءِ والشُعْلِ
لو استطاعَ لغطى الشمسَ عن حَنَقِ
وسامَ رَأَدِ الضُّحى ذُلًّا من الطِّفْلِ
وموكبٌ موحشٌ الأرجاءِ مُصجِرها
يَمشى الحفاةُ به في طِلِّ مُنتعلِ
كنتَ الغريبَ به لا أنتَ تألفُهُ
فتسريحٌ ولا عنه بمنعزلِ
وما تزالُ على رثِّ الجبالِ بهِ
تلقى الحياةَ بحبلٍ منه مُتصلِ
أقولُ للجدنِ ما حالتُ مودتُهُ
فظنَّ أنَ عهودَ الناسِ لم تَحُلِ
خُرسٍ وإن خرقوا الاسماعِ في هَذرِ
يُغفي النفوسَ وفي مرصوفةِ الجُمَلِ

وعن كُروش زعاماتٍ كأن بها
من فرطٍ ما اعتلفتُ فرطاً من الحَبْلِ
يستأسدون إذا مُدَّ العنان لهم
فإن يُشَدَّ تَرَدوا بِرَّةَ الحَمَلِ
حتى إذا مَسني ضُرٌّ وأسلمني
غَدُرُ الجبانِ لجرحٍ غيرِ مندملِ
وكنت أن ألتقي وغداً يجشمني
عار النزالِ بلا حولٍ ولا قِبَلِ
مروا لئاماً على الظامي وغلتهِ
وعندهم كل ما يشفي من الغلِ
وغادروه بموماةٍ كأنهمُ
ليسوا ذوي ناقةٍ منه ولا جملِ
ترنم بها الحمد..

يكفي أن هؤلاء اللئام يا خلي المهدي، كلاب القائد المسعورة، او ذلك
الخدن الاخرس الذي ذكرته، وكروش الزعامات، بمجلته (التقدمية)،
قد الهبوا فيك جذوة هذه الرائعة.. دع رَجَم قذعهم من جديد وجديد يفتح
ابواب قريحتك!!

_ ولكن ما الحل مع "النذل" ومطرقته؟!، وزعيم المافيا اشدهم
ضراوة في الملاحقة؟!... الشتائم قد تثير القريحة.. لكن مطرقة النذل
تفلق الرؤوس!

..الحل يا مهدي جد لنا مخرجا!.. ناشد حمد صاحبه يائسا وتابع حديثه:

..إن النذل يطرق السقوف من فوق في الليالي فيحرمني من الرقاد،
ومع الارق تأتي الذكريات برياياتها السود، فتخنق الليل وضياء الفجر.
.. يهدني التعب فاسقط قتيل السهاد المفزع عند الفجر.

.. لم يكتف بليلالي، اخذ يطرق السقوف عليّ في غرف البيت كلها،
اوقات استراحتي في المساء..انه يخشى الاماكن العامة، فترانا في
امان موقت هنا الآن.

.. لا اعرف كيف يتسلل الى شقة الجيران فوقنا، ليأخذ بالطرق
المستمر، الذي يشقق رأسي فلا اجد مهرباً منه.

.. كيف لا يروه وهو يدق بمطرقته فوق ارض شقتهم؟! بل لعلمهم وقد
ارتشوا من اتباع زعيم مافيتنا، الكثر هنا وفي كل مكان، الذين بيثهم
لتعقب اعدائه... عملائه موجودون، بما يغدقه عليهم من اقوات الجياح،
هم في لندن وباريس وامريكا واستراليا، وحتى هنا.

.. نعم هنا!.. لا تمسهم السلطات الجيكية، التي تريد ان تغنم بعضا من
عطاياها، تتركهم احراراً سائبين كالكلاب في تعقبي وتعقبك، وكأنها لا
تراهم.. او لا تريد ان تراهم.

_ والحل يا حمد؟!.. انا الذي يسألك الآن.

_ لقد رفعتُ شكواي الى السلطات المعنية.. حتى وصلتُ الى اعلاها،
فارسلوا اناساً، شرطة سرية على ما اعتقد، وصعدوا الى الشقة التي
فوقي..

.. عادوا ليخبروني انهم لم يجدوا احداً قريباً يؤونه، او يتسترون على
ابوائه، ظاهراً كانوا على علاقة طيبة معي حين الاقيهم احياناً..
والمظاهر قد تخدع.

.. لم يتبدل الحال يا عزيزي عليّ، واستمر النذل يطرق كعادته من
جديد.

.. قدمت طلباً قبل يومين لإبدال سكني ومنطقته، وانا بانتظار استجابتهم
لطلبي.

الخدمة المتبادلة

كنت امام فوانيس الرقوق الشعاعية اجيل النظر في حل بلاسم ظلال
وخطوط اعماق صدر مريض يرقد في احدى ردهات مستشفى الكندي
الكئيبة وعلى الطاولة المعدنية الصدئة ترقد عشرات الرزم لرقوق
مرضى آخرين تنتظر دورها لتعلق على صناديق الفحص المضيئة.
كانت هذه المستشفى وجحر فئرانها، مكان عملي هناك، والذي أسعد
بانزوائه، هو (المَطَهَر) من جحيم عصام الراوي ومحرقته... محرقة
الطب الذري او مجازا (معهد).
...لم يكن عبوري الى ذلك الشاطيء الآمن دون قارب...

- تلفون!! دكتور.
بالطبع لا حاجة لسؤال مُعين قسم الاشعة عن مكان الهاتف، فهو على
طاولة مسؤول امنها الفخمة.
- ومن على الخط؟
- رئيس تحرير جريدة الثورة... حميد سعيد.
حين قدمت الى غرفة امن الاشعة، وهو رئيس مصوريها ايضا، اخلى
لي مكانه وراء طاولته الفارهة لا احتراما لي فحسب، ولكن للذي
يطلبني وراء الخط.
- صباح الخير دكتور... كيف حال ابي عامرة؟
- اهلا بابي بادية... صباح الخير. كيف انت؟
- لدي عندك طلب ارجو تلبيته... لا اريد تذكيرك! ولكنها خدمة بخدمة
يا صفاء!
عجا ما هي هذه (الخدمة) التي يطلبها حميد سعيد، رئيس تحرير
جريدة السلطة - الثورة -، منصة العبور الوسيعة للوزارات.

- لن انسى تلك الخدمة والاصح يا ابا بادية لن انسى ذلك الفضل ما
حييت...قل! ولك ما باستطاعتي.

- التلفون ليس هو المكان المناسب لهذا الطلب...ما رايك بفنجان قهوة
في مكنتي بالجريدة...هل الساعة الرابعة وقت مناسب قبل ذهابك الى
عيادتك؟

- مناسب...سأكون عندك في الرابعة.

"...كيف انسى يا ابا بادية تلك الخدمة، لقد كنتَ انت قارب النجاة لي
في العبور من جحيم عصام ومحرقتة الرهيبة... محرقة الطب الذري.
(لجحيم عصام الراوي في قصر النهاية ومحرقة الطب الذري وللعبور
منه الى المطهر كتاب آخر).."

كانت معرفتي بحميد سعيد ترجع الى عام سبعة وستين.
...كنا نحن جماعة (فنون)، صحيفتنا الاسبوعية التي ولدت وامتد
عمرها لعددتين اثنتين، وخنقت وماتت في مخاض عددها الثالث، في
زاوية احدى المطابع المسكينة في احد فروع شارع المتنبى بعد ان
شرب الشاعر الحصري مسؤول حسابات الصحيفة رحمه الله، شرب
هناك وحتى الغيبوبة اجور طباعة العدد المُحتَضِر .
كان مقر الجريدة مقهى الزهاوي، نندارس فيه شؤون الصحيفة
ومراجعة محتويات العدد المهيب للنشر.

مجموعة فنون هذه، او ما يحب ان يسميه ماهود، ب(تجمّع الانسان)،
تضم حسب الشيخ جعفر وماهود احمد وانا وعبد الامير الحصري
وممّول العدد الاول وراعيه، السخي بكل ما ملكت ايمانه وايساره
وجيوبه، مؤيد البصام، والذي كنا ولازلنا نعترف تكفيرا، اننا تناهينا،
دون رحمة، مكتبته الادبية العامرة، والمشرعة ابوابها امامنا .
عند تأخر او غياب حسب، كنت اقوم بتفقدته في تلك الغرفة البائسة من
احد الازقة خلف جامع الحيدر خانة، والتي يعطّر جدرانها البول، واكثر
زواياها عطرا ما كان تحت شعار ازقة بغداد الاكثر شهرة:
(هنا... البول للحمير) .

في تلك الغرفة الرطبة نصف المظلمة والتي لا تجد فيها الا سريرين
حديدين (عصمّيين) وأغطية نصف ممزقة ومتسخة، وبضعة أوان لم
يصل دورها في الغسيل بعد، واقداح شاي فارغة، وحقائب مفتوحة
لملابس تتردى على عجل، واكداسا من الكتب!!... مجاميع منها تحتل
العديد من زوايا ارضية الغرفة العارية وفسحة ما تحت السريرين..
هناك سترة بدلة حسب السوداء المعلقة - بأناة - بمسمار فوق جدار
الحائط المتهري والذي تُحوّل الصحيفة التي ثبتها حسب عليه، من
وصول رطوبته واتربته الى نصف البدلة اليتيمة العزيزة تلك، اما
النصف الثاني منها، اي البنطال فهو دائما، ونتيجة لخبرة سنين طويلة

خلت في موسكو، فهو يستقر تحت (متراس) السرير كحدث، وسيلة
عصرية مجانية للكي .

في احدى تلك الزيارات، كان هناك شريك الغرفة الثاني، شاب وسيم
الوجه تكسوه حمرة خجل دائم – (في تلك الازمنة السحيقة) –، يجلس
مطرقاً بحزن وذهول واستغراب على حافة السرير الحديدي الثاني...
صامت صمت سليمان في اغلب الاوقات ... لم يكن ذلك الشخص
المطرق، الخجول، المستغرب، الصموت إلا حميد سعيد.
..متخفياً كان.. او شبه ذلك، عن انظار السلطة بين عتمات ذلك الزقاق
الهرم من حارات بغداد.

مع تكرار زياراتي لحسب، والتي كانت تصخب باحاديث مرحة
ومشاريع وذكريات عن رفقة حميمة في موسكو ومغامرات صيد
غرامية، كان اغلبها يُمنى بالفشل الذريع والمُكلف، وعن مجاعات
مؤقتة، تصحبها هجومات مفاجئة على ما يخفيه احدنا، من شاي وسكر
وزيت، في دواليبنا عن انظار الاخر، وصدقات اشخاص اسطوريين
كانت لنا بهم علاقات فوضوية.. ولا اكثر اسطورية وفوضوية من
الشاعر السوداني المبدع الراحل الجيلي عبد الرحمن، ولا ارق واشفت
من الشاعر المرهف (تاج السر الحسن)، ناهيك عن ملك العجر دون
منازع – آنذاك – الفنان بالفطرة من اخصص قدميه لأنفه الأعقف
الطويل، ماهود احمد ناهيك عن مُنظر المجموعة -الماركسي - الفنان
احمد النعمان (يتأبط النعمان دائماً كتاباً ماركسياً.. على أن يظهر
عنوانه!).

- هل تذكر يا حسب حين نصبناك انا والجيلي وماهود وأحمد في مقهى
الشباب بموسكو اميراً لشعراء الهور والجاموس والقصب؟!
.. وحين رسمناك عارياً، ممسكاً بشموخ، صولجان القصب الفاره،
وعلى رأسك تاجك المجدول من البردي والحلفاء؟!

لم تتبدل اطراقة حميد ولا ذهوله الحزين ولا صمته في ذلك الصخب
المرح من الذكريات الا في لحظات قليلة معدودة وبعد ان يستدرجه
رفيق غرفته الى ذلك باصرار مرن .

..وأنفذت مؤامرة انقلاب جديدة، واتوا بعد مجزرتهم عام ٦٣ ببراقع
خادعة وتشكالت جبهة (الْحُلِّيِّ)، كما كان يسميها ممازحا اصدقائه من
قادة الشيوعيين واليساريين، في اشارة الى بيت شعر خليع قديم يؤرخ
ميلاد ابنة احد المعتمين الخُليين من اصدقائه، والتي اسمها الشيخ
(جبهة)...

"وانتضى القوم ايورهم حين أرخت (جبهة) الحلي ، أرخ!!
زنازها "

دعت (جبهة الخُلي) المهدي للعودة، ودعمنا انا ومليكة هذه العودة في
نداء تلفوني حار الى مكان اقامته في براغ.

...عاد المهدي، ونزل وام سالم ونور في الدار التي استأجرتها لهم في
(داوودي المنصور) وهو من الاحياء الجميلة في بغداد.

عاد ولم " يُرح اخو الطير ركابه "، وما نفعت مناقدته لنفسه لا حدواً
غنائيا ولا انتقاء " لعاصفة طوى لها النسر كشحيه فلم يطر " .

كان تردد حميد من داره القريبة الى دارنا غير قليل، ولا موعد محدد لذلك التردد وكثيرا ما يكون في الاماسي، حين يفيق المهدي من قيلولته ليجلس في صالة الضيوف وحيدا في اغلب الاوقات إن لم يزره انبل واصدق صحبه، ابو نوال، مهدي المخزومي، طيب الله ثراه، فلم يكن قد بدء الترحيب الرسمي الصاخب بالمهدي بعد، ولم يحن بعد تذكر محبيه الكثر، من انه متواجد على مبعده اشبار من بيوتاتهم .

كانت زيارات حميد تتسم بالادب والاحترام الجم، وتقابل دائما من الوالد بمسحة عطف ابوي.

...كنت ارافق المهدي في المرات القليلة التي ردّ بها بعضا من هذه الزيارات.

وهنا اكتشفت حميدا آخر...حميدا كثير الابتسام، كثير التحاور، كثير الثقة، كثير النشاط والحركة.

وتكرر لقائي بحميد في ظروف عديدة كان معظمها مع المهدي ...باحتيال به... او حول موضوع يخصه، والأخر عن كلمة اطلب من حميد نشرها دفاعا عنه حين يُستفرد وبجبين، بالشاعر المغترب ابداء، بمقولة او مقالة سب رخيصة .

.. يُستفرد به ودوما تحت حماية سلطوية وايا كان موقع وزمان تلك السلطة.

.. هجوم هؤلاء(الغياري) يهوّش به دائما عن بعد آمن.. حين يكون المهدي غائبا عن البلد !

" ما الذي يريده حميد؟!...ما هي (الخدمة) التي يقدمها مستضعف مثلي يؤدي واجباته لحد الاعياء، في زاوية الجردان تلك من مستشفى عتيق نصف مهمل؟!...واية خدمة تستعصي على من يشير، حتى ولو من على مبعده، باصبعه فيستجاب؟!...وما هو الموضوع الذي لا يكفي الحديث التلفوني لتبينانه ولا حتى الاشارة اليه؟!...لا اعتقد ان نباهته

تخونه في ان يكرر ما عجز عنه الاخرون في الإقناع والاستمالة، وبالتهديد المبطن او حتى العلني احيانا، عند فشل الاسلوبين الاولين؟! ...حقا سيكون موقفا استغلاليا بشعا لقاء (خدمة) اتسمت بالتفهم وحب المساعدة لاجرا ح صديق قديم من محنته... لا لا اعتقد ذلك... على كل سنرى ما تخبئه الساعة القادمة ".
...ساعتي تشير الى الثالثة.

قي الساعة الرابعة كنت قد وصلت الى ابنية جريدة الثورة... الحرص على المواعيد عادة تأصلت منذ مطالع الشباب، ولكن لم يكن الحرص على المواعيد وحده هو الذي كان دافعي في ذلك هذه المرة... الفضول والقلق هو سيد الدوافع ذلك المساء..
" ما هي (الخدمة) التي يريد لها رأس هذه الوزارة الهامة في السلطة: جريدة الثورة... ولكن اليس هو الصديق ذاته الذي تودّه!... ما هذه الخشية اللا مبررة!... الم يخلصك من عذابات ذلك السادي عصام الراوي مدير محرقة تعذيبه الرهيبة، (معهد الهولوكوست للطب الذري)؟!... خدمة ب خدمة

.. اذا فهي مشروطة!!... ولكنه لم يضع شرطاً حين نفذ ما كان يخشى تنفيذ وزير الصحة آنذاك... حين وصف الوزير المذكور بالـ " خوّاف "، ورفع سماعة التلفون ليتصل بوكيل الوزير، صديق حميد الحميم ويطلب منه بحرارة ان يوقع امر النقل الذي يتحاشى الوزير توقيعه خشية انتقام أمر معسكر (بوخين نفالت) الذري عصام الراوي.."
ووقع الطلب وانتقلت الى زاوية الفران الأمانة في مستشفى الكندي، ولم تمض الا اشهر معدودة ويُرْمى بالوكيل خارج الوزارة، ليعين طبيبا في مستوصف بائس في مدينة نائية... الشرقاط، منفى كبار القادة حين تحل بهم لعنة الحزب فيقبعون سعداء، اذ انهم يدركون ان

المسافة بين قرار الحكم بالنفي الى هذه المدينة او حبل المشنقة او طلاقات
ساحة (التدريبات) إن هو الا شعرة القدر ."

" ها قد اجتزت الآن الساحة المؤدية الى الباب الرئيسي. " ..تصاعد
الوجيب في صدري.

"... السبعينات...مهرجان المربد في البصرة...وليمة للمهدي في داري.. انت ياحميد معهم بالطبع وسعدي يوسف ومحمد الفيتوري وعبد الرزاق عبد الواحد وعلي الحلي، وحشد آخر من الابداء الشباب.. تقع انت يا حميد في غرام لوحة (البادية) وتطلبها بوجه محمّر شوقا وخمرا...اعدك بها، حالما اقضي وطري منها، فهي جاريتي الحلوة الجديدة على (حرمي وحريمي من لوحاتي)..."

" لكنك انت الآن ياحميد مسؤول كبير.. رأس في الزعامات!! لست ذاك الخجول الصموت الذي عرفته في معية (حسب)، في تلك الغرفة البسيطة المنزوية في احد ازقة (الحيدرخانة) العطنة...انت على شاطيء آخر بعده قد تناءى عني .

.. ما هي (الخدمة!!) يا ترى؟!..."

" قل لي مثلا: " تعال على كوب شاي على رواق مثلا بدلاً من رجاءي لـ (خدمة!!) كنت بذلك ستخلصني من عذاب جحيم القلق هذا! "

"...وفي مربد آخر...المهدي ولميعة عباس عمارة وعبد الرزاق عبد الواحد وعلي الحلي.. ومجموعة بين جالس وواقف يرقبون المهدي وهويمازح لميعة بغزله... او يغازلها بمزاحه...

لميعة ترد مزامحاته الغزلية فتذوب غنجا .

- " يا ابن السبعين!! ما راح إتوب!! "

- "وراك وراك يا اجمل (ام اربعة واربعين)".

يضحك الجمع ويتكاثر الحشد حول المهدي ولميعة... ارقبك من مكاني من مجموعة الشباب الواقفين..."

تجلس انت والبياتي منفردين ضجرين غير بعيد عن الحشد.

- مرحبا ابا علي، مرحبا ابا بادية...هيا بنا!

- الى اين يا صفاء?...يتسائل البياتي.

- جولة في خمارات البصرة وازقتها بعيدا عن اجواء العشاء الرسمية
في فندق (شط العرب)

...ينظر البياتي الى حميد مبتسما ومنتظرا استجابته للدعوة.
وكانت جلسة في خمارة مكتضة من الدرجة الثالثة على كورنيش شط
العرب يمتزج فيها غناء السكارى برائحة العرق المستكي، بقطع
متكسرة من صوت ام كلثوم آتية من مذياع الخمارة، بنداءات عالية
تطلب المزيد من ارباع وانصاص البطحات وقناني البيرة، الى الندل
بمرايلهم المتسخة وصحونهم واقداحهم الدائرة فوق رؤوس الزبائن
الذين يشكلون بتجمعاتهم حول موائدهم جزرا مستقلة ذات عوالم
متنوعة في ذلك البحر الصاخب الملفوف بضباب كثيف من دخان
السجائر. البياتي يتألم مع العوالم هذه اسرع من حميد...يساعد في ذلك
العرق المستكي،الذي تتخرق الاعراف العريقة لهذا المكان إن طلبت
شيئا غيره.

سرعان ما سرى الدفء والحياة في جزيرتنا الصغيرة فاعلنت
استقلالها سريعا ووضحت كيانا جديدا اضافيا في عوالم الخمارة
المتنوع."

..اجتزت الاستعلامات...اسمي مدون لديهم . هو في الانتظار .
"- لم يبق عشاء في الكازينو!!...الساعة الآن تقارب الواحدة. يجيب
النادل. كان المفروض ان تطلبوا عشاءكم قبل ساعتين على الاقل.
- احسن!! كان جوابي.

في زقاق صغير نصف مظلم، خلف ملهى في شارع الوطني، كنا نجلس
على صفائح فارغة قرب بائع (التكة) والاكباد المشوية (الفشافيش)
نأكل بلذة السكارى ما يعدّه ويقدمه لنا اسياخا بعد اسياخ... تلاها ابريق
شاي (مخصوص لضيوف البصرة) أعدّه البائع.

- هل تعرف ان معرفتي بصفاء تعود الى دمشق عام ستة وخمسين...،
ثم موسكو فالقاهرة بعدها. اني احبه اكثر من ابيه. قال البياتي
- ولكن أما ترى يا ابا علي ان من الصعب ان تحب جزءا من كل،
والكل هو " من ابيه! ". .. المهدي لاغيره! .

- قد تعجبني بوابة عتيقة أثرية في عمارة كاملة.
- اوافقك تماما، المهدي عمارة ضخمة فيها الكثير من التفاصيل الجميلة
. بوابتك الاثرية تلك التي تحب، جزء سهل الرصد لكل عابر. تمعن!
أرصد! إدرس كما يدرس المعماري لا المشاهد المستطرق، دُر حول
هذه العمارة... ادخلها تمعن في بنائها، اركانها، زواياها الخفية، ريازتها
قد تجد اجزاء كثيرة غير الباب الاثري العتيق... هذا شرط ان تتوفر
الرغبة لمثل هذه المشاهدة المتعمقة. .. مع ذلك أشكرك يا ابا علي على
هذه المحبة، رغم اني لست بابا عتيقا .
..حميد صامت... "

..أصعدُ السلاالم المرمرية العريضة المؤدية الى الدور الثاني

"...كان لقاءي الاخير به وديًا قبل ما يقرب العام، وفي نفس هذا المكتب الذي اتوجه اليه الآن.

.. كنت احمل (البادية)، اللوحة التي أغرم بها حميد من اول نظرة، والتي ورغم اني لم " اقض وطري منها " بعد، غير انها محظية موعودة لحميد منذ زمن، وقد حان آنذاك اوان ايفاء ذلك الوعد، ..خصوصا وان ايفاء الوعد متزامن بطلب ."

.. كنت اعرف انك يا حميد وراء مقال غالي شكري المسموم عن احتفاء المغرب بالمهدي...قصدتك لنشر رد كتبتة على هذا المقال تمشيا مع (حرية النشر)، فانا اعرف مُرافق المهدي هذا في السبعينات قبل خمسة عشر عاما، ذلك الذي كان يدور حوله موسوساً، اثناء حضوره حفل التابين لمورسنة على رحيل جمال عبد الناصر، واعرف تماما من الذي وراء الزَج بتلك الرفقة الاجبارية.. لم تكن إلا رفقة مخابراتية مرسومة.

(مثلما كانت له (رفقة مخابراتية)، في منتصف السبعينات وفي بلده، دسها له (ناقد) طَبَّل له الاعلام كثيرا..)

.. كنت شاهداً ومشاركاً للكثير من حواراتها، فقد حضرت الى القاهرة على عجل لافشال مؤامرة غالي ومن وراءه على المهدي... ونجحت في مسعاي.

اعتذرت يا حميد نشر الرد – المهدي كان بعيدا كالعادة حين يهاجم – وكنت اتوقع منك ذلك، وكانت حجتك انه ليس من الصحيح توسيع هذا الموضوع... ووضعت صفحات الرد في احد ادراج مكتبك.

"انا الآن في فسحة الدور الثاني وارى القطعة النحاسية الانيقة (رئيس التحرير)...اتمهل قليلا قبل دخولي الى بيت الاحاجي ...

.. " اي خدمة يريدھا رئيس الثورة؟!!! الصحيفة - المنصّة..موقع
العبور لوزارات المافيا الحاكمة "

الغرفة الفارحة بنوافذها الواسعة العارية عن الستائر والتي يغمر النور
كل زاوية منها، لا تزال هي هي مثل ما كانت قبل عام، بعيدة عن
الشبه بغرف الوزراء والمدراء العاميين ورؤساء المراكز المهمة، تلك
الغرف المصمتة المعزولة عن كل ما يمتُّ الى مظاهر العالم المحيط
بها وانفاسه.

لا يزال اثاثها بسيطا جدا، مع وفرٍ من اجهزة تلقي المعلومات وآخر
الانباء، واجهزة الفاكس والطابعات...يمكنك ان تستشف نساء قليلة من
عطور الحبر والورق المنبعثة من فوضى القصاصات والصحف
ولفائف الاوراق في مشروع طباعتها الاولية، المنثورة دون تنسيق
فوق المكتب الواسع الذي يجلس وراءه حميد وفوق بعض المقاعد
وطاولات الاجهزة.

...تهذا اعصابي المتوترة قليلا.

- اهلا... اهلا صفاء ينهض حميد من وراء مكتبه ويغادره متقدما
للترحيب بي

- اهلا بك ابا بادية.

- بئيرني! كيف هي اوضاعك في مستشفىك الجديدة؟!... هل انت مرتاح
فيها الآن

-تكفيني نعمة الخلاص من الهولوكوست ومديرها عصام الراوي..
والفضل لك.

..يرن جرس احد الهواتف العديدة المنثورة فوق المكتب، ويعود حميد
الى مكانه خلفه...يختصر المكالمة.

..ينهبها رافعا سماعة تلفون آخر:

- لا اريد اتصالات هاتفية اخرى...قدر المستطاع " يبدو انه يخاطب سكرتيرة مكتبه..ها قد اتينا على الجد فيما يبدو...رحمتك يا إلهي!"
- ما الذي تشربه؟
- شكرا لقد تناولت شاي المساء قبل قدومي اليك.
- يسرح حميد للحظة ثم يبدأ بالبحث في ادراج مكتبه...يخرج كتابا انيقا، (طفولة ماء).. يكتب اهداءً عليه..:
- مجموعتي الشعرية الجديدة!!
- شكرا! اقولها مبتسما وانا اقرء اهداءه.
- كيف حال الوالد؟
- بخير والحمد لله على اتصال تلفوني دائم به..لم اتصل به خلال شهر تقريبا"
- هل سيلبي دعوتنا...دعوة اتحاد الادباء لحضور مؤتمر الادباء العرب الذي سينعقد في الشهر القادم هنا في بغداد.
- لا اعتقد ذلك...اتصور انكم استلمتم برقيته الجوابية على دعوتكم..."
- لاتسمح صحتي بذلك!"
- نعم استلمناها...
- وضع كوعيه على المكتب واسند وجهه، الممدود تجاهي، على راحتيه.
- وهنا اريد يا صفاء مساعدتك بهذا الامر. قال ذلك ناثرا ابتسامته الواسعة علي.
- هل كان هذا ما قصدت بكلمة (خدمة) هذا الصباح في نداءك التلفوني الي؟
- نعم واكبر خدمة!!... ألم اخلصك من ما اسميته ب الهولوكوست...اريد وساطتك لدى المهدي، وانا عرف قيمتها لديه...وساطتك انت لا غيرك!!
- ".. اعرف من هو المقصود بكلمة (غيرك).. فرافد هنا، بل ومعهم في الملعب. " .. اعتبرها لطف صديق لصديق يا صفاء!!

استمر في ابتسامته العريضة وتحديقه عينيه المتسائلتين في رجاء.
"مهمة عسيرة! اعرف كافة تفاصيل الملابس المحيطة
بالدعوة.. يتصورني وفي الغالب، جاهلاً بما تم في الأسابيع الثلاثة
الماضية.. الفضل لصديقي الصحفي الشاعر صادق الجراد،.. اخبار ما
يجري في اتحاد الادباء.

.. اين انت يا ابا فريدة في هذه الاضافة الجديدة في الاحداث في طلب
الخدمة العجيب هذا، لعلك كنت عوني عليها!.."
بدأت مظاهر التعب تغزو ابتسامتي، وانا ابادل التحديقه بأخرى.. لا بد
وان تحديقتي كانت بليدة او خالية من اي تعبير يستدل به.
..ها قد ذبلت اخيرا ابتسامه حميد بعد أن امتدت برهة الصمت.
..بدأ يشاغل نفسه، بالبحث دون هدف في الاوراق المنثورة امامه.. رفع
بصره تجاهي من جديد وبابتسامه متعبة:

- هه! ما رأيك؟

- برقية " لا تسمح صحتي بذلك"، لم تكن هي برقية المهدي الاولى
التي يستلمها اتحاد الادباء.. أليس كذلك يا ابا بادية؟

- نعم. هذا صحيح.

- الم تسبقها قبلها بثلاثة اسابيع برقيته " إن سمحت صحتي بذلك؟!،
وكانت هي رده الاول على دعوة الاتحاد؟.

- اراك مطلع على الكثير.. قالها حميد بابتسامه لا تحمل الكثير من
التساؤل.

- بل واكثر من هذا!.. لا تنس ان المهدي ابي.. ما الذي تعنيه لك كلمات
البرقية الاولى تلك؟ عبارتي الاخيرة المتسائلة خرجت بانفعال وحرارة
عفويتين.

- تعني لي، ان المهدي متردد في تلبية الدعوة لحضور المؤتمر. قالها
حميد دون ابطاء او تردد.

- الاصح من ذلك، ان الشوق الى بغداد بدأ يحفر من جديد ثغرة في جدار غربة الشيخ.. ليس المؤتمر هو الغاية، وخصوصا اتحاد الادباء العرب وبتلك الوجوه الكثيرة المنتقاة، والتي همها الاول في مثل هذه المؤتمرات .. عفوا المؤتمرات النيل من رافد العراق الثالث.. المهدي الكبير.

- ما الذي اامت هذه الرغبة عند الوالد في تصورك؟ وجه حميد سؤاله هذا متشاغلا بأوراق مكتبه.

- أنت يا ابا بادية.

- أنا؟!.. قالها ببراعة ودهشة.

- نعم انت للأسف الشديد.. قلت ذلك بأسى صادق، وواصلت عتابي آه لو كنت تعلم مدى فرحتي بالبرقية الاولى، فأنا اعرف مزاجاته.. " إن سمحتُ صحتي.. " تعني ان هنالك احتمالا جدياً لقدمه، وربما انت تعلم كم امضني الشوق لرؤياه. ومع هذا الامل في قدمه، بدأت في اعداد كل ما يوفر له الراحة والمزاج الرائق لمثل هذه الزيارة. اردت ان اجعل منها نزهة الشوق لمزمن الغربة ذاك. بدأت بمعاملة استئجار دارنا في الاربعينات، على ضفاف دجلة في الجعيفر.. دار (المقصورة) دار (ابي العلاء المعري)، دار (دجلة في الخريف).. مكان وحي، ملاك، او شياطين شعر المهدي.

- وانا مشتاق لرؤياه ايضا، واعرف انك تتق بانني صادق فيما اقول . تمهلت قليلا متذكرا لقاءاتي الاولى بحميد ولقاءاته الاولى بالمهدي بعيد عودته من الغربة والمصحوبة بالفرح والمودة الصادقتين.

- كنت اتق بذلك قبل قرابة العشرين عاما، لكن زيارتك الاخيرة والوفد الاعلامي الى اوربا، اعدادا لهذا المؤتمر المزمع اثبتت العكس. فمع علمك بما تعنيه برقيته " إن سمحت صحتي بذلك "، تصرفت كمن يريد قطع الطريق على اي احتمال لحضور المهدي.. لقد زرت انت والآخرين كل الاماكن، وقابلتم كل من هب ودب، صغيرا كان او اكبر

من صغير، وتعمدت والوفد برئاستك، ان لا تشمل الجولة براغ، وبالطبع، ومن هو في براغ! وحين علم المهدي بالجولة تلك، تحولت "إن سمحت صحتي بذلك " في برقيّة الاولى الى " لا تسمح صحتي بذلك " في الثانية.

- صدّقني يا صفاء! لم تكن تلك زيارة الوفد الاعلامي مخططة لهذا الغرض

"..اعرف يا صاحبي امثال هذه الزيارات..لقاءات في العلن والخفاء..نثر وعود ومُغريات..فتح ابواب مشاريع..اصدار صحف ونشرات محلية عربية في اوربا، شرقيها وغربيها..تأسيس مكاتب لوكالات صحفية واعلامية يطبل لها كثيرا، ويتم تسليمها حتى لاكثر الناس إقفاراً وبعداً عن عالم الصحافة والاعلام..ومعها بالطبع، مظاريف هدايا السيد الرئيس السمينه..لمن يرفع صوته، فيخفضه! او يكتمه منهم، او للسامتين الصمّ اليكّم طوعاً، كي يواصلوا صممهم وسكوتهم.."

..ثم كانت زيارتنا لاييطاليا وفرنسا.. واصل حميد..
.."نعم اعرف هذا الجانب ايضا يا حميد!..غاليريّات ومعارض لكل فنان متعاون،..جوائز عالمية وهمية، تُمنح بميداليات ذهبية وفضية، الفائزون الوحيدون فيها عراقيون، وبالطبع مُخلصون لمآثر السلام الدموية، الدائر رحاها على البوابة (الشرجيّة)،..ندوات ومؤتمرات وتجمعات في القصة والشعر، كلها تشيد بروعة القادسية الثانية وابعادها الانسانية ودور القائد الضرورة في اسناد وتوطيد امجاد العرّب من المحيط الى الخليج.."
..ولم يكن مرورنا بلندن وفيينا ضمن خطة معدة من قبل.. (يواصل حميد)

..". وبالرغم من محطاتكم في الاسناد والدعم الثابتة في اوربا، من سفارات وممثلات، ومجلات حكومية سخية تصدر في عواصم تلك البلدان، كنتم مثقلين بهدايا السيد الرئيس - حفظه الله -، تلك المظاريف السمينية التي تسلم يدأ بيد، وذلك خارج اطار ما يُودع لهم في الحسابات الخاصة سرا، وبشكل دوري منتظم.. وهم يُبدلون الحكمة (زرعوا فأكلنا.. نزرعُ فيأكلون) الى حكمة اكثر جزاء: (سكتوا فدفعنا.. ندفعُ فيسكتونُ)."

..وكان دورنا كما ترى.. (استمرَّ في حديثه)

..". نعم لقد تكلم دوركم بنجاح لا مثيل له.. لقد اشترتيم صوت الكثيرين.. وصمت الاخرين الاكثر. "

وواصل حميد اقناعه:

- وها انت تترك الآن يا صفاء، ان الجولة الاوربية كانت عفوية ومستعجلة..

..". ما الذي يبيغيه متنع بالآمان والحرية والضمان في اوربا، ليبيع صوت الضمير.. وكيف يُغلف مبدع عطاء روحه في سوح الحقيقة والعدل، بعباءة سميكة من الصمت المُقرر.. صمْتُ عن مآسي الذين لم يفلتوا مثلهم من عذابات السجن الكبير، الذين ينتظرون دورهم في التصفية الجسدية.. للقول ثمن!.. وللصمت ثمن!.. العذابات والموت وحدها مجانية وبلا اصداء في عوالمنا.. عالم حاضرنا المبشر!.. بالظلمات!!.."

.. اولا واخيرا لم يكن هنالك تنسيق مسبق وجدولة لاماكن تنقلاتنا.. ربما كان هذا احد الاخطاء.

انهى حميد شرحه للجولة الاوربية التي لم اتمكن من أن اوصل انتباهي إلا الى مطالعها وقطع متناثرة بينها.

- ما المطلوب مني بالتحديد.

- لنفترض ان هنالك خطأ غير مقصود مع الوالد المهدي.. نريد اصلاح هذا الخطأ.

".. يبدو ان هنالك فَرْكَة أذان.. خَبر الرفض وصل الى اسماع الزعيم!"

- شيء جيد.. أصلحه اذا !

- نحاول!.. لقد تم الاعداد لوفد يتوجه الى المهدي خلال ايام، لدعوته الى المؤتمر.

- شيء جيد ايضا.. الى الآن لا اعرف ماهو دوري أنا.. ما هي (الخدمة) التي تريدها مني بالتحديد.

مشدداً على كلمة (الخدمة).

- أن تتصل بالوالد المهدي تليفونيا وتستخدم تأثيرك واقناعك في لين المقابلة.

" كأنك تخطط يا حميد من جديد على تأكيد الرفض.. "

- لا ارى ضرورة للإتصال التلفوني.. المفاجئة اكثر تأثيرا واليك الصورة:

.. يصل الوفد الى براغ.. يطرق الباب.. يفتح المهدي.. يتفاجأ.. ينظر باستغراب.. تبدو على وجهه علامات غضب.. يهزّ راسه بعصبية وهو يطيل التحديق في القادمين بصمت متوتر... يطلق: " نعم؟! "!!

متسائلا.

.. يبتسم القادمون، وتبدء اناشيد شوقهم لرؤياه، صادقة من أحدهم، ممن يوده المهدي، والذي يُختار بحرص ليكون في معية الوفد.

.. يتساءل القادمون المهدي إن كان سيتركهم.. سيترك ضيوفه المتعبين (مصلوبين) على الباب؟!..

.. يهزّ المهدي رأسه ويعدّل طاقيته ويتراجع برهة امام هجومهم.

.. يجلس الصحب في الصالة الوحيدة الصغيرة ويتصرفون وكأنهم لم يفارقوه إلا من بضعة ايام.. يصمت المهدي مُقطبا.

..هم يتحدثون ويمازحونه بحذر.
 ..ينفجر غضب المهدي ويُدمدم ويُرعد.
 ..ينهض من مكانه ليشير بكفه المفروشة الأصابع كالشبكة.. يشير الى كل فرد منهم.
 ..يقطع الصالة الصغيرة رواحا ومجيباً وهو يواصل الدمدمة والإرعاد.
 ..يتواصل الاعتذار من الجبهة القادمة.. من أقربهم اليه من الضيوف.
 .. الجبهة القادمة الغازية هم ضيوفه الآن!!
 .. يتحول الغضب العارم المرعد الى عتاب قاسي.
 ..يطالب احدهم بكاس بييرة بلزن فهو عطشان!
 .. وانت تعرف الباقي..
 سيقوم المهدي باعداد الكؤوس والمزّات وتظهر على وجهه معالم ابتسامة خفية، فحتى حديث الغضب والعتاب، اكثر أنسا من مرارة ساعات وحدة الشيخ، في برد الشتاء الأظلم.
 ابتسم حميد:
 - صورة تفصيلية ابدعتها يا صفاء وغير بعيدة عما كان ليحصل، ولكن مع ذلك فالحذر واجب ايضا.. هل اطلب كثيرا إن رجوتك مكالمته وابلاغه بقدم الوفد!
 - اتصور انك مخطيء بمحاولة التمهيد هذه.. إن كنت مصراً فسأقوم بهذه المهمة.. من هم اعضاء الوفد المزمع ارساله؟
 - لم يُحسم الاختيار بعد.. من تقترح أنت؟
 - سؤال مجاملة، مشكور عليها بالطبع..لكني اتصور أن وجود (علي الحلبي) معهم سيكون صمام أمان، فالمهدي يحبه ولا اعتقد ان هنالك اعتراض من اية جهة على انضمامه الى الوفد.
 بدأ حميد يبحث بين اوراق مبعثرة على الطاولة.. علائم وجهه تبحث عن شيء آخر خارج الطاولة..

" ما الذي تريده الآن يا حميد؟.. قل! لا تعذبني! انا منتظر.. ارجوك لا تفاجئني بشيء آخر!.. للآن الأمور ليست سيئة كما حسبت .. "

- ما رأيك ان تكلمه من مكتبي الآن.
.. " تريد الآن حصري في الزاوية! "

- أعدك اني سأصل به من الدار حالما اعود.
- لا شك عندي في ذلك. لكن الخطوط التلفونية غير مضمونة الاتصال في هذه الايام، ونحن هنا لدينا تسهيلات خاصة في الجريدة.. رقم التلفون عندي لقد استحصلته من رافد..

لا اسأله لم انا اذ ا.. مادام الشقيق الاكبر معكم!
أخذ حميد يطلب من بدالة الجريدة خطأً خاصاً.
..بدأ يدور الارقام..

.. " مع الوالد! ومنفردا في الدار!، احسب خمسين حسابا للحديث عبر هذه الآلة الباردة الميتة.. انها تجمد كل عواطفي.. افقد حريتي معها.. تضيع كل الكلمات المُعدّة بامعان ومراجعة حين اتحدث تليفونيا مع من احب .. فكيف وانا اتحدث مع المهدي " .

"..اتصرف بحرية كبيرة وبلهفة في حديثي معه بجلساتنا العائلية الموسعة في اغلب الاحيان، وباقل من ذلك بقليل في جلسة منفردة معه، ولكن بعد ان استكشف سلامة العرين قبل اقتحامه، ومزاج الأسد الرابض وموقعه في ذلك العرين، ذلك المكان الواحد المختار والمحدد دائما لجلوسه، وفي اي زاوية من البيت كان له مكانه الخاص الذي لا يتبدل " .

"..هنا مكانه!!.. لا يتجاسر احد من العائلة على شغله مادام موجودا.. بل وحتى في غيابه احيانا " .

"..في مثل هذه الغيبات المتكررة، اجلس قريبا من احد أمكنته تلك، فاراه حاضرا جسدا وروحا وحديثا، ابتساما ساخرة كانت، او تقطبية همّ عظيم " .

..كل هموم المهدي عزيمة حتى اقلها شأنًا.. وكلها غالبا ما يتجاوزها بلحظة حاسمة لا توقيت لها، ومع تنفيسته الصعداء وعبارته " إيه دُنْيا !! " والتي يرجع صداها لمن في الدار، ناهضا بعدها عن مريضه، نافضا كل همومه..

"..لقد اوقعتني في ورطة يا صديقي.. وكيف لك ان تُقدّر حجم هذا المأزق، فأنت لست أنا، والمهدي الذي تريدني أن اخاطبه امامك بهذه الآلة الباردة ، غير مهديك انت " .
"..ألف مهدي للأخريين !! ولي، مهديّ واحد. "

يعاود حميد الكرّة في تدوير ارقام الهاتف وللمرة الثانية يفشل في محاولة الاتصال ببراغ.
- يبدو ان هنالك بعض الصعوبات في الخطوط الخارجية . يقولها وهو منهمك في اعادة المحاولة.
استغل الفرصة وانهض على عجل قبل إفلات لحظة الفرج تلك.
- طيب ابا بادية، ساحاول انا الاتصال لاحقا من الدار، واعدك اني ساحاول قدر المستطاع مع الوالد.
- وعد؟!
- وعد!.. سأتصل وأحاول.

في اليوم التالي أبلغت بأن الوفد قد تشكل، وان (علي الحلبي) من بين
اعضائه، وأن طائرتهم ستقلع ظهر الخميس القادم، اي بعد اربعة ايام.

بعد اعدادات متكررة لجمل متراكبة، وكلمات متقاطعة، وتخيّل مسرحي
لحوارات تتبدل صيغها في ذهني، وفق ما سأفصح في قوله، وما سأجاب
عليه، ومع اعداد كثيرأ من السيناريوهات البديلة، وفق احتمالات الردود
المتوقعة، اقدمتُ على رفع سماعة التلفون ودوّرت قرص الارقام وانا
نصف سارح.

- ألو.. ألو.. يصلني صوته وفي رناته معالم توتر وملل.

..تتبخّر كل الحوارات والسيناريوهات.

- كيف حالك يا ابي؟

- من؟..صفاء!.. أهلا.. أهلا

- انشاء الله بُويّة انت بخير؟

- بكل تداؤينا!..اي نعم بكل تداؤينا!.

- كنا في انتظار قدمك في نهاية الشهر بعد برقيتك " لو سمحت صحيتي

بذلك " (تجاهلت معرفتي ببرقيته الثانية) .. بل لقد رتبت لك كل ما

يعطيك اجازة حلوة للايام التي ستقضيها معنا في بغداد.

- لا تنتظر! ودعهم ينتظرون طويلا!..لقد ارسلت لهم اعتذاري عن

الحضور. قال ذلك بلهجة واضحة الاستياء .

"..مع ذلك، دعني اغامر بمواصلة حذرة. "

- لقد بدأت اتصالاتي في محاولة استئجار دار دجلة..دار الجعيفر..(دار

القصائد) كما تسميها..مالكة الدار الآن سيدة عجوز، تستخدمها كبيت

نزهة واستجمام، ولا زالت محاولاتي جارية لإقناعها.

- لا تحاول!..لن تعيد الماضي يا ابني.. وانا لن أعود!. وشدد على

العبارة الأخيرة.

" انت في ورطة يا صفاء.. لا منفذ ولا ثغرة في جدار الرفض هذا.. لقد سقطت كل السيناريوهات المعدة... وهل بقي منها شيء تتذكره الآن؟! "

- كيف براغ التي تعشق؟.

- عادة باردة تتمتع بشتاءها على شتاء عمري.
- انت ربيع دائم!.. لا بد وانك منشغل عنها بشيء آخر.. عادة اخرى ربما؟!

- منشغل نعم.. قل مرهق في كتابة الجماهرة.. لقد بدأت جمهرة الشعراء تستهلك بصري.

- ليتني معك فاساعدك في التدوين.. لا يُسمح لطبيب بالسفر من العراق.
ارجوك لا تستهين بعينيك.

- لم يبق إلا القليل فقد انجزت معظمها.. كيف حالك انت؟.
" لا بد ان ادخل في الموضوع بروية، دون ان اسبب له اي نوع من الازعاج.. "

- انا بخير.. هناك من يرغب في القدوم لرؤيتك.
.. ما هذه التقدمة يا صفاء!.. " يرغب! " " " القدوم لرؤيتك! " " قال ذلك بسخرية قاسية.

.. لا تتصنع المقدمات وخبرني من هو القادم ولماذا؟.
- وفد من محبيك في اتحاد الادباء يرغب بزيارتك.
- هل تريد ازعاجي يا صفاء.. لا محبين لدي في (اتحاد العقارب)، هذا الذي تسميه اتحاد ادباء.

- حتى لو كان علي الحلي هو الراغب في زيارتك؟
- ما دام يمثلهم فلا اريده!.. اكرر!.. لا اريد ان اقابل احدا!.. هل فهمت ام أعيد!!؟.. لا اريد!!.. لا اريد!!

بدأ صوته يتعالى واحسسته يرتجف غضبا.
.. إعتصر الألم صدري فشهقت واختنق صوتي وانا احاول ان أهديء انفعاله المفاجيء:

- ارجوك خَلْصْ!.. خَلْصْ!.. إهدأ الله يخليك! الله يخليك! انا غلطان.. لا تريداهم؟!.. يلعن والديهم! .. يلعن ابوهم، فقط لا تنزعج ارجوك!.. عذري انني مشتاق لرؤياك، حتى وإن في زيارة عابرة، حتى ولو كان ذلك عن طريقهم.. ارجوك انا غلطان!.. انا آسف!..

..وبدا صوتي يتهدج وانا اكرر

.. يلعن والديهم!.. انا آسف.. انا آسف.

بدء هو الآن يحاول تهدئتي بصوت لم تبق في نبراته إلا الاسى.

- لا لوم عليك!.. لست انت المخطيء، رسالة كُلفت انت بتبليغها..

وشوقك اشاركه.. إسمع يا ابا حسن!

وبدا صوته يأخذ طابعا جادا مرة اخرى:

.. أعدْ لهم جواب رسالتهم وبلِّغهم!.. لا اريد ان ارى احداً منهم!.. لا

اريد..

وعادت نبرة الغضب وإن بدرجة اخف فأكملت انا عبارته:

- لا تريد رؤية ايا منهم. سأ بلغ الجواب!، فقط ليكن مزاجك رائقا!

وليذهبوا الى سقر، وحقك علي!!

- إن لم تبليغهم فسأبلغ انا السفارة هنا بذلك.. أتسمعني؟!!

لم يكتف المهدي بتبليغي لهم، فقد طلب من اخي سالم، المقيم في منطقة اخرى من براغ، القدوم الى شقته على الفور.. حملته رسالة الى السفير العراقي يبلغه فيها عدم استعداده لاستقبال اي وفد من بغداد.

كان الوفد قد اعد نفسه للسفر رغم هذا الرفض.

..في صبيحة يوم الخميس وقبيل اقلاع الطائرة الى براغ بساعات قليلة تمّ ابلاغ اعضاء الوفد، وهم في المطار ، ومن اعلى الجهات المتنفذة بالغاء الزيارة.

النذلُ يواصلُ الطَّرْقَ

في نفس البقعة المفضلة التي يلتقي بها المهدي والحمد من مقهى (سلافيا)، كان الرفيقان ساهمان بوجودهم في النهر العريض المائج بارتفاع مياهه، وامامهما قدحي بيرتهما المفضلة..

عدل المهدي من طاقيته وهو يستدير مواجهها الحمد، الذي أمال طاقيته بدوره منتظراً من التفاتة المهدي المفاجئة، شيئاً يقوله!.. يفضفض بعضاً مما فيه من غليان ظاهر، من لحظات لقائهما ضحى هذا اليوم.

قال المهدي بانفعال وتأثر، بعد ان اطلق آهة تشبه اللعنة:

_ الم أقل لك يا حمد في جلساتنا السابقة انهم وراءنا نحن الانين.. الم اقل وانا اواسيك وكأني اواسي نفسي عن الأمي، بانهم لا يكون عن كل مناورات وضغوط التعقّب والمطاردة وحشد كل وسائل اتباعهم في الداخل والخارج.. وانت تعرف من هذا (بالخارج) مثلي. فطرق النذل منه يتواصل علينا سويّاً.

توقف عن الحديث لبرهة وهي يعيد تأمله للضباب الذي تكاثف فوق صفحة مياه (فالتفا)، التي غامة كالسما الملبدة فوقها.. ثم واصل:

_ هم يريدون محاصرتي اكثر بارسال وفد بحجة دعوتي للعودة.. بحجة مؤتمر لللدباء هناك.. يعرفون هؤلاء الخسيسون نقطة ضعفي.. شوقي الى البلد.. الى بغداد.. الى دجلتها، الى نخيلها.. الى الصحبة الطيبة المنتقات، ولكنك تعرف الاكثر دوافع هجرتي وابتعادي عن جحيم الاجواء التي شوهدت كل تلك المعالم الجميلة التي عشقتها، شوهدت البلد، تربته ونخيله،.. دجلته والفرات، شوهدت حتى شيم الجبال

المنبعة العصية على التبدل.. واكثر من ذلك يا حمد شوهت ناسه
وعوالمهم..

رفضت الدعوة ورفضت قدوم الوفد الداعي، بل لقد ارسلت سالم
ليطلع السفير عن عدم استعدادي لا استقبال اي وفد قادم.

انت تعلم يا حمد مالذي يريدونه من وراء عودتي.. لا لألبي رغبة
زعيم مافياهم، بل لإسكات ما يتحدث به الناس في البلد وخارجه، عن
هجرتي- عن نفيي نفسي الى الخارج تخلصاً من نير عصابته.

.. ليس هذا وحده يا حمد سيبدأ حصار من نوع آخر، حصار لشوق
ومحبة وجودي في ربوعي التي اعشقها.. سيطلبون ثمن ذلك وبطريقة
المُتاجر الشرس.. تعطي الآن ثمن دجلتك ونخيلك ورباك، وبقايا- إن
ظل على عهدي بهم – من نفر او نفرين من الصحبة النقية اللا مشتراة.

وليس عندي مقابل ذلك، وهم يعرفون ذلك، غير أن أدفع من كرامتي،..
كلمتي.. شعري، مهادنةً ورضوخاً.

.. إنه آخر ما يمكن استسلم له قبل أن اسقط وأرضخ.. قبل أن أذبح
وأقتل.

_ ومتى سيقدم الوفد لو تجاهلوا رفضك؟.. سال الحمد .
_ لن يأتوا حمداً لله.. لقد طمأنني صفاء من بغداد، بان الزعيم الغي
رحلتهم بعد وصوله رفضي، والوفد ينتظر صعود الطائرة.
_ وها قد ارتحت الآن يا مهدي!
_ ابدا لقد او عزوا الى الى "النذل" وانا في سكني الجديد، بزيادة شدة
ونوبات طرقه بعد الرفض.
.. لقد اخذ يطرق السقف من فوقي ويعنف اشد وتواصل اكثر، حتى
بحضور رقفة او ضيوف في سكني الجديد.

.. لا حل يا حمد إلا بان اجد مكانا غير براغ التي احب، توفر لي حماية اكبر.

_ لم لا تلبي دعوة الرئيس الأسد الموجهة قبل حين.. دمشق التي تحب ورئيسها الأسد من اشد الكارهين لزعيم مافية العراق.. هو من سيوفر الحماية اللازمة.
وانت القائل في رائعتك دمشق جبهة المجد:

شممتُ تريك لا زُلْفى ولا مَلْقَى.. وسرتُ قِصدك لا خِباً ولا مَذَقاً
وكان قلبي إلى رؤياك باصرتي.. حتى اتهمتُ عليك العينَ والحدقا
وسرتُ قِصدك لا كالمشتهي بلداً.. لكن كمن يتشهى وجهه من عشيقا
قالوا دمشقُ وبغدادُ فقلتُ هما .. فجر على الغد من امسيهما انبتقا
يا جُلُق الشامِ إنا خلقُ عَجَبٌ .. لم يَدِر ما سيرها إلا الذي خَلَقا
مُعذبون وجناتُ النعيم بنا .. وعاطشون ونُمرى الجونة العَدقا
دمشقُ عشتكِ ريعاناً وخافقَةً.. وأمةٌ والعيونَ السودَ والأرقا
وها انا ويدي جلدٌ وسالفتي.. تلجُ ووجهي عَظْمٌ كاد او عُرقا
وانتِ لم تَبْرحي في النفسِ عالقَةً دمي ولحمي والأنفاسَ والرَمقا
يا حافظِ العهدِ يا طَلاعَ ألويةٍ تناهبتِ حلباتِ العزِّ مستَبقا
تزلزلتُ تحتهُ ارضٌ فما صُعقا واَزخرفتُ حولهُ دنياً فما أنزلقا

من يا مهدي تقال عنه تلك الابيات المخلدة في القصيدة الرائعة، ولا يقدم كل يمكن ان يُمنح، عطاءً وكرم ضيافة والحماية التي انت تتشدها.

ثم قصيدتك في سلامته من محاولة الإغتيال واصل الحمد:

سلاماً ايها الاسدُ
سلمتْ وتَسَلَّمُ البلدُ
وتسَلَّمُ امةٌ فخرتْ
بانك فخرَ من تلدُ
ويا حلما كضوءِ الفجرِ
يستغلي ويتقد
أما ودمشقُ صامدةٌ
بذمةِ ذادةٍ صمدوا

_ هذا بالتحديد ما شغل ذهني خلال اليومين الماضيين.. سألبي الدعوة
في الغالب!.. ما رأيك في مرافقتي يا شقيق روعي حمد؟!
_ هل يحتاج ذلك الى سؤال او مناقشة.. لقد رافقتك برهة ببرهة
وخطوة خطوة منذ ان وعيتُ على هذه الدنيا.. اتريدني ان أتخلى عنك
الآن بعد مسيرتنا الطويلة.. مسيرة الجدل والعذاب.

رمزُ العالِي!

إرتجّ البيت في زلزال عاصف صاحب وتناثر زجاج النوافذ. وجد نفسه وزوجته

مرميي عن سريرهما فوق أرضية الغرفة، يلمس أحدهما الآخر في حلك الظلمة.

-أأنت بخير؟

-أأنت بخير؟

أمسك أحدهما كف الآخر وبدأ البحث الصعب في حالة الانشدهاء تلك عن الباب. ..دون أية كلمة، توجهها إلى الغرفة الصغيرة المنزوية المجاورة، جلسا في الظلمة على التخت المجاور لبابها بصمت، حتى استردا انفاسهما.

_ لقد قصفوا برج المرسلات والاتصالات على الأرجح.

وكان الأمر كذلك.

_ ألم أقل لك أنهم سيضربون! قالت بصوت مرتجف واهن.

_ لم أكن أتصور أنهم جادون في القضاء على أكبر حليف لهم في الشرق الأوسط.

لم يكن برج المرسلات ذاك يبعد عن المنزل بأكثر من مئة وخمسين متراً. وليتها البقعة الهامة الوحيدة.. بضع عشرات من الأمتار عنه،(يشمخ) مجمّع المخابرات الضخم وعلى مبعده أقل من مئة متر

يمين الدار، معسكر تدريب جنودالمخابرات والاستخبارات ودائرة الانضباط العسكري.

.. خلف الدار بمئتي متر، مُجمّع بيوت الوزراء وساحة الإعدامات (بالطبع تحت اسم ساحة التدريباتالخاصة).. كثيراً ما كانت تصل إلينا منها لعلعات الرصاص قبل آذان الفجر. وهكذا لم يكن قصف المرسلات الصاروخي هو الزلزال الوحيد الصاخب تلك الليلة.

عند الصباح وبينما كان يحاول أن يسد بعض ثغرات النوافذ بصفائح كارتونية،

ويعيد درفة الباب الرئيسية المخلوعة إلى موضعها بدت مظاهر حركة هجرة

جماعية من البيوت المجاورة.. تقدم أحد الجيران منه متسائلاً في حيرة:

_ لا أراك في عجلة لمغادرة المكان؟!!

ذهبوا إلى مدن أهاليهم أو أقاربهم، هذا إلى (راوه) وذاك إلى (الفلوجة) و

(عانه) و(النجف) و(الخالص)..

لم يمنع تحصين الغرفة المنزوية الصغيرة من أن تُزخرف أعالي
جدرانها بالشظايا

وأصبح الوصول إلى المرافق الأخرى في البيت خطراً خصوصاً في
ساعات الليل، غير أنهما كانا محظوظين، فركن المؤونة والحمام
لصيقين تماماً بالغرفة الصغيرة.

..أصبحت مدفأة علاء الدين داخلها هي المخبز والفرن والطباخ
ومصدر الإنارة،

علاوة على التدفئة في ذلك الشتاء قارس البرودة.

..يوصل زوجته إلى مكان عملها عبر شوارع شبه مقفرة، وهي
ترتجف هلعاً

طوال الطريق من أصوات القصف المتفرقة... بعد انتهاء عمله يعود
لأخذها، صامتةً مفزوعة طوال الطريق. أسبوع، اثنان من القصف
والرعب، وتمرض ؛

إسهالات، وقيء، وأنزفة رحمية متكررة.. أقسام الطوارئ في
المستشفيات على أشدها زحاماً وأساءها خدمة. يصاب بالفزع خوف
فقدانها.. أما من فرج، أما

من خلاص؟! متى تزاح الغمة؟! متى ينتهي وتنتهي معه حروبه
اللعيينة؟ يارب ليتني أكون مخطئاً وأنهم جادون فعلاً في الخلاص منه،
يا رب

تستمر الجِحم والصخب الهادر والوميض الفضي اللامع، واحتراق
السماء باللهب الأحمر الذي تليه الشظايا التي.. يلماها عند الصباح كل
يوم من الغرف والسطح.. يضعها في وعاء خزفي، زاد وزنها عن
ثلاثة كيلو غرامات.

..يتشائم من جمعها، يدفنها تحت شجرة زيتون في حديقة المنزل.

..أصبحت الحديقة المكان الآمن، غير الموحش الوحيد لكل كلاب المنطقة، كانوا ونيسهما، شاركوهما في الزاد العسير وبترحاب، فقد أقفر الحي من سكانه..

.. كثرت الضحايا، وعادت قطع القماش السوداء معلقة هنا وهناك..
.. عادت قوافل جنازات (القادسية الثالثة!) إلى الظهور.. النعوش المارة إلى مقبرتي الفلوجة والنجف تعبر بسرعة أمام داره.

يضع يده في يدها حتى تستطيع بعد جهد أن تغفو على التخت الضيق في السويجات القليلة حين يبتعد القصف، يمدّ جسده على فراش مجاور على الأرض وينصت من مذياعه الصغير إلى إذاعات العالم..(مونت كارلو (البيبي سي)، القاهرة، عمان.. الكل يناشد القائد الصامد على القبول بأحد عروض عديدة لانسحاب مشرف ودون شروط مجحفة..
أما من فرج يا رب!

ملايين تدعوا وبحرارة من الأعماق أن يستجيب..

صامد، صامد.. عنود.. بطل!!.. ليس كل العناد حمق! ..الضحايا ليسوا إلا قرابينه!

..الإنذار الأخير! ستعبر قوات العالم المدجج بكل بدع الموت الجماعي، ستعبر

عند منتصف هذه الليلة على حشوده، من الجياع المقهورين والمرتجفين برداً

وهلعاً.. حشود مسكينة لا خيار لها في أشكال الموت التي يُزج بها دون قضية أو هدف مقنع، بل وكل ما هو شائن وعدواني.. لا خيار لهم في الحياة، لا خيار في الموت.

.. في ساعة الهجوم، جاء أمر الانسحاب من(محافظة)الكويت.

ينصت إلى الخبر " بتدخل عاجل من الأمم المتحدة وبعد الموافقة على الانسحاب الفوري الكامل من أراضي الكويت، سيتم وقف القصف على مدينة بغداد في

الساعة الثالثة والنصف بتوقيتها المحلي "

-أسمعت، أسمعت يا حبيبتي إنها نهاية المحنة والطاغية. سنستمع معاً غداً صباحاً إلى البيان الأول لحكم جديد يعلن نهاية الحروب والمذابح والقهر. غداً مهرجانات الناس في كل زاوية من البلد الجريح. احتفالات حتى في تكريت والرمادي.

بدأت الجمم تنهمر على محيط سكانها. ليلة ولا كل تلك الليالي المزلزلة، كأنهما هما وحدهما مركز تلك المعركة.. ارتجاج ضخم، ماد البيت من تحته في اتجاه وعاد إلى مكانه، مع استمرار اهتزاز خفيف أعقبه. أحس بأن لم يبق أي باب إلا وانخلع، وتطايرت آخر الشظايا الزجاجية العالقة في زوايا النوافذ" ..لا بد وأنه إنهار الجسر المعلق غير البعيد!!

كثرت الشظايا التي كان يُسمع أزيزها وارتطامها بعد وميض الانفجارات وهزيمها، مخرقة طبقات الألواح الخشبية التي تدعم النوافذ العارية..ألواح لا تتعدى وظيفتها الإحساس المخادع ببعض الطمأنينة..يسمع اصطكاك أسنانها ويزداد اختضاض كفها المتمسكة به..يسمع صرير خوف خشب التخت المرتعش تحتها، يرمي بجسده فوقها ويحتضنها بعطف بالغ. يقل اصطكاك أسنانها ويخف اختضاضها. تغفو أخيراً، أو هذا ما خيل إليه.

يتوقف القصف في الثالثة والنصف فجراً. صمت له رنين، لقد توقف القصف

يا حبيبتي!!

دعها في نومها. ساعات قليلة وأوقفها على نشوة البيان الأول لعهد
حكم جديد، حكم لا يمكن إلا أن يبيث الأمل في ملايين المذللين المهانين.
سيبزرغ فجر أمل جديد.

.. يغفو ساعتين.. الساعة تقترب من الساعة.. يدير مفاتيح المذياع.

يجد ضالته أخيراً.. الصوت مشوش قليلاً ولكنها إذاعة بغداد.

-اصحي يا حبيبتي... اصحي ولنستمع سوية!!

لا جواب!

يكرر بصوت أعلى ونغم أرق.

-اصحي لنسمع البشري!

لا جواب!!

يهز الجسد، يهزه بذهول. يعلو صوت المذياع بنشيد الجوقة:

“إِنَّهُ النَّصْرُ وَالنَّصْرُ غَالِي، صَدَامُ يَا رَمَزُ الْمَعَالِي.”

كآبة ما قبل السلخ

أهيم على وجهي..أجد نفسي بعد زمن لا اعرفه في امكنة لا مقصد لي فيها، او في اماكن غريبة اكتشفها اول مرة.

اليوم انا في ممر من حديقة الزوراء، غير البعيدة كثيرا عن دارنا.
..كمآشة الكآبة الخفية لا تزال تهصر صدري وتجعل الهواء الطلق،
الذي يداعب اوراق الاشجار الطرية، عسيرا على انفاسي.
.. ضياء النهار المشرق لا يغسل ظلمات الروح وعمة الخواء
الذهني.

قرب برج الزوراء، الذي تحوّل مطعم ذروته، الى مراكز للدوشكات
والشواجر وانواع المدافع الرشاشة.. ارى حديقة مسيجة بقضبان
عالية.. خيالات لاقفاص كبيرة تبان من بين الاشجار العالية..إنه
الجانب الخلفي من حديقة الحيوانات لا غير.

.. امشي دون هدف حول السياج وقربه..

سقيفة استراحة كبيرة اعرفها.

.. هنالك منصة تحت السقف المزخرف العالي يقف عليها اربعة رجال
يقطعون اجزاء من ابدان حيوانية فوق طاولات خشبية..

سقيفة الاستراحة قد تحولت الى مسلخ!!

على مسافة بضعة امتار من مكان الذبح والتقطيع هنالك حفرة ترابية
كبيرة فيها عدد من الحمير.

الحمير جامدة وكأنها تماثيل في متحف الشمع.

.. اعناقها ورؤوسها منكّسة تكاد خطومها تلامس الارض.. على
تقاطع خطومها تعابير حزن وكآبة وخذلان واستسلام ذليل.. لا ترمش

اعينها ولا تتحرك آذانها او ذبولها، لكش الذباب الانتهازي الذي وجد
من سكونها الميت مكانا لتزاحمه.

.. لا لم تصل كآباتي ولا احزاني الى معشار من هذا الحزن اللامتناهي
واعماق البحور المظلمة التي اراها عليهم.

خف حملي قليلا.

.. عدتُ بذاكرتي الى الطفولة واللعب في البادية و(المناخة) بين الخيام
والبعير المُرغي، والهائج، والبارك في دعة وسلام.

.. عدت الى اليوم الذي لا انساه حين رافقت من هم اكبر مني من
الصبية القاصدين المسلخ القريب من المناخة.

وقفنا غير بعيد عن السور الطيني الكبير.. قرب مدخله الواسع.

.. رائحة الدم وزنختها اختلطت عندي باصوات الرغاء والنهيق والثغاء
وشخير اعناق الذبائح.

تقدّم راع بمجموعة من الخراف والماعز.. ترددت.. جحظت اعينها..
حاولت أن تنفرط او تتراجع، حادها الراعي يمينا وشمالا.. بعد وقت
قصير افلح في ادخالها..

سمعنا خلفنا ومن مكان ليس بالقرب من مدخل المسلخ رغاءً عالياً
غاضبا، يهدر صداه في البادية المقفرة..

كان البعير، وقد ضُمَّتْ احدى قائمته الاماميتين الى بعضها وقيدت
بحبل متين، يُسحب بحبلين غليظين من عنقه، كل حبل بيد بدوي معقّر
بجدائل طويلة.. يسحبانه، وهما على مبعدة من خطمه، الذي علتة
رغوة الزبد وجحظت عيناه المحمّرتين غضباً وعناداً..

.. يبذل البدويان كل قواهما في الشدّ ليثب البعير على ثلاث مرغما
نصف خطوة الى الامام.

يقف .. يرمي بعنقه وخطمه الى اقصى اليمين، فيسقط البدوي الساحب
الذي على يساره.. يحاول ان يستدير الى الخلف ساحبا عنقه مرة اخرى
فيسقط البدوي الاخر

.. يثب على ثلاث مترجعاً..

.. يفلح البعير ان يبتعد عن بوابة المسلخ قليلاً.

.. ينهض البدويان صارخين وراءه..

.. يسحب احدهما ساطوراً كبيراً من حزامه..

.. يفلح بالوصول خلف البعير الهارب ويضرب احدى قائمته
الخلفيتين.

.. يسقط البعير بجسده الضخم جانبا فيرتفع الغبار..

.. يرفع عنقه الطويل عاليا ويُرغي بصوت هائج صاخب.

.. يهوي البدوي بساطوره على رقبته مرارا.. فيصبغ الدم النافر وجه
البدوي وملابسه والرملة القريبة منه.

عدت من خواطري.. راقبت تجمع الحمير في الحفرة.

عادت اليّ الكماشة اللعينة، تهصر صدري، تخنقني.

غشتني ظلمت الأعماق من جديد.

أفلت حامد من الباب المُشرع إلى الزقاق بملابسه الداخلية وبغترته البيضاء وعقاله الأسود. رفع عقاله وغترته بيده اليمنى وأخذ يقفز، دائراً نصف دورة، تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال وهو يدبك هازجاً:

«مأمونة دار السيد!»

«محروسة دار السيد.»

«دار السيد منهوبة.»

«دار السيد مسلووبة.»

ها ها ها، إخوتي:

«دار السيد منكوبة.»

«ودار السيد»!!

كرر المقاطع دابكاً هازجاً وهو يهزّ عقاله وغترته عالياً فوق رأسه حتى اختفى عند زاوية الزقاق.

.. ما هي إلا لحظات وخرجت هُدى فارعة الرأس، هارعة إلى نهاية الزقاق تصرخ بلوعة: «حامد وينك يا خيي يا حامد... كطبيعة تكطعني...»

يا أهل الرحم ما أحد شاف ها المسكين؟

يرقب ويسمع متراخياً ما يدور في الزقاق من على كرسيه وحوله دثاره.

قادته متكناً على ذراعها وأجلسته برفق قرب إفريز السطح ليتشمس.

يكاد يتكر مشهد الأمس نفسه. لا يجد انفعالاً مميزاً نحوه. ساقاه متراخيتان، لا إحساس بوجود حوضه فوق غطاء كرسيه.. نصف

جذعه العلوي، عجيزة نخل متعفنة خاوية.. طعم صداً يملأ فمه.. لسانه
قطعة خشب ثقيلة متبيسة.

عيناه ثقيلتان جافتان، تنظران بكلل، إلى مساحة رؤية أمامية محدودة..
طبقة شمعية تغلف وجهه وجبينه.. شعره قطعة غرين ثقيل متيبس.

.. يتدحرج مكعب من الصور المقطعة،.. مكعبات ومخاريط ولفائف
أسطوانية ملونة تعوم في صندوق عظمي أجوف مملوء برنين
هلامي.. أصداء معدنية رتيبة مكررة.. شريط مُقَطَّع لصور متراكبة،
تتبدل أجزاءها فتصنع مقاطع جديدة، يلتصق هذا المقطع بمقطع سابق
أو بمقاطع لاحقة، يومض بعضها برقاً ويختفي مخلفاً خطوط شحنات
تفريغ مشرشرة على خلفيات صور زرقاء ورمادية وحمراء وفضاءات
لا لون أو حدود لها.

.. مكعبات ملونة لأحداث وحكايا وأقوال مرصوفة تتعالى هرمياً .

.. تنفرط متدحرجة.. لا رغبة له في متابعتها.. لا رغبة بلم أجزاءها من
جديد.. يختفي الهرم.. تتراعى على السطح الأجوف بعض من مكعباته
بأسرطتها المصوّرة.

. أصداء سقوطها يحدث ضجيجاً مكتوماً.

يزداد إعيائه.. يهرب منها بالتحديق المركز بمساحة الرؤية الأمامية
المحددة؛.. مثلثات وحلزونيات وأشرطة مشرشرة وخطوط متقطعة..

.. رسمة بحبر أسود مخفف على صفحة واجهات البيوت.. فوهات
فارغة في الجدران المحبر..، شبابيك عوراء ببقايا ثلم زجاج.

.. أبواب مخلعة متشققة.

يتدحرج مكعب آخر:

وجوه مسودة تدب كسولة ضجرة في شوارع شبه مقفرة، لها رنين
صمت حزين يتجاوب صداه بين أعين المارة وأولئك الواقفين بملل
وكآبة قرب الأبواب أو وراء شبابيك محطمة.. أبصارهم تزوغ في
العدم..

_ يوم تسوّد وجوه... الله لا ينطيك بحق هاي الغيمة السوداء، شوفي أم فاروق شوفي شلون اظلمت الدنيا، هاي غيمة لو غضب أسود.

_ والله أم أحمد من يوم غيمة الجراد الصفرة والغيمة الحمرة اللي خنكنا بالرمل الأحمر من خمسين سنة، ما شفنه مثل ها الشي. يومها أذنت كل المآذن، وبدأت قراءة التسابيح والأدعية ليوم القيامة، وأمّي المُقعدة تصرخ من غرفتها:

«هذي علائم ظهور صاحب الزمان!.. بعد عيني صاحب الزمان!»

-والله وما يصدكّه العقل. مطر أسود، مطر أسود لطح كل البيوت، صخام يُمه! هذا مو مطر، شوفي!! شوفي! تلطّخ صبغ بيتنا الجديد، وبيتكم وبيت أم هاشم.

_ هذي عمایل مضروب الجلوة أبو «أم المعارك»، حرائق نפט الكويت وصل دحّانها لبيوتنا.. هذي صارت «أم المصاخم»... «أم الملاطم».

_ بالله سُتري علينا أم فاروق يروح يسمعنا أحد!

_ الكل تشتم علني وبكل مكان. شنو اللي بقى يخاف عليه، أحمد وأخذته القادسية، "بوابة القائد الشرجية"، ومحمود لليوم لا حس ولا خبر من بداية الانسحاب المظفر. وشوفي هذا جارك أستاذ حامد أخو المسكينة هدى، مدرس محترم تُجنن من يوم هزيمة البطل المنصور. وهاي هالتشوفين طُبكت عند حامد، خُبال تمام. يُمّه ما تحمّل الكل يموتون، يحتركون وتاكلهم الجلاب وهذا باقي.

يختنق برغبة عارمة بالبكاء، لا يطاوعه كيانه المخذول الواهن ولا مآقيه المتييسة. أهى الكآبة التى تخذله أم هى برشامات التى يحضرها جاره طبيب النفسىة.

"..ينحنى عليه بوجه فأر كبير ذى شارب هتلري.. تنطّ حدقتاه الوسىعتان عبر زجاج عویناته النخينة فتسقط متدرجة على وجهه، لا سبیل لإزاحتها عنه بكفه. یزىح بصره یساراً.. تسقط الحدقتان وقد تدرجتا یمیناً..

ستفیدك هذه البرشامات..سیزول هذا الكسل والخمول واللاأبالية بعد حین.

یغافله الفأر بالشارب الهتلري بین الكلمات ویلقى ابتسامات مبهمة وتندرج حدقتاه إلى الأخت الشابة. یرج الفأر الهتلري ویسحب حدقتیه معه "

ساعدینى على النهوض رجاءً إلى الحمام.

_لماذا ألقىت البرشامات فى المرحاض؟

-لا أرى أن أصبح مدمن أفیون. لا أثق بهذا الجار الفأر.

یواصل التحدیق فى حقل رؤینته، الواجهاً وبوابة بیت هدى وحامد أمامه.

تسرى قشعريرة برد فى حکم إزاره حوله بكلل. تعبر فوق السطح بقع ضوء من شمس متقلّة عبر غیوم بیضاء. یتابع انتقال بقعها إلى سطح بیت هدى ثم تسلقها جدار بیت الراوی. یجهد، یلملم كل بقایا حطام إرادته، یحاول البكاء..

.. يعز البكاء. لا بكاء! اصرخ إذاً اصرخ بأعلى صوتك!! يصرخ
في الخواء، تخرج الصرخة فحيحاً رتيباً ثقيلاً، لا تتعدى الفم المتراخي
المفتوح.. تنزلق..

تسقط الصرخةُ في بئرٍ،

دوامة الصمتِ متاهاتٌ،

لا رنةٌ للصوتِ،

عبثاً يبحثُ عيرَ البصر المخذولِ،

عن ذاته

على أرضية السطح.

..يشد قواه، يعيد البصر في رسومات السخام المُذاب على واجهات
البيوت المتصدعة أمامه..

..يستعيد مكعباته ومخاريطه الملونة.. يحاول أن يركب منها هرمًا.

.. تنفرط المكعبات وتندرج.

شاحنات عتيقة متزّية، تحمل أسماً ممزقة، لملايس داخلية قذرة وضعت فوق هياكل بشرية متراسة، ضامرة، مغرّرة، تائهة الأبصار. تقف الشاحنة، تتساقط الأشباح المهلهلة نصف العارية، إلا من شراشيب ملايس داخلية، فوق أرضية الشارع الأنيق.. ينفطر الحشد فرادى ومثان ومجاميع صغيرة تطرق الأبواب وتصرخ:

" مَيّ! كِسرة خبز! سِتر! " تعاد (الثيمة) ضمن سمفونية الإستجداء:
سِتر! يا أهل الرَحْمِ اللهُ يِستركم!! هِدْمَة زائدة! نَعْل عَتِيق!! سِتر سِتر!!

" مَيّ! كِسرة خبز! سِتر "

الله يِستركم أهل البيت.

" مَيّ! كِسرة خبز! سِتر "

يتكرر المشهد بعد ساعات، وفي اليوم الذي يليه. في الأيام التالية، تقل أعداد فلول الجيش الغازي المنكسر، فلول المهانة.. تقل الشاحنات وأسراب المتسولين العراة.

يفلت حامد من سجنه من جديد بسر واله الداخلي، يمشي بجديّة و حزن
في الزقاق، يلطم صدره العاري بكفيه ثم ينزل ضربات قوية بقبضة
يده فوق رأسه.

«طوطو حيدر! طوطو حيدر! طوطو طوطو، حيدر!

.. يختفي من الزقاق.

تخرج هدى حافية القدمين: «وينك يا مسكين، يا..»

يزيح تراكيب مكعباته وأسطوانات صورهِ الهرمية فتتفرط مبتعدة. لا
يجد أثراً لها فوق أرضية السطح.

«وأنتَ ل سبيت أهلِ البلد.»

«عجبُ أنتَ ل ما تنسبي.»

يحاول مرات ومرات. يخرج الصوت أخيراً كشخير حزين مكتوم.

ينشط بصره فنتسع مساحة الرؤية.. ينجح بلف رأسه إلى حدود بيت
الشيخ (مسعد) على يساره وإلى حدود سطح) العبيدي (عن يمينه. يستند
على الإفريز الحديدي ويجهد في رفع جسده عن كرسية.. يسقط المنزر
عن أحضانه، ينجح في الاتكاء على السياج، تلوح معالم ابتسامه باهتة
على شفثيه، يحاول ويفلح في أخذ نفس طويل عميق تعقبه حسرة طويلة
تختنق بنشيج منقطع يقلح في سماعه.. تندى عيناه..

يعود محمود.

“ابتعدنا في الليل عن مسار الفلول المتراجعة عبر الطريق الرئيسي... أفراداً هائمين، جائعين مقرورين. كانت الأرزاق قد قُطعت تماماً ليومين قبل الإجتياح

..لم يكن الجو رحيماً؛ برد ومطر. ضباطنا وأمرينا استولوا على الشاحنات والعربات الموجودة في الميدان. كان العراك فيما بينهم شرساً على العجلات الأسرع. في مدينة الكويت التي مرّت بها القوات المبعثرة لم تبق وسيلة نقل لم تختطف حتى الدراجات الهوائية والتراكترات... الكل: “وينك يا روعي!”

“ كنت على يقين بأن الطائرات ستلاحق الفلول على الطريق العام. كان الرتل الفار على مسافة بضعة كيلومترات عنا حين حلت الكارثة.. .. أرتال متعاقبة من الطائرات، نيرانها وحممها التي تصاعدت كانت تذكرني بغيمات فطر التفجيرات النووية، لكنها كانت على حجم أصغر، وبسلسلة متواصلة تستهدف مؤخرة الركب، وحتى نهاية مقدمته البعيدة..

..كنا منبطحين على وجهينا، حين أبرقت ثم أرعدت وتلى ذلك عصف شديد زلزل الأرض من تحتنا وغمرنا بكثيب من الرمال. ..حين استطعنا النهوض كان القصف متواصلاً على مسافات أبعد من مسار الطريق العام المفترض.

.. ساعتان لا غير، خيم بعدهما صمت يقشعر له البدن..

.. قبل ذلك كنا نسمع ديبب الحياة في ما يصل إلينا من وشوشات العجلات الفارة..

.. لا نأمة تسمع الآن، حتى صفير الريح تجّمد.

..فضول رائحة الموت الخفية تجعلك تهتز هلعاً وشوقاً لاستكشاف
المجهول المستعصي في المقابر، رغم هلعك تبحث عن حفرة مظلمة
تقف عند حاقنها،

تمد فيهاً بصرك إلى أعمق أعماقها؛ إلى ما تحتها!

وذاك كان ايضاً!

.. فضول رائخ الموت تجرّنا!!

اقتربنا حذرين، هبّت علينا رائحة شواء نفاذة بعبق الموت، تقيّء
صاحبي!

أكان ذلك خوفاً أم قرافاً؟!

..كتل بشرية متفحمة سوداء تمتد على طول الطريق وإلى أبعد نقطة
في البصر..

.. أكثر هياكل الشواء كانت منكمشة متقلّصة.

ما كان منها في مركبات، اختلطت بقايا اللحم والعظام المسوّدة منها
بالحديد المنصهر.

.. لا شك أنه أطول سيخ للشواء في تاريخ البشرية!!

كانت هنالك أجزاء كثيرة منفصلة محترقة متناثرة على جانبي الطريق.

.. أذرع وأنصاف رؤوس وأقدام بأحذيتها أطارها عصف الانفجار
مسافات.

استمر قيء صاحبي وقد تهالك على ركبتيه، غطى وجهه لمدة طويلة
قبل أن أمدّ يديّ لأنهبه، مشيراً بصمت إليه بضرورة مواصلة السير.

كيلومترات طويلة وعديدة، والصورة هي الصورة ذاتها.

رغم محاولتنا أن يكون مسارنا بعيداً عن سيخ الشواء الطويل الممتد عبر الصحراء، كنا نقوم حذرين باقترابات جديدة نستقصي فيها نهاية مشهد الجحيم هذا.

.. لا قرار ولا نهاية للجحيم!

خفت الرائحة قليلاً، لكنها وقبل ذلك، كانت قد استقطبت مئات الكلاب الضالة وربما تقاطر البعض منها من مدينتي الكويت والعبدي للمشاركة في وليمة القائد الحاتمية الكبرى.

أشرت على صاحبي بالابتعاد عن الطريق الرئيسي والإسراع على أمل الوصول إلى مشارف مركز حضري قبل حلول الظلام وقبل أن تشارك قطعان الذئاب لأخذ حصتها من الهبة العلية. أضف إلى أن بعضاً من الكلاب المستثارة بالروائح قد تفضل لحماً طرياً بدلاً عن آخر متيبس محترق.

(في العبدي) استطعنا المقايضة بكنزاتنا الصوفية مقابل بعض الأرغفة.. .. في مشارف الزبير وبعد مسيرة نهار كامل، كانت المقايضة بغطاءين صوفيين للرأس، وفي أطراف البصرة بقمصلتينا.

استمرت عملية التعري حتى وصولنا إلى أطراف الكوت (وبعد عشرة أيام من الإذلال والبرد والجوع والأقدام المتقرحة المتورمة، لم يبق خلالها خرنوب ولا أشواك طرية لم تعلق،.. حين لا يكون هنالك شيء يمكن أن يغذي أو يطري فمنا، كنا نضع في أفواهنا حصى نمصها ونقلبها في أفواهنا.

على مشارف المدينة كانت هنالك شاحنات في الانتظار ولك أن تتصور فيض سعادتنا حين لمحاها عن بعد.. لقد اغرورقت عيناى على حين أجهش صاحبي بالبكاء بشكل هستيري.

_ سننتظر آخرين قادمين حتى تمتليء الشاحنة.. سنوصلكما بعدها مع هذه المجموعة من رفاقكم إلى أحد أحياء بغداد الغنية، هناك الخير كثير، ومن يسكن في مدينة أخرى سيجد من هناك منفذاً ووسيلة. «الله ما يكطع بعبد» .. لكن أجور التعب والطريق مطلوبة «مو هيح؟؟»
أنتم زين تعرفون شحة البنزين والمواد الاحتياطية وكل لوازم الشاحنة، أنتو زين تقدرن إحنه هم ورانا بيوت وعيال فاتحه خلوكه. أشار بعينيه وبحركة رأس خفيفة إلى ما تبقى فوق جسدنا!

_ والريح والبرد في هذا الشتاء الزمهرير؟! تساءل ريفي.

_ أنتو شباب، ما شاء الله زلم حَسنه! راح تتراصفون باللوري وواحد يدفي الثاني.»

وخلعنا عنا آخر ما يمكن خلعه، بنطالينا وأحذيتنا.

..كانت هنالك شاحنة كبيرة قريبة يُجمع فيها كل ما يمكن جمعه من الأسلاب. »

تدحرجت إسطوانة مصوّرة بتقطيع بطيء، أمامي الآن.. سكان شواطئ المانش الإنكليز يعبون هم وقواربهم في عتمة الليل، لجة البحر إلى(دنكرك)، حتى قوارب الصيد الصغيرة سارعت معهم، لنجدة القوات المحاصرة.

أتابع حامد وهو يفرّ مرة أخرى من محبسه، في كامل قيافته هذه المرة..

.. بدلة عاتمة زرقاء، حذاء من الروغان اللماع، غترة حريرية بيضاء وعقال أنيق أسود. مشى مختلاً بعد أن عدّل حواشي غترته ورفع رأسه بشموخ وعلا
صوته :

_ أمجاد يا عرب أمجاد! في المحنة كرام أسياد!... أمجاد يا عرب
أمجاد!!

استمر في إنشاده إلى أن اختفى عند زاوية الزقاق.

علا صوت هدى مستنجداً مناشداً:

_ وينك يا مسكين، وينك؟!!

الجو غائم، لكنه في نفس مكانه من السطح، يجلس فوق الكرسي ذاته، غير أن الدثار الذي يلتفت به كان أكثر سمكاً.. عيناه ما زالتا مشدودتين إلى الأشكال التي رسمها سخام المطر الأسود على واجهات البيوت أمامه، لم تتبدل حدة حواشيها ولا هيائها حتى بعد أن غسلها مطر الله المألوف، لا بد أن ما حملته

تلك المطرة المشؤومة كان حبراً صينياً مخففا لرسوم الالوان !

باب بيت هدى أمامه لم يفتح ليومين.. لم يظهر حامد في عروضه الغريبة في الزقاق، لم يستطع الإفلات.. يبدو أن الأفعال قد أحكمت عليه أكثر من السابق.

تتضيب رسومات الواجهات المحيرة أمام عينيه ثم تتلاشى.. تطفو أهرامات مكعباته وهيائته الأسطوانية وتنفطر، فارشة أمام وعي الذاكرة مقاطع أشرطة مصورة تختلف درجات وضوحها.

عواءُ الحربة

تماسك يا صفاء.. تماسك يا حبيبي ستزول كآبتك قريباً، ها قد تحركت الحافلة، وغدا فجر آخر وبلد آخر ومستقبل آخر.

لم يكن يعلم بمغادرتنا، في رحلة (الاستجمام) الى عمان إلا افراد، هم خلاصة الثقة المتبقية بالقلائل من الناس الذين يمكنك ان تفتح لهم بعض ما تخطط له او مما يجول في ذهنك حتى عن استجمام خارج البلد، فكيف بهروب لا رجعة فيه.

حتى تلك القلة من الاقربين المؤتمنين، لم نضع امامهم احتمال اللا عودة..

عبر وسيط توقعناه أميناً، في الحسابات التي لا يمكن ان تكون مأمونة النتائج في كل شيء قابل للبيع الشراء واولها الضمان.. عبر هذا الوسيط دفعنا الف دولار لضمان اجتياز نقطة تفتيش الحدود.

قرب الحافلة المغادرة الى عمان، وفي صالة الانتظار، عرفنا الوسيط الى عادة حسناء في منتصف العشرينات، مكنتزة الجسم بملابس غاية في الاناقة.. اخترق سواد عيناها الوسيعتين وشفتها الممثلتتين وحلقنا قرطبيها العجريين الكبيرين وشعرها المنسدل الفاحم، اخترق حواجز كآباتي وضبايياتها لتهنني للحظات.. تابعتها بإمعان.

.. حيثنا بابتسامة مطمئنة دون كلمات كثيرة، برعايتها.

انتقل بها الوسيط الى بضع اناس آخرين (سيحظون برعايتها)، كانوا ينتظرون معنا في الصالة..

كان مقعدها في الصف الذي امامنا في الحافلة.

.. الكمّاشة اللعينة لا زالت تهصر صدري.

..كانت آهة حزينة شبه دامعة، من المفترض ان تكون تنفساً للصعداء،
وانا ارى معالم بغداد تبدأ بالتفرق ثم الانسحاب .

..لَقُبُ المهدي قد أخفي عن جواز السفر، المهنة أبدلت.. ساعد في كل
ذلك أن القائد المظفر وقد تعب من هزائم انتصاراته وضاق ذرعا -
لفترة وجيزة- من نقمة جماهيره، فارخى رقابة الجوازات والحدود
قليلا.. ولكن..

.. كان ركاب الحافلات المتوجهة الى عمان، وهي النقطة الوحيدة
المتاحة، كلهم من المشتبه بهم، في اعين كلاب حراسته المسعورة..

توقفت الحافلة عند ابي غريب.. صعد عسكريان ضخمان بملابس
ميدان، تفرسوا بوجه غاضب، وهما يقفان قرب السائق، بركاب الحافلة
ثم سارا واحدا خلف الآخر، يتمنعان بوجوه الجالسين الذين بان على
معظمهم القلق، وران صمت مخيف لا يقطعه الا صوت مشمئز أمر:

_ جواز سفرك وهويتك!!

.. يُخرج المسافر المبهوت وثيقته..

يتحركان ببطء في ممر الحافلة..يحدقان احيانا وعن قرب بوجه بعض
الجالسين:

_ جواز سفرك وهويتك!! يتكرر السؤال المشمئز الأمر..

اشيح بوجهي بحزن صوب النافذة وتتضيب الرؤية.. اسمع احد كلبي
الحراسة

_ كُوم انزل وبيانه!!

_ ليش سيدي!.. ليش!!

_ بلا سؤال وجواب.. تكوم لو نجرّك جز؟

انظر صوب شاب في الثلاثينات بملابس مدنية ينهض منكس الرأس ويمشي بوجل وبطء امام أحد العسكريين..

.. عند باب الحافلة، يشير العسكري الى اثنين يقفان قرب سلّمها لاستلامه ويعود ليكمل بحثه بين وجوه المسافرين (المريية)

.. "كل وجوه خوات الكحبة ذوول لازم وراها شي مضموم!!.. رايعين لعمان من شنو مهزومين؟!.."

لم يكن الذي أراه اكثر مما رأيتُه وعرفته، من حامد الذي جُنَّ وهام وهو يهزج في الشوارع:

" امجاد يا عرب امجاد!.."

.. او تلك الهياكل الضامرة شبه العارية التي ترميها الشاحنات، و التي تطرق ابواب البيوت، وقبل ان تطلب ما يسد جوعها، تطلب ما يغطي عورتها:

_ السِتر!.. السِتر! يا اهلّ الغيرة والرحمّ السِتر!

.. وما الذي تعنيه هذه الجثث الضخام المسربلة بالاحزمة والقيود والسلاح، اكثر مما عنته جثث ضحايا الذين ثاروا على القائد المظفر المهزوم، المرمية في الشوارع التي كانت تنهشها الكلاب، تُعرض علينا كل يوم من شاشة التلفاز ومعها اغنية " الله يخلي القائد!.. الله يطول عمره!.."

".. ان نُعاد الى نقطة الصفر.. الى سطح البيت المسود بسخام مطر
هزيمة القائد المظفر ابدا .. الى مكعبات الكآبة المنفرطة امامي على
بلاطات السطح.. الى صوت هدى وهي تركض وراء اخيها الفالت
الحافي في الدروب شبه المقفرة وهي تنادي:

"_ وينك ياخويي ياحامد.. وينك يامسكين؟!.. وينك انكطع جبدي
عليك يا مظلوم!.."

كلبا الحراسة العسكريين المدججين بالسلاح تجاوزانا!..

.. اتابع المنظر المضرب بالدمع عبر نافذة الحافلة التي تحركت.. عادت
الاصوات الهامسة وبعض الضحكات الخفيفة.

تكرر مشهد كلاب التعقب العسكرية بعد الفلوجة وعند معبر جسر
الرمادي.

اغفى الجميع فيما عداي.. لا زلت اتابع الظلمة..

بدأت الحافلة تتباطأ في السير..

_ وصلنا طريبيل يا جماعة!.. كلمن ينزل وياخذ غراضه ويّاه ويروح
للتفتيش والجوازات!.. من تخلصون ارجعو لمقاعدكم!.. خلونا بتسهيل
الله نخلص ونمشي بسرعة.. استدار السائق مخاطباً الراكبين.

لم تكن هنالك كلاب حراسة عسكرية داخل البناية الصغيرة، الموضع
المضاء الوحيد وسط ظلام الصحراء..

جرى كل شيء بسلام وهدوء تقريبا، لم يكن ذلك في الحسبان ابدأً،
فيما عدا بعض التوسّلات، من قبل مسافر كان يحمل معه سجادا ايرانيا
ثميناً، تمت مصادرتة.

ما أن اجتازت الحافلة بوابة السياج المعدني لنقطة الحدود، حتى علّت الاصوات في صخب ومرح.. انطلقت هلاهل من نسوة في مواقع متفرقة من الحافلة، اعقبها ضحك وتصفيق استحسان من الجميع.

بعد الحدود بدقائق، توقفت الحافلة، وكانما ادرك السائق حاجة الركاب الى التخفيف عن توترات الطريق، وكلاب الحراسة، ومركز الحدود، واعطاهم فرصة استراحة قصيرة في منتصف الليل، قبل ان يواصلوا قطع بقية طريق البادية الطويل.

نزلت من الحافلة.. رحّت بعيداً عنها..

جسّت في رملة البادية وعمتها ونسماتها العذبة..

.. فتحت ذراعيّ على وسعيهما وتنفست، وكانما استنشقت هواء عزّ عليّ لدهور.

ابتعدت اكثر.. احسست بانني بدأت امتلك شيئاً مما حولي.. شيء يخصني انا..

.. شيء أنا حر فيه وبما افعله فيه... بضعة امتار من الرملة التي تحسستها بكفيّ

..مساحة اوسع من ذلك بقليل!.. اوسع بكثير!!

.. امتلك البادية حولي!!

.. كل البادية وكل نسيمها البارد العذب، المعطر برائحة التربة والرملة الندية!!

..امتلك العتمة اللامتناهية، التي تلتصق بعباءة السماء المخرمة بالنجوم
ووهج درب التبانة بينها!!.. امتلك الاكوان وامتداداتها!!

أطلقتُ عواءً عاليًا!

اطلقته بكل ما في صدري وانفاسي من عزم.

.. تردد صدى صوتي فطربت!.. انتشيت!

أعدت العواء بفرح مرة اخرى.

نبحتُ كنباح كلاب البساتين في وجه البدر المتعالي.

أعدتُ النباح مرات عديدة حتى سقطت اعياءً واستلقيتُ على ظهري
في الرملة الباردة وبدأت اضحك بنشوة وجذل فترة طويلة.

نهضت ومسحت عيني من الدمع.

.. خطوت خطوات واثقة نشطة متوجها صوب اضواء نوافذ الحافلة
الراقدة في الليل.

_ اين كنت؟!.. لقد بدأت اقلق عليك حتى لقد اوشكت ان اوقظ السائق
الذي راح في اغفاء استراحة حال جميع الركاب.. لقد تَغَيَّرتَ عما
كنت قبل نزولك.. انت تبتسم لأول مرة منذ اشهر..

قاطعُتُ تسألُها بقبلة على خدها.جلستُ الى جوارها واحطتُ كتفها
بذراعي..الصقتها بجانبها وقبلتها من جديد.

.. اشرق وجهها بابتسامة وهي تسأل:

_ لا صدغَ وين رحمت هل المدة..

_ رحّت عوّيتُ ونَبَحْتُ.. وانتِ تعرفين قصة الكلب الذي أَلقتِ شرطة الحدود التركية القبض عليه؟!.

ضحكت زوجتي كثيرا حتى شَرقتُ بدموعها.. ادارت رأسها صوبي.. احتضنتني وقبلتني.

" _ ما الذي جاء بك هنا وكيف غامرت وعبرت كل هذه الجبال والموانع.. سألت شرطة الحدود التركية الكلب العراقي الذي أَلقتِ القبض عليه.

_ لا شيء والله لا شيء، الا لأعوي وانبح واعدود من جديد الى صغاري واهلي في العراق. "

آمالٌ في عمان

بدتُ عمان جميلة ونحن ندخلها عند الضحى.

.. شمش مشرقة وهضاب تطلّ على المنخفض الذي نحن فيه.

.. أسواق وضجيج.. الناس مشرقة الوجوه، غير تلك البائسة المسكينة التي عرفناها حولنا بعد أم الهزائم.

.. لا حامد يضيع في الدروب هازجا " امجاد يا عرب امجاد، ولا اخته التي تتعقب هروبه من بوابة بيتها، وهي تناشد الاخرين بندائه، " وينك يامكرود!.. وينك يا بعد جبدي يا حامد!.. وينك يا مظلوم! " .. لا سخام مطري يغطي واجهات البيوت.. لا احساس بالانضباط يتهادى بزهو فوق ارصفت الشوارع، وعصاه تهتز صاعدة نازلة، تكاد تحزق عيون المارة في مشيته المختالة، وكأنه بعصاه يقول: لا تنسوا انني هنا بينكم دائما!! أعودكم حود الاغنام الى حضائري، لا الى حضائركم، بل الى حضائري أنا!.. لا صوت لمذياح يعلو في الشوارع والساحات وحتى في بعض البيوتات " هلهل على السائر شاجور"، ولا "الله يخلي الرئيس!.. الله يطول عمره! " ..

احتضنها ونحن نسير بخطى وثيدة فرحين، ننظر الى دكان العطارة القريب وكأننا لم نر العشرات مثله في الشورجة او في سوق غزل.. نقف عند المقاهي ننظر باكتشاف مذهل الى الناركيلات تقرقر في افواه الزبائن.. الى صانع المقهى يدور بمرح ونشاط، صارخا " واحد زنجبيل، واحد قهوة على الريحه وواحد يانسون"، ثم يوزع ما بيده من اقداح وصحون على الزبائن.

.. أشتري قلادة من الاحجار الملونة من بدوية تتربع الارض بين نساء
اخریات يعرضن سلالا واقمشة وبسط.. امازحها قليلا..

في الشميساني حيث اوصلنا سائق التاكسي، حيث الابنية والاسواق
والمحال التجارية المنتشرة بين الهضاب تذكر بتلك التي على هضاب
ضواحي بيروت أنيقة وانسجاما..

.. نستقر في احد الفنادق الصغيرة التي يشبه منظرها من الخارج
بيوتات المنصور الراقية.

لا إحساس باجهاد او تعب جراء الرحلة الطويلة المشحونة بالترقب
والتوتر.. كل ذلك تبخر، ما أن تناولنا شاينا في المطعم الانيق المطل
على منحدر رابية جميلة.

بعد تجوال فوق ارضة مناطق الشميساني بين ظلال اشجارها
ومساحات مزهرة خضراء ومقاهي واسواق وبضعة معارض
واكشاك اطعمة سريعة..عدنا بعد منتصف الليل من عالمنا الجديد الحُر
منبهرين.

ها قد اعددنا وثائقنا واوراقنا وشهادتنا.. علينا أن نبدء الآن بما عزمنا عليه..

.. الهجرة الى اماكن قصية.

.. كلما كان ابعد كان ذلك احسن وأمن!

..وما اسهل ذلك طبيبان باختصاصين هامين، وبلدان نائية شبه مقفرة
تسع كل مهاجري الارض الهاربين.

..ها نحن اثنان بهما كل القدرات والحاجة الماسة للبدء من جديد.

سألنا في الصباح الباكر عن عناوين بعض السفارات والقنصليات من
استعلامات الفنادق، وسجلنا البعض الاخر من دليل الهاتف.

كان الفرع الطويل من الشارع، المؤدي الى القنصلية الامريكية، يكاد
يكون مختنقا بطابور من مئات المتزاحمين، كل يحمل اوراقا ولفائف
وعلب.

حين اقتربنا وتمعنا ببعضها، عرفنا ان بها قليلا من المأكولات..
آخرون كانوا مع ترامس صغيرة لماء او قهوة او عصير.

_ اني أطلع كل يوم من ظلمة الله حتى آج لهون واوكف بهل الطابور.
قال احدهم شاكيا لمن وراءه.

توقفنا برهة ونظر احدنا الى الاخر بخيبة.. بعد برهة من الدهول

_ ما ترين يا حنان، عمال بسطاء واناسا كادحين.. الامر مختلف

معنا، لابد من أن هنالك مدخل آخر للقنصلية.. كنت اخفف

الصدمة الاولى عنها.

فعلاً كان الامر كذلك. قطعنا دقائق ونحن نسير في الزقاق الى جانب الطابور الطويل الذي يتزايد لغطه وصخبه كلما اقتربنا من بوابتين من قضبان حديدية عالية. كان الاول وجهة الصف الطويل والذي علا التزاحم والصراخ كلما اقتربنا منه، والآخر اقل من ذلك بكثير.

كان هنالك صف من عشرة اشخاص تقريبا يقفون بهدوء ودون لغط كبير..

.. اخذنا موقعنا خلفهم.

مضت قرابة الساعة حتى وصلنا الدور وراء البوابة المغلقة.

_ ما الذي تريدانه؟! .. سأل رجل بملابس مدنية بوجه رسمي اقرب الى العبوس.

_ نريد استحصال الفيزا.

_ هل لديك موعد؟

_ كلا.

_ هل تريدان فيزا سياحية؟

_ نحن طبيبان باختصاصين عاليين..

_ لديكما وثائق بتعيين في مستشفيات او اماكن عمل أخرى في الولايات المتحدة؟

_ كلا سنستحصل فيزا للدخول ونعرض خدماتنا هناك.
_ يعني تطلبان الهجرة.. هذه اوراق بالتعليمات والارشادات والوثائق
المطلوبة واستمارات حول الوضع الاجتماعي والصحي والفحوص
والتلقيحات الوبائية.. كل ذلك موجود في هذه الاوراق.. حين تُكملا كل
ذلك بعد مدة عليكم الوقوف في طابور البوابة المجاورة، و اشار الى
البوابة التي يتزاحم عليها الحشد الطويل لتقديمها، وبعد شهرين من
التقديم واستلام وصل بذلك، عليكم مراجعة نتيجة قبول الطلب الاولى
بعد ذلك بستة اشهر.. وقد تتأخر النتيجة اكثر من ذلك.. حينها
ستعودان السؤال بين فترة واخرى.. في حالة الرفض لا مجال للتقديم
مرة اخرى خلال خمس سنين.
سَلَمنا حارس البوابة عشرات من الاستمارات والتعليمات المدونة في
كراس صغير.
_ شكرا أخي وكثر الله خيرك!

لم يكن الحال أحسن بكثير عند البوابات الحديدية للسفارة الأسترالية .. كان السؤال عن البوابة: هل أنت طبّاح (chef)؟ .. هل أنت عامل كهربائي؟ .. هل أنت سائق حافلات؟ .. لم تكن مهنتنا في قائمة طالبي الهجرة.

مع الخيبة وبوادر الكآبة التي بدأت مطالعها تعود عليّ، كان علينا التقهقر ومراجعة الخطط والحسابات، ومن أهمها الوضع المالي..

.. عمان جميلة ومنفتحة وخالية من الإرهاب.. غير أنها مكلفة لأمثالنا ذوي الميزانية المحدودة، سبعة آلاف دولار التي استطعنا إخفاءها عبر الحدود والتي قايضناها بشق الأنفس عبر تجار العملة في بغداد، لن تصمد طويلاً.

لا بد مما لا بد منه.

اتصلت هاتفياً بأحد المعارف القدامى المقيمين بعمان، سائلاً مساعدته في إيجاد سكن أرخص من الفنادق باهضة الأسعار.

وجد لنا استوديو غير بعيد عن سكنه بايجار اسبوعي معتدل.

.. إذاً التوصل مع الآخرين، والذي كنت أخشاه واتحاشاه من بقايا رهبة الرقيب، التي نفذت إلى كل مساماتنا في بلد الزعيم المنتصر وعصابته، له فوائد في عمان.

ضمن استراتيجية التقهقر ومراجعة خطط التحرك القادم، اتصلت ببعض من معارف آخرين عراقيين وأردنيين من طلابي في البصرة، ومن دفاتر عتيقة ترجع إلى الخمسينات في جامعة دمشق.

.. نعم يا للفرحة!!.. عبد الكريم البوريني متواجد في عمان.. المحامي الأردني من صفد والذي شغل مناصب عديدة هامة في الأمم المتحدة،

والذي كنت اتواصل معه بالرسائل في اماكن وازمنة مختلفة اثناء
جولاته الاممية في الاحصاء السكاني في بلدان عديدة.

البوريني الذي كنا معا نقتسم كل شيء، نقودنا، زادنا، وحتى ملابسنا
في غرفة صغيرة بسيطة سعيدة نعيش فيها في حارة (دق الباب) من
دمشق.

كان المساء قد حلّ حين حضر البوريني الى الاستديو الذي استأجرناه..

اثناء تقديمي الشاي وبعضا مما لدينا، اخذت اتحدث اثناء تنقلي عن
إفلاتي اخيرا واستطاعتي مغادرة سجن الطاغية الكبير، منزلا لعناتي
عليه وعلى عصابته. كنت احتضنه كما كنت افعل ذلك كثيرا، قبل
خمس وثلاثين عاما حين كنت امازحه (اداهره) الى حدود غضبه،
فاضحك بعدها بصخب.. نضحك سويا حينها الى أن تدمع عيوننا.

.. انتبهت الى انني اخاطب كريماً آخر.. بورينيا متحفظاً، زاد من
صمته وتحفظه، افساحي عن دواخلي من النقمة على القائد البطل
(الذي ضرب) اسرائيل (ب)طرقات البوتاس التي كنا نلعب بها صغاراً)،
وعن المصائب التي جرّها على بلدنا..

" فَضُوْا لَنَا السَّاحَاتِ حَتَّى نَتَكَوْنَ بِيَهْنُ!! "

..(فَضُوْ) له الساحات حتى (يُتَكَوْنَ)، واقتلعت ملايين الاشجار
والنخيل في (الدعيج)، ومن ابي الخصيب الى الفاو، ومعها هامات
مئات الاف شامخات النخل حولها والقريبة منها ..

تبدلت سحنة البوريني الى جدية وعبوس، وابتعاد عن اية مودّة يمكن
أن تظهر لا لصديق عريق، ولا حتى لمعرفة عابرة..

.. اختصر حديثي، بمقاطعته بعبارتين عن الصحة والاحوال، حتى دون سؤالي عن غرضي من المجيء الى بلده وموطنه..

_ قبل أن تهجم الظلمة دعني أخذك في جولة في ضواحي عمان !

ركبت معه سيارته الفخمة.. دار حول هضاب جميلة خضراء بغابات صغيرة من الارز والسدر والدوح والهور، انتشرت بينها مقاهٍ وممتزحات ومطاعم عديدة، تجاوزها.. كنت انتظر واتصور انه سيتوقف بعدها في مقهى او مطعم مميز يعرفه، وهو مقصده من جولته تلك..

.. لم يحصل أيّ من ذلك، حتى ولم يتوقف عند باعة اكشاك المرطبات لتناول شيء اروي به عطش الصيف.

عاد بي الى موقع قريب من الاستوديو الذي اسكنه.. توقف.. نزلت من السيارة شاكرًا لطفه على الجولة.. لم يترحزح من مكانه وراء مقود السيارة:

_ تكرم خيو! اجاب وغادر.

بدأنا بخطة (..B.الموقع المُتاح!)

لم تكن مواقع العمل التي يمكن الوصول اليها في الفرع الجديد من الخطة غير قبرص (حصلنا على فيزتها بعد اقتناع واثباتات بالعودة الاكيدة)، لبنان (فيزة سياحية) وتونس (فيزة سياحية).

.. جَرَدْنَا الحسابات، مع وضع كافة العقبات المتوقعة.. المبلغ الذي لدينا لن يكفي لاكثر من شهرين او ثلاثة كحد اقصى.. ارشدنا احد المعارف الى موقع لوسيط في هجرة العقول (ذات الكفاءات والشهادات) ..

أطلعنا الوسيط، الذي يحتل مكتبه الواسع موقعا مميزا في عمان، على اسلوب وساطته (الهجرية) الى كندا.

.. عرض علينا عشرات من محافظ لاوراق وشهادات واستثمارات المتقدمين مرتبة فوق طاولة عريضة، سنكون حافظة اوراقنا من بينها في انتظار وسيط آخر أكبر، يفد من كندا كل شهر او شهرين، ليطلع ويختار الافضل بين المتقدمين.

لم يكن لا الشرح، ولا الوسيط الشارح، ولا حتى المكتب ومحافظ الاوراق المرتبة بعناية، مما يطمأنني ويقنعني..

قد أكون أنا وتحفظي وقناعاتي على الجانب الخطأ؟!... وهل هناك حلول اخرى تحت اليد؟!!

سلمنا صورا مصدقة من وثائقنا، ومعها مبلغ ثلثمائة دولار عربونا عن بقية تكاليف الوساطات.

غادرنا نصف خائبين.. مسطولين.

_ دعينا نشرب فنجان نحتفل ولو كذبا بهذا المشروع الكندي.. هيا بنا الى مقهى (الجدول) قرب سكننا.

المُفَاهِةُ

رَنّ جرس الهاتف صباح يوم مشرق.

_ صباح الخير دكتور صفاء!

_ صباح الخير عصام.

_ مرتاحين بالاستديو اللي جبتكم إله.. لو اشوفلكم غيره!.. على كل هذا حجي وياكم من اجيكم للمكان.. عندك وقت لَجِيْتِي هَسَّه؟

_ الف مرحبة بيبك.. تفضل!

على فنجان القهوة وسيجارة الصباح قال عصام:

_ أنت تعرف ابوك هنا يَمَّكُ قريب؟

_ شنو يعني قريب؟!، هو دُومَه قريب، عُمرَه ما فارَكْنِي.

_ لا.. بس آني اسألك انت تعرف هو بدمشق؟.. ضيف الرئيس حافظ الاسد؟.

اوشك فنجان القهوة الذي اقربه من فمي أن يسقط.. وضعت الفنجان بيد مهتزة على حاشية صحنه فانكفأ..

_ انت تعرف هذا كله وما تَكُولِي؟!.. ليش اخوي عصام ليش!

_ ردتُ أتأكد من الخبر كَبِل ما أَكُولُكُ.. سمعت اشاعات كَبِلها، بس بَكْهوه العراقيين تأكدت البارحة وَحَصَلْتُ إلك رقم تلفون قصر الضيافة من واحد زار المهدي الكبير بالشام.

_ جَيْتَك خير علينا ها الصبحية عصام.. نهضت وقبلته.

بعد اقل من اربع ساعات كنا عند مركز الحدود الاردنية..

كنت قد اتصلت قبلها بقصر الضيافة.. لم يكن المهدي في الدار، ولعل ذلك كان افضل إذ أن هذه الآلة اللعينة الجامدة، بتوصيلات اسلاكها المعدنية الباردة تمسخ وتجمّد كل عواطفى معه في الحديث.. ارهب الحديث معه عبرها، وكاننى لست انا الذي اخاطبه، بل شخص آخر ماتت فيها نصف عواطفه المرتعبة.

اخبرني أخي زيد أنهم سيكونون بانتظاري عند مخرج الحدود الاردنية.

في قسم المغادرة الاردنية، واثاء الانتظار، صَفَّتْ الى جانبي فتاة جميلة دون العشرينات.

_ هل انت مغادر الى سورية؟.. انت عراقي مثلي؟

_ نعم.

_ لا اعرف لِمَ تغادرون انت وغيرك الى سورية!.. وامامكم عمان الجميلة، وحتى بقية العالم كله للهجرة..

اصمت دون اجابة..

تنظر الي بنظرة عتاب رقيقة من وجهها.. وجه جميل دون اي مكياج يزيد من ملاحظته.

_ لعلك لا تعرف أن هنالك مركز في عمان، تابع للامم المتحدة لقبول الهجرة، يُوزع فيه المتقدمون على فنادق راقية تتكفل بكل ما يلزمهم من مأكل ومشرب،.. فنادق يرفرف عليها علم الامم المتحدة، بانتظار تسفيرهم الى بلدان الهجرة الاوربية والامركية والكندية.. لماذا لا تتوجه اليها بدلا من سوريا، وانت كما يبدو انسان ذكي متعلم..فكّر! قبل أن

تعبّر الحدود، فلا يزال امامك وقت لذلك!!.. فكّر في علم الامم المتحدة
يرفرف على فنادق عمان الجميلة!!

رفرفت باصابعها الرقيقة الطويلة.

" كم عندك من خدم ايها القائد المظفر ابداء، آلاف في خدمتك

كيف لا وانت المعجزة التي قال فيها شاعرك (لولاك ما طلع القمر!..
لولاك ما اخضر الشجر (!..او الآخر " والآن روعي بهذا الضوء
تكتحل .."

" كيف لا وحتى الصبايا الحسان في خدمتك.. هاهي الصبية المليحة
السمراء الجالسة بجانبى الآن، وقبلها وسيطتنا العجربة المثيرة التي
رافقتنا حتى الحدود.."

" كيف لا وقد حسبتُ بارقام لا تقبل الخطأ، اكثر من نصف مليون
موظف مخابرات وامن سريين في بغداد لوحدها.."

.. كنت املء خزان سيارتي بالوقود في احدى محطاته في بغداد..

توقفت سيارة برقم حكومي في مكان الوقود بالنسيئة، تقف وراءها
سيارة برقم مدني (مثل رقم سيارتي) ثم أتى بعدها الى مكان ملء
الخزانات بالنسيئة (بيك أب) برقم مدني ايضاً!!

لم يَطل التفكير.. سيارات مدنية تحمل اناس يعملون سرّاً!!..

..مخابرات أمن.. حماية الخ!

.. شدني الفضول لتقصي مجتمعي.. اهلي وصحبي ومن حولي.. ناسي
في بغداد.. وقفت عند بضع محطات بنزين ساعة واحدة اعدُّ السيارات

المدنية التي تملأ بالنسيئة.. عرفت كم محطة بنزين في بغداد من عامل
احدى المحطات.

.. بحساب ساعات عملها اليومي وعدد الذين يملؤون بالنسيئة منها،
امكنني حساب عدد الاناس (السريين) في بغداد لوحدها ممن يتقاضون
رواتب عن خدماتهم التجسسية.

كانوا اكثر من نصف مليون فرد.

.. اصف اليهم من يعمل علنا في اجهزة الأمن والمخابرات المدنية
والعسكرية منها.

.. هذا غير من يعمل بالمكافئة، او ب(القطعة).. او الايذاء، لوجه الله
تعالى والحزب والقائد، او العكس هو الاصح: لوجه القائد والحزب
والله.

نظرتُ الى الصبية الجميلة وابتسمت شاكرا.

سهود عند قدميَّ الحمد الهدي

ما أن غادرنا نقطة الحدود الاردنية متوجهين الى صفوف سيارات كثيرة منتظرة، حتى احتضنني اخي زيد بحرارة.
توجهنا الى سيارة فخمة سوداء.

كان السائق ابو وسام يكرر ترحابه بالقدوم اثناء سياقته في الطريق
وانا في عالم التيه، لا اكاد اسمع حديث الجميع وأسألهم.. كان
ذهني منشغلا تماما في تصور اللقاء.

بعد اكثر من اثني عشر عاما!!!..

كيف هو الآن وقد تجاوز التسعين؟!.. كيف يبدو وجهه؟!..
اظهرت غضون كثيرة فيه؟

.. لم أر عليه غضونا في آخر لقاء به.

.. هل انحنت قامته الفارحة المنتصبه اثناء مشيئه الواثقة العجلة
بين غرف البيت؟

.. الا يزال انيقا في كل مكان يحضره ..حتى بيننا نحن اهله؟!..

توقفت السيارة عند بوابة واسعة مشرعة لقصر ضخم جميل من
طابقين بحديقة امامية غناء.

نزلت، لم انتظر من معي.

.. سارعت لاجتاز الحديقة وارتقاء السلام الاربع ودفع احد درفتي

الباب.

.. يقف منتصبا منتظرا، بروب دي شامبر، بوجه مبتسم بطاقيته

ذاتها، مائلة فوق جانب رأسه.. لم انتبه الى الحاضرين من حوله

.. اسرعت وقد اهتز صدري من الوجيب، الذي صعد الى زوري

وتضبيبت عيناى.

.. سقطت ساجدا عند اطراف قدميه..

اطلت السجود كي اسيطر قدر المستطاع على انفعالاتي، وكى

انهض بوجه مشرق باسم، كى لا تؤذيه مدامعى..

احسست بكفيه تمسك بذراعى وتشدني رويدا لأنتصب فاستجبت

على الفور وجدته امامى ووجه تمتزج فيه البسمة بالحيرة

والتساؤل، ولكى لا يفصح عن انفعاله الشديد، هزّ رأسه صوب

الاخرين فى الغرفة التى احتشدت بجمع من زيد وسليمة وام سالم،

التي كانت تقف الى جواره، وابى وسام احد سائقيه

الخاصين، وبالطباخة ومعين الدار... الكل يشهد لقاء المهدي بابنه

الهارب وزوجته. احتضنته.. قبلته من وجهه ورأسه وأخذت كفه

الكبيرة باصابعها الطويلة النحيلة.. قبلتها ووضعها فوق هامة

رأسي تبرّكا كما كنت افعله دائما ..

.. تراجعث انملةً عنه لاعيد النظر اليه، وهو لا يزال على تلك البسمة
التي يداري حيرتها ويغطي بها انكشاف العاصفة التي تجتاحه..

(لم أر المهدي وفي كل المناسبات ومع اقرب الشخوص اليه
محتضناً.. ولا مقبلاً احداً.. قد يضمك جنبه بذراعه، قد يداعب شعرك
او اي جزء منك .. لكن أن يحتضن احداً بذراعيه الى صدره فلم يحصل
ذلك امامي.. يحصل كثيرا وكثيرا جدا، على ما أتصوره، في خلواته..
في عشقه وعبثه).

(يكره ان تنكشف عواطفه للغير إلا عبر قصائده.. إلا عبر غضبه
العاصف وفي اي مكان، الذي قد يطير اشياء صوبك او قد يُطيرك في
رميته بها..

.. عاطفة المحبة المكشوفة للعلن والعموم نوع من الضعف، كشفها
بهذا الشكل المبتذل، يبطل سحر المحبة والمحب والحبیب معا.. ولو
غلبه هيجان هذه العواطف واوشكت ان تظهر للملأ.. فسيحيلها في
ومضة عين الى عاصفة عارمة من الغضب والتذمر والنقمة.)

احتضنتُ أم سالم وقبلتها.

خلال هذه المدة التي لا اعرف كم طالّت، فجأة انتبعت فاستدرتُ لاجد
حنان واقفة تنتظر بعينين دامعتين الى المشهد الدرامي الذي لا احسب
انها رأت له مثيلا في حياتها..

احطتها بذراعي تقدمت بها.. سارعت أم سالم الى احتضانها.

_ كم سمعنا عنك!.. عن عروس صفاء الجميلة.. أنظر ابا رافد!.. أنظر هي من يليق بصفاء لا غيرها.

..تقدمت أم سالم محتضنة حنان، التي بدى عليها الحياء وكادت تتعثر، وهي تتقدم بوجل صوب المهدي.

.. حاولت أخذ يد المهدي وتقبيلها.. سحبها..وضع كفيه على رأسها قربه.. انحنى عليه وقبله.. ظلت ساكنة كالطفلة الصغيرة، قبل ان تنسحب بهدوء وتمسح عينيها.

_ كافي تظلون واكفين..أكعدوا استراحوا من تعب الطريق وخلينا ندردش شوية.. صفيّة سويلنا الجاي وحضري عشا خصوصي اليوم.. اشارت ام سالم الى الطباخة، التي كانت لا تزال هي والمعين والسائق ابو سليم يقفون مراقبين المشهد والابتسامة تملو وجوههم.

انصرف الثلاثة وجلس المهدي فجلست جنبه، في الوقت الذي سحبت أم سالم حنان قربها على الكنبه العريضة وراحا في سؤال وجواب ومزحة وتقطيبة جادة.

_ كلي ابوحسن شلون دبرت طلعتك؟!

_ اسمي صفاء حمد، بدون لقب المهدي، والمهنة (متقاعد)، وبمساعدة عادة صدامية جميلة تسوه الالف دولار على الحدود.

_ ومهنتك؟! والناس المنتظرين خدماتك؟!

_ إنهديت بويه! مرصت.. ما تحملت اشوف الشباب اللي وكفوا بحفر المزابل، يدافعون عن وطنهم شبه عزل وجواعه، ترميهم الشاحنات مثل الازبال بين البيوت عريانيين، يدگون ابواب البيوت يصرخون " ستر يا اهل الرحم.. ستر ينطيكم الله " قبل أن يسألوا ما يسد جوعهم..

..ما تحملتُ مئات الجثث بالشوارع للناسُ اللي ثاروا على الظلم
والموت القسري تنهش بيها الجلاب، بعدما منع القائد المنتصر اهاليهم
من دفنهم.. يوميا نشوف المنظر هذا بالتلفزيون، ويّه اناشيدٌ واغاني
بحياة البطل اللي مشغولٌ وي جوع الناس، بيني قصور اضافية إله،
والطيارات تنقل إله ولحاشيته الفاكهة البرازيلية والسيجار الكوبي..

وكعتُ مشلولٌ بدون حركةً من الكآبة لوما حنانُ الشجاعة، اللي عافت
اهلها وبيتها الجديد اللي بنيناها.. وصلتنه اخبارواحنه بعمان، مِنْ عرفو
بهجرتنا، إتهب كل ما اكو بالبيت حته لما ما بقه شي شلعوا كاشي
البيت والشبابيك.

صمت المهدي وانا أنكس رأسي بعدما عادت الذكريات السود.

نهضتُ واخذت ادور في الصالة متشاغلا بمتابعة بعض الصور وقطع
تحفيات صغيرة مرتبة فوق بعض الرفوف.. عدت لابعد بقايا اثار
الزوبعة السوداء بالنظر الى الحديقة الجميلة التي اضىف عليه الغروب
سحرا وغموضا..

_ ما رايك بقده صغير شيخنا.. أم أنت لا تزال غارقا في بحر الدين
والحلال والحرام؟! ..قال المهدي مازحاً

_ تركنا الدين.. أو شكنا أن نفقد كل ايمان في عهد الاوضاع التي انحدر
اليها البلد وانزلق فيها معظم الناس.

عدت لأجلس الى جواره واحتضنه بذراعي وانا اتملى وجهه:
_ متى كان قرارك بالاستقرار في الشام، وكيف امكنك التخلي عن
غادتك الجميلة براغ.

_ قصة طويلة، خلاصتها الدعوة الكريمة التي تكررت مرارا من سيدة الثقافة..وزيرتها السورية الدكتورة نجاح العطار، ومن السيد الرئيس ذاته على لسانها.. غير اشياء اخرى بدأت تضايقني في براغ.

_ ليس غريبا اقامتك في الشام وانت ابن عشريناتك تقول فيها:

أني شاميّ اذا نُسب الهوى

وإذا نُسبْتُ لموطني فعراقي

هذا وانا شاهد هذا العشق في الخمسينات، وانا اعيشه معك هنا في حارة سبع بحرات.

بعد الثامنة، وحين علم ابو عمر مدير وكالة (سانا) السورية للانباء والدكتور فاضل الانصاري حضرا وزوجتيهما ليهنئا المهدي بقدم ولده صفاء.

شخصان في غاية اللطف والأريحية ومحبة المهدي الصادقة.

شاءت الصدفة أن تجلس السيدة العيلة الجميلة أم عمر بفستانها (الد يكولتيه) وذراعيها المكشوفين الى جوار المهدي، وما أن انقضت دقائق المجاملات القصيرة مع الضيوف الرجال، حتى انشغل المهدي بجارته- التي التصق جانبه بذراعها البضة المكتنزة- وراح في حديث نصف هامس معها مديرا وجهه صوبها متمليا بين الحين والآخر.. رايته مرة اخرى في كامل الانطلاقة والانتشاء، خصوصا حين اخذ ذراعها - بحركة عفوية او تكاد- تحت ذراعه وهو يحدثها بحماس وانطلاقة..

"شبق التسعينات اراه فيك يا المهدي، حتى ولا املكه انا في العشرينات.. تظل ابدأ الحمد المهدي العجيب، الذي يحمل طفولته

وصباه ورجولته معاً.. لا يعترف لا بكهولته.. ويقتلك إن تجرأت واشرت
الى عمره رقما او زمنا.."

كنت مستمتعا بجلوسي بين الأنصاري وابي عمر، رغم انه كان شبه
استجواب مهذب، وخصوصا من أبي عمر.

.. الأنصاري جميل الوجه والقامة والقيافة والحديث، كان أكثر رفقا،
فهو العارف تماما بما مررت به وامثالي في البلد السجين.

عاد المهدي الينا جميعا، وكان سيد حديث الجلسة ومرحها خصوصا
حين نهض فأحضر قنينة فودكا(سميرنوف) الخفيفة، وعصير
الطماطم، وعلبة الفلفل الاسود الصغيرة ليهيء (Bloody Mary)..

وضعت أم سالم اقداحاً صغيرة ومكسرات وصحون حمص بطحينة
وباباغنوج.. نهضت واخذت القنينة من يده، ودلقت ما يملأ انصاف
الكؤوس.

.. وضعت عصير الطماطم في قدحه بعد الفودكا وقليلاً من مسحوق
الفلفل الاسود..

.. المهدي ينظر اليّ ويدير راسه صوب الاخرين " أنظروا.. أنه الساقى
ويعرف ويجيد المنادمة ايضاً !!"

_ لا زلت تتذكر ابا حسن، قدح الليل عندي قبل اكثر من اثني عشر
سنة.

_ كيف لي أن انسى الطقس المقدس معك.. انه الكفر بعينه لو نسيته!
يرفع المهدي كأسه صوب الجميع، ثم يدير رأسه صوبي هازا رأسه
بمزاح:

_ نخبك ابا حسن!.. نخب الهارب، لا الهروب.

حريق القصيدة السوهاء

_ يجب أن أطلعته على ذلك.

_ ها أنت بعد يوم واحد من قدومك وتريد أن تشعل حريقاً لا تعرف أبعاد دماره

_ انها أمانة يا زيد.. المهدي امانة لا يمكن ان اساوم عليها.

_ انه أمانة عندنا كذلك.. ولكن..

كان الجدل الحامي يجري في حديقة القصر ضحى اليوم التالي
لقدومي... المهدي يتناول فنجان قهوته في الصالة.

يفتح حارس البوابة الخارجية الباب للدكتور الأنصاري، يدخل عادة
دون أن يُعلم الحارس من في الدار بقدومه، فهو وابو عمر ونفر قليل
آخر يدخلون كأهلها دون تصريح او استئذان.

_ صباح الخير يا اخوان.. شلونك صفاء على هوا دمشق وصحبة
المهدي؟!

_ فوگ النخل فوگ!، وخصوصاً منْ يزداد عليهم وجهك الحلو ابو
سندس!

_ أتصلَ بي زيد وانا اتناول افطاري واخبرني عن نيتك.. ستشعل
حريقاً.. وانت قبل غيرك يعرف ثورة المهدي اذا شبت.

_ كل شيء يمكن ان أساوم عليه الا اسمه، وخصوصا في وطنه الذي يبادلها فيها الناس حبا بحب .. إنها قصيدة شوهاء مبتذلة يا ابا سندس وانت استاذ الادب، وادب المهدي قبل غيره..

_ اوافقك الرأي تماما.. كلام مبتذل سوقي ولكن ما تُسمى قصيدة، سرت كالنار في الهشيم بين بسطاء الناس وتناقلوها سرا في بلدنا المضطهد وخصوصا لانها تلعن الطاغية بانواع السباب.. انها تخدم القضية العامة التي نسعى اليها جميعا يا صفاء.

_ لا اظنك يا ابا سندس، وانا اعرف تأريخك المشرف في السياسة وتربية الاجيال في الجامعة، ودورك مع آلاف العراقيين الهاربين - اللاجئين الى سوريا.. لا أظنك تُقر مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)..ما الفرق اذا بيننا ونحن نقول عن انفسنا اننا ندافع عن قضية شريفة.. ولكن باساليب ملتوية .. ما الفرق بيننا وبين عصابة صدام اذاً.

كان زيد يقف جانبا بوجه عبوس وهو يفسح المجال احتراماً لأبي سندس في الحوار.. لمكانته الكبيرة في قلوب اللاجئين العراقيين في دمشق .

_ وقضية القصيدة، التي تقول عنها شوهاء، وانا اقرك على ذلك قد فات عليها وعلى اذاعتها عبر صوت العراق الحر، وإذاعة احرار العراق وغيرها، فات عليها زمن طويل.. اشهر طويلة.

_.. (يا ابن الخنا..أنت العراقي أم أنا).. ما هذا الابتذال يا ابا سندس.. وتلصق بالمهدي.. معذرة لا غاية تبرر الوسيلة مع المهدي!!..

_ اراك مصراً ياصفاء وافهم موقفك تماما بل وأقدره.. لربما كنتُ اتخذ نفس الموقف الصلب لو كان المهدي ابي.. أودعناكم!!لا اريد أن

اشهد ضرام الحريق.. لا اريد أن ارى غضب المهدي.. خبرني لو
احتجت الى شيء تريده لتستقر هنا في دمشق..سلامات!!
غادر الأنصاري في السيارة السوداء الكبيرة التي كانت تنتظره عند
بوابة القصر.

وكان غضب المهدي حريقاً وعاصفة..

زيد وسليمة أنكرا معرفتهما بالأمر.

صبّ شتائمهم على كل جهات الإعلام في البلد المضيف وهو يذرع صالة البيت الكبيرة وغرفة الطعام، بخطوات منفعلة غاضبة، هازماً كفه الايمن بذراع نصف ممدودة وكأنه يتحفز لصفع وجه مقيت امامه وهو يدمدم..

_ زيد!! أطلب لي مكتب ابي عمر في وكالة (سانا) للانباء فوراً!

جلس زيد قرب هاتف الصالة ورفع سماعته بوجه عابس مهموم.. نظر حيث اجلس بعتاب.. كانت خشيته أن ينفجر بوجه صديقه الطيب المحب ابو عمر شاتماً.

جلست وانا أشاركه نفس الخشية..

ادار زيد قرص الهاتف بيد وجلة..

جلس المهدي بوجه غاضب مشمئز..

أخذ نفساً عميقاً واسترخى قليلاً اثناء رنين الهاتف في وكالة الانباء.

_ صبّحك الله بالخير أبا عمر.. وانا اشكرك ايضاً على قدومك والعزيزة ام عمر امس.. كلا كلا هو بخير..موضوع أريد أن اعاتبك عليه يا صديقي! كيف يا أبا عمر وانت سيد الاعلام، تقوتك تخرصات اذاعية وتشويهات.. وحتى قصائد مبتذلة منسوبة الي.. نعم مثل ما تقول عن شتيمة الكبار، والتي لا قيمة لها.. اعرف! اعرف انكم لا تستطيعون تكذيب كل خبر يذاع خصوصاً من اذاعات غير رسمية.. لكن لطفاً ابا عمر.. ارجو ان تنتشر على لساني لا على لسان (سانا) تصريحاً، واطلب منك كصديق ان يُنشر ذلك في الصحف وان يُذاع لو امكن،

تكذيب عن دسّ إسمي في قصيدة مبتذلة شوهاء.. العفو.. العفو.. انت المتفضل.. العفو بل انت الصديق الأمر الذي اعزه.. سارسل لك التكذيب بعد قليل بيد زيد.. تسلّم لي ايها العزيز، اجمل تحياتي لام عمر وفي انتظار تكرار الزيارة قريباً.

نشرت الصحف السورية واللبنانية والشرق الاوسط اللندنية تصريح المهدي عن العبث المُخزي، في تلوّث اسمه، بإقحامه بهذه المقطوعة المبتذلة السوقية، في ألفاظها وفي تركيباتها البعيدة حتى لما يمكن يسمى -تجاوزاً- شعراً.. اتهم بكلمته جهات عديدة، ترعى فوق اراضيها محطات اذاعية مناهضة للنظام الديكتاتوري في العراق..

..كان في الكلمة المنشورة تلميحٌ الى المملكة العربية السعودية.

سارع وزير الاعلام السعودي الى الرد على تشكيك وتلميح المهدي ذلك، مبيّناً اعتزاز المملكة واعلامها ومثقفها بالمهدي الكبير وابتعادها عن كل ما يمكن ان يسيء اليه، ونافياً ان يكون للملكة اي علم بوجود محطة إذاعية غير مرخص بها فوق اراضيها.

نُشر بيان وزارة الاعلام هذا في العديد من الصحف العربية في بيروت ودمشق ولندن.

.. إبتعد الدكتور الأنصاري فترة عن زيارته لقصر الضيافة، مسكن المهدي، متشاغلاً بقرب الإعداد للامتحانات الجامعية.

.. كذلك كان الامر مع الرجل الطيب أبي عمر مدير وكالة سانا (وكالة الانباء السورية).

.. انقطع عدد من متزعمي المعارضة العراقية في دمشق عن زيارة المهدي..

.. شاء سوء حَظ ممثل اليسار العراقي، احد اصداق المهدي المقربين، وهو في جهل عن معرفة صديقه بالقطعة الرثة المنسوبة اليه، أن يوافيه وهو في زوبعة غضبه التي لم تهدأ بعد.

_ كيف لك أبا سلام، وانت احد اقرب الاصدقاء، وانت العارف بكل ما يدور في الساحة السورية من الامور المتعلقة بالعراق.. كيف لك ايها الصديق المحب.. الصديق الذي تدّعيه.. ايها الامين على نقاء العلاقات بين الناس، والاهم الحريص على نقاء الكلمة الشريفة في المسار النضالي.. كيف لك أن تسكت عن الاكاذيب والافتراءات والطعن التي تلحق بي؟!.. اهي الغاية تبرر الوسيلة؟!....ليكن ذلك ما دام فيها شتيمة للنظام والدكتاتور؟!!

إستمر تيار الكلمات التي كانت تنزل كالصواعق الحارقة على الرجل، الذي اتي بعد فترة من غياب طويل، أملا في جلسة حلوة كان يتلطف اليها مع المهدي.

كانت مفاجأة ابعد ما يكون عن تصويره..لم يكن مهيباً لإعداد ردّ يمكن أن يخفف من الغضب العارم الذي فوجيء به..

أحنى الضيف الخجل رأسه وهو يجلس فوق كرسيه في (فراندة) البيت المطلة على الحديقة.

صمت الاثنان.. سرّح المهدي فيها بصره في اشجار الحديقة العالية فترة، اطلق بعدها آهة طويلة اعقبها بما يشبه الهمس:

_ ايه!!.. دنيبياً!!

.. نهض من كرسيه بهدوء وعلى وجهه ابتسامة حزينة وهو ينظر الى صديقه الساكن، الذي لا يزال على وضعه نصف المطوي فوق كرسيه، ورأسه لا يزال منحني، يبحث بصره فيما وراء بلاطات المكان الظليل..توجّه الى باب الدار المشرعة:

_ أم سالم!!.. يا أم سالم!! وبين كهوة ابو سلام على الريحه اللي يحبها من إيدج!

تَكْلِيفٌ بِمَهْمَةٍ

_ لقد اتلفتُ عينيَّ في اجزاء الجمهرة.. سنين ثلاث وانا لم ادع فيها كتابا ومرجعاً امكنني الوقوع عليه، لأجمع ثم أنقح منها مختاراتي أنا، من عيون نتاجات الشعراء من عهد ما قبل الاسلام، وحين وصلت الى العهد العباسي استسلمت.. لم يعد بصري يطاوعني.. لا قراءةً ولا كتابةً.. وها انا امامك الآن!.. أرى ولا أشخص!

..لم يكتمل المشروع الذي أضعت عليه أعز ما يملك الانسان..
بصري!!

لم استسلم كاملاً، فبعد جولة بين اطباء عيون العالم المعروفين، وحين ايقنت أن لا عودة الى عالم القراءة والكتابة، وبعد فتر الكآبة المرة التي اعقبتها.. عدت الى ساحة المعركة وبعزيمة مضاعفة.

" لا يزال صوتي يهز المجالس.. فليكن الصوت وسيلتي الى الكتاب!
.. وبدأت!!

عامان كاملان، أضع فيها الأشرطة في جهاز التسجيل الصغير الذي احمله معي في كل مكان اتواجد فيه.

الذاكرة الفريدة اللعينة، التي ظلت ترهقني بكوابيس احداث ماضيها كلما حاولت أن استرخي نهاراً او انام ليلاً، بدأت في تطويع هذه اللعنة، لتكون صوتي فيما أريد تدوينه من الطفولة والى يومنا هذا.

أنظر يا صفاء!.. انظر الى تلك الغرفة الصغيرة!.. لقد اجتمع فيها سبعة من ادباء، وناسخين، وكتّاب طابعة لينقلوا الاشرطة المسجلة الى صفحات مكتوبة مرئية مقروءة.

.. لقد تغلبتُ على بصري الكسيح..وأرسلتُ الاوراق للتنضيد وروجعتُ قبل طباعتها من لجنة الادباء ذاتها.. وخرج الجزء الاول من (ذكرياتي).

نَقُلْ أشرطة الجزء الثاني منها الى الصفحات قد تم.. والآن انا بصدد ان اطلب منك طلباً..

_ أمر!! مولاي وأبي وأستاذي المهدي.. "عيني فدى عينيك عيناك قد اضناهما السهرُ .."

_ تظل ذلك اللعين الذي اعرفه!.. قالها مبتسماً

_ أوراق الجزء الثاني مع أخيك زيد.. راجعها!.. وأعدّ مراجعتها بعد التنضيد

لكي أتفرّغ للمهمة العظيمة.. للثقة التي بعثتُ فيّ اعظم النشوة، طلبتُ من زيد مرافقته الى بيته الآخر في حمص، الى مكان جامعته التي يُدرّس فيها، بعيداً عن قصر الضيافة وزوارها وخدمها وحرسها.

_ هل تقبلُ مني بعض الملاحظات على ما راجعته في المنزل من الأشرطة المُنصّدة للجزء الثاني من (ذكرياتي)..

_ تفضل استاذًا!.. إختصر فقط! قالها بابتسامة متشككة.

_ في فقرتين ومن نقيضين.. الملك فيصل الثاني، والزعيم قاسم الذي أطاح به، هنالك تعريض غير دقيق وغير منصف.

لم يكن الاول وما اوردته عن حياته الخاصة صحيحا، فهذا الصبي البريء، راح ضحية الآخرين.. لم يعاقر الخمر! ولا يمكنه ذلك حتى لو اراد،..اعتقد أنهم نقلوا اليك معلومات خاطئة، وربما نقلوها عن قصد.. لقد كان المسكين يعاني من نوبات ربو متكررة، ولم تكن له من هوايات إلا متابعات رياضية والكارتييه بوجه خاص منها.

أما الثاني، الزعيم المسكين، إن ما تعرضتَ انت اليه من أذى في زمانه القصير، فلا اعتقد أن ذلك كان منه، او بتوجيه منه، أضف إلى ذلك، أنك طعنت بكرامته في أكثر من موقف، وقد اولاك دون غيرك مكانة كبيرة، ولبي لك كثيراً من طلبات الاخرين الذين كانوا يجدوك الوسيط الأمثل عنده.. لم تُنصفه خصوصا حين تشقيتَ بمقتله " بئس.. مية..كفارة عما..". ليس من شيمة المهدي الكبير التشفي بمية أحد، خصوصا من كان منك بهذا القرب يوما ما.

الشيء الثالث لقد مضت عقود على الاحداث واستشهادك ببيت شعري في التعرض للمك حسين، كنت قد حذفته من ديوانك، لا اعتقد أنه شيء صحيح.

واخيرا! لم تُطلق لنفسك العنان في رواياتك للاحداث بنفس النفس الشعري العظيم الفريد الذي تمتلكه، فكانت أقرب الى مذكرات

السويدي او المدفعي او غيرهم من الساسة..كانت أقرب الى التوثيق
و..

كنت منطلقا في الحديث غير منتبه الى تبدل معالم وجه المهدي، إذ
كنت أجلس الى جواره لا في مواجهته..

فجأة وجدت العملاق المُرعِب يقفز من مكانه ليكون في مواجهتي،
منحنيا بجسمه صوب مكان جلوسي ووجهه كله لا عيناه فحسب تبرق
بالغضب، ويأتي هزيم صوته لترتج له لا صالة الجلوس فقط، بل
القصر الضخم الراسي بأكمله:

_ اتدرك ما الذي تقوله؟!..اتعرف أنت من تخاطب..!!

رغم أن ذراعه قد امتدت وانفرجت مِروحة كَفِّ الضخمة باصابعها
الطويلة، كنت اواجهه بهدوء ودون بارقة خوف، من تحوّل حركة كفه
الى صفة رنانة.

_ إنه أنا المهدي!.. أنا من تخاطب!.. أنا من كتب ذلك!.. أنا من أملئ
على أساتذة كبار ما اقول وما قرأته!.. أنت تريد أن تعلمني كيف
أكتب؟!.. ما الذي تقصده من وراء كل هذا؟!..ما غرضك من ذلك؟!

خَسُ كل من في الصالة واران صمت مخيف حين استقام المهدي
بوقفته وهو لا يزال يحرق بغضب في وجهي متسائلا.

_ ليس لي أي غرض غير ما طلبته مني.. أردت مراجعة الأوراق
التي أملت..راجعتها وانا سعيد وفخور بالمهمة التي كلفنتي بها..
مراجعتي كانت نتائجها هذا الذي ذكرته الآن.. وانا جد آسف أن ذلك
أثار غضبك وانزعاجك.

قلت ذلك بكل هدوء ودون اي انفعال من ثورته العارمة تلك.

لم تكن تلك مواجهتي الاولى معه.. كانت هنالك سابقاتها كما حصل في القاهرة عام ٧١ وانا اناشده العودة.. لكن هذه كانت هي الأعنف.
غادر المهدي الصالة بخطوات كبيرة مرتقيا السلم العريض الى غرفته.

في اليوم التالي عند المغرب، وأنا اجلس في فاراندا الدار منغمسا في قراءة (الجحيم) لهنري باربوس، وجدت المهدي قربي على مقعد مجاور..

_ الله بالخير استاذي الحبيب!.. قلتها مبتسماً بعد أن وضعت الكتاب جانبا.

_ الله بالخير دكتور! ردّ الابتسامة بمثلها.

_ فجان قهوتك المسائية؟.. أحضّر لها لك؟.. انا لا ازال اعرف كيف أعدّ فجانك الخاص.

_ اسمعني صفاء، بس لا تكبّرُ راسك عليّ.. كل اللي ذكرته البارحة صحيح. أني مسافرٌ باجر لبراغ.. للمصخّ وراخ ابقى فترة طويلة.. الجزء الثاني راح اخليّه بايديك إجري عليه التعديلات والحذف للأشياء غير المناسبه اللي ذكرته.. وما تراه انت ضروريا.. هناك اشياء اريدك مراعاتها:

عدم الاساءة للغير.

عدم التضخيم والتبجح بالذات.

عدم المسّ بالمعتقدات.

تناسي الإساءات الصغيرة وعدم الرد عليها بالمثل.
أخذتُ كفه من على مسند المقعد المجاور.. لثمتها ووضعتها فوق
رأسي.. ملتُ عليه وقتلته.

قمت بالحدوفات المسبئة والتعرض بحق الذبيحين الملك فيصل
والزعيم، والتلميح بالملك حسين، وراجعت الاخطاء التي وردت جراء
النقل الصوتي وكاتب الطابعة.

راجعت التنضيد الأولي، ثم التنضيد النهائي قبل الطبع، وسلّمتُ كل
ذلك بيد أخي زيد ليشرّف على عملية الطبع، فله خبرة بالمطابع
السورية واصحابها اكثر مني.

طُرَّةٌ لِكَيْبَةٍ

وصلَ عقد العمل لي ولحنان في أحد المستشفيات الليبية صبيحة يوم مشرق..

بين تحقيق ما اعتزمناه في هروبنا من سجن العراق الكبير وبين صعوبة فراق المهدي محنة جديدة لم نضعها في الحسبان..

بدأت حسابات عسيرة ناقشناها أنا وحنان في مقهى صغير هاديء غير بعيد عن قصر الضيافة.

.. لم نصل الى قرار حاسم ونحن نعود عند الظهر الى مكان ضيافتنا.

لم يَطُلْ بنا المقام في صالة الجلوس، إلا ورنَّ الهاتف ليكون وراءه صوت (المُهَرَّب) الذي كنا اخترناه ليعد لنا عملية اللجوء.

_ عليكما الحضور في الساعة السادسة مساءً في مكتب الخطوط البولندية ومعكم الستة آلاف دولار المتفق عليها وجوازَي السفر التونسيين. وسيكون اقلاع الطائرة بعد ذلك بساعات.

حيرة فوق حيرة!.. إختيارات لا اصعب منها، ووقت ضئيل لأي حسابات عقلانية حاسمة.

كنا نتحرك كالمأخوذِين، دون وعي، بين غصة الالم ونافذة الامل، ونحن نُعدّ اخف ما يلزم في حقيبة واحدة حسب توصية المهرب.

خرجنا شبه متسللين في الموعد، تفادياً لوداع مؤلم مع المهدي لا يطيقه، ويترك اثرا لا ينمحي في روحي وضميري.

وضعنا الحقيبة الصغيرة عند مدخل العمارة.. وقفنا حائرين في الخطوة التالية.. في السلاالم أمامنا المؤدية الى مكتب التهريب، وبين العرض المغربي المجزي ماليا في عملنا سوية في مستشفى ليبي.. ثم هنالك الثالث،.. النكوص والعودة الى مكان المهدي الذي كنا ضيوفه.

اخذنا نتخطى امام بوابة العمارة جيئة وذهابا صامتين، كل يُجري حساباته ويستعرض خيالاته عن مرحلة ما بعد القرار..

.. بلدُ اللجوء المجهول الذي ينتظرنا عبر غرفة المهرب في الطابق السادس، وما يليه من خطوط قد تتقاطع مع دروب مجهولة، لنصل بعدها الى بقعة في الغرب الاوسط او الشمال القصي!

.. في فيافي ليبيا ووجوه وقيود تذكّرُ بالجو الذي هربنا منه في سجن الوطن الكبير!

.. في كوننا نظل ضيوفا في سوريا، محسوبين على الضيف الكبير، تُنتقص فيه حريتنا، في اختيار مسالك الطموحات الشخصية والحياة العائلية الخاصة!

.. ايّ نكوص عن احدى الخيارات الثلاث قد يجر عواقب الندم المدمر لما تبقى من مسيرة الحياة القصيرة.. انا قد جاوزت منتصف العقد السادس من العمر.

كانت حنان تتخطى الى جانبي في رواحي ومجيبني وهي مطرقة برأسها الى الارض، وكانما تبحث بين أحجار رصيفه، عن منفذ يصل بها الى بوابة حل مقنع.

_ إسمعي يا حنان! اي اختيار يقطع علينا حيرتنا، هو مصير قدرني لا علم لنا بمسارته ونتائجه.. وما دام الامر هو لعبة القدر، فلنلعبها كما يلعب رامى النرد المقامر.. هذه قطعة نصف ليرة معدنية لها وجهان

(طُرّه- رسم) و(كُتبه-نقش).. هل تتابعيني؟.. طيب! نَرمي القطعة ونختارُ (طُرّه!) للتغرب و(كُتبه!) للبقاء هنا.. توافقين؟

.. طيب!..لن نُلقين اللوم يوماً عليّ في هذا قرار الحظ!

تعلفت انظارنا بقطعة النقد التي علثُ وتقلّبت في الهواء ثم سقطت واهتزت بضعة اهتزازات واستقرت.

.. كان وجه الرئيس الأسد في العملة المعدنية ينظر الينا بحزم!

_ (طُرّه) صرخنا سوياً

والآن يا حنان بين اختيار القدر الاخر..بين عقْد ليبيا في جيوبنا، وبين صعود السلام الى مكتب المهرب واللجوء الى البلد الغريب.. الرمية الثانية (طُرّه) للمهْرَب واللجوء، (كُتبه) لليبيا ومستشفياتها.

سقطت العملة المعدنية ودارت على نفسها عدة مرات قبل أن تهتز وتستقر على بلاطة الرصيف..

.. نفس نظرات الرئيس الحازمة تنظر الينا!

_ (طُرّه) صرخنا سوياً.

يا للراحة النفسية والسلام العظيمين الذي حلّ في لحظة القرار النهائي.. أسلمنا امرنا الى اختيار القدر.. لعبة القدر المعدنية، هي التي حددت كل مساراتنا للخطوة التالية، وهل من أحد في الكون يمكنه ان يتحدى القدر في اختياراته؟!!

_ والآن هيا بنا يا حنان.. لنجلس ونستمتع ببوظة لذيدة عند محل المتلجات عند ناصية الشارع، قبل ان نصعد الى مكتب المُهْرَب الذي ينتظرنا.

في وداع أم سالم

ومن مطار ستكهولم.. إلى سجن المرحلين، إستعدادا لإعادتنا، بعد رفض قبول لجوءنا في المطار..

رنّ جرس الهاتف في غرفة معسكر اللجوء الصاخب.. أخبرتُ ببدء لي من لندن.. كانت أم سالم على الخط.

_ ها كيف أحوالك أنت وحنان..

_ بخير خالتي..

متى خرجتما من السجن وكيف؟

.. قصة طويلة اختصرها، حين تخلى عنا غني الخليي، بادر شاب شهيم ليس له بي اية معرفة شخصية.. عرف بإسمنا ومحتتنا حضر إلينا في السجن، عرض كل ما باستطاعته من مساعدة، حتى انه كان مستعدا هو وأصدقاء له تدبير تهريبنا منه، ولما رفضت خشية عليه، وعلى كرامتي بذلك، سارع بعد يوم بإحضار أكبر محامية للجوء على حسابه، وكان من نكائها أن اتصلت بمستشركة عظيمة شهيرة Sigrid Khale لها كلمتها في السويد، وما أن عرفت سيغرد بانني ابن المهدي الحمد الكبير، سارعت وفي منتصف الليل الى الاتصال بوزير الداخلية..

لم تمض إلا ساعتان على ذلك الإتصال حتى كنا في غرفة خاصة لطيفة في معسكر اللجوء..

_ ومن كان هذا العراقي الشهم.. ألا نعرفه؟

_ إنه (ساطع هاشم) رسام مبدع وانسان أبدع، لم ينقطع عنا منذ التقينا به أول مرة..فارق كبير بين نخوة الغريب ساطع، والخليلي (صديق) الحمد وصديقي في بغداد.. خالتي الحبيبة (لو خُلَيْتْ لُقُلِبْتَ!).

_ مبروك عزيزي..أنا والحمد في لندن بضيافة كريمة من رجل الأعمال حمدي نجيب.. ومعنا زيد

_ كيف حال الحمد الغالي؟

_ بخير غير أنه يقول " ها أنا أهرب من النذل الى لندن، فيتبعني بمطارقه"..لا يستطيع الرقاد ولا الإغفاء..يدور باحثا عن النذل في كل مكان، وقد طلب من مضيفه الكريم الذي رعانا بكل ما نطلب ونرغب، طلب منه توفير حماية له من " النذل".. عدا ذلك كل شيء بخير، واحتفاء العراقيين الكبيرة بوالدك لم تنقطع ندوات ودعوات وجولات سياحية في معالم لندن ومناحفها.. شيء مذهل يا صفاء، ومتعتي وراحتي هنا لامثيل لها.. كلنا بشوق لرؤياك.

_ وأنا وحنان كذلك.. ما أن نحصل على الباسبورت الموقّت حتى نكون عندكم في دمشق في زيارة قصيرة.. قصيرة لأن كورسات دراسة اللغة السويدية، وبدء معادلة الشهادة الطبية خلال ايام.

لم تكن زيارة دمشق المؤملة بعد أيام لرؤية أم سالم.. بل لوداعها.

دُعِيَ الحمد الى لندن من قبل حمدي نجيب، رجل اعمال محب ثري، يعيش ويرعى شركاته الكبيرة هناك.

.. وجدها فرصة للإحتماء المنشود، من دقائق مطرقة " النذل "، التي لاتنقطع اينما اختبأ او تحصّن، أو زاد من حراس قصر ضيافته بدمشق.

رغم أن الشقة الفارحة الجميلة التي تقع وسط العاصمة الشهيرة، في دور اوسط من عمارة عالية، محروسة المداخل، لم يمض إلا يوم واحد على قدومه وأم سالم وزيد، الذي قوبل بترحاب وحفاوة وكرم بالغ، استمتعوا فيه ببعض مواقع العاصمة الضخمة، وبالخدمة الممتازة في الشقة الجميلة، المطلّة على أكبر واشهر منتزهات العالم (هايد بارك)، حتى بدأ النذل مطارقه في الليلة التالية، دون انقطاع وبقساوة وعنف شديدين.

بدأ الحمد الكبير يدور في غرف الشقة، ممسكاً بعصا الممسحة الطويلة ضاربا سقف الغرف التي تاتي منها دقائق المطرقة الثقيلة، صارخاً مرة ومتوسلا اخرى:

_ لك كافي عاد يا نذل!.. كافي!!.. لك كافي وكول للي ذرؤك وراي، ما أرجع.. ما أرجع للمجرم ببغداد!!.. لك كافي!! ثم بلهجة اقرب للتوسل:

_ لك كافي لازم عندك شوية ضمير!.. ما دام إنتة بشر،خلي عندك هل الشوية ضمير..لك خَليني أنام واستريح جم ساعة.. كافي أرجوك!!

يستمر دورانه المنهك ليلا، حتى يسقط أخيرا من الإعياء ليغفو ساعة أو بعض.

كفّ " النذل " ليومين، خُيل للحمد فيها انه تخلص منه الى الأبد.. بان عليه خلالها فرح وجدل وانطلاقة كبيرة لوحظت عليه في الحفل الكبير الذي أقامه له محمد مكية في (منتدى الكوفه)، وفي دعوات ونزهات اخرى في العاصمة البريطانية..

.. فرحة اختفاء " النذل " لم تدم إلا قليلا..

صَرَختُ أم سالم فجأة، من ألمٍ أحسته يشق منصف صدرها، أمسكت زراعها اليسرى التي سرى الألم إليها وسقطت على السرير، وهي تحاول أن تأخذ انفاسا ضاقت عليها..

ارتى المهدي فرعاً الى جانبها وأمسك بذراعها..

_ أمونة شبيج.. أمونة!!

سارع زيد الموجود آنذاك في الشقة إلى الإتصال بالإسعاف.

في غرفة خاصة من أحد اكبر مستشفيات لندن وأهمها، كانت تترقد أم سالم فاقدة الوعي.. المهدي يجلس على مقعد الى جوارها.. يتلمّس فراشها.. يصعد بكفه الى الوجه الغافي، بكمامة للاوكسجين تغطي الأنف والفم منه.. يمسّد شعرها الأشيب ويعود الى مقعده.. ينظر بعينين دامعتين محمرتين بمناشدة وفرع الى شاشات ترسم خطوطاً وارقاماً واشارات ضوئية، ترافقها دقات خفيفة متواترة، ترتبط كلها بأنابيب وأشرطة الى زراعيّ المريضة الغائبة عن الوعي.

حين علم المهدي بعد مناشدة طبيبها الإختصاصي الزائر، بعد ليلة قضاهها مسهدا الى جانب سريرها، من أن لا أمل اطلاقاً، في عضلة القلب الذي أصابها احتشاء كبير غير قابل لاي تداخل سريري.. أو جراحي..

Do something..I beg you do something !! _
الطبيب مناشداً:

" .. اعمل شيئاً.. أتوسل اليك.. إي شيء "

_ للأسف لا يمكن عمل شيء!.. مشاعري كلها معك ولكنها مسألة
ساعات لا غير.. أنا أسف!!

حين أخذت أم سالم تشدّ من صدرها، لاخذ انفاس تعسّرت عليها،
واتسعت عيناها، وظهر زبّد على حافتيّ شفّتها..

ركع المهدي على ركبتيه على الأرض ووضع رأسه على كفها اليسرى
المستلقية على حافة الفراش:

_ أمّونه!.. سامحيني أمّونه!.. سامحيني حبيبي أمّونه.. سامحيني!!..
قالها المهدي بصوت متوسل منكسر، ثم أختق الصوت بغرغرة بكاء،
تلك النوبة الخافتة التي كان جسده الضامر يهتّز معها.. لم تنتهي نوبات
نشيجه حتى بعد أن توقفت تكتكات ورنّات الأجهزة العديدة المعلّقة
المربوطة الى ذراعي الراحلة أم سالم.

سرعان ما أبلغ الخبر الى الرئيس حافظ الاسد، فوعز بأرسال طائرة
خاصة، حطّت ووقفت منتظرةً إلى اليوم التالي في مطار هيثرو.

لم ينتظر المهدي صبيحة اليوم التالي الموكب الذي كان قد هيّأه محبوه
في عموم بريطانيا لتوديع الراحلة..

.. غادر على عجل مع جثمان أم سالم، سابقاً الموكب المعد، الى
الطائرة التي كانت بانتظارهما، ليحقق امنيتها في إيصالها السريع الى
مقرها الأخير قرب ابنة عمها ورفيقتها منذ الطفولة أم كاظم، الراقدة
في السيدة زينب.

.. والى مقبرة الغرباء .

ها نحنُ أمونة نناى ونفترقُ والليلُ يمكثُ والتسهيدُ والحرقُ
والصبحُ يمكثُ لا وجهُ يُصَبِّحني بهِ ولا بَسَمَاتُ منكِ تتطلقُ
ما اروّح الموت، بل ما كان أبغضهُ لديّ إذ أنتِ مني الروحُ والرمقُ
يا حلوةَ المُجتلى والنفسُ ضائعةٌ والأمرُ مُختلطٌ والجوُّ مُختنقُ
ويا ضحوكَةَ ثغرٍ والدنى غبشٌ ويا صَفِيَّةَ طبعٍ والمنى رَنقُ
مني عليكِ سلامٌ لا يقومُ بهِ سنُّ اليراعِ ولا يقوى بهِ الورقُ

_ قُمْ يا صفاء واذهبا انت وزيد، واحجزا تُربةً لخمسة أنفار، لصق
قبر أم سالم في مقبرة الغرباء.. اليكما هذه الأربعين ألفا من الليرات
لشراءها.

بعد أن قمنا بزيارة قبر أم سالم واطمأننا على قيام حارس المقبرة بسقي
وروده، توجهنا صوب ممثل مالك المقبرة الفسيحة الجديدة، التي احتل
مساحات تربتها الاولى عراقيون مغتربون، فسميتُ مقبرة الغرباء..
بعد مفاوضات عسيرة شكى فيه المالك من ارتفاع أسعار العقار
وخساراته في هذا المشروع غير المجزي تمكنا بالمبلغ الذي نحمله
من حجز خمس قطع كونكريتية لصيقة ببعضها الى جوار قبر أم سالم.

عَلَتْ معالم الإطمئنان والراحة النفسية فوق وجه المهدي ونحن نطلعه
على إنجاز المهمة بشكل كامل.. وكأنه قد اشترى لتوه عمارة فخمة او
بستانا كبيراً مثمراً يضمن له عيشاً طويلاً رغداً.

لم يمض إلا يومان على ذلك، حتى تسلم المهدي طردا بريدياً مُسجلاً
من عمّان

.. لم يكن الطرد إلا لجزءي ذكرياتي مع رسالة مهذبة انيقة عليها
شعار الديوان الملكي الاردني، يعتذر فيها الديوان الملكي الهاشمي عن
قبول هدية المهدي (اي كتابي ذكرياتي).

لم يُدرك المهدي السبب، وعزاه الى مواقفه وقصائده السابقة ابان فترة
حكم الزعيم قاسم.

راودني في الحال هاجس آخر، فأسرعت واختطفت الجزء الثاني من
ذكرياتي واختليت به بعيداً عن أنظار المهدي وسليمة.. ويا للهول.

كان كل ما حذفته أنا في مراجعاتي للتنضيد الأول والثاني والآخر
المعدّ للطبع،.. حذف ما يسيء الى العائلة الهاشمية والملك حسين

بالذات، والتي اقترحتها على المهدي ووافق عليها، كل ذلك قد أُعيد الى المحتوى الأولي وطبعه قبل الحذف المقترح.. طبع الجزء الثاني بهذه الاساءة نفسها..

واجهت زيذا بذلك وانا أصرخ غاضباً متسائلاً عن ذلك وقد اودعتُ كل التصليحات والتعديلات بحضوره ومراقبته للطباعة قبل هجرتي للسويد.

_ لماذا حصل ذلك أخي العزيز؟!

_ صدّقني، أنا نفسي لا أعرف كيف كان ذلك.

بعد عتاب وتساؤلات، تمّ الاتفاق على سحب ما هو موجود وتحت اليد في المكاتب من الجزء الثاني، واعادة طبعه بعد حذف الاساءات والتعليقات الاخرى التي اجريتها قبل ذلك..

للأسف كان العديد من الجزء الثاني قد تم شراؤه ممن كانوا ينتظرون بلهفة مسيرة المهدي في ذكرياته.

من كان وراء ذلك؟؟؟!

راودتني الشكوك.. ظلت شكوكاً حتى هذه الساعة!!

ما الغرض من وراء ذلك؟!.. وفيها اساءة جديدة الى المهدي لابد أن يكون منطلقاً من مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، كان ذلك عندي واضح واكيد.

.. غرض سياسي وراءه لا غير!

من كان ولائه للغرض السياسي اقوى من حرصه على اسم المهدي؟..سؤال يتكرر!.. مسألة تكاد تشبه القصيدة المبتذلة المنسوبة الى المهدي.

بالطبع لم أطلع المهدي هذه المرة على الخطأ-الجريمة- بحقه، خوفا عليه اولاً، وعلى الاخرين القريبين منه، واولهم زيد الذي لا يحسن الدفاع عن نفسه امامه.

..حسنا فعلت! إذ لم يعلم ولن يعلم بالأمر.. كفاه عذابا.

لجوءٌ آخرٌ من " النزل " ، الذي يواصل الطرف (القاهرة تحتي بالحمد)

التلج يغطي الأشجار والسطوح والشوارع وتبدو مهجورة، إلا من كتل
اشواك تدرجها الريح التي كان صمت عصفها عبر النافذة موحشا.
..نثار الغضب الأبيض النازل من السماء تسمع وشوشته عبر السطح
الزجاجي المزدوج.

.. الشبح الأبيض يُغرق كل شيء، الأرض والبيوت والشجر.
..يغرق حتى الروح بلسع جهمي.

.. " جهنم هي الثلج والصقيع والصمت.. هو ما يُعد عذابا للمارقين
الخطاة " ..الدفاء والنور ولظى النار.. رمز البعث رمز الحياة "
.. " ما الذي رماك في جهنم الصمت والظلمة والصقيع أيها
المنكود؟!.. "

رنّ جرس الهاتف فانتفضت من موقعي قرب نافذة الصالة.

كان زيد على الطرف الآخر من الخط..

_ مرحبا..

_ مرحبتين. كيف حالك وحال الحمد المهدي؟

_ اتصل بك عاجلا حول قضية الحمد..

_ خير إنشاء الله! هو بصحة جيدة؟..

_ لا تقلق من هذه الناحية.. هو في القاهرة كما تعلم بدعوة من مؤسسة (الهلال) بمناسبة مؤيبتها.. لكن عرفت أمس، ومن صديق هناك، أنه يزعم الرجوع الى العراق مرورا عبر الاردن.. وأنت أعرف مني بأن ذلك ليس بالقرار الصائب في ظروف العراق وصدام.

_ عجيب أمر هذا القرار الغريب.. ما السبب في تصورك زيد؟.

_ قبل سفره كثرت شكواه من تعقب " النذل " له.

_ تقصد " النذل " الذي يتعقبه بدقات مطرقتة.. القصة التي عرفتها قبل قدومي الى السويد بقليل، ولم ادر بها من قبل..

_ بالضبط.. لا أحد غيرك يمكن أن يقف بوجه قرار رجوعه هذا.. هي قضية عاجلة.. مسألة ايام لا غير.. سارغ! انت تُقدّر نهاية الامور لو رجع الى القفص.

_ إسمع زيد! عليك تزويدي بعنوان اقامته في القاهرة ورقم هاتفه.. انا سأتوجه فوراً الى السفارة المصرية.

ما أن وضعت سماعة التلفون حتى دخلتُ حنان كشبح أبيض لا تبان من غطاءه إلا عينان تبرقان عبر لفاع غطى معظم الوجه.

نفضت عن معطفها وقلنسوتها كتل الثلج فساحت مياه وتلوج فوق أرضية الممر الدافيء.. نزعت حذائهما بصقيعهما ورمتهما جانبا.. هرعت تضع كفيها فوق مشبك المدفأة الحديدي وأطلقت آهة ارتياح طويلة..

_ ما لك تقف منتظرا؟!

_ آسف يا عزيزتي لن تطول استراحتك ودفاك طويلا.. علينا الخروج بعد دقائق.

_ الى اين في هذا الجحيم الابيض؟!

_ الى السفارة المصرية.. لنستحصل تأشيرة الدخول ونسافر الى القاهرة على اول طائرة مغادرة.

_ أما إنك جننت أو أنها إحدى مزاحاتك وخيالاتك عن عالم دافئ مشمس.

_ لا والله.. جاد كل الجد.. سنذهب لنقضي أياما حلوة مع الحمد الكبير وبعدها نسافر معه الى دمشق نبقى بضعة أيام هناك ونعود.

_ وكورس اللغة.. وانقطاع الراتب هنا.. ومصاريف السفر؟؟؟!

_ طز فيها كلها!.. استريحي قليلا ثم نذهب وسأشرح لك في الطريق اسباب ضرورة السفر العاجل.

لم يكن دخول السفارة المصرية سهلاً عبر مشبك ممر حمايتها الحديدي وحراسها، وخصوصاً بوثيقة لجوء هزيلة، بديلاً عن جواز سفر (محترم).

أخرجت بطاقة شخصية من أيام عز (الطبيب الاختصاصي) في العراق، بالاسم الكامل الذي يحمل شهرة (الحمد المهدي) وكتبت على ظهرها كلمات الى السفير:

"أبن ضيف مصر-الحمد المهدي- يود أن يحظى بشرف مقابلتكم "

رجوت حارس القفص الحديدي الطويل أن يوصلها الى سعادة السفير.

فتح الأسم بوابة الحديد المُشَفَّرة.

_ أهلاً بأبن الحمد الكبير.. اهلاً ومرحباً!..تفضلاً!

وبعد فنجان القهوة -على الريحة- وحديث عن ايام ضيافة الدكتور طه حسين لنا في(أم الدنيا)في الخمسينات، وحديث السفير عن اهتمام الصحافة المصرية بقدم الحمد المهدي، ضيف مصر واهتمام الرئيس مبارك به شخصياً:

_ تفضلاً.. أيتها خدمة!؟!

_ العفو سيادة السفير.. تأشيرة دخول لبضعة أيام لا غير، لي ولزوجتي.

نهضتُ وقدمت وثيقتي اللجوء (الباسبورت المؤقت) السويدي..

كان السفير على وشك أن يطلب أحد موظفي القنصلية من جهاز اتصال امامه، غير أنه ما أن اطلع على الوثيقتين (اللامحترمتين)، حتى بان الاسف على وجهه

_ ده مش باسبورت نظامي.. ما فيش حد في أيتها سفارة يمكن يدِّي تأشيرة على اوراق زي دي..

_ والحل سيادة السفير؟!
_ ما فيش اسهل من كده.. كلمة الحمد الكبير، وهو موجود في مصر،
تُوصَلُ حتى لعند ريسنا مبارك.. تلغراف صَغِيرٌ، اوحتى تلفون من
وزارة الخارجية للسفارة وانا بكرة اديكو التاشيرة وبكل ممنونية..
أَمَّال! دا انتَ ابن الحمد الكبير.
شكرنا السفير بصدق وحرارة وخرجنا بأسى ومرارة.

_ مرحباً بويّه!
_ مرحبتين.. شلون عرفتُ مكاني وتلفوني؟
_ ليش أني فاركتك.. أني وياك وين ما تكون.
_ خير انشا الله!؟
_ طبعا خير.. مشتاق اريد أجي واشوفك!
_ وأناي لا مشتاق.. ولا اريد اشوفك.. بدينا بملاعيك صفاء؟!..فُكَّو
ياخه مني..الله!.. ما اكدر ارتاح مِنْكُمْ جَمَّ يَوْمٌ!!
_ والله بويه، جَمَّ يَوْمٌ أجي اشوفك بيها واتشمس بالقاهرة وأرجع.
_ أني ما باقي هنا.. يوم يومين وأسافر.. اودعناكم!

_ لك كافي بعد يا نذل كافي!!.. كافي تُدك بمطرقتك على راسي.. صار لك سنين لاحكني من براغ.. بدلتُ مكانات بيها وبيوت.. قدمت شكاوي للحزب والحكومة هناك.. هناك وانت وجماعتك الجيك مُخَلِّكم على كيفكم!!.. لك كافي بعد! كافي!.. شلون دخلت سوريا.. شلون وهذا قصر ضيافة وحرس.. شجابتك للبلد.. شدخاك ورايا.. حتى الرئيس الاسد ترجيئته بمقابلة خاصة أن يحميني منك.. لك آخ منك ومن اللي دزك ورايا.. كافي عاد.. خلي عندك شوية ضمير.. لك كافي!.. صدام يريدني أرجع.. لك لوين أرجع.. أرجع له.. لو أرجع للناس اللي يُذنبهم فُطيس للجلاب.. ارجع لدجلة.. لك ما بقت دجلة أم البساتين.. يا دجلة!؟!.. دجلة أم الجثث الطايفة اللي يُخوف بيها الناس.. لك ظل دُك يا نذل.. ما أرجع!!.. لو ينفلع راسي ما راح أرجع!!.. لك روح كَوَلُّه ما يرجع.. ما يرجع!.. لك فُك ياخه مني يا نذل!! خلي عندك شوية ضمير!!..

كان الحمد يدور وبيده عصاً طويلة، كان يضعها دائما قرب سريره، يضرب بها السقف الذي تأتي منه طرقات " النذل " .

حتى في شقته الفارحة في القاهرة التي احتفت به إحتفاء كبيرا، لم تنقطع طرقات " النذل " كلما خلا الى نفسه ليسترىح او ينام في غرفته .. يهرب منه في أغلب الأوقات ليجلس حيث يزدحم الحوار في مقهى أو في منتدى، او في الطابق الثاني والعشرين من فندق شيراتون الفخم حيث البار والمطعم وصالة الرقص والعروض.. النذل لا يظهر كثيرا في الأماكن العامة ..

يعود من هروبه متأخرا منهاكنا لينام سويعات، فلا يستطيع مع تزايد شدة وتواتر الطرقات من السقف.. لا ينفع وقوفه والاستعانة باية اداة طويلة في الشقة ليخز به السقف فوّه ردا على الطرقات اللعينة المدمرة.

عمان .. استنهاج واحتفاء

حين علمت بوصوله الاردن مدعوًا لحضور الاحتفال الذي رعاه الملك الحسين، وسمعتُ قصيدته الجميلة والوسام الملكي الأردني الرفيع الذي قلّد به .. ورغم أنها كانت قصيدة فيها اعتذار صميمي عن مواقف ايداء سابقة، بعدما أيقن، مع العمر المسموح، بأنه لم تكن لها اية ضرورة منطقية منصفة في حينه، فقد كانت تعبيراً عن محبة عميقة الجذور، ذلك الحنين الممض الى العهود الذهبية التي افترسث.

.. رغم معرفتي بالحمد اكثر من الغير، ورغم صدق مشاعرها أدركت انها قصيدة لجوء ومهرب ايضا من " النذل " الذي تابعه وعدّبه وأرهبه سنين طوال. مهرب الى النخوة العربية طلباً للحماية. كانت اجمل ما سمعته وشاهدته من قصائد الحمد المهدي.. الحمد المهدي الشاب فارح الطول الوسيم الأنيق، ابن الثالثة والتسعين.. بالصوت الواثق الفخم.. لقد أعدت التسجيل المصوّر مرات عديدة.

يا سيدي أسعفُ فَمي ليقولا
في عيدِ مولدكِ الجميلِ جميلا
اسعفُ فَمي يُطلعكُ حراً ناطقاً
عسلاً وليس مُداهنا مَعسولا
يا أيها الملكُ الأجلُ مكانةً
بين الملوكِ ويا أعزُّ قبيلا
يا ابنَ الهواشمِ من قريشِ أسلفوا
جيلاً بمدرجةِ الفخارِ فجيلا
نسلوكُ فحلاً من فحولٍ قدموا

أبدأ شهيدَ كرامةٍ وقتيلاً
اللهَ دَرَكٌ من مهيبٍ وادع
نَسْرٍ يُطارِحُه الحمائمُ هديلاً
يا مُبريءَ العَلَلِ الجسامِ بطبهِ
تأبى المروءةُ أن تكونَ غليلاً
انا في صميمِ الضارعينَ لربهم
ألا يُرِيكَ كَرِيهَةً وَجَفِيلاً
حججٌ مضتْ وأعيدُهُ في هاشمٍ
قولا نَبِيلاً يَسْتَمِيحُ نَبِيلاً
يا أبنَ الذينَ تنزلتْ ببيوتِهِم
سُورُ الكِتَابِ وَرُتِلتْ تَرْتِيلاً
الحاملينَ من الأمانةِ ثقلها
لا مُصْعَرِينَ ولا أَصَاغَرَ مِيلاً
والجاعلينَ بيوتَهُم وقبورَهُم
للسائلينَ عن الكرامِ دليلاً
هذي قبورُ بني أبيكَ ودورهم
يملأنَ عُرُضاً في الحجازِ وطولاً
حبُّ الألى سَكَنُوا الدِيَارَ يَشْفَهُم
فيعاودونَ طلولُها تَقْيِيلاً
يا أبنَ النبيِّ وللملوكِ رسالةً
من حقها بالعدلِ كان رسولاً
قسماً بمنْ أولاكَ أَفْضَلَ نِعْمَةً
من شعبكِ التمجيدِ والتأهِيلاً
إني شَفِيئٌ بِقَرَبِ مَجْدِكَ سَاعَةً
من لَهْفَةِ القَلْبِ المشوقِ غَلِيلاً
ولسوفُ تعرفُ بَعْدَهَا يا سيدي
أني أَجَازِي بِالجمِيلِ جَمِيلاً

أتصلت بزید هاتفياً.

.. طلبت منه تأشيرة دخول سورية.

حجزنا أنا وحنان على أول طائرة مقلعة الى دمشق.. كانت أسرعها مع توقف في براغ ليوم واحد.. كان يوم أحد..

مُنحت تأشيرة الدخول في السفارة السورية في براغ خارج أيام وأوقات الدوام الرسمي (باشارة من جهات سورية عليا)..

وصلنا الى دمشق.. الى قصر الضيافة الرئاسي للحمد المهدي في الساعة الثامنة.

.. اتصلتُ باللواء (ابوسليم)، سكرتير مكتب السيد الرئيس:

_ صباح الخير استاذنا الفاضل.. أنا صفاء الحمد المهدي

_ صباح الخير دكتورنا.. انشاء الله الرحلة كانت سهلة ومريحة.

_ فضلكم استاذنا الكريم.

_ تفضل أمر خدمة؟!!

_ العفو استاذي انت المتفضل.. بس - تأشيرة خروج الى عمان لمقابلة الوالد وإن شاء الله نعود سوياً، فهو في وضع يحتاج فيه الى رعاية صحية ..

_ تأشيرة الخروج اعتبرها جاهزة على الحدود.. ومرحبا بعودة الحمد وببك.. وهو يعرف انه بقلوبنا لوين ما بيروح وبن ما يحط!

_ شكري الجزيل.. لطف آخر لو سمحت!.. تعريفني بطبيب نفسية، تنق فيه الرئاسة.. وحبذا لو امكن أن اقبله في اقرب ساعة قبل سفري الى عمان..

_ اعطيني شوية وقت لاشوف الأفضل.. وأنا اتصل بيك دكتور.

لم تكن إلا نصف ساعة ليتصل الأستاذ (ابو سليم)

سبقت معرفتي بـ(النذل) معرفة الحمد به.

..معرفة سلوكه ونتائجه.

" قال الحمد بفرح وانبهار:

_ لقد اكتشفتُ حبوباً تساعد على الإسترخاء وعلى النوم..النوم الذي يكاد يكون معجزة بالنسبة لي.. أصبح أرقى هو ليل الناس الساكن الذي يهجعون فيه ليريحوا اذهانهم واجسادهم..ليست هي حبوب منومة بمفعولها، وليس لها اي أثر جانبي ضار.. هي حبوب استرخاء وراحة يعقبها نوم سمح لا كوابيس محرقة رهيبة فيه.

_ لا حبوب مهدئة او منومة ليس لها اثر جانبي ضار على المدى الطويل.

_ بدأتَ تتفلسف " طبيباً! " .. كل الذين اعرفهم قالوا انها نوع جديد مريح ولا ضرر فيها.. إنه (الروهيينول).. كنت أتناول نصف حبة كل مساء، وحين وجدت تأثيرها السحري وعدم وجود اي اثر جانبي، بدأت أتناول حبة كاملة كل ليلة.. ومن اليوم، نصف حبة اخرى ستساعدني في قبيلولتي ايضاً."

تذكرتُ حوارنا عام ٦٥.

كانت حبوب (الروهيينول) مسموح بتعاطيها آنذاك بوصفة طبية.. غير أنه في بلد مثل جيكوسلوفاكيا يلعب فيه الدولار والـ(التوزيكس) دوراً كبيراً في أي تعامل غير مشروع، فقد أخذت هذه الحبوب طريقها المخدر – والمهلوس، الى الشباب المنفلت.

ما أن علمت بمطارق " النذل " على الحمد، حتى تعرفتُ على " النذل " الذي حذرته منه عام ٦٥، حين كنت اعمل طبيباً في ضاحية من ضواحي براغ وحيث كنت اعيش اياماً حلوة مع الحمد المهدي. لم يكن ذلك " النذل " إلا آثار حبوب (الروهيينول) اللعينة تضاف اليها لعنة جرائم الطاغية التي تلاحقه، وترافق آثار نذله.

قابلني اخصائي النفسية الكبير ومستشار الرئاسة الطبي، لا فيعيادته او مستشفاه بل في بيته الجميل الأنيق بعد ساعة من اتصالي بالأستاذ (ابو سليم).

لم يتجاوز منتصف الأربعينات..جميل المحيّا، طلق الابتسامة، وافر الكرم والترحاب. على فنجان قهوة وحلوى سورية مجففة، شرحت له ظروف علاقة الحمد بحبوب

" النذل " واثارها الأنذل، بعد اكثر من عشرين سنة على تناوله لها. أوضحت له مخاوفي، من خطوة الحمد التي ينوي اتخاذها.. إنه سم " النذل " وجرائم الطاغية، ممزوجا بعسل الحنين -المريـر- للعودة الى الوطن..مزيج لا تُعرف عواقبه، إلا إنها ستكون حتماً، ألـعن من طرقات "النذل" المنهكة.

_ حالة صعبة يا دكتور صفاء!.. حلها لا يُنجز في يوم او أسبوع تقضيه مع الحمد في عمان..

_ لي بعض العلم بذلك.. جئتك مستعينا للحصول على أي دواء له أثر في أن يبعده ساعات او أيام عن قراره برمي نفسه الى التهلكة، أي العودة الى قفص صدام الكبير.

سرح الرجل العالم في أجواء الغرفة الصامتة لحظات.. ارتشف بقايا
فنجان قهوته.. استرخى على مقعده مغمضا عينيه لحظات اخرى..
كنت اراقبه من مكاني بصمت وترقب خاشع..
لاحت على وجهه ابتسامة خفيفة.
.. نهض الى دولا ب زجاجي كبير في غرفة الطعام اللصيقة بصالة
الجلوس، وعاد بقنينة صغيرة:
_ هذه برشامات لو اقنعتته بتناولها كان خيراً، أو أن تضع مسحوقها
الدوّاب غفلةً في اي وعاء يشربه او يأكل منه.. مرتين في اليوم.. ليس
فيها أي أثر ضار إطلاقاً في استعمالها المحدودة، قد يبعد عنه مطرقة
" النذل " لوقت قصير يكون فيه مجال للوعي والمنطق.
.. آنذاك انت وقدرتك في مناورة الاقناع.
..حين تعودان الى هنا انشاء الله، ولي رغبة وشوق أن أراه عن قرب،
سنبدء بعلاج قد يكون طويلاً.
.. انها الخطوة الاولى يا صفاء.. " مسيرة الالف ميل تبدأ بخطوة
واحدة "

في الضيافة الملكية اللّريمة في عمّان

كان لقاء الحمد كما عهدته حمداً او مهدياً، حلوا جذلاً متحفظاً عن كل احتضان او قبل او كلمات عاطفية طنانة رنانة او متسترة.

قبّلتُ كفه ووضعتها على رأسي كما هي طقوسي في كل لقاء معه، حتى لو كان هذا اللقاء بعد ساعت عما قبله..
قبّلتُ خده.

اعتدل وانتصبت قامته منتشسيا بصمت.

كانت هنالك جبهتان في عمان، غير جبهة عمان المحترفة بكرم وسخاء وأريحية عربية صميمة والداعية له بالاقامة في ربوعها. ووفد، رافد وحميد سعيد وادباء عراقيين، قدموا لدعوة المهدي الحمد.. وجبهة دون أتباع او حواريين.. جبهة صفاء الإنفرادية. دعى الحمد الكبير، زعيميّ الجبهتين الشقيقتين الى مائدة عشاء في الفندق الفخم الذي ينزل فيه في عمان..

تأخر في النزول إلينا بعد قيلولته؟

أنا ورافد نجلس متقابلين في انتظاره.

دخل رافد في الموضوع الرئيس القادم من أجله:

__ ما الذي يُضيرك أن يعود والدنا الى بغداد؟!.. هم ينتظرونه هناك بأكبر ترحاب، وهو بأعظم شوق كما في كل حياته الى بلده وناسه.. لقد أعطيتُ كافة الضمانات، أن قدمه وحده كافٍ لذلك الترحاب والإعزاز من قبل كل المسؤولين وأعلام بالذات.. وتعرف من أعني! يكفي قدمه لأسابيع او حتى لأيام، مع ضمان انه سيدخل من بوابة عمان، ويخرج متى ما أراد من اية بوابة يريدتها في العراق.

_ عن أية ضمانات وكلمات شرف تتحدث يا رافد عند صدام وعصابته.. ولنفترض أنهم فعلاً لن يمسنه بسوء مباشر، وقد يفتحون باباً من ابوابهم المغلقة بإحكام الاقفال لخروجه.. لنفترض ذلك. دعني أخبرك، ولا بد انك قد عرفت من اختنا مليكة وغيرها من المقربين، أن والدنا يعاني من مشاكل نفسية، وقصة " النذل " لم تعد خافية على المقربين.

سأعطيك صورة عما يمكن أن يحصل له بعد التكريم والوفادة التي تتحدث عنها في بغداد حال قدومه:

".. ربما سينزله القائد المنتصر في احسن قصوره على دجلة.. بعد ايام لا غير وحين يخرج الحمد متنزّها على ضفاف دجلة، او الى لقاء مع محبيه، او ندوة تقام، سيرسل القائد نفسه فلولا من (زعاطيط وهتائيت) عصابته تصفق وراء الحمد:

هيه هيه!.. هيه مْخَبِل!.. هي هيه مْخَبِل!! "

الا ترى ذلك ممكناً؟.. هل ترضى بذلك؟!

انتفض رافد وكأنه لُسع بتيار كهربائي.. أحمر وجهه وتندت عيناه وهز رأسه بشدة:

_ أبداً!.. لا أبداً.. لا أبداً!!

_ إذاً انتهى النقاش في هذا الموضوع.. دعنا نتلذذ بقدر بيرة الضيافة الملكية الرائعة حتى يحضر الحمد الكبير.

قَدِمَ الوالد.

كان في أروع مظهر له من الصحة والنشاط ومعالم المزاج الرائق، ناهيك عن أناقته الدائمة في ملبسه. (هو في استراحة موقنة من طرقات "النذل" الذي يخشى الأماكن العامة.)

سَرَتْ همهمة وإشارات ترحيب من الجالسين في مطعم الفندق البالغ الفخامة الواقع فوق رابية جميلة من روابي عمان.

دار حديث كان الحمد يروي فيه لقطات من القاهرة التي يعشقها ولقاءاته بالعديد من أصدقاء قدامى له هناك.. تخلل الحديث قفشات مرحة عن جليسيه " الاستاذ " والـ " الدكتور".

..لم يتطرق ولم يُلمح لـ " الأستاذ " الى غرض قدومه مع وفد بغداد.. ولا " الدكتور " عن دوافع مجيئه العاجل من بلد الدائرة القطبية الى عمان.

غادر رافد بعد العشاء الى الفندق الذي ينزل فيه مع وفد بغداد. حين كان الحمد مُنشغلاً بالنظر الى وجوه غيد حسان في مجلس غير بعيد عنا، أخرجت برشامة حفظتها في جيبي لهذه اللحظة، وقبل أن اضع محتوى مسحوقها في قذح البيرة أمامه إنتبه الى البرشامة التي أمسكها بين أصابعي.

_ استاذنا الحبيب الغالي.. هذه القطعة المسحورة الإسكندنافية الصغيرة من مستشفى (هانس كرستيان اندرسن) الأسطوري، قد تفيد صداعك وأرقك.

بادرت وأبدلت وضعي وكأني أقدمها له، لا لأدسها في كأسه..

نظر الي بابتسامة نصف ساخرة:

_ خلىنى أشوف وُحدة من الأعيك الجديدة.. جيبْ وبعد " دكتور! " ..
كول!

_ كابسولة وحدة مرتين باليوم صبح ومسا..كم يوم وسترى تأثيرها المريح!

تَنَاولَ الكَابِسُولَةَ الصَّغِيرَةَ مَعَ جَرَعَةٍ مِّنْ قَدَحِ الْبِيرَةِ أَمَامِهِ.
بَدَأَتِ الْحَانُ هَادِنَةٌ رَاقِصَةٌ مِّنْ عَازِفِ الْبِيَانُو وَالتَّرُومِيَّتِ تَهْمِسُ فِي
أَجْوَاءِ الصَّالَةِ الَّتِي خَفَّتْ فِيهِ الْإِنَارَةُ.
.. نَهَضَ عِدَّةُ أَزْوَاجٍ مِّنَ الرَّاqِصِينَ إِلَى سَاحَةِ الصَّالَةِ الْوَسْطِيَّةِ.. أَشْرَتْ
إِلَى النَّادِلِ لِحُلْبِ كَأسِينِ أُخْرَيْنِ مِّنَ الْبِيرَةِ.
مَدَّ الْحَمْدَ قَدَمِيهِ وَأَرخَى بَدَنَهُ فَوْقَ مَقْعَدِهِ الَّذِي أَدَارَهُ، لِيُوَاجِهَ سَاحَةَ
الرَّاqِصِينَ.

تَكَرَّرَتْ جَلِيسَاتُنَا فِي أَفْطَارِ الصَّبَاحِ وَفِي (لُوبِي) الْفَنْدُقِ مَعَ فَنْجَانِ قَهْوَةٍ
فِي الضَّحَى وَمَعَ قَدَحٍ فِي الْمَطْعَمِ بَعْدَ الْعِشَاءِ.. طَعَّمْتُ الْحَدِيثَ خَلَالَهُ
بِبَعْضِ الذِّكْرِيَّاتِ الْحَلْوَةِ مَعَهُ فِي دَمَشَقٍ.. عَنِ شَوْقِي بَغْدَادِي وَبَلْبِهِ
الصَّغِيرِ مُحَمَّدِ الْحَرِيرِيِّ، خَرْتَيْتِي التَّكْوِينِ، الشَّاعِرَانَ اللَّذَانَ يُحِبَّانَهُ حُدَّ
الْعِبَادَةِ وَيُبَادِلُهُمَا صَدَقَ الْمُحِبَّةَ، عَنِ مَقَاهِي الْمَزْهِ، عَنِ شَلَالَاتِ (بُو
زَاد).. وَعَنِ تَنَاولِ فَاقْهَةِ الصَّبَّارِ الْمُنْتَلِجِ بَعْدَ مَنْصَفِ اللَّيَالِي فِي سَاحَةِ
شَارِعِ (أَبُو رِمَانَةَ).. طَعَّمْتُ هَذِهِ اللَّقَطَاتِ بَيْنَ سَلْسَلَةٍ مِّنَ الْإِحَادِيثِ
الْمُتَفَرِّقَةِ خَلَالَ يَوْمَيْنِ..
لَمْ يَطَّلِ إِنْتِظَارِي كَثِيرًا.

_ لقد ارسلتُ بيد مرافق مكلف بشؤوني في عمان، رسالة شكر وافية الى ديوان صاحب الجلالة هذا الصباح، مثنياً ومعتزراً فيها بضيافته الكريمة والحفاوة التي قُوبلت بها، ومعتذراً عن نية الإقامة الطويلة في عمان.. لقد حددتُ مغادرتي الى دمشق صبيحة الجمعة القادمة.

_ خبر جيد يا أبي.. إنه مكانك وصدقاتك هناك منذ ستة عقود!!.. نهضت من مقعدي المجاور في (لوبي) الفندق وقبّلت رأسه.. " سيبتعد عن محاولات الجبهة الثانية التي تستغل شوقه، ضعف عمره، ومرضه ليسقط في شباك الوفود المتقاطرة الى عمان.. و منها الى قفص الزعيم (المنصور ابداء) " .

اطلعتُ زيداً، الذي وصل قبل ساعات الى عمان ليطمئن على الوالد وعلى مهمتي معه.

_ ساغادر بعد ساعتين من الاستراحة عائداً الى دمشق لأزف الخبر وأهيء مكانه في قصر الضيافة، وساكون مع أبي وسام (سائق القصر) في انتظاركما عند الحدود الاردنية السورية بعد ظهر الجمعة.

رَنّ جرس الهاتف في غرفتي مساء يوم الخميس كان على الخط مدير
الفندق

_ مرحباً دكتور صفاء.. تلفون الوالد لا يجيب وأنا قادم برفقة الاستاذ
نائب رئيس الديوان الملكي الذي شرفنا بحضوره ليقابل والدكم
الكريم.. دقائق وساوصل سيادته الى غرفة الوالد.

سارعتُ الى غرفة والدي لأجده غارقاً في إغفاءة قيلولة عميقة.. إيقاظه
كارثي!

وقفت عند باب غرفته منتظراً قدوم نائب رئيس الديوان الملكي.

حضر مع مدير الفندق الذي قدّمني اليه:

- دكتور صفاء.. ابن الحمد الكبير!
رحبْتُ بحرارة برجلٍ في الاربعينات من العمر، أقرب الى القصر،
بملايس أنيقة سوداء، باسم الوجه جمّ التواضع.

..إعتذرتُ له، عن إغفاءة الحمد في قيلولته المقدسة، التي يصارع حتى
يتمكن منها..

.. عرضتُ عليه أن يشرفني في غرفتي فاعتذر بالمهام الكثيرة التي
بانتظاره.

_ جنّتُ من مقام صاحب الجلالة الحسين حاملاً هدية متواضعة من
جلالته للحمد الكبير..لقد جاءت مغادرته مفاجئة لنا، نأسف عليها
جميعاً.

.. سلمني الهدية الملكية الثمينة.

.. شكرته ورجوت، نقل شكر الحمد وشكرنا جميعا على الضيافة والحفاوة الفذة من صاحب الجلالة الملك حسين رعاه الله، ومنكم شخصيا، ومن جميع المحافل الاردنية التي أولته اهتماما ورعاية خاصة .. الرعاية التي لا تقدم إلا من الملوك الهاشميين الأكارم، والتي لم يحظ بها شاعر او أديب من قبل.

توجه الأستاذ نائب ديوان الرئاسة بتساؤله اليّ.. احسست من خلاله صيغة عتاب لي شخصيا:

_ لِمَ عليه أن يغادرنا يا دكتور صفاء؟! .. هو في قلوبنا وعيوننا.. أي شيء يريده سيكون أمامه.. لم نُقصّر في أي شيء معه.. إنه الأعز بين ضيوفنا.. لِمَ يا دكتور؟

_ استاذي الفاضل.. اني اعرف كل الحفاوة البالغة التي قوبل بها الحمد الكبير عند قدومه الى بلدنا العزيز الأردن.. لقد تحدثت بها كل الناس.. سمعتُ بها وباصدائها وانا قرب الدائرة القطبية المنجمدة.. سمعت بالاستقبال الباهر، بالسام الملكي الرفيع، بالقصر الذي هُيء له في ضاحية من ضواحي عمان الجميلة.

(لم يقم فيه الحمد طويلا فقد طلب من وزير الاعلام الاردني بعد وقت قصير، حمايته من " النذل " الذي يتعقبه ومغادرة قصر الضيافة الجميل، لاستمرار " النذل " في ملاحظته هناك، مستغلا عزلة الريف، ليُمعن في تعذيبه وليشدد طرقاته ترددا وجِدّة)

واصلت حديثي وشكري:

_.. وها هو يا استاذي الكريم، ينزل وينزل كل من معه ومن يقيم اليه، ضيوفا أعزة كرام، في أفخم فندق من أجمل رابية في عمان.. وها أنا ارفل امامكم معه في ضيافتكم الفريدة.. ضيافة صاحب الجلالة

الحسين أطال الله في عمره وجاهه.. واقسم لك سيدي واستاذي الفاضل أن ظروفه الصحية النفسية، التي اعرف الكثير عنها، ستكون احسن حالا في دمشق، لوجود شلّة كبيرة من اصدقاءه وصحبه، شعراء وادباء عاشرهم والتأم بصحبتهم لعشرات السنين، منذ شبابه الاول. ولا شيء آخر غير ذلك ابداء، والحمد سيحفظ جميل ضيافتكم وحفاوتكم مدى العمر، اليس هو القائل من كل قلبه:

" أجازي بالجميل جميلا "

خفت بعض معالم الأسي في وجه الاستاذ نائب رئيس الديوان الملكي، وإن لم تنزل كلياً.

.. " بعض القناعة ممزوجة ببعض من شك وعتاب.. لي أنا، وليس للحمد الكبير! "

كانت حفاوة المغادرة لا تقل عن حفاوة الاستقبال..

كان في انتظار الحمد عند بوابة الفندق الافخم في عمان ثلاث سيارات..

.. سيارة الديوان الملكي الكبيرة السوداء وسيارتان خاصتان لإستقبال وتوديع الضيوف، امامها وخلفها.

نزل الحمد وانا بصحبته يرافقتنا الشخص الموكل باموره في عمان ومدير الفندق.

ترجل الاستاذ نائب رئيس الديوان من السيارة وصافح الحمد..

.. احتل الحمد المقعد الامامي وجلست مع الاستاذ النائب في المقعد الخلفي.

انطلقت زمورات السيارة الامامية المرافقة وأضويتها المتلامعة وهي تقود المسيرة..كانت سيارة المرافقة الخاصة الثانية تسير خلفنا.

.. درنا بعضاً من شوارع عمان الجميلة قبل أن ننطلق الى الحدود.

نائب رئيس الديوان الملكي ينظر إليّ بصمت بين الحين والآخر، معاتباً هذه المرة لا شبه معاتب.

كان زيد وسيارة قصر الضيافة الرئاسي في انتظارنا عند الحدود السورية.

عودة إلى ضيافة الرئيس الأسد

(استراحة قصيرة)

لم تدم استراحة الحمد من طرقات النذل، إلا لفترة قصيرة..

اخصائي النفسية الرائع الشاب، إختطفه سرطان البانكرياس سريع الفتك، الذي لم يعطني حتى فرصة لشكره على ما اسداه..

كان اللجوء الى الصديق القديم للجواهري ولزميلي في العمل في اذاعة موسكو، حين هرب من وحدة سوريا (الساداتية، لا الناصرية)، الدكتور الرائع (شفيق ارشيدات).

كان اللجوء إليه في محاربة " النذل " الصعبة، مُسكِّناً لا شافياً.. ف" مُغنية الحي لا تُطرب "!!

استقبله الحمد صديقا أكثر منه طبيبا.

لم يتناول علاجه بشكل جدي.. ترك العلاج بعد حين.

بدأ " النذل " يطرق من جديد...

بدأ يبحث عن وسائل جديدة في الهروب.. (هروب داخلي).. لا هروب الى دول اخرى.. هروب صمن سوريا نفسها.

كُلفنا!! فقمنا بجولات أنا وزيد و ابو وسام (سائق القصر) المقرب، للبحث عن (شاليه) في اللاذقية على السواحل، " في بقعة يسهل بها رصد " النذل " الغريب الطاريء على المنطقة " فيما لو تبعه الى هناك..

هرب الى الساحل والشاليه اول مرة..

لم يكمل مدة هروبه للمرة الثانية الى المنتجع الجميل على البحر..

..لقد اخترق " النذل " حواجز الترصد!!

لم يعد الحمد الى (الشاليه) مرة اخرى.

أخذ الطرق يتواصل فوق راسه حتى في سويغات يقضيها في صالة الجلوس بين بعض أهله..

يبدأ هروب جديد بين الحين الآخر، بين قصر الضيافة وبين(مستشفى الشامي)، مرجع الرئاسة والصفوة في الأمور الطبية..

" الحراسة الاستثنائية وجمهرة العاملين من الإختصاصيين والخبراء، والرعاية الحنونة الخاصة بي هناك.. ستبعد النذل وطرقاته عني فترة كافية للاستراحة وإن كانت قصيرة "

أيام لاغير، وتُخترق الحراسة.

..لا تعود لا جمهرة العاملين والخبراء ولا الرعاية الحنونة ذات نفع.

يعود الحمد الى قصر الضيافة ليضع رأسه بين الوسائد في غرفته ويقرفص تحت أغطية ثقيلة تخفيفاً للطرق اللعين المستمر.

نسخة أمل مفاتيح للحمد

(إحتفاء وتكريم ورعاية ملكية في المملكة العربية السعودية)

تأتي فرصة النجدة الذهبية..

دعوة لحضور (مهرجان الجنادرية) في المملكة العربية السعودية.

(المهدي شجعه واصرّ على ذهابه):

_ " لن تتجاسر كلاب صدام السائبة على العبور الى المملكة.. ستجد حمايتك من تعقب " النذل " ومطرقته.. هو ملجأك وملجأى.. هذا هي الحماية قد اتتك تطرق بابك.. "

لى الدعوة .

مرة أخرى كانت الحفاوة بالحمد الكبير شيئاً لا نظير له، فمن استقبال كبير له في المحافل والندوات وقصور المحبين وهداياهم، الى التغطية الاعلامية الواسعة، الى المقر الفخم الذي ينزل فيه ومرافقيه، الى تخصيص الاديب والشخصية الاجتماعية والادبية البارزة (الشيخ التويجري) مسؤولاً عن كل شؤونه ومتطلباته.

..الى شي لم يحصل في الدول والممالك العربية في تاريخها المسجل، أن يقوم ولي العهد عبد الله بن عبد العزيز نيابة عن جلالة الملك فهد ليأخذ بذراع الرجل الكبير ليستند عليها في مشيته، وهو يقوده محتفياً به، الى صدر مائدة الوليمة العظيمة المقامة لضيوف المهرجان.

حين فاتح الحمد المسؤولين هناك بموضوع " النذل " المُرسَل لتعقبه وايداعه أينما حلّ، طالبا عونهم في صده وإبعاده.. تفهم المسؤولون الأمر

وما وراءه: ..فبالإضافة الى حماية قصر ضيافته..عُرض الحمد على أكبر إستشاري المملكة النفسيين هناك.

لقد جاوز الحمد المهدي الخامسة والتسعين!.. إستحصل الزمن ضريته من العمر المعاش، من المسيرة الطويلة المثيرة، مسيرة الجذل والعذاب وأضاف إليها ضريبة " النذل " في السنوات العشر الاخيرة..

.. الحمد غير ذلك الحمد حتى لبضع سننوات خَلَتْ.

..يسير منهكا يحتاج لمن يسنده.. ذاكرته الاستثنائية الغرائبية، بدأت تشف .. لا تضعف او تخبو..

شيء محزن أن تراه، وفي آخر ندوة شعرية له، ضمن الاحتفاء الكبير والكريم به في (جدة)

.. يدير رأسه مستنجداً بمراقبَيْهِ الجالسَيْن على المنصة الاحتفالية قربه، كي ينجده ويتذكر احدهما، وإن مطلعاً، أو حتى كلمة من بيت، لقصيدة رائعة شهيرة، كان أن طلبها أحد الحاضرين ..

شيء يبعث الأسى حقا!!..

يا للمأساة حتى الحمد المهدي الكبير..الكبير! يفترسه الزمن على مرأى محبيه!!

" إيه دنيا!! "، أسمعها منك حتى في أزمان جبروتك.

يا للزمن " النذل "، الذي لايرحم.

كان صمتاً صعباً على الحاضرين، في إحراج الشيخ الكبير المُنهك، أكثر من صعوبته على الحمد نفسه..

.. دمدم الحمد بحروف متقطعة.

.. وشوَّش بصوت خافت اطلقتَه شفَتاه المرتجفتان.

بعد فاصلةٍ قصيرةٍ طالت على متابعيه، إنتصب ببذنه.

.. رفع رأسه عاليا وهو يبتسم.

..كان وجهه يعلن لمئات الحضور الجالسِين:

" أنا الحمد المهدي الذي لا يستسلم بسهولة.. لقد انتصرت على
الذكرة.. إنتصرت على الزمن النذل وعلى " النذل " المُطارِد!!! "

انطلق صوته المنتشي:

إن عِرسِي وهي جامحةٌ

فَجَّةٌ نوعٌ من الأدبِ

صفق جمهور الحاضرين كثيرا بحماس وفرح..

أطلق آخرون آهة ارتياح جذلة لانزياح الموقف الصعب.

....

قلت يا هذي لو اخترمت
مفرقي شقين لم أنب
أنا ذا من أربعين خلث
أطعمُ التيران بالذهب
فاذا خفتُ وضعتُ لها
خيرَ لحمي موضعَ الحطبِ.

لقاء بآك.. مَبَاك

بين هروبَات والتجاءَات الحمد المتعاقبة المنهكة، وبين صراعات بعض من حوله في إستغلال وضعه المرضي، وما يحظى به من حفاوة وكرم لامثيل لهما يقدمه الرئيس حافظ الأسد لضيفه، والذي لم يُقدم مثيلاً له لاي ضيف قبله او بعده،.. جاءت انباء مؤسسية، عن مرض فتاك أحاق بشقيقي رافد وقدمه الى عمان.

قدمتُ على عجل الى دمشق والحمد المهدي الكبير، شوقان لم ينقطعاً ولن ينقطعاً ما دام لي نفس باق في صدري..

كيف أخبر الشيخ الذي بدى منهكا ضامرا زائغ العينين في أوقات عديدة؟!

لابد من مصارحته! لقد وضعت هدفاً حال سماعي بالخبر المولم.. أن اضع مساراً لهذا الحدث المؤلم، لابد وان يُفرح ويُفرح كُرب الاثنين، ولوالى حين، رافد والمهدي-الحمد الكبير..

بعد ساعة أو بعض وعلى فنجان قهوة:

_ رافد في عمان!

_ صحيح؟! .. اهنالك مؤتمر صحفي، أم إنها نزهة قصيرة؟.

_ لا.. إنه متوعك.. قدم لبعض العلاج..

_ معناه أن الامر أكثر من وعكة بسيطة يستطيع علاجها في بغداد..

_ نعم.. يحتاج علاجاً متخصصاً غير موجود هناك.

_ يعني ذلك، أن المرض خطير!

_ كل شيء له علاج مناسب في المكان المناسب.

_ لا تظل تدور!! قل ما عندك.. إحكى!!.. مريض!!.. وعكة!!.. علاج مناسب!!.. مكان مناسب!!.. قل إن الأمر خطير.

_ كلمتين لا غير!.. سرطان!.. ودمشق!

- نهض المهدي، أخذ يدور في الصالة بخطوات وثيدة مُطرقا..
استمر بضع دقائق قبل أن يرفع رأسه ويواجهني بتساؤل حاد
ومعاتب ومستغرب:

_ كيف يمكن أن يصل الى دمشق.. إلى قصر ضيافة من شتمه في
صحف القائد الأرعن.. عدة مرات وباسم الأسد الصريح، واضعا اسم
كاتب المقال كاملا.. حتى لو رضوا هنا عن مجيئه، كيف يرضى هو
ذلك لنفسه!؟؟

_ لو عرفوا هنا يا والدي، أن صدام ضيفك، لرحبوا به أحسن ترحيب.
أما عنه فانت تعرف شوقه الذي لا يُجارى لرؤياك وتقيلك.. لا عليك
بالمهنتين، أنا من سأأخذهما على عاتقي.

كنت في عمان عصراً، بعد أن أعلم ابوسليم (مدير مكتب الرئيس) بنيتي في لقاء الاب بابنه البكر، والتكرم بقبول علاجه في (مشفى الشامي).

كان رافد وزوجته قد استأجرا شقة في منطقة هادئة.
كان اللقاء اكثر حرارة من لقاء عمان قبل سنين ثلاث.
في نفس المساء كنت بصحبته الى مواعده في عيادة الطبيب الذي يتابع مرضه..

بعد دفع اجرة المعاينة الباهضة قبل المعاينة، كنا في غرفته.. عرفته بنفسي كزميل مهنة قديم، لم يُعر الامر الأهمية المتعارف عليها في المهنة.. تفحص الرقوق الشعاعية الاخيرة.. تسمع الصدر.. نقر بأصابعه على أجزائه.. تفحص اوعية الرقبة المحقنة.. أوعز الى الممرضة باحضار أدوات البزل.. سحب سائلا من انصباب جنبي أيسر ليرسله التحليل.. طلب فحصاً شعاعيا جديدا للصدر في غرفة لصيقة..

.. سلمني المصور الشعاعي الرق الشعاعي الجديد، لأوصله والمريض، الى الطبيب..

لم أطل النظر في معالم الصورة الشعاعية.. لقد أحدثت الزميل مضاعفات غير مرغوب بها أثناء البزل، (إسترواح صدري.. او بلغة سادتنا الانكليز بين الأطباء المتكلمين Pneumothorax)..
لم ينس الزميل بالطبع، أن يوعز الى سكرتيرته اليافعة، باستلام أجور البزل، والفحص الشعاعي الإضافية قبل خروج المريض.

تميّزتُ غيضاً، أمسكت نفسي عن أن أسب واللعن، لكنني في الشقة وخلال حديث الشاي الذي كان يتناوله بصعوبة، كي لا يختنق او يشرق فيه:

_ اهذه هو تكريمك من سيادة القائد الهمام، الذي وضع على صدرك ثلاثة أوسمة براءة.. اهذه رعاية نخبة المثقفين.. المكرمة من سيادته حفظه الله؟!.. لم يضعك حتى في سيارة إسعاف صغيرة لتنتقلك وأنت المريض المنهك، ركبت سيارة أجرة لا تستطيع فيها مدّ ساقيك لعشرين ساعة، في الوقت الذي تنقل فيه سياراته الكبيرة الخاصة ازبال خدمه.. أنفراً، لامراتب، من مخابراته وأمنه الى عمان، ليأخذوا منها مقاعد الدرجة الاولى في الطائرات في اجازاتهم، ليقضوها هناك مع العاهرات والملاهي في بانكوك، ويعودوا محملين بانفس الهدايا، غير ناسين السراويل الداخليّة المخزّمة المفتوحة من الأسفل لزوجاتهم وعشيقاتهم.

وها أنا ارى اليوم مصير علاجك الباهض بعيني هنا، في الوقت الذي تصرّ فيه على رفضك القدوم الى دمشق!

_ وكيف لي أن أدخل؟!، كيف لهم أن يقبلوا؟!.. ثم كيف تسمح لي نفسي بأن أذهب الى هناك?!..

_ سيرحبون بك أيّما ترحيب.. ستلقى أكبر عناية في واحدة من أهم مستشفيات الشرق الاوسط.. أما كيف تسمح لك نفسك!!.. أنك تزور اباك!!.. الا تريد.. ألا تشفق لرؤية المهدي الحمد؟!..

_ وماذا سيقول الناس?!..

_ طز في الناس الذين لا يتفهمون شوق ابن لابيّه بعد غيبة طويلة.. نعم سيقول بعض من حثالة ذلك، ممن لا حس ولا ضمير عندها.. قد يقولها بعض ممن حولك..

..بعد أخذ ورد، واختناق في الصوت وسعال يحتقن به وجهه، أضطُرُّ فيه الى تركه قليلا، فأخرج لايلاع سيجارة وأخذ بضعة انفاس منها خارج الشقة..

..استجاب للسفر معي الى دمشق..

أبلغتُ زيدا في دمشق بموعد قدومنا.

حَضرتُ شِلةَ عراقيين من صحبه في عمان..

_ شلون تسويها رافد؟!.. شيكولون بغداد!!.. والله عيب!!

أحتقن وجه رافد ونطتُ عروق رقبتَه المنتفخة بدءاً.. إنتابته نوبة سعال كاد أن يخنق منها..

صرختُ بوجه الشِلة:

_ والله انتو ما تستحون، تسمون أنفسكم أصدقاء، جابين لزيارته بمرضه الصعب.. لكُ إنتو شينو، ما بقت غيرة ولا ضمير.. ابن مُشتاق ويريد يشوف أبوه.. لو انتو ما كو جس لا لمحبة ولا لشوق.. يرجع ويموت فدوة الكُم وللقائد.

ثم نهضت واقفا وارتفع صوتي بغضب

_ إنتو شنومين شي؟!.. ما بقة عند الناس لا رحمه ولا ضمير!!

نهض الثلاثة من على مقاعدهم وغادروا على عجل.. لم يحاول لا رافد ولا زوجته من منعهم.

كان زيد وابو وسام في انتظارنا في سيارة القصر في حين وقفت حلفها سيارة إسعاف كبيرة.فضّل رافد ركوب سيارة القصر على الاسعاف المرسله، فقد كانت المسافة قصيرة.. ساعتان لا غير.

ارتقى رافد على المهدي وهو يقف بروبه الـ(دي شامبر)، وطاقيته المزخرفة، المائلة فوق رأسه، منتصباً بنشاط غير معهود، متورد الوجه باسمًا مترقبًا..

احتضنه رافد باكيًا وقبّله من خديه.. ظل المهدي على وقفته دون انحناء واحتضان أو قبّل..

جلس رافد في مقعد قريب دون أن يرفع بصره في وجه ابيه ليتمعن فيه، وعيناه لا تزالان مغرورقتان بالدموع صامتًا.. لم يتزحزح في وضعه الذي جمد عليه، حتى بعد أن جلس المهدي الى مقعد لصيق.

طال صمتها والآخرين في الصالة، حتى التفت المهدي إليه ومال برأسه عليه ليقول بصوت فيه شيء من العبث المرح:

_ اهلا بيك استاذ.. مشتاقون!..

_ وانا أكثر!.. اجاب رافد بعد تمهل قليل ولا تزال عيناه نديتان.

_ رباطك أحمر استاذ!.. ما تبدّل ويّه الزمن.. قالها مماًزحاً

_ كل شي قديم عزيز!.. قال رافد وبدت ابتسامة واسعة على وجهه لم ارها خلال الأيام التي سبقت.

_ هلا بيع بنتي ماجدة.. شكّد؟!.. خمصدعش سنة ما متشاوفين.. لا أكثر سبوطعش.. شلونهم الصغار.. العفو الشباب بان ومحسّد.

_ يبوسون ايديك عمي.

استمر نشاط المهدي وحيويته واحاديثه لفترة ليست بالقصيرة، بشكل لم نر مثله من زمن بعيد.

..حلّت ساعة قيلولته (المُتعبية الإضطرابية)..

.. نقلت سيارة الاسعاف التي حضرت مساءً رافد الى جناح خاص في (مستشفى الشامي).

" أَلَا مَوْتَ يُبَاعُ فَأَسْتَرِيهِ "

لم يبقَ عِنْدِيَّ مَا يَبْتَرُهُ الْأَلْمُ

حَسْبِي مِنَ الْمُوجِشَاتِ الْهَمُّ وَالْهَرَمُ

وَحِينَ تَطْعَى عَلَى الْحَرَانِ جَمْرَتَهُ

فَالصَّمْتُ أَفْضَلُ مَا يُطَوَى عَلَيْهِ فَمُ

لم ينفع كل ذلك الهروب الى الخارج، الى مختلف البلدان التي كان الحمد يلبي دعواتها في الحال، على غير عادته، فلا دعوة اليمن اليمقراطية، ولا مفاتحته رؤسائها لمعاناته، بعد قصيدته الجميلة هناك.

من مَوْطِنِ التَّلْجِ زَحَافاً إِلَى عَدْنِ

خَبْتُ بِي الرِّيحُ فِي مُهْرٍ بِلَا رَسَنِ

من مَوْطِنِ التَّلْجِ مِنْ حُضْرِ الْعِيُونِ بِهِ

لَوْمَطِنِ السُّمْرِ مِنْ سِمْرَاءَ ذِي يَزْنِ

لَا أَتَقِي حَزْرَاتِ الذَّنْبِ تَرْصُدُنِي

وَأَتَقِي نَظْرَاتِ الْأَدْعَجِ الشَّدِينِ

أَتَيْتِكُمْ وَمَنَاعِي فُيْضُ عَاطِفَةٍ

بِهَا يُثَارِ جِنَانُ الْأَفْوَةِ اللَّسِينِ

أَلْقِي عَلَيْكُمْ بِمَا أَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ

مما يَنفَسُ من شَجْوٍ ومن حَزَنٍ
وناقِلِ التمرِ عن جَهْلِ الى هَجْرِ
كناقلِ الشعرِ مَوشياً الى يَمَنِ

مُدوا السِوَاعِدَ لم تَنصَبْ ولم تَلِينِ
تَجَنَّتْ كل جَذورِ العَابِرِ العَيْنِ
كذاك تَنصَهُرُ الثورَاتُ شامخَةً
شَبَّتْ على الغُضْبِ الخَلَّاقِ والمِحَنِ
تَغفُو على الخَطَرِ المَلْتَفِ خَاطِرَتِي
كأَنها نَشوَةٌ العِينِينَ بالوَسَنِ
ما أَرخَصَ المَوتَ عِنْدِي إِذ يَحوُكُ فَمِي
بِما تَحوُكُ بَنَاتُ الشَعرِ من كَفَنِي
وما أَرَقَ اللَيَالِي وهي تُسَلِّمُنِي

يوم النضال، لظهر المركب الخشن

كذلك لم ينفع هروبه، ذي النكبة المريرة، الى لندن، ولا الى نيويورك
حيث ابنته نور، ولا ابوظبي في حائزة العويس.. لا القاهرة ولا عمان
ولا الرياض ..

لم ينفع كل هذا الهروب والإحتماء من إبعاد " النذل " ومطرقته عنه..

بدأ هروب الحمد الى (مشفى الشامي) غير بعيد عن سكنه، يكثر..
وسواءً كان ذلك الهروب الى جناحه فيها، أو الآخر في بيته مندسا في
غرفته، فالحال واحد.

..في المكانين! وسائد واغطية فوق رأسه وجسده المقرص في الفراش
مددما، موشوشا، لاعنا، راجياً ألا يطول ذلك..

.. يقفز بعدها بياس ويأخذ يدور بعينين زائعتين وهو يردد:

" ألا موتٌ يُباع فأشتريه!! .. " ألا موتٌ يُباع فأشتريه " ..

" اين المفر؟!.. كل الامكنة اتى يعرفها والتي لجأ اليها، ترعى لأ
نذلاً " واحداً ممن يوزعهم حاكم سجن العراق التتري، بل أعداداً
كثيرة، يندسون في كل الأمكنة..حتى مصحات جيكوسلوفاكيا القصية
التي كانت مهرباً موقتاً له، لم تعد كذلك.. هم ينتشرون بمطارقهم الآن
في ارجاء البلد الذي عشقته وكان مستجمه وجنته.
.. أوربا!!!.. لقد لاحقني النذل في لندن.

..أمريكا! كان بانتظاري هناك بمطرقته الثقيلة التي هز بها سقوف
نيويورك ووشنطن وديترويت.

.. لا قصر الضيافة وحرسه في دمشق.. ولا حرص المسؤولين في
عمان، ولا نفور المملكة السعودية من كل ما يتعلق بالقائد الأرعن
وازالامه وحرصها على حمايتي حين التجأت اليها.. كل ذلك لم يبعد
أذاه.

..لا مكان لا يمكن لهذا " النذل " عدم اختراقه.. لا سواحل البحر
ولاقمم الجبال ولا الوديان ولا البوادي، حتى المشافي والقصور
الحصينة لا تستعصي عليه.. سينفذ اليها بمطرقته الرهيبة " .

" هنالك بلد اخير لم اضعه في الحسبان!.. بلد سالت فيه الدماء جراء حروب القائد الأرعن.. بلد يضع هذا الذي يرسل انذاله لمطاردتي في مصاف اكبر مجرميه.. بلد لي فيه ذكريات وقصائد في ربوعه ومغانيه.. بلد فيه قبر أخي الأكبر الاديب الذي يفخرون بتراجمه لغزر اشعار نوابغهم.. كيف يفوتني ملجأ أخير مثل ايران؟؟! "

مرت هذه الخاطرة كبارق أمل في ظلمة يأسه.

" ساذهب الى هناك..لكني اكاد لا استطيع السير دون معونة احد برفقتي..من هو الذي سيأتي معي؟؟! "

سارع سالم – قادما من براغ – ليرافقه في زيارته ..سالم رجل موافق .. يعزه الحمد المهدي كثيرا لعفويته وبراعة قلبه.

كان استقبالا حارا وحميما له.. هيئوا مكانا لانقا لاقامته في طهران ومرافقا مترجما له في كل تنقلاته ومقابلاته..

...هرع سماحة خمنائي من باب صالة الاستقبال الضخمة ليأخذ الحمد في احضانه طويلا وليقبله في وجنتيه.

لم يُطل الحمد في احاديث الترحاب وجوابها، وبالمقاطع الشعرية التي استشهد بها خامنائي..سارع وفاتحه بقضية النذل المرسل لتعقبه ومطاردته وتعذيبه لحد الانهاك المميت.

أوعز الرجل الاول في الجمهورية الاسلامية لتهيئة بيت فخم قصي بمنطقة كاملة الحراسة، ليستقر ويستجم وليحُمى الحمد فيها.

إخترق " النذل " ومطارقه المكان الحصين، وتوالت ضرباته بعد ايام
لا غير على احتماء الحمد بملجأه الجديد..

كان يدور ويردد:

" ألا موت يباع فاشتريه "!!.. " الا موتٌ يباع فاشتريه "

.. اخذ الطرق يتزايد شدة وضراوة.. لم تنفعه فيها دورانه بين الغرف
والصالات للإحتماء منه في اية زاوية من البيت الواسع.

كان الطرق يشج رأسه.. " يخترم مفرقه شقين " .

استسلم وعاد الى دمشق خائبا.

الموت معهزة

اليوم هو الثاني والعشرون من تموز ١٩٩٧.

.. لم يبق من عملاق الحمد المهدي إلا " قفص العظام " .

تستفيق من غيبوبتك الطويلة..

.. تحاول النهوض عبثا.

تسرع مليكة الى جوارك.

أمن من حاجة تُلبي يا أبي؟!.. يا للسرور أنك أفقت!!

_ أين أنا؟

_ في دارك بدمشق يا والدي.

_ أين رافد؟

_ عاد بعد علاجه وشفاءه إلى بغداد.

_ أين صفاء؟

_ عاد لعمله في السويد.

_ أين ذو النون أيوب؟

_ في مقر اقامته في فينا.

_ أين خالتك أم سالم؟

_ ذهبت تشتري بعض الحاجيات.

ومتلما بدأ، ينتهي الحوار فجأة..

تضع رأسك كطفل صغير أفاق بعد حلم، فتسائل! وأخذ كفايته من رعاية أمه ودفء صدرها، فعاد الى إغفائه من جديد.

إغفائك المريحة هذه لا تدوم طويلاً..ها هو هاجس " النذل "، يعود لطرقه المتواصل محيلاً رقادك إلى عذاب دائم..تصارعه طارداً بالدمدمة وأنصاف العبارات المبهمة..

تحاول إبعاد ذلك الظالم، الذي لاحقك السنين الطويلة، بالطرق المتواتر كل ساعة وليلة.

تدعوه، مجازاً بـ" النذل ".

لكن لِمَ مجازاً وهو يتابعك يلاحقك العمر كله.

إنه في " المحرقة " وفي " عرث الخطوب " وفي " عدا عليّ كما يستكلبُ الذيبُ " وفي " حظيتُ بشتمك سيد الشعراء " .. وحتى في ثمانيناتك تاتيكَ " مقدعة (العبدة الجبورية) ..

" النذل " لِمَ يتعقبك العمر كله، في عقوق الناس حسب، فقد كان ذلك أيضاً في اذى السلطات، والنظام، والثورة، وفي اذى الاغتراب ومرارة الخيبة.

وما هاجس أيامك الاخيرة، إلا واقع العذاب الطويل الممض والجرح العميق الغائر دائم الالم.

ليس غريباً أن يتحول حشد المعانات هذا إلى هاجس " النذل "، الذي يترصدك في كل منفذ ويطرق عليك كل باب.

يحرملك النوم!!.. ينعص عليك أية إشراقة فرح، من ترحاب الحفاوة
والمحبة التي كنت تتلقاها دوما خارج الوطن في أواخر أعوامك.

إنه يطمر واحات الأمان التي تستكن إليها.. تنتقل فينتقل معك.. تهرب
فيتعقبك.. ترقد في شبه غيبوبة.. ينفذ إليك من الغيب.. لا خلاص منه
ولا معين عليه.

اليوم هو السادس والعشرون من تموز ٩٧.. الوقت مساءً.

تأناً فيسمع أنينك، وتسرع مليكة الى جوارك..

تريد أن تتحرك فتسند جسدك المحموم.

_ الموتُ مُعجزةُ !!

تردها بوضوح اكثر:

_ الموتُ مُعجزةُ !!

آخر آمانيك هي " المعجزة "، المعجزة التي تخلصك من " النذل
".. تتحقق المعجزة وترحل بعد ساعات، صبيحة السابع والعشرين من
تموز.

أمنيتك المعجزة تتحقق أخيراً بعد مسيرة العذاب الطويلة..

ولكن هل توقفت " النذل " عن الطرق؟!!!

فُرِيتْ أَنْسًا لَكَ الْحَرْقُ

لقد أسرى بيّ الأجلُ وطولُ مسيرَةٍ مثلاً

وطولُ مسيرَةٍ من دونِ غايٍ مطمَحٍ خَجِلُ

ها أنا أذرع بخطاي، وعلى غير هدى، أزقة ودروب مدينة النور.. لا أرى النور وتتجب عن أبصاري القباب الذهبية وأطواق الجسور الفارهة، وتمرّ دون أن ألحظ أو أسمع، إلتفاف العشاق على بعضهم وهمسهم المحموم، وهم ينزوون في أركانٍ نصف مظلمة من أرصفة ضفاف السين.

أمرّ دون اكرات، بتلك الكنيسة القوطية الشهيرة غير عابي، لا بأبراجها وأجراسها المتعالية، ولا ملائكتها اللانذين في حمى جدرانها الرخامية المزخرفة، حتى ولا بشياطينها بألسنتهم المدلوقة، وهم يجحظون من علٍ بأحداقهم الحجرية الوسيعة، مادّين بأجسامهم، مطلين ومتحفزين، للقفز من اعمدتهم على افواج السواح المارين بصخب مرح، تحت عرائش حدائقها الجانبية.

أظُلُّ أتسكع دون أن أنتبه إلى أن قرص الشمس الملتهب بالأرجوان، قد أختلطت الوانه، ببريق قبة ضريح نابليون لتخترقها بخشوع، وربما لتنام تحت رخام قبره عارية، بعد ان تركت اوشحتها البنفسجية الزرقاء تسبح في الفضاء المحيط بالقبة الذهبية.

تهبط الظلمة فأواصل ضياعي في الأزقة الملتوية.

الليل طويل منهك!!

أعود متعباً، مُحبطاً، خائباً، الى غرفتي الصغيرة..

أستعد لأرقٍ آخر.

أفرش أحداقي له..

تمر منصات الليل عبر محاجر زجاج النافذة العاتمة.

تخطاني المنصات الحالكة دون أن تنطبق عيناى.

بحارٌ سماوية من غيومٍ تتفاوت شفافيتها وتتشرب بألوانٍ بنفسجية
وزرقاء كابية.

تتساعد من قراراتٍ سحيقة، أبخرةٌ وأوشحةٌ ضبابٍ رماديةٍ متدرجة
العتمة..

يتراءى شبحٌ ظلالٍ لقاربٍ ينسابُ بصمتٍ منحدرًا ببطءٍ مُخترقاً أمواج
وسُتَرَ البحر، الذي اخوض فيه، او أهيمُ على شطآنه.

القاربُ صغيرٌ!.. صاريتُهُ مُحطمةً!.. شراعه مُمزقٌ مُشرشُر!..

معالمُ ضبابيةٍ لشخصٍ يقف فوق مقدمة القارب، وكأنه يريد أن يسبقه
للوصول في اندحاره إلى الشاطئ..

تتوضحُ المعالمُ أكثر..

إنه أنت يا أبى!..!!

يا لله أنت!؟!.. أنت! أنت! أنت! أنت! أنت ثيابك باليةٌ مُمزقة؟!!

أنت ضاوي، مُنهك، منكس الرأس بالهمّ..مخدولاً أنت يا أبي؟!!!

لم أعرفك مخدولاً!

أسألك دون صوتٍ..

صامتٌ أنت لا تُجيبُ..

الألم يهتصرُ قلبي

أخوضُ صوبك في الضبابِ..

أفتحُ عينيّ على الظلمةِ..

ظلمةٌ وصمت!

تلتمعُ الظلمةُ.

ينعكسُ الصمتُ.

أسبح في السكينةِ.

مرحباً بك!..

إطباقه وسنٍ عابرةٌ ثمينةٌ حملتكَ مُبحراً على جفنيّ.

..تعال!.. تعالٍ فضفضُ همومك على صدري!

كرهتَ المنافي؟!..ضِقتَ دَرعا بها؟

يا لقهرِ المنفى!

يا للجنةِ البُعدِ!

يا لوحشةِ العدمِ!

..يا لصمتِ منفاك!

أنهضُ عند الفجر..

أضع الكتان المُهيء فوق الحاملة الخشبية..

أعاملُ مساحاته البيضاء بانفعال وتوتر..

لا أحس بمسالك ضياء الفجر الكابي وهو يدخل بخجل، ولا بخُرم
النور المتلامعة بعده وهي تخرقُ بعناد زجاج النوافذ.

أتوقفُ لحظةً وأنظرُ..

أتملّى بأمعانٍ المساحة التي كانتُ قماشاً.

ها أنتِ، الحمد المهدي أمامي في تسعينياته، فارشاً حدقتيه الوسيعتين
عبر منصات الليل العابرة..

أسمع هديك الشجي الخزين :

فرّ ليلي من يد الظلم

وتخطّاني.. ولم أنم

ها أنا أراك بعد سنين من النأي..

وأَيُّ نأيٍ!!.. نأيٍ العدم !

..كم أنت قريب!

أحسّك كأقرب ما يكون القُرب، بكبرياتك، ورقتك، وحنك الكامن
العميق..

ها أنتَ ترغُبُ في مسامرتي، حيث لا سامر لك في ليلِ الأبدية
الموحش..

تركنُ اليَّ بعد تعبِ سُهَادِ مُمَضِّ، عبر مسيرةٍ طويلةٍ في بحارِ الظلماتِ.
أيها الحبيب!.. كم حطامَ سفينةٍ ركبتُ؟!

كم سِرَاعاً مَرَّقْتُ؟

أيُّ أهوالٍ كابدتُ كي تصلَ اليَّ؟

أُتَشْتاقُ اليَّ؟

يتدفقُ شوقي.

يتصاعدُ ألمي.

تختنقُ حنجرتي بغصّةِ عبرةٍ خانقة.

تسيلُ بصمّتِ دموعي.

تتصاعدُ حسرتي.

يتغرغرُ صوتي.

أسرع لأفتح درفتي الشباك..

أرفع وجهي صوبَ السماء..

.. أنشجُ نشيج من عَرَّ البكاءِ عليه طويلاً..

حدّقتُ في زرقةِ العدم متسائلاً.

لندن 12-02-2022

خِتَام

رواية أخو الطير.. مسيرة الجدل والعذاب، لفلاح الجواهري

علي بدر

هذه الرواية الفريدة من نوعها في تأريخ الثقافة العربية، هي ليست سيرة ذاتية، إنما هي سيرة درامية مؤثرة للشعر والشاعر معاً.

هي سيرة درامية للشعر على مدى وإتساع قرن كامل.. أما الشاعر فهو شاعر كبير عظيم، يظهر بشخصية الحمد.. المهدي او كليهما.

ليست سيرة فكرية، إنما سيرة افكار تتحول الى أحداث وحيات.

هذه الرواية ليست سيرة تاريخية، هي تأريخ آخر، تأريخ مضاد للتأريخ الرسمي، حين تضع هوامش التأريخ محل التأريخ.

هذه الرواية ليست مصادفة، إنما مصنوعة من ترابط مصادفات بشكل متكرر، لا ينتجها شخص واحد، إنما تنتجها أمة، هي الامة العراقية بشخص واحد هو فلاح الجواهري.

هي رؤيا العالم التي تشكل ملحمة حقيقية نادرة جدا لفرع او لجنس أدبي مع شخصية اسطورية عاش حياته كشاعر ربما لاتنتج الامم في التأريخ إلا مرة واحدة.

كتبت هذه الرواية بالاعتماد على الوثائق الشخصية المباشرة، ولم تستغن ابدا عن البنى الخيالية.. هي نتاج الواقع والخيال معاً، هي هذا التداخل المكتوب بشغف واخلاص صريح بحيث لا يتجاوز الخيال

حدوده، ولا يسقط الواقع في ابتذال المعتاد. هذه الرواية المكتوبة بغنائية شديدة تقوم على التأثير، التأثير على القارئ الى حد تمكننا من رؤية الاسطورة وهي متشكلة من مواد وأحداث الحياة.

تستند القصة التي يرويها المؤلف الى مشاهداته نفسه، هي شهادته الشخصية على التاريخ، لكنها لا تظهر كشهادة ابدأ، إنما كفعل فني متقن، كل قطعة فيه تتشكل من موزائيك ملون تبدأ في بداية الفصل وتنتهي بقصيدة من قصائد الشاعر لتتم المعنى وتنقله بصورة بارعة الى حدث آخر ينتهي بقصيدة من معنى الفصل او النص او الحدث، فتتشكل الرواية من متواليات تبدأ بحدث وتنتهي بابيات شعرية، حيث يتم استخدام الاسماء المحوَّرة عن الاسماء الحقيقية ولكنه يجعلها تدور في الوقائع التاريخية الحقيقية، والاحداث المتداخلة، والعهود الكاملة من تشكل الفكرة والخبرة، بحيث لا يظهر المعنى إلا وقد تشكل ناضجاً حياً متدفقاً.

لقد حافظ فلاح الجواهري على عين بريئة، عين مخلوق بريّ في تصوير الاحداث، في تصوير مظاهر المدينة، الحياة السياسية، الحب العميق، الوحشية والانحطاط، الامنيات العظيمة والرغبات الفجة والتافهة، إنها الحياة بكل امتلائها وجمالها وثرائها التي عاشها وهو مسكون بصوت الشاعر الكبير وهو يستكشف حياته التي عاشها واختبرها من خلال صوته النقي والمثير.

ويا أخوا الطير في وريد وفي صدر
في كل يوم له عش على شجر
عريان يحمل منقاراً وأجنحة
أخف ما لم من زاد أخو سفر
خض جناحيك لا تهزأ بعاصفتي
طوى لها النسر كشحيه فلم يطر

هذه الرواية الفريدة من نوعها في تأريخ الثقافة العربية، هي ليست سيرة ذاتية، إنما هي سيرة درامية مؤثرة للشعر والشاعر معا.

هي سيرة درامية للشعر على مدى واتساع قرن كامل.. أما الشاعر فهو شاعر كبير عظيم، يظهر بشخصية الحمد.. المهدي او كليهما.

هي رؤيا العالم التي تشكل ملحمة حقيقية نادرة جدا لفرع او لجنس أدبي مع شخصية اسطورية عاش حياته كشاعر ربما لا تنتج الامم في التاريخ إلا مرة واحدة.

لقد حافظ فلاح الجواهري على عين بريئة، عين مخلوق بري في تصوير الاحداث، في تصوير مظاهر المدينة، الحياة السياسية، الحب العميق، الوحشية والانحطاط، الامنيات العظيمة والرغبات الفجة والتافهة، إنها الحياة بكل امتلائها وجمالها وثرائها التي عاشها وهو مسكون بصوت الشاعر الكبير وهو يستكشف حياته التي عاشها واختبرها من خلال صوته النقي والمثير.

علي بدر..

(من كلمته (خاتمة) - صفحة هذا الكتاب الاخيرة)



سطور
للنشر والتوزيع

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتلبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف : 07711002790 - 07700492576